الدكتور
السيد محمد ديب

امرؤ القيس
بين القدماء والمحدثين

الطبعة الأولى
١٩٨٩ م — ١٤١٠ هـ

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر / القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأستعين به ، وأتوكل عليه ، وأصلي وأسلم على رسوله محمد صلاة طيبة مباركة ، كما أصلي وأسلم على رسله وأنبيائه وملائكته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

لقد كثرت الكتابات عن الشاعر امرىء القيس بن حجر في القديم والحديث على السواء ، وأصبح من تحصيل الحاصل أن تضيف إلى هذه الكتابات مؤلفاً جديداً يذكر ماسبق أن قاله القدماء، وتحدث عنه الكثيرون من النقاد ... كما أنه لايخفى على أحد ممن قرأ الشعر الجاهلي أهمية امرىء القيس — كأمير للشعر والشعراء في عصره — وموهبته التي أقر بها القدماء والمحدثون ، وقدرته على الإبداع والتصوير . وسبقه للشعراء في أمور كثيرة استحسنوها منه ، واتبعوه فيها إلى غير ذلك من الخصائص التي تميز بها ، وتفرد فيها . ولهذا كان التفكير في أسلوب الكتابة عن هذا الشاعر مهماً وضرورياً جداً . وقد كنت أسأل نفسي وأنا في أول الطريق عما يمكن إضافته إلى ماذكره المؤرخون والنقاد ، ورأيت أن القدماء يتفاوتون في أساليبهم ومناهجهم حول شعر امرىء القيس ، كما كان المحدثون أكثر تفاوتاً منذ أثار المستشرقون قضية الانتحال في الشعر الجاهلي ، وتناقلها الدكتور طه حسين ، ونظر إليها نظرة موسعة يجمع فيها بين ماقاله القدماء وماقاله المستشرقون ، وأضاف إلى ذلك رؤيته الخاصة حول الشك في هذا الشعر ، ولم يكن ديوان امرىء القيس بعيداً عن

أتون هذه المعركة التى حمى وطيسها فى العقد الثالث من القرن العشرين . ورأيت — لكل هذه الأسباب ، ولغيرها أيضاً — أن يكون كتابى هذا انطلاقة تكشف فى وضوح وإبانة عن الرؤى الخاصة لمعظم ما كتب عن شاعر كندة فى القديم والحديث .

وليس الهدف من الفصول التاليه أن نجمع بين النقول ، ونجعل منها كتاباً ، ولكننا نسعى إلى إعداد دراسة نقدية نعمد فيهـــا إلى تقديم ما كتب عن هذا الشاعر . لنخرج فى نهاية الرحلة بحصيلة نقدية وأدبية يمكن الاستفادة منها ، والوقوف عندها ، وربما اتبعناها مع شاعر قديم آخر .

ولقد اقتضت طبيعة هذا الكتاب أن يخرج فى ثلاثة أبواب موزعة على أربعة عشر فصلا حسب الترتيب الآتى :

جاء الباب الأول وعنوانه (امرؤ القيس فى حياته وشعره) فى ثلاثة فصول، وكان الفصل الأول عن حياة امرىء القيس التى كنت أظن أنها مليئة بالحب والعبث والمجون والمغامرات ، ثم تبين لى بعد قراءة الديوان للمرة الأولى أن حياته لم تكن إلا سلسلة من الهموم والأحزان ، ولم تخل — فى شعره الصحيح — من التعبير عن أتراحه وآلامه بصورة مباشرة وغير مباشرة .

وجاء الفصل الثانى عن أوليـــة الشعر الجاهلى ، للعلاقة التى تربط امرأ القيس بهذه الأولية ، فقد قيل إنه أول الشعراء ، وإنه سابقهم إلى أشياء كثيرة ، والحقيقة أنه لم يكن أولهم حيث أقر بوجود سلف له فى البكاء على الأطلال مع تعذر البحث عن هوية هذا الشاعر المجهول . أما أن شاعرنا سابق الشعراء إلى أمور ابتدعها ، واتبعوه فيها ، فهى حقيقة تاريخية ونقدية ثابتة لا يستطيع أحد من الشعراء أن ينازعه فيها

أما الفصل الثالث فكان عن شعره الذى تعددت رواياته ونسخه ، واختلفت رؤية المحدثين عنه اختلافاً كبيراً .

أما الباب الثانى فعنوانه (امرؤ القيس فى مؤلفات القدماء) ، وقد انقسم إلى خمسة فصول تختلف فيما بينها طولا وقصرا .

وجاء الفصل الأول عن كتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحى حيث درسنا ما كتبه هذا العلامة القدير عن الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين ، وكان امرؤ القيس أولهم حسب منزلته التى ظفر بها عن جدارة واستحقاق . بينما جاء الفصل الثانى عن كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، وكان امرؤ القيس أول الشعراء المترجم لهم أيضاً فى هذا المصدر القديم . وقد جاء الفصل الثالث عن كتاب (الأغانى) لأبى الفرج الأصفهانى ، وتميز هذا الفصل بما تميز به كتاب أبى الفرج من صبغة تاريخية إخبارية . وجاء الفصل الرابع عن كتاب (الموشح) للمرزبانى الذى ذابت فيه شخصية المؤلف وشخصية امرىء القيس أيضاً بين العديد من النقول النقدية والإخبارية . أما الفصل الخامس والأخير من هذا الباب فكان عن كتاب (إعجاز القرآن) للباقلانى ، وكان هذا الرجل متحاملا على امرىء القيس وشعره ، وإن أنصفه ببعض العبارات التى تاهت فى غمرة هذا التحامل .

ويأتى الباب الثالث والأخير وعنوانه (امرؤ القيس فى مؤلفات المحدثين) فى ستة فصول ، وهو أكبر الأبواب حجماً ، وأكثرها من حيث عدد الفصول ، ويرجع ذلك إلى كثرة الكتابات التى أعدت عن امرىء القيس فى العصر الحديث ، وتفرد الشاعر بكتب مستقلة ترجمت له فى هذا العصر ، إلى جانب الكتابات التى جاءت فى فصول أو أجزاء من بعض الكتب الأدبية . وقد اخترنا من بينها خمسة كتب جعلناها فى خمسة فصول ، حيث جاء الفصل الأول عما كتبه مصطفى صادق الرافعى

كتابه (تاريخ آداب العرب) بينما كان الفصل الثانى عما كتبه الدكتور طه حسين فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) ، وجاء الفصل الثالث عن كتاب محمد صالح سمك (أمير الشعر فى العصر القديم) وهو من أوسع الكتب التى أعدت عن شاعر كندة ، ومن أسبقها أيضا . بينما كان الفصل الرابع عن كتاب (الشوامخ — امرؤ القيس) للدكتور محمد صبرى السربونى ، وهو كتاب مختصر فى حجمه بالنظر إلى الكتب الأخرى ، وإن بحث مؤلفه فيه أكثر القضايا التى تتصل بامرىء القيس . وجاء الفصل الخامس عن كتاب الدكتور الطاهر أحمد مكى (امرؤ القيس حياته وشعره) .

وقد درس أهم القضايا التى تتصل بامرىء القيس وشعره . وجاء الفصل السادس والأخير بعنوان (كتابات أخرى) وعرضنا فيه بإيجاز لأربعة كتب تحدثت عن امرىء القيس ، أما هذه الكتب فهى (تاريخ الأدب العربى) لكارل بروكلمان ، والروائع (امرؤ القيس) لفؤاد إفرام البستانى ، و(تاريخ الأدب الجاهلى — الجزء الثانى) للدكتور على الجندى والكتاب خاص بامرىء القيس إلا من بعض السطور المعدودة التى كتبها المؤلف عن شعراء كندة ومنهم شاعرنا طبعاً .

بينما كان الكتاب الأخير للدكتور شوقى ضيف وهو (تاريخ الأدب العربى — العصر الجاهلى) ثم أنهينا الكتاب بخاتمة ذكرنا فيها أهم النتائج التى وصلنا إليها بعد دراسة كل هذه الكتب المذكورة .

أما منهج التأليف الذى سلكته فى هذا الكتاب ، فلن أتحدث عنه — كما تعودت فى كل ما أكتب ، لأنى أترك ذلك للقراء والدارسين . ولا أحب أن أزكى نفسى أو عملى قبل أن يتصفحه الناس ... أما المراجع والمصادر فقد حرصت على إثباتها فى هوامش الكتاب ، ثم جمعت بينها

فى آخره ... وفى نهاية هذه المقدمة أدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى فى إعداد هذا الكتاب وإخراجه مطبوعاً بالصورة التى يرضى عنها أكثر الذين يطلعون عليه ، أو يتصفحون بعض أبوابه وفصوله .

والله الموفق ، وهو الهادى إلى سواء السبيل ؟

المؤلف
دكتور/السيد محمد أحمد ديب
الأستاذ المشارك بالكلية المتوسطة بالطائف
ص . ب. (١٠٧٠)

الطائف فى يوم الأحد ، الثانى من شهر شعبان عام ١٤٠٨هـ
الموافق للعشرين من شهر مارس عام ١٩٨٨ م

الباب الأول

امرؤ القيس فى حياته وشعره

الفصل الأول : حياة امرىء القيس بين القدماء والمحدثين
الفصل الثانى : أولية الشعر الجاهلى
الفصل الثالث : شعر امرىء القيس

الفصل الأول

حياة امرىء القيس بين القدماء والمحدثين

امرؤ القيس :

ليس الحديث عن حياة امرىء القيس مقصودا لذاته ، لأن هذه الحياة بتفاصيلها مبثوثة فى كتب الأدب واللغة والتاريخ قديمها وحديثها، عربيها وأعجميها ، كما لا آمل من هذا الفصل أن يضيف جديدا لم يتعرض له القدامى والمحدثون . بل إن الموقف الواحد من مواقف حياة هذا الشاعر يؤخذ بأكثر من رواية حتى تضاربت الروايات ، ووصم البعض منها بالانتحال ، وصار الحديث عن امرىء القيس محوطا بالريب والظنون لاعتبارات كثيرة ومتغايرة. ولا يعنينا من الأخبار التى تناولت حياته إلا ما اتصل منها بفن الشعر سواء تحدثنا عنها فى هذا الفصل أم فى غيره من الفصول ، فقد تكلم عن اليوم الذى قضاه بدارة جلجل ، وعن سرقة إبله فى بنى نبهان ، وعن قتاله لبنى أسد وعن رحلته إلى القسطنطينية ، وعن أمور أخرى كثيرة ،

فأبو الفرج الأصبهانى — وهو واحد من القدماء — يعتمد فى حديثه عن امرىء القيس على الروايات المتعددة ، والتى تختلف فى بعض الأمور ، وربما أضاف إلى بعض الروايات شيئاً من شعر امرىء القيس ، فتقوى بذلك رواية على أخرى ، ولنأخذ حديثه عن مقتل حجر بن الحارث (والد الشاعر) مثالا على ذلك .

أما المحدثون فقد تعاملوا مع هذه الروايات بحــذر شديد ، فهم

يخضعون الراوى لمقاييس الجرح والتعديل ، ويحاول بعضهم التنظير بين الروايات العربية وكتب الأعاجم القديمة ، وقد أفاد الشعر بعض الروايات على حساب الأخرى ، وظهر الوضع أو الانتحال كقضية خطيرة فى التراث التاريخى والأدبى ، فتأثرت — مثلا — بعض الروايات التى نسبت إلى ابن الكلبى لاشتهاره بكثرة الوضع والتلفيق .

ونؤكد أن الحقيقة صعبة المنال ، وتحتاج إلى بحث وجهد وتأن ، كما أنه لا يقبل إطلاقا عند التأريخ لشاعر كامرىء القيس أن يكون جل الاعتماد على الشعر ، فلم تكن وظيفة هذا الفن فى يوم من الأيام أن يكون بوقا للحوادث أو صحيفة لوقائع الحياة .

وتتمحور هذه الإشكالية حول العديد من الروايات القديمة التى تحدث فيها الأدباء والمؤرخون عن حياة ذى القروح ، ولا نظن أن أمرا واحداً فيما يتصل بحياته أمكن التسليم به والإقرار بصحته . فقد تعددت الروايات حول اسمه ونسبه ولقبه وكنيته وكثر الاجتهاد فى تحديد سنى حياته ووفاته ، واختلفت الأخبار التى اتصلت بنشأته المبكرة إلى أن اكتمل شبابه ، وبدأ فى توجيه فنه إلى النساء ، وتصاحب على مجموعة من الصعاليك الشذاذ . كما أن معظم أخباره عن المرحلة الأولى من حياته قد استقاها المؤرخون من شعره ، فإذا وصم بعض هذا الشعر بالوضع فلابد أن تنسب الأخبار المستقاة منه إلى الوضع أيضاً .

وتتناول الروايات المتعددة والمختلفة أيضاً تفاصيل حياته عند مقتل أبيه ، وسواء حضر الشاعر تلك النهاية أم كان بعيداً عنها ، فالنتيجة واحدة وهى أن امرأ القيس تحمل عبأ استرجاع الملك ، والثأر لأبيه والانتقام لقبيلته .

حياته الأولى :

أقل ما يقال فى نسب امرىء القيس ما ذكره الأصمعى، ونقله كثيرون من بعده كابن قتيبة فى الشعر والشعراء، وأبى الفرج فى الأغانى أنه : امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن معاوية ابن ثور وهو كندة، ولامرىء القيس أسماء كثيرة مثل حندج وعدى ومليكة وسليمان. أما ألقابه فكثيرة أيضاً وأشهرها امرؤ القيس الذى عرف به، كما يلقب بالملك الضليل وذى القروح، ويكنى بأبى وهب وأبى زيد وأبى الحارث. وإياه عنى الفرزدق بقوله :

وهب القصائد لى النوابغ إذ مضوا
وأبو يزيد وذو القروح وجرول(١)

ومعنى امرىء القيس وهو اللقب الذى اشتهر به شاعرنا : رجل الشدة، وقيل إن القيس من أصنام الجاهلية : ولكن لم يرد اسم لهذا الصنم فى كتاب الأصنام لابن الكلبى مما يضعف من هذه الوجهة التى أريد منها جعل الوثنية هى الديانة لهذا الشاعر. ولم يكن هذا اللقب خاصا بامرىء القيس ابن حجر بل شاركه فيه العديد من الشخصيات المعروفة فى العصر الجاهلى.

وقد ولد بأرض نجد فى ديار بنى أسد فى أول القرن السادس الميلادى. وأمه من قبيلة تغلب المعروفة، وأسمها فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير أخت كليب والمهلهل، وقيل فى رواية يتيمة : إن أمه هى تملك بنت عمرو بن زيد من مذحج أى أنها يمنية وليست عدنانية.

---

(١) أبو يزيد : المخبل السعدى، ذو القروح : امرؤ القيس : جرول : الحطيئة.

ويعد امرؤ القيس أصغر إخوته ، أما أكبرهم فهو نافع، وبين الاثنين أولاد كثيرون مجهولو التسمية ، وله أخت تسمى هند ، وقد انحازت إلى عوير بن شجنة بعد مقتل حجر حيث ارتحلت إلى أخيها امرىء القيس بأرض اليمـــن .

وذكر المحدثون أكثر من تاريخ لولادته منها عام ٤٩٧ م(١) وعام ٥٠٠ م(٢) وعام ٥٢٠ م(٣)

وفى شعر امرىء القيس مايدل على طبيعة الحياة التى نشأ فيها بديار بنى أسد إذ جمع بين الترف واللذة والمتعة ، كشرب الخمر ، ومصاحبة الشذاذ من القبائل وسعيه إلى الصيد وإنشاده للشعر واستماعه للغناء من بعض القيان وتغزله بنساء القبيلة وفتياتها ، وكم من مرة نهاه أبوه فيها عن قول الشعر ، ولكنه لم يستجب حتى طرده من ديار بنى أسد إلى أرض اليمـــن .

وتعود أسباب الخلاف الرئيسية بين الشاعر وأبيه إلى أمور كثيرة، فقد كان حجر مشغولا بأمور الملك وتبعة الرئاسة بينما تحول الشاعر إلى حياة العبث والمجون وكم من مرة أراد فيها والده النجح له ، ولكنه لم يوفق ، فقد صرفه إلى رعى الإبل والخيول ، ثم وجهـــه إلى رعى الغنم فكرهها وانصرف عنها ، ثم كان الطرد إلى خارج ديار بنى أسد . ويقال إنه خرج إلى عمه سلمة بن الحارث الذى كان ملكا على قيس غيلان بشرق نجد ، أو انتقل إلى دمون ذلك الجبل الشامخ فى أرض اليمن.

---

(١) ذكره الزركلى فى كتابه (الأعلام)
(٢) ذكره جواد على نقلا عن كتاب (أوليندر) (OLINDER)
(٣) ذكره لويس شيخو فى كتابه (شعراء النصرانية)

لكن أين كان امرؤ القيس وقت مقتل أبيه؟ تقول رواية للهيثم بن عدى إنه كان حاضرا وقت المعركة التى نشبت بين والده وبنى أسد ، وعندما أحس بانهزام قومه فر على فرس له شقراء وتمكن من النجاة .

وجاء فى رواية أخرى للهيثم أن امرأ القيس لما قتل أبوه كان غلاما قد ترعرع ، وكان فى بنى حنظلة بأرض اليمن فى موضع يسمى (صيلع) وهو كثير الوحش والظباء ، فلما بلغه ذلك قال :

يالهف هند إذ خطئن كاهلا   القاتلين الملك الحلا حلا
تالله لا يذهب شيخى باطلا   ياخير شيخ حسبا ونائلا
وخيرهم — قد علموا — فواضلا   يحملننا والأسل النواهلا
وحى صعب والوشيج الذابلا   مستثفرات بالحصى جوافلا(١)

وروى ابن الكلبى أن امرأ القيس كان بدمون من أرض اليمن عندما وصله خبر مقتل أبيه جاء به رجل يقال له (عامر الأعور) فلما أتاه ، قال:

تطاول الليل علينا دمون
دمون إنا معشر يمانون
وإننا لأهلنا محبون(٢)

ثم قال : ضيعنى صغيرا ، وحملنى دمه كبيرا ، لاصحو اليوم ولا سكر غدا ، اليوم خمر وغدا أمر ، ويقال إن الرسول الذى جاءه بالخبر وجده يلعب بالنرد فلم يفسد عليه دوره إلى أن انتهى منه فسأله امرؤ القيس عن أبيه فأخبره بمقتله فقال : الخمر على والنساء حرام حتى أقتل من بنى أسد

(١) أبو الفرج ، الأغانى جـ٩ صـ٨٦
(٢) الديوان صـ١٤٠ وأبو الفرج ، الأغانى جـ٩ صـ٨٨

مائة وأجز نواصي مائة وهكذا تعددت الروايات عن الجفوة بينه وبين أبيه يمثل تعددها فى ذكر الموضع الذى تواجد فيه شاعرنا ابن حجر أثناء مقتل والده .

وإذا كانت رواية الهيثم بن عدى التى تقول بتواجده مع والده فى المعركة الأخيرة مؤيدة بشعر عبيد بن الأبرص الذى كان معاصرا لهذه النهاية ، وشاهدا على أحداثها حسب استشهاد البعض به ، فإن رواية ابن الكلبى مع تجريحه مؤيدة أيضا بشعر لامرىء القيس نفسه فضلا عن اتساقها مع ما يعقبها من أحداث .

أما الروايات الأخرى فتفتقر إلى الحجج القوية التى تتجاوز حدود الاجتهاد إلى اليقين .

وقد حرص القدماء على ذكر كل الروايات التى تتناول هذه المرحلة من حياة امرىء القيس ، بدون أن يفاضلوا بين رواية وأخرى ، بينما حرص المحدثون على تعقب هذة الروايات ، والموازنة بينها ، واختيار المتلائم مع الشعر منها ، وربما رفضوها رفضا كليا كما حدث من الدكتور طه حسين .

حياته الثانية :

عاش امرؤ القيس بأرض اليمن يقاوم أحزانه ، ويتحسر على حاضره ومعه جمع من رفاقه وقيانه ، حتى جاءته أخته هند عند وادى عارض ، وفى صحبتها ما تبقى من ميراث حجر ، وأهم ما كان معها الأدرع الخمسة التى يتوارثها بنو آكل المرار ملكا عن ملك وهى : الفضفاضة والضافية والمحصنة والخريق وأم الذيول . ..

وذكر أبو الفرج فى رواية عن الهيثم بن عدى أنه لما قتل حجر انحازت بنته وقطينه إلى عوير بن شجنة فلما كان الليل حمل هندا وقطينها، وأخذ بخطام جملها ، وأشأم بهم فى ليلة ظلماء مدلهمة ، ثم رمى بها النجاد حتى أطلعها نجران وقال لها : إنى لست أغنى عنك شيئا وراء هذا الموضع ، وهؤلاء قومك ، وقد برئت خفارتى، فمدحه امرؤ القيس بعدة قصائد منها قوله :

ألا إن قوماً كنتم أمس دونهم
هم منعوا جاراتكم آل غدران

عوير ومن مثل العوير ورهطه
وأسعد فى ليل البلابل صفوان

ثياب بنى عوف طهارى نقية
وأوجههم عند المشاهد غران

هم أبلغوا الحى المضلل أهلهم
وساروا بهم بين العراق ونجران

فقد أصبحوا والله أصفاهم به
أبر بميثاق وأوفى بجيران(١)

وله شعر آخر يمدح به عوير بن شجنة .

وقيل إنها انحازت إلى عامر بن جوين ، وقيل غير ذلك ، والرواية الأولى هى الأقرب إلى الصحة . لتأييدها بأكثر من قصيدة، ولأن عامراً من الفتاك الذين لا يؤتمنون على مال ونساء .

(١) الديوان ص ٨٣، ٨٤

وقد اجتمع بنو أسد بعد قتلهم لحجر، واتفقوا على اللقاء بامرىء القيس للاعتذار له والاتفاق معه حول قضية مقتل والده، وارتحل إليه جماعة فيهم المهاجر بن خداش (ابن عم عبيد بن الأبرص) وقبيصة بن نعيم، وكان مقيما في بني أسد فلما وصلوا إلى مكان ابن حجر باليمن أمر بانزالهم والإفضال عليهم، واحتجب عنهم ثلاثا، ثم خرج في قباء وخف وعمامة سوداء، وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلا في الترات، فلما نظروا إليه قاموا له، ثم تحدث إليه قبيصة حيث خيره بين ثلاثة أمور وهي أن يختار واحدا من أشرف بيوت بني أسد ليقتله ثأرا بأبيه، وإما أن يقبل الفداء من نعم بني أسد فهي ألوف تجاوز الحسبة، وإما أن يتفق معهم على الهدنة والموادعة حتى تضع الحوامل، وتتهيأ الجيوش للقتال.

قال الخليل بن أحمد راوية هذا الخبر: « فبكى (امرؤ القيس) ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم، وإني لن اعتاض به جملا ولا ناقة فاكتسب بذلك سبة الأبد وفت العضد.

وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها، ولن أكون لعطبها سببا، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك، تحمل القلوب حنقا، وفوق الأسنة علقا(١):

إذا جالت الخيل في مأزق
تصافح فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا بل ننصرف بأسوأ الاختيار، وأبلى الاجترار لمكروه وأذية، وحرب وبلية. ثم نهضوا عنه، وقبيصة يقول متمثلا:

---

(١) علقا: دما.

لعلك أن تستوخم الموت إن غدت
كتائبنا فى مأزق الموت تمطر(١)

فقال امرؤ القيس : لا والله لا أستوخمه ، فرويدا ينكشف لك دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير : ولقد كان ذكر غير هذا أولى بك إذ كنت نازلا بربعى ، ولكنك قلت فأجبت ... »(٢) .

ثم ارتحل إلى ديار بكر وتغلب للاستعانة بهم فى مقاتلة بنى أسد ، والثأر لأبيه واسترجاع ملك أجداده ، وإحياء مجد كندة ، وقد سيروا معه جيشا ليقوى به على حرب الأسديين الذين أذركوا ما يدبر لهم فارتحلوا إلى بنى كنانة للاحتماء بهم ، ولكن علباء بن الحارث وهو العقل المدبر لبنى أسد آنذاك أخبرهم بتعقب امرىء القيس لهم ، وكان أن أشار عليهم بالرحيل ليلا بدون أن يعلم بنو كنانة .

ثم أقبل امرؤ القيس بمن معه على كنانة ، فأوقع بهم ، وأعمل السلاح فيهم وهو يحسبهم بنى أسد ، وكان يهتف صائحا : يالثارات الملك ، يالثارات الهمام ، وهكذا تحملت كنانة ما كان موجها إلى بنى أسد ، ولم يتوقف القتال إلا بتدخل عجوز من بنى كنانة تصدت لامرىء القيس وقالت له : أبيت اللعن لسنا لك بثأر ، نحن من كنانة ، فدونك ثأرك فاطلبهم فإن القوم قد ساروا بالأمس .

وحاول امرؤ القيس اللحاق ببنى كنانة ، ولكنه لم يدركهم فحزن لتلك الفرصة الضائعة ثم قال :

---

(١) استوخم الشيء : لم يستمرئه
(٢) أبو الفرج ، الأغانى حـ٩ ص١٠٥

ألا يا لهف هند إثر قوم ... هم كانوا الشفاء فلم يصابوا
وقاهم جـــدهم ببنى أبيهم ... وبالأشقين ما كان العقاب
وأفلتهن علباء جريضـــا ... ولو أدركنه صفر الوطاب(١)

وتختلف الروايات فيما أعقب هذه الواقعة ، فبعضها يذكر أن امرأ القيس لحق ببنى أسد ظهراً ، وقد تقطعت خيله ، وأثر فيها العطش . بينما بنو أسد مجتمعون حول الماء ، وقاتلهم قتالا شديداً ، حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم ، ثم حجز الليل بين الفريقين ، فعاودت أسد الهروب . . وأراد شاعرنا اللحاق بهم ، وإشباع نهمه من التأثر ولكن جيوش بكر وتغلب اعترضت على المسير ما دام قد ثأر لأبيه فقـــال لهم : والله ما فعلت ولا أصبت من بنى كاهل ولا من غيرهم أحدا . قالوا بلى ، ولكنك رجل مشؤوم ، وكرهوا قتال بنى أسد ، وانصرفوا عنه . ويقال إن بكراً وتغلب تركته بعد قتالهم لبنى كنانة ، ولم يوقع ببنى أسد ، ولم يثأر منهم ، والنتيجة واحدة وهو أنه لم يشف غليله ، ولم يرو عطشه من دمائهم .

وذهب الشاعر إلى أزد شنوءة فأبوا أن ينصروه ، وقالوا : إخواننا وجيراننا ، فنزل بقيل يدعى (مرثد الخير بن ذى جدن) الحميرى مستنصرا به على بنى أسد ، فأمده بخمسمائة رجل من حمـــير ، ومات مرثد قبل أن يرحل امرؤ القيس ، وقام بالملك من بعده رجل يقال له (قرمل بن الحكيم) فأنفذ له الجيش ، وتجمع حول الشاعر بعض صعاليك العرب ، وذؤبانهم ،

---

(١) الديوان ص ١٣٨ . والجد : الحظ . جريضا : غاصا بريقه . صفر الوطاب : أى أنهم إذا أدركوه قتلوه ، وساقوا إبله ، فصفرت وطابه من اللبن .

وفيهم المستأجر وغيره ، ثم سار بهم إلى بنى أسد ، ومر فى طريقه بصنم كانت العرب تعظمه يقال له : ذو الخلصة فى وادى تبالة(١) ، فاستقسم عنده بأزلامه وهى ثلاثة أقداح : الآمر والناهى والمتربص ، فلما أجالها خرج الناهى ثلاث مرات ، فغضب امرؤ القيس ، وجمعها وكسرها ، وضرب بها وجه الصنم وقال له : لو أبوك الذى قتل ما عقتنى . وواصل سيره حتى ظفر ببنى أسد وثأر منهم وقال مفتخراً(٢) :

يا دار ماوية بالحائل فالسهب فالخبتين من عاقل
صم صداها وعفا رسمها واستعجمت عن منطق السائل
قولا لدودان عبيد العصا ما غركم بالأسد الباسل(٣)
قد قرت العينان من مالك ومن بنى عمرو ومن كاهل
ومن بنى غنم بن دودان إذ نقذف أعلاهم على السافل

وكان الانتقام من بنى أسد — إذا صح وقوعه — سبباً للعديد من النكبات التى منى بها امرؤ القيس فيما بعد ، فقد عاود المنذر تعقبه له خوفاً من عودة السيطرة إلى كندة من جديد ، حيث أعانه كسرى أنو شروان على ذلك ، فأمده بجيش من الأساورة ، وسرحهم فى تعقبه وطلبه ، وتفرقت عن امرئ القيس جيوش حمير التى شاركته فى الظفر ببنى أسد ، ثم لجأ إلى بنى حنظلة ، ونزل على واحد منهم وهو الحارث بن شهاب

(١) موضع بين مكة واليمن على بعد مسيرة سبع ليال من مكة .
(٢) الديوان ص ١١٩ ، ١٢٠ .
(٣) دودان : قبيلة من بنى أسد .

من بنى يربوع ، الذى لم يكن له من القوة والشجاعة بحيث يحمى امرأ القيس ، واضطر إلى تسليمه هو ومن معه من بنى آكل المرار إلى المنذر ، وتمكن الشاعر من الهرب ومعه أخته ويزيد بن معاوية بن الحارث والأدرع الخمسة ، وبعض المال المتبقى فى حوزته. وأعدم المنذر اثنى عشر فتى من أمراء كندة فى بئر الأملاك ، وضرب الشاعر المثل ببنى الضباب الإيادى الذى أكرمه وأجاره ، ومدحه فقال (١) :

لعمرك ما سعد بخلة آثم ولا نأنأ يوم الحفاظ ولا حصر

لعمرى لقوم قد نرى أمس فيهم
مرابط للأمهار والعكر الدثر

أحب إلينا من أناس بقنة يروح على آثار شائهم النمر

يفاكهنا سعد ويغدو لجمعنا
بمثنى الزقاق المترعات وبالجزر

ثم تحول عن سعد بن الضباب ، لاستمرار المنذر فى تعقبه ، ونزل فى أرض طيء ، وأقام عند المعلى بن تيم من جديلة ، وأحس عنده بالأمن والطمأنينة فقال يمدحه(٢) :

كأنى إذ نزلت على المعلى
نزلت على البواذخ من شمام

فما ملك العراق على المعلى بمقتدر ولا ملك الشآم

أصد نشاص ذى القرنين حتى
تولى عارض الملك الهمام

---

(١) الديوان ص ١١٢ ، ص ١١٣
(٢) المصدر السابق ص ١٤٠ ، ٢٤٢

أقر حشا امرىء القيس بن حجر
بنو تيم مصـــابيح الظــلام

ويلاحظ أن امرأ القيس بعد أن أوقع بنى أسد ، وأخذ يتنقل بين القبائل خوفا من المنذر تحول بشعره إلى المديح ، وتخلى عن القصائد الغزلية التى كان يتغنى بها فى دمون وعندل وغيرها من جبال اليمن ، ووديانه . أما المقدمات الطللية أو الغزلية لهذه القصائد — إذا وجدت — فلم تكن إلا من قبيل التقليد أو الصناعة الشعرية .

ولقد حفلت إقامته فى طيء ببعض الإشكالات التى يحسن أن نعرض لها فى شيء من الإيجاز ومن خلال ما يذكره فى شعره أيضاً .

تعرضت إبله للغصب فى جديلة أثناء إقامته عند المعلى ، ويبدو أن بنى زيد وهم قوم من جديلة قد ضاقوا به ، فاغتصبوا إبله ، حتى يبتعد عنهم ، ثم انتقل إلى بنى نبهان من طيء ، ونزل على خالد بن أصبع النبهانى ، وتحمس له فى استرجاع إبله ، وركب خالد وجماعة معه رواحل امرىء القيس ، واتجهوا بها إلى بنى جديلة ، فما كان من بنى جديلة إلا أن أنزلوا خالدا ومن معه عن تلك الرواحل ، وأخذوها أيضا ، وعاد هؤلاء النفر من بنى نبهان إلى امرىء القيس بلا إبل أو رواحل وقدموا له معزى يحلبها فسخر منهم ، ومن نفسه أيضا وقال(١) :

ألا إن لا تكن إبل فمــعزى
كأن قرون جلتهــا العصى

وجاد لها الربيع بواقصات
فآرام وجاد لهـا الولى

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٦ ، ص ١٣٧

إذا مشت حواليها أرنت … كأن الحي صبحهم نعى
فتوسع أهلها أقطا وسمناً … وحسبك من غنى شبع وري

ثم خرج من بني نبهان ، ونزل على عامر بن جوين الطائي ، وهو يومئذ من الفتاك الخلعاء في بني جرم ، ولم يكن امرؤ القيس جاهلا بطبيعة عامر ، ولكنه اضطر للنزول عليه بعد خروجه من بني نبهان ، ثم خاف منه على نفسه وأهله وماله وسلاحه ، فتركه ونزل على رجل من بني ثعل يقال له حارثة(١) ابن مر بن حنبل (الطائي) ، وغضب عامر من ذلك ، وتعقب امرأ القيس ، وحارب بني ثعل من أجله ، ولكن بني ثعل لم يتوانوا في الدفاع عنه ، فشكر لهم صنيعهم ، ومدحهم بقصيدة بدأها بالسخرية من خالد النبهاني للمرة الثانية ، وكشف هذا الشعر عن الألم الذي عاشه امرؤ القيس أثناء إقامته في بني نبهان ، فلم يخطر على باله وهو سليل بيت الملوك أن تنهب دوابه ، ويعجز عن استرجاعها ، ثم تقدم إليه معزى يحلبها … وقد وازن في هذه القصيدة بين إقامته في بني نبهان وإقامته في بني ثعل حيث تمرح إبله عند هؤلاء ، ولا يستطيع أحد أن يمسها أو يقترب منها ، قال(٢) :

دع عنك نهبا صيح في حجراته
ولكن حديثا ما حديث الرواحل
كأن دثارا حلقت بلبونه … عقاب تنوفى لاعقاب القواعل
تلاعب باعث بذمة خالد
وأودى عصام في الخطوب الأوائل

(١) أو جارية . انظر جواد علي . المفصل في تاريخ العرب ، قبل الإسلام ج ٣ ص ٣٧٣

(٢) الديوان ص ٩٤ ، ص ٩٥

وأعجبني مشى الحـــزقة خالد ... كمشى أتان حلئت بالمنـــاهل
أبت أجأ أن تسلم العام جارها ... فمن شاء فلينهض لها من مقاتل
تبيت لبونى بالقرية أمنا ... وأسرحها غبا بأكناف حائل
بنو ثعل جيرانها وحماتها ... وتمنع من رماة سعد ونائل
تلاعب أولاد الوعول رباعها ... دوين السماء فى رءوس المجادل
مكللة حمراء ذات أسرة ... لها حبك كأنها من وصائل

ولم يهنأ بإقامته فى بنى ثعل حيث وقعت الحرب فى طيء بسببه مرة أخرى ، فتحول إلى موضع آخر ، وكان هذه المرة فى بنى فزارة . حيث نزل على رجل فيها اسمه (عمرو بن جابر بن مازن) وعرفه هذا الرجل على وسيلة يسترجع بها ملك أجداده ، إذ لفت أنظاره إلى الاستعانة بقيصر الروم ، ودله على رجل من فزارة يمكن أن يوصله إلى السموءل بن عاديا . فى تيماء الذى يوصله بدوره إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، ومن ثم إلى القيصر .. وهكذا كانت إقامته فى فزارة مشحونة بالآمال والطموحات الكبار التى بدأت تنتعش فى قلبه بعد لقائه مع عمرو الفزارى . وذكر صاحب الأغانى ما دار فى هذا اللقاء ، قال : « فقال له الفزارى : يابن حجر إنى أراك فى خلل من قومك وأنا أنفس بمثلك من أهل الشرف ، وقد كدت بالأمس تؤكل فى دار طيء ، وأهل البادية أهل بر لا أهل حصون تمنعهم ، وبينك وبين أهل اليمن ذؤبان من قيس ، أفلا أدلك على بلد ! فقد جئت قيصر وجئت النعمان فلم أر لضيف نازل ولا لمجتد مثله ولا مثل صاحبه . قال : من هو وأين منزله ؟ قال : السموءل بتيماء ، وسوف أضرب لك مثله ، هو يمنع ضعفك حتى ترى ذات عينك ، وهو فى حصن حصين وحسب كبير . فقال له امرؤ القيس : وكيف لى به ؟ قال : أوصلك إلى من يوصلك إليه ، فصحبه إلى رجل من بنى فزارة يقال له الربيع بن ضبع

الفزارى عن يأتى السموءل فيحمله ويعطيه »(١) . ثم أكمل أبو الفرج ما أعقب ذلك فقال : « ثم مضى القوم حتى قدموا على السموءل فأنشده الشعر ، وعرف لهم حقهم ، فأنزل المرأة فى قبة أدم ، وأنزل القوم فى مجلس له براح ، فكان عنده ما شاء الله ، ثم إنه طلب إليه أن يكتب له إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى بالشام ليوصله إلى قيصر ، فاستنجد له رجلا ، واستودع عنده المرأة والأدرع والمال ، وأقام معها يزيد بن معاوية بن الحارث ابن عمه فمضى حتى انتهى إلى قيصر »(٢) .

وقد هدأت نفس امرىء القيس أثناء تنقله من فزارة إلى قصر الأبلق بتيماء حيث التقى بالشاعر الجاهلى السموءل ، وتيسرت له الإقامة عنده ، وتجدد الأمل فى استرجاع ملك كندة . وجاء على ألسنة الرواة ما يحكى بعضاً من مسامرات شاعرنا فى تلك المدة ، وبخاصة أثناء انتقاله إلى تيماء ، إذ نعم بالهدوء ، وأحس بالأمان اللذين افتقدهما منذ مقتل والده . ثم كانت وفادته على الحارث الغسانى فى جلق بالشام ، والذى شجعه على الرحلة إلى قيصر ، إذ يجمعهما هدف واحد وهو محاربة المناذرة (الخصم اللدود للاثنين) ويلتقى معهما فى الهدف المشترك الإمبراطور البيزنطى ، الذى يحرص على ضرب اللخميين والفرس معاً ، ولذلك لا نستنكر أبداً أن يكون امرؤ القيس قد قام برحلته إلى قيصر طالباً النجدة على بنى أسد والمناذرة . أما ما قيل بأنه أرسل وفداً إلى قيصر إبان إقامته فى طىء أو فزارة ، وكان من بين الوفد ابنه معاوية فهذا عالم تتواتر أخباره ، كما لم تتواتر أيضاً عما قيل حول كتابة قيصر إلى النجاشى يدعوه إلى معاونة امرىء القيس ، ولكن الأحباش كانوا على خلاف مع الكنديين ، وكانوا أيضاً مشغولين فى اليمن بالدفاع عنها من الغزو الفارسى . وسواء حدثت

---

(١) أبو الفرج . الأغانى حـ ٩ ص ٩٦ ، ص ٩٧ .
(٢) المصدر السابق حـ ٩ ص ٩٩ .

هذه الوفادة أم لم تحدث فإن شاعرنا قد صمم على الذهاب بنفسه إلى القيصر عندما تهيأت له الوسائل والأسباب .

الرحلة إلى قيصر :

تعد رحلة امرىء القيس إلى قيصر الروم (justinien — جوستنيان) آخر المطاف فى طريق حياته ، وإذا كان البعض قد أنكر الرحلة جملة وتفصيلا فإنه — بالطبع — لم يذكر الأسباب الأدبية والعلمية والتاريخية التى استند إليها فى هذا الإنكار والرفض ونعتقد أن الحجج الواهية لاتشكل أهمية كبيرة فى مجال الدراسات الأدبية والتاريخية والنقدية ، وقد قالت الأغلبية بهذه الرحلة ، وأطمأنت إلى الروايات التى قيلت عنها لأنها — أى الرحلة — مؤكدة بجملة من الحقائق التى لاتحتمل التأويل ، ولعل منها بل من أهمها : حديث الشاعر نفسه عنها فى أكثر من قصيدة ومقطوعة ، كما أن الكثير من هذا الشعر الذى تناول الذهاب إلى قيصر قد رواه واحد من المشهود لهم بالأمانة والصدق وهو الأصمعى الأديب الناقد والرواية المعروف.

وإذا طالعنا الروايات القديمة التى تناقلتها كتب الأدب والتاريخ فإننا نراها تكاد تجمع على ذهاب أمرىء القيس إلى قيصر ، وتتفق أيضا على أنه قد مات (أو قتل) بأنقرة عند عودته ، وأنه لم يجن من رحلته شيئا ، أما ماعدا ذلك من التفاصيل فتختلف الروايات فيما بينها اختلافا ينم عن نوع من التدخل فى سرد هذه الوقائع . ثم هناك من المصالح التى تجمع بين امرىء القيس والقيصر مايجعل القول بهذه الرحلة أمرا مقبولا ، وذلك فيما يختص بمقاومة المناذرة والفرس لهما كما لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يرتحل فيها بعض العرب إلى قيصر للتحالف أو التصالح ، فضلا عما ذكرته الروايات التاريخية عن الرحلة .

ولقد تحدث الشاعر عبيد بن الأبرص عن ذهاب امرىء القيس إلى الروم مع ما بينهما من عداوة وخصومة وكراهية ، قال :

أزعمت أنك سوف تأتى قيصرا فتهلكن إذا وأنت شآمى

على أننا سنعرض لبعض ما قيل فى هذه الرحلة من شعر امرىء القيس فى غير هذا الموضع من الكتاب .

ذكر الدكتور جواد على الطريق التى سلكها شاعرنا للذهاب إلى القسطنطينية فقال : «ويظهر من شعر لامرىء القيس ، أنه سلك طريق الشام فى طريقه إلى (قيصر) وأنه مر بـ (حوران) وبعلبك وحمص وحماه وشيزر ، أما ما بعد ذلك حتى عاصمة الروم . فلا نعرف من أمره شيئا »(١) وذكر أنه ليس فى شعر امرىء القيس ما يدل على أنه ذهب إلى الغساسنة رجاء التوسط فى الوصول إلى قيصر مع أن هذا الأمر ليس داخلا فى الرحلة ، ولا يذكر إلا على أنه مقدمة من مقدماتها . وذكر الإخباريون أنه اصطحب فى رحلته إلى الروم اثنين من رفقائه أولهما عمرو بن قميئة ، وثانيهما جابر بن حنى التغلبى ، وقيل إن من وفده فى الرحلة رجلا اسمه (الحارث بن حبيب السلمى) .

أما عمرو بن قميئة(٢) فكان شاعرا جاهليا معروفا . وهو أكبر من امرىء القيس . وأول من قال الشعر من نزار ، وقد مات فى الطريق إلى القسطنطينية ، ولذلك سمته العرب (عمرا الضائع) ، لأنه مات فى غير أرب ولا مطلب . وكان عمرو قد ضجر وبكى لما طال بهما المسير ، وذكر ذلك أمرؤ القيس فى أطول قصائده عن الرحلة ، قال(٣) :

---

(١) جواد على المفصل فى تاريخ العرب جـ ٣ ص ٣٧٠

(٢) هو عمرو بن قميئة بن سعد الضبعى البكرى أحد بنى قيس بن ثعلبة ، وكان من خدم (حجر) والد امرىء القيس .

(٣) الديوان ص ٦٥ وما بعدها .

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما
نحـــاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقال فيها :

أرى أم عمرو دمعها قد تحدرا
بكاء على عمرو وما كان أصبرا

ويؤكد هذا الشعر أن آمال امرىء القيس فى الرحلة تتمثل فى استرداد ملك آبائه متجاوزا بذلك حدود الثأر والانتقام من بنى أسد.

وأبان امرؤ القيس فى قصيدة أخرى تتصل بالرحلة عن شخص آخر كان برفقته وهو جابر بن حنى التغلبى الذى كان يحمله على محفة ، وهو مريض فى طريق العودة إلى أنقرة قال(١) :

فإما تريني فى رحالة جابر على حرج كالقر تخفق أكفانى
فيارب مكروب كررت وراءه وعان فككت الغل عنه ففدانى

وبقى معه حتى مات ، وربما كان جابر المذكور هـــو الذى روى أخبار امرىء القيس وأشعاره قبيل وفاته .

أما ثالث الرجال الذين ورد ذكرهم فهو الحارث بن حبيب السلمى الذى مات فى الطريق إلى القسطنطينية بالقرب من بصرى بديار الشام ، وبكاه امرؤ القيس فقال(٢).

(١) الديوان ص ٩٠
(٢) الديوان ص ٣٤٧

ثوى عند الودية جوف بصرى
أبو الأيتام والكل المجاف
فمن يحمى المضاف إذا دعاه
ويحمل خطة الأنس الضعاف

وليس ببعيد أن يجتمع هؤلاء الثلاثة حول شاعرنا فى رحلته ، بل ربما ضم ركبه أكثر من هؤلاء سواء أكانوا رفاقا أم خدما أم معاونين، حتى يكون ذلك لائقا به عند دخوله على قيصر الروم.

تختلف الروايات التاريخية فيما بينهـا حول معاملة قيصر لامرىء القيس ، كما تختلف أيضا حول موته بأنقرة . وترتضى من هذه الروايات مالا يتعارض مع الشعر أو العقل ، إذ يرفض العقل أن يذهب امرؤ القيس إلى هذا الامبراطور ثم ينشغل بحب ابنته عن المهمة التى ارتحل بسببها أو أن يصل به الحال إلى حد دخوله الحمام مع قيصر ، أو أن يكون الهدف من زيارته زواج ابنة هذا الأمبراطور . أما الخبر الذى استند إلى الشعر استنادا غير قوى فهو ذلك الرجل المعروف بالطماح ابن قيس الأسدى الذى أرسلته بنو أسد ليفسد على امرىء القيس خطته، وقد جاء ذكره فى بيت لامرىء القيس وهو(١).

لقد طمح الطماح من بعد أرضه
ليلبسنى من دائه ما تلبسا

وربما كان (الطماح) رمزا أو كناية عن شخص عدو لامرىء القيس، ويتصل بذكر الطماح ما قيل إنه وشى إلى قيصر وشايات مختلفة نتج عنها إرساله حلة مسمومة إلى امرىء القيس بعـد تركه للقسطنطينية ،

---

(١) الديوان ص ٣٥٧

وكانت سببا فى وفاته حيث تسرب السم فى جسمه ، فتهتك بدنه ، وتناثر لحمه ، وقتل بها فى أنقرة . وهذه الزيادات من منحولات الرواة إذ كيف يكون الطماح عدوا لامرىء القيس ، وعاملا فى الجيش الذى أمـــده به قيصر فى الوقت نفسه !

ونعود لنؤكد أن شاعر كندة قد استقبل فى القسطنطينية استقبال الأمراء ، وأن القيصر قد أكرمه ، وأنزله منزلا حسنا ، وأمده بجيش فيه بعض الأمراء . وأن امرأ القيس قد تحرك بهذا الجيش جنوب فلسطين ، واشتد عليه مرض الجدرى ، فتقرح جسمه ، وزادت علته عندما اقترب من أنقرة ، ولم يستطع إكمال عودته ، فبقى فى أنقرة حتى مات ، وتفرق الجيش الذى كان معه ، وكانت وفاته فى نحو عام ٥٤٠م . وقيل إنه توفى فى غير هذا التاريخ . على أن تحديد سنة الوفاة ليست محلا للإتفاق عند القدماء ، ولذلك نكتفى بالتاريخ المذكور ، ولا داعى لذكر سواه .

وذكرت أكثر الكتب القديمة أنه عندما أحس بنهايته قال بعض الأبيات مثل قوله(١) :

أجارتنا إن المزار قريب　　وإنى مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ها هنا　　وكل غريب للغريب نسيب

وقوله(٢) :

رب طعنـــة مثعنجره
وجفنـــة متحـــيره
وقصيـــدة محـــبره

(١) الديوان ص ٢٥٧　　(٢) الديوان ص ٣٤٨

تبق غدا بأنقره(١)

ولا نذكر هذا الشعر لنؤكد به على شيء أو نستخلص منه مذهبا فنيا للشاعر إذ لا تتجاوز بذكره حدود الإخبار عما استشهد به القدماء، ولأن هذه المرويات لا تلق منا سوى الشك والارتياب .

ويتصل بحياة امرىء القيس جوانب أخرى كزواجه وعقيدته ، ونفضل أن نعرض لهذه الأمور من خلال شعره فى الفصول التالية .

(١) المثعنجرة : السائل دمها ، المتحيرة : الممتلئة طعاما ودسما ، الحبرة : الحسنة .

الفصل الثاني

أولية الشعر الجاهلي

عندما عرض القدماء للبكاء على الأطلال فى افتتاح القصائد ذكروا امرأ القيس الذى كان أميراً للشعر فى عصره ، حيث سبق الشعراء إلى ابتداع المعانى والتعبير عنها ، وافتتح أبواباً من الشعر ، وطرق موضوعات كثيرة لم يسبق إليها ، وعبر عن كل ذلك بعبارة جزلة وسبك محكم وأسلوب رصين . ولكنه ذكر بيتاً أثار العديد من الأقوال والتكهنات وهو قوله :

عوجا على الطلل المحيل لأننا   نبكى الديار كما بكى ابن خذام

(عوجا : اعطفا ، المحيل : الذى أتى عليه الحول فتغير ، لأننا : بمعنى لعلنا) .

من هو ابن خذام أو ابن حمام كما تقول بعض الروايات ؟ لا ندرى . إذ لم يتحدث القدماء أو المحدثون عن هذا الرجل الذى بكى على الديار قبل امرىء القيس حديثاً شافياً مفيداً . ويبقى تاريخ الشعر فى العصر القديم قبل امرىء القيس محوطاً بالضبابية والخفاء ، وكل ما يقال عن هذه المرحلة لا يعدو أن يكون ضرباً من الحدس والتخمين الذى يفتقر إلى الأسس العلمية والمعايير الصحيحة ، كما أنه ليس هناك من النقوش والوثائق ما يخدم تلك الفترة ، ولذلك اضطرب القدماء فى حديثهم عن هذه الأولية اضطراباً يبعث على الضحك أحياناً ، وعلى التوقف والعجب فى أحيان أخرى .

مرويات القدماء :

ذكر (كارل بروكلمان) مقولة لأبي عمرو بن العلاء جاء فيها « إن امرأ القيس أول الشعراء وذا الرمة آخرهم »(١) .

وليس المقصود بالأولية هنا السبق والتقدم ، وإنما يراد بها الإجادة والتفوق . فليس ذو الرمة آخر الشعراء كما هو معروف ، ومثلها ما جاء بالعمدة من قولهم « بدىء الشعر بكندة يعنى امرأ القيس ، وختم بكندة يعنى أبا الطيب »(٢) .

ويعد ابن سلام من أوائل من بحثوا باهتمام عن أولية الشعر العربى ، حيث تحدث فى أول الطبقات عن أوائل الشعراء الجاهلين ، وكان يرى أن الشعر فى أول عمره عبارة عن مقطوعات صغيرة يقولها الرجل فيما يعرض له ، قال :

« ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل فى حاجته ، وإنما قصدت القصائد ، وطول الشعر على عهد عبد المطلب ، وهاشم بن مناف ، وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع .. »(٣) .

ثم قال : « وكان أول من قصد القصائد ، وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبى فى قتل أخيه كليب وائل ، قتلته بنو شيبان ، وكان اسم

---

(١) كارل بروكلمان . تاريخ الأدب العربى حـ ١ صـ ٢٢٢ دار المعارف
(٢) ابن رشيق . العمدة حـ ١ صـ ٨٩ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.
(٣) ابن سلام . طبقات فحول الشعراء حـ ١ صـ ٢٦ تحقيق محمود شاكر .

المهلهل عديا ، وإنما سمى مهلهلا لهلهلة شعره كهلهلة الثوب ، وهو اضطرابه واختلافه »(١) .

وهكذا يرى ابن سلام أن الشعر الجاهلي قد بدأ في صورة مقطوعات ثم تطور وتحول إلى الشكل المتعارف عليه ، وهو القصيدة بفضل المهلهل ابن ربيعة الذى عاصر أحداث حرب البسوس .

وقد أكد الجمحي رفضه للأوليـــة المشبوهة التى قال عنها : « فنحن لا نقيم فى النسب ما فوق عدنان ، ولا نجد لأولية العرب المعروفين شعراً ، فكيف بعاد وثمود ؛ فهذا الكلام الواهن الخبيث ، ولم يرو قط عربى منها بيتا واحداً ، ولا راوية للشعر ، مع ضعف أسره وقلة طلاوته »(٢) .

وهكذا طعن فى مرويات ابن إسحاق من الشعر المنسوب إلى عاد وثمود .

ثم جاء الجاحظ فحدد مائتى سنة كأقصى عمر للشعر العربى قبل الإسلام قال : « وأما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق إليه إمرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة ، ... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له — إلى أن جاء الله بالإسلام — خمسين ومائة عام ، وإذا إستظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام »(٣) .

وهكذا يرجع الجاحظ ولادة هذا الفن إلى مائتى سنة قبل الإسلام على أكثر تقدير ، ونعتقد أن رأى الجاحظ الذى تناقلته الرواة يحجب مرحلة كبيرة من عمر هذا الفن كانت — بالطبع — مشحونة بالعديد

(١) المصدر السابق حـ١ صـ٣ (٢) المصدر السابق حـ١ صـ١١
(٣) الجاحظ . الحيوان حـ١ صـ٧٤ (الحلبى) .

من التجارب والإرهاصات التى انبثق من مخاضها شعر امرىء القيس. ورفاقه المعاصرين له أو المتقدمين عليه ببعض السنين مثل المهلهل وأبو داود الإيادى ، وكليب بن ربيعة وعبيد بن الأبرص وعمرو بن قميئة وغيرهم .

ولكن المرحلة المتقدمة التى سبقت هذا الجيل غامضة ، وغير واضحة المعالم والشخصيات، ولهذا يعد ما يقال عنها من باب الشك الذى لا يرقى إلى اليقين .

أما ابن قتيبة فقد عقد فصلا تحدث فيه عن هؤلاء الأوائل بإيجاز ، وهو تابع فى ذلك لابن سلام قال : «لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة»(١) .

ثم ذكر نماذج شعرية لبعض الشعراء القدامى الذين يمثلون المرحلة الأولى التى تسبق عصر امرىء القيس ، ويلاحظ على النماذج الشعرية التى تمثل هذه المرحلة أنها مقطوعات قصيرة لا تأخذ شكل القصائد المطولة ، ولكنها تعبر عن طفولة هذا الفن ، وأنها البداية الحقيقة للمرحلة الثانية التى تميزت بعدد من الشعراء النابغين ، إذ أن واقع الأشياء والقانون الطبيعى للتطور يؤذن بسبق ظهور القصيدة فى أيام المهلهل بالعديد من المحاولات والتجارب الجادة ... ولا يعقل أن تكون النشأة أو الولادة قد تمت فى حدود الزمن الذى حدده الجاحظ فى مقولته السابقة ، ولكن الآثار الأدبية التى تصور المرحلة الأولى غير كافية ، ولذلك تضاربت الأقوال عن الشعر فى هذه الفترة وشابتها شوائب عديدة ، ولذا قنع الكثيرون بمقالة الجاحظ ، وارتضوا تأريخه لحياة الشعر العربى . وغضوا

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ١ ص ١١٠ تحقيق أحمد شاكر ط ٣ عام ١٩٧٧ م

أبصارهم عما اكتنف المرحلة الأولى من خلط وتشكيك واضطراب، ومما ساعد على القناعة برؤيه الجاحظ — مع عدم الرضا بها والموافقة التامة عليها — ما أوردته بعض كتب الأدب من أشعار منسوبة إلى آدم وإبليس وبعض الملائكة وبعض العماليق وعاد وثمود، بل تجاوزت هذه الآثار القديمة حدود الضحك والعبث، والإفك أيضا، فنسبت الأشعار إلى الجن. ولا يليق بنا فى العصر الحاضر أن نعرض لهذه المرويات القديمة والتى لا يخفى على أحدماقيها من نحل وعبث وافتراء.

آراء المحدثين :

نظر المحدثون إلى الفترة التى سبقت المائتى سنة، والتى ارتضاها الجاحظ كبداية للشعر الجاهلى نظرة شك وارتياب، ولم تكن أقوالهم على درجة من اليقين الذى يرقى فوق رؤية ابن سلام وابن قتيبة ومن صادق على وجهتيهما.

ورأى (بروكلمان) أن العرب عرفوا السجع فى تلك المرحلة الأولى وهو النثر المقفى المجرد من الوزن فقال: «والسجع هو الغالب الذى كان يصوغ العرافون والكهنة فيه كلامهم وأقوالهم كما جاء فى القرآن» (١).

ثم ترقى السجع إلى بحر الرجز المتألف من تفعيلة واحدة، ومن هذا البحر نشأ البناء العروضى للشعر حيث تكون البيت من مصراعين وقافية فى نهاية الشطر الثانى. وتتجه نظرة بركلمان — كما سبق — إلى القوالب الفنية للشعر العربى مع نفيه القاطع لأن يكون العروض العربى قد نشأ على أساس شعر اليونان. ويمسك الدكتور شوقى ضيف عن الخوض فى تلك المرحلة الأولى حيث يقول: «والحق أنه ليس بين

---

(١) بروكلمان. تاريخ الأدب العربى جـ١ ص ٥١

أيدينا شيء من وزن يدل على طفولة الشعر الجاهلي وحقبه الأولى ، وكيف تم له تطوره حتى انتهى إلى هذه الصورة النموذجية التي تلقاها منذ أوائل العصر الجاهلي » (١) .

ويعرض لما قاله بعض القدماء والمحدثين حول ظهور الرجز كأقدم أوزان الشعر العربي ، وأنه تولد من السجع مرتبطا بالحداء ووقع أخفاف الإبل في أثناء سيرها وسراها في الصحراء ، ثم تولدت منه الأوزان الأخرى ... وهو بذلك يشير إلى رأي بروكلمان الذي ذكرناه آنفاً . ثم قال : « وكل ما يمكن أن يقال هو أن الرجز كان أكثر أوزان الشعر شيوعاً في الجاهلية ، كانوا يرتجلونه في كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب ، ولكن شيوعه لا يعني قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى إنما يعني أنه كان وزناً شعبياً لا أقل ولا أكثر (٢) .

ويرى الدكتور يوسف خليف في كتابه عن الشعر الجاهلي أن القصيدة العربية التي ظهرت أيام حرب البسوس هي قصيدة مكتملة التقاليد ، ويؤكد على ضرورة سبقها بمحاولات كثيرة ، وتجارب متعددة قام بها الرواة الأوائل من الشعراء الجاهليين ، ثم يعرض لآراء القدماء والمحدثين من خلال ما أسماه بالنظرية العربية القديمة وبالنظرية الحديثة ، ولم يرتض النماذج التي ذكرها القدماء عن المرحلة المتقدمة حيث يكتنفها الشك والاتهام ، ويرى أن ما قاله المحدثون لا يرقى — أيضاً — إلى اليقين وأنه مجرد فرض مثلما قال شوقي ضيف . ويرى أن الشعر العربي « قد بدأ غناء

---

(١) د / شوقي ضيف . تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ص١٨٦ دار المعارف

(٢) المرجع السابق ص ١٨٦ .

وأن هذا الغناء بدأ رجزاً ، وأن هذه البداية كانت بداية طبيعية مرتبطة بحياة البادية التي ظهر فيها هذا الشعر أول ماظهر (١) ...

وهكذا اقتنع بما رآه (بروكلمان) حول هذه الأولية . أما عن البداية الحقيقية فقد أرجعها إلى المهلهل بن ربيعة بطل حرب البسوس الذى يعد الرائد الأول ، والذى أعطى القصيدة صورتها المعروفة وشكلها التقليدى . ويعد ما كتبه يوسف خليف عن أولية الشعر العربى من أوسع ما كتب حول هذا الموضوع .

وأخيراً :

لقد مر الشعر العربى بمرحلة طويلة من عمر الزمن كانت مليئة بالتجارب الفنية سواء من خلال المقطوعات كما قال القدماء ، أو من خلال الرجز كما ذكر المحدثون ، وأن هذه المرحلة التاريخية مليئة أيضا بالاضطراب لما اعتورها من شك واتهام حيث يرفض العقل كثيراً من النماذج التي رواها القدماء من شعر يرجع بعضه إلى مرحلة لم تكن اللغة العربية قد ولدت هي وأخواتها الساميات .

أما المحاولات الأولى مع الإقرار بأهميتها والاعتراف بها كتعبير عن منطق التطور إلا أنها لا تستند إلى أدلة قوية لإقرارها والتأريخ لها، وكل ما يمكن قوله لايتجاوز حدود الظن والافتراض ، ذلك لأن القبائل فى عصر التدوين كانت معنية بنسبة الأشعار إليها ، ولذلك لانستبعد ما قاله القدماء حول إمكانية الإضافة أو النحل للكثير من الأشعار التى تأتى تعبيراً عن عصبية قديمة أو عن أحداث تعوزها الأدلة والبراهين . فعمر الشعر أكبر بكثير مما قاله الجاحظ ، ولكن هذا الكبر غير واضح لنا تماما وكل

---

(١) يوسف خليف . دراسات فى الشعر الجاهلى ص ٤٤ .

ما قيل حوله غير معروف كجهلنا بحقيقة ابن خذام الذى ذكره امرؤ القيس فى بيته السابق .

أما ما ذكره القدماء من شعر عربى لآدم وإبليس والعمالقة القدماء مثل الهكسوس الذين أغاروا على مصر فى العصور القديمة والجن والملائكة فإنه من الأمور التى تثير الإشفاق على من تعقبوا هذه الأشعار وتحدثوا عنها ، وأفردوا لها الصفحات تلو الصفحات من غير أن يحترموا العقلية العربية فى القديم والحديث على السواء .

الفصل الثالث

شعر امرىء القيس

لا نود أن نتجه في حديثنا عن شعر امرىء القيس إلى قضية الانتحال وما أثير حولها قديما وحديثا ، إذ أن هـــذه القضية سوف تبحث في فصول أخرى ، وإنما يعنينا هنا أن نؤكد أن شعر امرىء القيس لم يسلم من الطعن والتشكيك في القديم والحديث سواء من ناحية النقاد والمؤرخين أو من ناحية الرواة أنفسهم .

وقد انتقلت القضية من القدماء إلى المحدثين ، وتجاوزت امرأ القيس إلى الشعر الجاهلي كله ، وبدأ المستشرقون هذه الحملة ، وجاراهم بعض المحدثين العرب . وبدأ الشك في شعر امرىء القيس منذ القدم لأسباب عامة ذكرها ابن سلام وبعض القدماء كالعصبية القبلية ، وعدم تدوين الشعر الجاهلي ، إلا ما قل منه مثل المعلقات — في رأى البعض — والاعتماد على بعض الرواة المشهورين بكثرة الوضع والنحل مثل حماد الراوية وخلف الأحمر، وذلك عند تدوين الشعر الجاهلي في القرن الثاني الهجري ، إلى غير ذلك من الأسباب التي قالها القدماء والمحدثون ، تأكيدا أو نفيا لقضية الانتحال .

أما ما يعود إلى امرىء القيس نفسه فيرجع إلى كثرة من تسموا باسمه في العصر الجاهلي ، وكان معظمهم من الشعراء ، كما التف حـــوله بعض الشعراء الفتاك مثل عمرو بن قميئة ، وأبي داؤد الإيادي ، وعامر بن الجوين وغيرهم ، حيث اختلطت أشعاره بأشعارهم ، وعجز الرواة عند التفريق

بين ما قاله كل واحد منهم ، غير أن شعر أمرىء القيس — مثل أكثر الشعراء — لم يكن على وتيرة واحدة ، فسهل على نقدة الشعر أن يميزوا بعض ماله مما نسب لغـيره ، أو يميزوا ما دخل فى ديوانه! وليس من شعره ، ولا يعبر عن موهبته وفنه ومذهبه وطبائع حياته .

ولقد اعتنى القدماء بشعره فعكفوا على روايتـه وتمحيصه بمستو لم ينله شاعر مثله ، فقد رواه « حماد وأبو عمرو الشيبانى ، والأصمعى ، والمفضل ، وخالد بن كلثوم ، ومحمد بن حبيب ، وأبو العباس الأحول ، وابن السكيت ، ثم صنعه أبو سعيد السكرى من جميع الروايات »(١) .

وهؤلاء الرواة منهم البصرى ، ومنهم الكوفى ، ومنهم الثبت الثقة كالأصمعى ، ومنهم من اشتهر بالوضع مثل حماد .

وهـذا الأخير سيبق ورقة رابحة فى يد كل طاعن فى الشعر الجاهلى حيث نهض برواية القدر الأكبر من الشعر قبل تدوينه ، ويذكر الأصمعى أنه روى شعر امرىء القيس عن حماد ، وسمع القليل منه عن أبى العلاء وبعض الأعراب ، ومع ذلك حذر منه . وبين فساد مروياته . وأظن أن الأصمعى لم يرتض من شعر امرىء القيس إلا القليل الذى أحكم نقده وتمحيصه ، وهو ثمان وعشرون قصيدة ومقطوعـة مع إبداء شكوكه فى بعض الرواة .

وتناول القدماء أيضا شعر امرىء القيس بالشرح والتفسير والبيان ، ومن هؤلاء « الأصمعى والطوسى ، وأحمد بن حاتم ، وأبو حاتم السجستانى ، وابن قتيبة وأبو على القالى ، والوزير أبو بكر البطليوسى ، والأعلم الشنتمرى ، وابن عصفور النحوى وغيرهم »(٢)

---

(١) محمد أبو الفضل . مقدمة الديوان ص ٦

(٢) المصدر السابق ص ٦

ولهذا يشكك بعض القدماء في شعر امرىء القيس : ولم يرتضوا كل ما روى له ، فقال أبو حاتم السجستاني ، وهو راوية للأصمعي في آخر ما رواه عن أستاذه في الديوان ، هذا آخر ما صح للأصمعي من شعر امرىء القيس ، والناس يحملون عليه شعرا كثيرا وليس له »(١) . واعتقد أنه يقصد بعض الكوفيين الذين يتساهلون في الرواية ، ولا يصنعون ما يصنعه علماء البصرة من التمحيص والتثبت . ويقول الرياشي : « يقال إن كثيراً من شعر امرىء القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه مثل عمرو بن قميئة وغيره »(٢)

أما ابن رشيق فقال : « وكان امرؤ القيس مقلا ، كثير المعاني والتصرف ، ولا يصح له إلا نيف وعشرون شعرا بين طويل وقطعة . ولا ترى شاعرا يكاد يفلت من حبائله وهذه زيادة في فضله وتقديمه»(٣)

موقف المحدثين من شعر امرىء القيس

لقد اعتنى المحدثون بشعر امرىء القيس عناية فائقة ، وتجلى ذلك في الطبعات العديدة للديوان ، إلا أن موقفهم من هذا الشعر قد اختلف من واحد إلى آخر . وبدأ المستشرقون في القرن التاسع عشر الميلادي حملة على الشعر الجاهلي كله ، وشككوا في شعر امرىء القيس أيضا ، ثم جاء الدكتور طه حسين فأثار القضية في كتابه (في الشعر الجاهلي) الذي اعاده طبعة باسم (في الأدب الجاهلي) حيث أضاف إليه بعض الفصول.

---

(١) المصدر السابق ص١٤٩

(٢) المرزباني ، الموشح ص ٣٢ أخرجه محب الدين الخطيب . المطبعة السلفية عام ١٣٨٥ هـ

(٣) ابن رشيق . العمدة ح١ ص١٠٥

وحذف بعض الفصول ، وذكر الأسباب التى أستند إليها فى الشك فى الشعر الجاهلى ، وإن ارتضى لأمرىء القيس قصيدتين هما اللامية المعروفة (بالمعلقة) واللامية الثانية (ألا عم صباحا أيها الطلل البالى) ورأى أن الشعر المتصل بسيرته إنما هو من عمل القصاص ، وقد أثارت هذه الآراء وغيرها بعد أن كتبها الدكتور طه حسين — ردود فعل عنيفة ولذلك نرجىء الحديث عنها إلى موضع آخر .

أما الدكتور شوقى ضيف فقد تابع الدكتور طه حسين فى معظم آرائه، وارتضى من شعر امرىء القيس ثلاث قصائد ومقطوعة ، وشك فى تسع قطع ، ورد الباقى من مجموع رواية الأصمعى . بل إن بعض ما رده قد اجتمع البصريون والكوفيون على روايته .

أما الدكتور ناصر الدين الأسد فقد ارتضى ما اجتمع الأصمعى والمفضل على روايته وهو عشرون قصيدة ومقطوعة ، لتكون أصلا صحيحا للديوان أو أقرب إلى الصحة ، على أن يتم دراسة هذا القدر ويستخرج منه الخصائص الفنية لشعر امرىء القيس ويتخذ كمنهاج للحكم من خلاله على الجزء الذى تفرد الأصمعى بروايته ، والجزء الآخر الذى تفرد المفضل بروايته(١) .

أما الدكتور على الجندى فقد قبل ما رواه الأصمعى والمفضل وهو سبع وأربعون قصيدة ومقطوعة ، واستثنى منه سبع قصائد ومقطوعتين ، فرفضها لما وجه لها من شك واتهام . وأبقى من هاتين الروايتين ثمانى وثلاثين قصيدة ومقطوعة إذ رآها صالحة لأن تتخذ أصلا للديوان (٢) ، ويتفق مع ناصر الدين الأسد فى ضرورة استخراج بعض المعايير الفنية

---

(١) انظر ناصر الدين الأسد . مصادر الشعر الجاهلى ص٥١٤

(٢) د/ على الجندى . تاريخ الأدب الجاهلى ج٢ص٧٥ الأنجلو المصرية الطبعة الثالثة ١٩٦٩ م

لشعر امرىء القيس من واقع القدر الذى ارتضاه . مع الاحتكام إليه فى قبول الباقى من شعره أو رفضه رفضا تاما .

أما الدكتور الطاهر أحمد مكى فقد ارتضى روايتى الأصمعى والمفضل كلا . ولم ير فيهما مايجزم العقل الحـــديث باستحالة أن يكون لامرىء القيس ، كما أسقط كل شعر نسبه الأقدمون إلى آخرين مع امرىء القيس ولم يقطعوا فيه برأى ، وقال : « ووقفنا من زيادات الطوسى والسكرى وابن النحاس وأبى سهل موقفـا متحفظا ، لأن معظمها لا يشاكل شعر امرىء القيس شكلا ومضمونا ، لم نقبلها جملة وفيها ما يستحيل أن يكون لشاعرنا ، ولم نرفضها كلا ، لأن بين ماتضمنته شعرا يدعمه واقع الأحداث ويرجح فيه جانب اليقين ، وأسقطناها من الاعتبار عند تعادل الظن وتساوى المرجحات (١)

وقد تفاوتت آراء بقية المعاصرين ممن تحدثوا عن شعر امرىء القيس وهى فى مجموعها لا تصل إلى رؤية طه حسين بما فيها من تعميم الرفض ، وإغفال الرواة ، وطرح كل شعر يتناول حيـاته ورحلته إلى قيصر .

كما لا ترضى هذه الآراء بقبول ما جاء فى نسخ الديوان إذ أن بعض القصائد تنعدم صلتها تماما بامرىء القيس ولعل منها القصيدة التى تعرض لها الأستاذ مصطفى صادق الرافعى(٢) وأولها .

لمن طلل بين الجدية والجبل محل قديم العهد طالت به الطول

على أن هـذه القصيدة لم ترد فى نسخ السكرى للديوان ، والتى تعد أصلا لكتاب (العقد الثمين) الذى وجدت به القصيدة المذكورة (٣) .

---

(١) د/ الطاهر مكى ، أمرؤ القيس ص ١٢٢ طبعة دار المعارف

(٢) فى كتابه (تاريخ آداب العرب) .

(٣) أخرجه هلوارد على نسخة السكرى ، وأضاف إليه ما وجده من شعر لامرىء القيس فى الكتب الأخرى .

لقد روى الأصمعي شعر امرىء القيس عن حماد الراوية وأبي عمرو ابن العلاء وبعض الأعراب قال : كل شيء في أيدينــــا من شعر لامرىء القيس فهو عن حماد الراوية ، إلا نتفا سمعناها من الأعراب وأبي عمرو ابن العلاء » .

والمعروف أن حمادا أول من جمع أشعار العرب ، وشكك ابن سلام في مروياته ، ولم يكن منهج الأصمعي ليسمح بقبول كل ما روى عنه . ونعتقد أن الأصمعي قد روى عنه أكثر مما رواه عنه تلميذه أبو حاتم ، ولكنه أخضع هذه المرويات لاعتبارات نقدية كثيرة ، ولذا وصل عددها إلى ثمان وعشرين قصيدة ومقطوعة ، بل إنه شك في بعضها، ودفع الكوفيون بعض هذه المرويات . أما مقطوعة امرىء القيس التي شك فيها الأصمعي فهي (١) :

ألا إن لا تكن إبل فمعزى	كأن قرون جلتها العصى
وجاد لها الربيع بواقصات	فآرام ، وجاد لها الولى
إذا مشت حوالبها أرنت	كأن الحى صبحهم نعى
فتوسع أهلها أقطاً وسمناً	وحسبك من غنى شبع ورى

لم يكن شك الأصمعي في هذه المقطوعة منصرفا إلى الرواة ، أو إلى الخصائص الفنية التي يتميز بها شعره ، ولكنه قال : «امرؤ القيس ملك ، ولا أراه يقول هذا » .

وأظن أنه لا يخفى على الأصمعي ، أو على من جاء بعــده أن امرأ القيس بمقتل جده وأبيه لم يعد ملكا أو خليفة لملك ، وإنما صار شريدا

(١) الديوان ص١٣٦

طريداً بين القبائل ، خائفاً من المنذر أو من غدر جديد ينهض به بنو أسد أو بعض المعاصرين له كعامر بن الجون ، أو غــيره ، وكانت عبارة الأصمعي السابقة وبالاعلى هذه المقطوعة ، فاحترس النقاد منها ، وأدخلوها في دائرة الشك والارتياب ، على أن شهادة الأصمعي ليست دوما محل اعتبار عند المتأخرين بخاصــة . فني الديوان مقطوعة أشترك فيها أمرؤ القيس والتوءم اليشكرى (١) ورواها الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء ورواها أبو عمرو عن ذى الرمة وكلهم ثقات ، ومع ذلك وقع هذا النص فى مخالب الشك ، وقالوا عن هذه القطعة إنها من صنع الرواة .

ولقد اشتدت حملة التشكيك فى الشعر الجاهلى بعامة ، وفى امرىء القيس بخاصة فى العصر الحديث ، فرفض البعض معظم شعره ، لأن بعض هذا الشعر يتحدث عن رحلته إلى قيصر ، وما داموا قد نفوا الرحلة لأن ابن هشام الكلبي كان واحداً من رواتها ، فلابد أن ينفوا كل ما يتعلق بها حتى لو كان ذلك قصيدة من عيون الشعر الجاهلى . ومن الأفضل أن يكون هذا الرفض مبنيا على مواصفات من ناحية الألفاظ والمعانى والأخيلة مع عدم إغفال الرواية فى صحة الشعر ونحله . ولو أسلمنا شعر امرىء القيس لدواعى الانتحال ، واستبعدنا كل قصيدة تسرب إليها الشك بدون أن نبحث عن أسباب ذلك لما بقى لهذا الشاعر ماينسب إليه حتى المعلقة نفاها بعض الناس عنه .

« من الغريب أن بعض الرواة زعم بأن هــذه القصيدة (المعلقة) ليست لامرىء القيس ، وأنها ألحقت بشعره ، وإنما هى من شعر بعض

(١) الديوان ص ١٤٧ (القطعة رقم ٢٨) .

الغريبين ، وهذا بلا شك زعم باطل ....(١) وهل تملك بعد ذلك إلا أن تدافع عن شعر الرجل حتى لا يتحول من الحقيقة إلى الأسطورة ، على أن هذا الدفاع لا يجعلنا نقبل كل ما نسب إليه من شعر ، فهناك بعض القصائد التي لم يروها الأصمعي أو المفضل لا يمكن أن تكون لامرىء القيس ، وتبدو فيها مظاهر الصنعة والتكلف ، ولهذا نود أن يكون نقد شعره مبنيا على أسس فنية وقواعد مستوحاة مما رواه الأصمعي والمفضل فما رواه هذان الرجلان هو الأصل لشعر امرىء القيس إلا إذا تكاثرت الشكوك حول بعض القصائد فينبغي التوقف عن القول بتمثيلها لشعره ، كما يضاف إلى هاتين الروايتين بعض القصائد والمقطوعات مما رواه غيرهما والتي تتفق مع شعره من وجوه كثيرة وما عدا ذلك مما يتباعد في خصائصه عن شعره فليس لنا أن نستشهد به ، أو ننسبه إلى هذا الشاعر . ولعل هذه الوجهة تقارب إلى حد كبير ما قال به الدكتور علي الجندي في الحكم على شعر امرىء القيس ، ولا نود أن يكون حديثنا عن هذا الشعر مشحونا بقدر من التعاطف معه ، فينعكس ذلك على مقدار الحقيقة التي نسعى إليها ولكن ذلك غير وارد ، فامرؤ القيس مهما تعرض شعره للشك والاتهام من القدماء والمحدثين لم يستطع أحد أن ينزله من الربوة السامقة التي سما إليها وأقام فيهـــا ، وبقي محتفظا — منذ مئات السنين — بإمارة الشعر الجاهلي ، ولم تتأخر معلقته عن الصدارة التي قبعت فيها منذ أن علقت بصدور الناس .

حسن السندوبي . الديوان ص ١٤٣

الباب الثانى

امرؤ القيس فى مؤلفات القدماء

الفصل الأول : طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى
الفصل الثانى : الشعر والشعراء لابن قتيبة
الفصل الثالث : الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى
الفصل الرابع : الموشح للمرزبانى
الفصل الخامس : إعجاز القرآن للباقلانى

الفصل الأول

طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي(1)

يأتي كتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحي في مقدمة الكتب النقدية التي وصلت إلينا من السنوات الأولى لعصر التأليف الأدبي حيث لم يسبق هذا الكتاب — في مدى علمي — إلا بكتيب للأصمعي باسم (فحولة الشعراء) .

وقد اشتمل كتاب ابن سلام على مقدمة ضافية اعتمد عليها الكثيرون قديما وحديثا ، لما فيها من قضايا وآراء في الأدب والنقد .

أما موضوع الكتاب فهو الحديث عن الشعراء الجاهليين والإسلاميين من خلال منهج لم يكن غريبا على البيئة الأدبية في نهاية القرن

---

(1) ولد محمد بن سلام الجمحي بالبصرة عام ١٣٩ هـ ، وتوفي بها عام ٢٣١هـ ، أو ببغداد عام ٢٣٢هـ ، وسمع من شيوخ اللغة والحديث والأدب مثل الأصمعي ، وبشار بن برد ، وسلام بن عبيد الله (أبيه) ، وسيبويه ، وأبي عبيدة (معمر بن المثنى) ومروان بن أبي حفصة وغيرهم . وأخذ عنه جمع كثير منهم : أبو خليفة الفضل بن الحباب ابن محمد الجمحي ، وهو ابن أخت (محمد بن سلام ، وثعلب (أحمد بن يحيى) وأبو حاتم والرياشي . واشتهر ابن سلام بكتابه عن طبقات فحول الشعراء الذي نعرض حديثه عن امرىء القيس في هذا الفصل .

وقد أخرج العلامة محمود شاكر الكتاب محققا في جزءين عام ١٩٧٤م بمطبعة المدني في القاهرة ، وهي النسخة التي أتعامل معها في هذه الدراسة .

الثانى للهجرة ، حيث قسم المؤلف الشعراء المشهورين إلى طبقات ، بعد تحرى الأشعار التى نسبت لهم ، والروايات التى تحدثت عنهم ، ليكون حكمه صائبا ونقده عادلا . وقد جعل من كثرة الشعر وجودته أساساً أو معيارا لاختياره للشعراء وترتيبه لهم ، مع استعانته بأقوال الرواة والإخباريين فى تقرير مبدأ الشهرة الذى جرى عليه تقسيم الشعراء إلى طبقات .

قسم الجمحى شعراء الجاهلية والإسلام إلى عشر طبقات ، وجعل كل أربعة شعراء فى طبقة . قال : « ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا فى الجاهليــــة وأدركوا الإسلام ، فنزلناهم منازلهم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة ، وماقاله فيه العلماء .

وقد اختلف الناس والرواة فيهم ... فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا ، فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه ، فوجدناهم عشر طبقات ، أربعة رهط كل طبقة متكافئين معتدلين » (١)

أى أنه تحدث عن المبرزين المقدمين جاعلا كل أربعة من النظراء فى طبقة واحدة ، وإن بق هذا التوفيق الطبق مفتقرا إلى الأسس الواضحة التى يستهدى بها فى معرفة أوجه التقارب والتشابه بين الشعراء ، إذ نرى بعضهم فى طبقة واحـــدة ، وليس بينهم شبه ظاهر أو محتمل ، ومازالت أسأل نفسى عن السبب الذى خول لابن سلام أن يجمع بين أمرىء القيس وزهير والنابغة والأعشى فى طبقة واحدة .

أما منهجه للاختيار فقد بناه على الأساس التاريخى ، حيث تحدث

(١) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ح ١ ص ٢٣ ، ص ٢٤

عن الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، وإن لم يجعل للمخضرمين طبقات محددة ، بل وزعهم على طبقات أخرى ، وذكر من جميع هؤلاء ثمانين شاعراً . كما بنى اختياره أيضاً على الأساس المكانى ، فتكلم عن شعراء البلدان العربية ، واختار خمسة من شعراء المدينة ، وتسعة من شعراء مكة ، وخمسة من شعراء الطائف ، وثلاثة من شعراء البحرين .

واختار ثمانية من شعراء اليهود كأساس دينى فى الاختيار ، كما اختار أربعة من الشعراء المجودين فى فن الرثاء ، لأن هذا الفن « أغزر ألوان الشعر بالعاطفة ، فهو شعر الحسرة واللوعة ، الذى يبين فيه الشعور الصافى والعاطفة الصادقة ، بعد زوال أسباب الرغبة والرهبة من ميت لا يرجى خيره ولا ترهب سطوته »(١).

وبلغ مجموع من أختارهم مائة وأربعة عشر شاعراً على اختلاف أزمانهم وبيئاتهم وعقائدهم ومنزلتهم فى قول الشعر ، ومقدار ما خلفوه من تراث فى هذا الفن .

ويؤخذ على ابن سلام إغفاله لبعض معاصرية مثل مروان بن أبى حفصة ومسلم بن الوليد ، وبشار بن برد وغيرهم . وليس هناك من سبب مباشر لذلك إلا أن يكون الرجل قد وقع ضحيــة التعصب للقديم ، أو أنه خشى الضيق والحرج من نقده لشعر من أغفلهم ، وربما خفيت علينا الأسباب الحقيقية لهذا المنزع المريب .

وقد عرض فى كتابه إلى بعض الأحكام الأدبية والنقدية التى يتصل الكثير منها بامرىء القيس كواحد من أقــدم الشعراء الجاهليين ، ونذكر منها ما يلى :

(١) د/بدوى طبانة . دراسات فى نقد الأدب العربى ص ١٦٤

قضية الانتحال :

تحدث ابن سلام فى مقدمة كتابه عن أولية الشعر الجاهلى ، وانطلق من حديثه عن هذه الأولية إلى بحث قضية الانتحال بحثاً مبنيا على الحجج والبراهين ، مع أنه لم يكن أول من عرض لنحل الشعر ووضعه ، فقد سبقه المفضل الضبى ، فانتقد حماداً الراوية ، وكشف أكاذيبه(١).

كما انتقده أيضاً يونس بن حبيب فقال : « وكان يكذب ويلحن ويكسر »(٢) .

كما تقدم على ابن سلام فى الحديث عن الشعر الموضوع الأصمعى وأبو عمرو ابن العلاء وأبو عبيدة وغيرهم ، إذ كان بحث الانتحال فى عصر ابن سلام أمراً طبيعياً لمعاصرة هؤلاء الرواة والنقدة للحقبة التى انتقل فيها الشعر من عصر الرواية إلى مرحلة التدوين ، وقد زاد حرصهم على الشعر المدون ، فبدءوا فى تمييز صحيحه من زائفه ، وتأكيد نسبة كل قول إلى صاحبه ، ليكون الناس — فى قابل الأيام — على بصيرة من تراثهم وسجل حضارتهم وديوان أجدادهم .

تجاوز ابن سلام مرحلة الأقوال المرسلة إلى مرحلة أخرى جديدة فى عمر النقد الأدبى ؛ فعقد فى أول كتابه عن طبقـــات الشعراء مقدمة شاملة . عرض فيها لمجموعة من القضايا النقدية ، ويعنينا منها قضية الانتحال ؛ لأنها من المسائل المهمة فى تاريخ النقد الأدبى ، ولاتصالها بتقويم الشعر العربى فى العصر القديم .

ولقد تحدث عن الانتحال وذكر أسبابه فقال : « فلما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم

---

(١) انظر الأغانى . دار الكتب جـ١ ص٨٩

(٢) ابن سلام ، الطبقات جـ١ ص ٤٩

وما ذهب من ذكر وقائعهم، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسنة شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد، فزادوا في الأشعار التي قيلت، وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولدون ...»(١).

أبان ابن سلام في كلامه السابق قضية النحل في بعض الشعر الجاهلي، وأرجع ذلك إلى سببين :

أولهما : العصبية القبلية في بعض العشائر التي استقلت شعر شعرائها، فأرادوا النهوض بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسنة شعرائهم مالم يقولوه.

وثانيهما : الرواة الذين زادوا في الأشعار التي قيلت، على أن نقدة الأدب يستطيعون كشف هذا الشعر الموضوع وبيان ما دونه الرواة، وما وضعه المولدون. وتصدى صاحبنا لرفض بعض النماذج الشعرية التي ترجع في تاريخها إلى عاد وثمود والتي تناقلها الرواة من أمثال محمد بن إسحاق ابن يسار راوي الأخبار والسير، الذي لم يكن له علم بالشعر... «فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعاراً كثيرة، وليس بشعر إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن أداه منذ آلاف من السنين والله تبارك وتعالى يقول: (فقطع دابر القوم الذين ظلموا)، [الأنعام ٤٥]، أي لا بقية لهم، وقال أيضاً: (وأنه أهلك عاداً الأولى، وثموداً فما أبقى)، [النجم ٥٠، ٥١] وقال في عاد (فهل ترى لهم من باقية)، [الحاقة ٨](٢)، ولم يكتف بهذه الأدلة المتنوعة بل أضاف إليها أدلة أخرى، ليؤكد حجته في وضع هذا

---

(١) المصدر السابق ج١ ص٤٦ (٢) المصدر السابق ج١ ص٨

الشعر ونحله منها : أن العربية لم تكن موجودة على عهد عاد، فكيف تذكر الأشعار بلغة لم تكن موجودة ؟ وقد استشهد على ذلك بقول يونس بن حبيب : « أول من تكلم بالعربية ، ونسى لسان أبيه إسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليهما »(١) ومنها أن عاداً — التى نسب إليها محمد بن إسحاق هذا الشعر الموضوع — من اليمن ، ولغة اليمن تختلف عن لغة العرب الشماليين مستنداً هنا بقول أبى عمرو بن العلاء : « مالسان حمير وأقاصى اليمن اليوم بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا ، فكيف بما على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووهيه ؟ »(٢) .

ومنها أن القصائد الطويلة لم تعرف إلا على عهد عبد المطلب وهاشم ابن عبد مناف ، وكان أول من طولها المهلهل بن ربيعة التغلبى فى قتل أخيه كليب ، وجاء من بعده امرؤ القيس وجماعة من شعراء الجاهلية .

ولم يكتف ابن سلام بحديثه عن محمد بن إسحاق — كواحد من الوضاعين — بل ذكر آخرين مثل حماد الراوية الذى قال عنه : « وكان أول من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها : حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، وكان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد فى الأشعار »(٣) .

وقدم ابن سلام عدداً من الروايات المنسوبة إلى أصحابها ، وكلها يؤكد على ريادة حماد للانتحال فى تلك الفترة ، ثم نقل إلى كتابه رواية لأبى عبيدة عن واحد من الوضاعين ، قال : « أخبرنى أبو عبيدة أن ابن داود بن متمم ابن نويرة قدم البصرة فى بعض ما يقدم له البدوى من الجلب والميرة فنزل النحيت (قرية صغيرة بالبصرة) فأتيته أنا وابن نوح العطاردى ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته ، وكفيناه ضيعته(٤) ، فلما نفد شعر

---

(١) المصدر السابق ج١ ص٩
(٢) المصدر السابق ج١ ص١١
(٣) المصدر السابق ج١ ص٤٨
(٤) كسبه وتجارته ج١ ص٤٨

أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويصنعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التى ذكرها متمم ، والوقائع التى شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله (١) .

ومن الشعراء الذين وقعوا ضحية لهذا المنعطف إبان تدوين الشعر الجاهلى طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص ، حيث بقى لهما على ألسنة الرواة آنذاك القليل الذى لايتناسب مع مكانتيهما . « فلما قل كلامهما حمل عليهما حمل كثير »(٢)

ولا ينبغى أن يؤخذ بعض ماقاله ابن سلام ويترك البعض فتفهم مروياته على أنها طعن فى الشعر الجاهلى كله ، ولربما أساء البعض تناول هذه المرويات — بقصد أو بدون قصد — واقتطع من كلام الرجل مايؤكد منحاة فى طعن الشعر القديم طعنة مؤلمة .

كما أنه ليس للبعض أيضا أن يتجاهل كلامه بحجة التعاطف مع هذا الشعر ، وعدم تعريضه للأهواء والنزعات ، وكلا الأمرين خطأ جسيم . فلابد أن نأخذ كلام الرجل كله ، ونقبل على تمحيص التراث . وتقويم الرواة بما يميز الصحيح من الفاسد .

لقد عرض ابن سلام لقضية الانتحال عرضا موسعا ، ودرس أسبابها وتحدث عن الرواة الوضاعين ، ولم يغفل عن حسم ماأثير حولها من نزاع فوضع حداً لفوضى الشك فى الشعر الجاهلى ، وذكر عدداً من الرواة واللغويين والإخباريين الذين عرفوا بالصدق فى القول والأمانة فى النقل منهم: أبو عمرو بن العلاء الذى قال عنه : « وسمعت يونس يقول : لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله كله فى شىء واحد ، كان ينبغى لقول أبى عمرو ابن العلاء فى العربيه أن يؤخذ كله ، ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من كلامه وتارك »(٣)

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٤٨ (٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٦
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ١٦

ومن امتدحهم أيضا ، خلف الأحمر والأصمعي ، وأبو عبيـــدة والمفضل الضبي .

وإذا اجتمع هؤلاء العلماء والرواة وغيرهم من الموثوق بهم على إبطال شيء من هذا الشعر فليس لأحد أن يقبل المدون منه في الصحف المخطوطة التي لم تعرض على الرواة . « فأما ما اتفقوا عليه . فليس لأحد أن يخرج منه »(١)

وإذا كان بحث ابن سلام لهذه القضية غير منظم سواء أفي المقدمة أم في صفحات الكتاب فإن ذلك شأن المحاولات الأولى ، إذ تأتي ما بعدها لتفيد منها وتضيف إليها . على أن انشغال الرجل بقضية الشعر الموضوع لم يصرفه عن التعرض لبعض المسائل النقدية الأخرى التي بحثها في كتابه المذكور .

١ — امرؤ القيس وطبقته :

تحدث ابن سلام عن امرىء القيس في العديد من المواضع بكتابه طبقات فحول الشعراء ، حيث عرض له المقدمة التي استهل بها في حديثه عن الشعراء ، ثم تحدث عنه من خلال الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين ، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة والأعشى ، ثم عرض له أيضا في مواضع متفرقة من هذا الكتاب .

ولم يذكر الجمحي مظاهر التشابه التي تجمع بين هؤلاء الأربعة سواء في المقدمة ، أم في عرضه لهؤلاء الشعراء بمتن الكتاب ، ولذا لم يتطاول الزمن بمنهجه في تقسيمه للشعراء على نظام الطبقات ، ولم يحظ كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز بما ناله كتاب ابن سلام .

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤

ويبدو أن الناس قد عارضت هذا المنهج ، وانصرفت عنه إلى كتب الترجمة للشعراء التى تجعل كل واحد منهم مستقلا بذاته مثل الشعر والشعراء لابن قتيبة . والأغانى لأبى الفرج وغيرها . ولا يقتصر الأمر عند ابن سلام على هذه الطبقة ، بل يمتد ليشمل المنهج كله ، فقد وضع بعض الشعراء فى طبقة ،ولا يبدو بينهم أى تلاق واتفاق .

وقد ذكر رواية عن يونس بن حبيب حول هؤلاء الشعراء الأربعة جاء فيها : « أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس بن حجر . وأهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ،وأن أهل الحجاز والبادية كانوا يقدمون زهيرا »(١) (والنابغة) فى بعض النسخ . كما جاءت هذه الرواية فى العمدة لابن رشيق ، وأضاف إليها : « وكان أهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحدا كما أن أهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحداً »(٢)

ولا نعتقد أن هذه الرواية كافية أو مقنعة لجمع هؤلاء فى طبقة واحدة ، والمعول عليه عند الجمع هو التشابه فى الفن الشعرى إذ لا يعقل أن يأتى الاتفاق مطردا بين كل أربعة شعراء .

وقد جاء عن القدماء ما يشبه هذا الرأى كقولهم : « أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب وزهير إذا رغب والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب »(٣) والرواية مرفوعة إلى كثير أو نصيب

---

(١) الجمحي . الطبقات جـ ١ ص ٥٢

(٢) ابن رشيق . العمدة جـ ١ ص ٩٨

(٣) الشنتمرى : أشعار الشعراء الستة جـ ١ ص ٢٧٤ ، وابن رشيق جـ ١ ص ٩٥

ونسب إلى أبي عمرو بن العلاء قوله « أشعر الناس أربعة : امرؤ القيس والنابغة وطرفة ومهلهل »(١).

وجعل البعض المقدمين ثلاثة وهم : امرؤ القيس والنابغة والأعشى(٢) وهكذا اختلف الناس اختلافا بينا في المقدمين من الشعراء . وإذا كان هناك من وافق الجمحي في تقديم هؤلاء الأربعة ، فإن الآخرين قد زادوا عليهم أو نقصوا منهم ، ويبقى التلاقي في فن الشعر بين هذه الطبقة محصوراً في دائرة ضيقة إذ أن الاتفاق نادر وقليل ، لاختلاف الميول والأهواء .

٢ — أشعر الناس في الجاهلية :

يأتي الحديث عن أشعر الناس في الجاهلية امتداداً لما تقدم حول طبقة امرىء القيس ، فإذا كان الجمحي قد جمع بين أربعة شعراء منهم امرؤ القيس في طبقة واحدة ، فإن ذلك لم يكن محل اتفاق بين القدماء ، كما لم يتعرف المحدثون على ذلك المنهج الذي يجمع بين الشعراء في قرن واحد . ولذا يعد الحديث عن أشعر الناس أيضا أمراً غير متوافق مع القواعد النقدية التي تأصلت لدى المتأخرين . فالسابقون وفيهم الجمحي كانوا يرددن عبارات مثل : « أشعر الناس » و « شاعر اليمن » و « أشعر الشعراء » وغيرها .

ولقد ذكر ابن سلام عدة أقوال ناسبا كلا منها إلى صاحبه . وكان امرؤ القيس فيها مقدما على شعراء الجاهلية أو أنه أشعر الناس .

والنص الآتي مرفوع إلى الفرزدق حيث سئل : « من أشعر الناس

---

(١) ابن رشيق . العمدة ج ١ ص ٩٧
(٢) انظر المصدر السابق ج ١ ص ٩٧

يا أبا فراس ؟ قال : ذو القروح ، يعني امرأ القيس ، حين يقول
ماذا ؟ قال : حين يقول :

وقاهم جدهم ببني أبيهم وبالأشقين ماكان العقاب (١)

وواضح أن تفضيل الفرزدق ليس على إطلاقه ، وإنما قرنه بهذا الشعر المذكور لامرىء القيس ، إذ كان ميالا لهذا اللون من الفخر ، وإلا فقد سئل عن أشعر العرب فقال : بشر بن أبي خازم لقوله :

ثوى في ملحد لابد منه
كفى بالموت نأيا واغترابا (٢)

وذكر الجمحي أن لبيدا سئل عن أشعر الناس ، فقال : الملك الضليل ، ولما أعيد سؤاله أضاف إليه طرفه ، وجعل نفسه ثالثا (٣) .

وأورد عدة نقول مختلفة حول أشعر الناس ، فذكر من قدم المرقش وهو ليس من هذه الطبقة ، ومن احتج للنابغة ، ومن احتج لزهير ، ومن احتج للأعشى (٤) ، كما ذكر المقدمين من شعراء الإسلام .

أما رأى الجمحي نفسه فغير واضح في هذه الناحية ، وإن كان ميله

(١) قال ابن حجر هذا البيت وغيره بعد أن أفلت منه بنو أسد ، وأعمل القتل في بني كنانة ، وانظر المصدر السابق ج١ ص٩٤ ، ص٩٥

(٢) المصدر السابق ج١ ص٩٥

(٣) الجمحي . طبقات فحول الشعراء ج١ ص٥٤

(٤) أنظر المصدر السابق ج١ ص٥٢ ، ص٥٦ ، ص٦٣ ، ص٦٤ ، ص٦٦ ، ص٦٧

إلى تقديم امرئ القيس كأهل البصرة ، وهذا ظاهر من عدة نواح إذ أورد له العديد من الأبيات بصورة تفوق بقية شعراء هذه الطبقة ، كما ذكر الأسباب التي جعلته مقدما على الشعراء ، ليس لأنه قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها واستحسنتها ، واتبعته فيها الشعراء . وحدد تلك الملامح أو الخصائص التي يتميز بها شعره بصورة عامة ، وإن كان قد ذكر لها بعض الشواهد فيما بعد .

ونقل ابن رشيق في العمدة نصا عن الجمحي قال فيه : « فارس اليمن في بني زبيد عمرو بن معدى كرب ، وشاعرها امرؤ القيس ... »(١) وهكذا ارتضى الجمحي أن يكون امرؤ القيس شاعرا لليمن ، وهي مقولة عامة غير مقرونة بما يؤكدها ، ولكنها تكشف عن ميوله نحو هذا الشاعر ولو جعله شاعراً لليمن .

ولا شك في أن الغالبية قد حكموا بالسبق لامرئ القيس لأمور كثيرة ، وجعلوه المقدم في الجاهلية بما يتميز به شعره من خصائص قل أن تجتمع في شاعر مثله ولا يعني هذا أنه كان المقدم في سائر الفنون والموضوعات إذ برز آخرون من طبقته ومن غير طبقته إلى نواح لم يرق إليها امرؤ القيس ، ولكن هذه الأحكام مع عدم التسليم بها تختلف من شخص إلى آخر . وقد يبرز الشاعر في جانب ويبرز غيره في جانب آخر ، ولكن شاعرية امرئ القيس تفوق شاعرية الآخرين من نواح عديدة .

وقد أورد ابن سلام في سياق كلامه نصا نراه أقرب إلى الصواب في معظمه حيث قال بعد أن تحدث عن الأعشى : « وشهدت خلفا فقيل له : من أشعر الناس ؟ فقال : ما تنتهي إلى واحد يجتمع عليه ، كما لا يجتمع

---

(١) ابن رشيق . العمدة جـ٢ ص ١٩٣

على أشجع الناس وأخطب الناس وأجمل الناس. قلت : فأيهم أعجب إليك يا أبا محرز ؟ قال : الأعشى . قال : أظنه قال : كان أجمعهم »(١) ولو اكتفى الجمحى بأول هـذا الكلام لكان حجة فى النقد ، وأساساً فى تقديم الشعراء ، ولكنه ذكر مقولة أبى محـرز فى تفضيله للأعشى لتبقى هذه الإشكالية قائمة .

٣ — خصائص شعر امرىء القيس :

ذكر ابن سلام بعضا من مميزات شعر امرىء القيس وهو بصدد حديثه عن أشعر الناس، وقرر أنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء وهى : « استيقاف صحبه ، والتبكاء فى الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وقيد الأوابد ، وأجاد فى التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى »(٢) .

ونعتقد أن هـذا الكلام يختلف عما قاله ابن سلام فيما يختص بأولية الشعر الجاهلى حيث ذكر أن مهلهلا أول من قصد القصيدة ، بل يختلف أيضاً عما ذكره امرؤ القيس نفسه من أن له سلفا فى البكاء على الديار وهو ابن خذام ، على أنه من الممكن أن تنصرف العبارة السابقة إلى تقدم امرىء القيس من خلال هذه الأمور مجتمعة ، إذ لم يعرف شاعر سابق عليه أو معاصر له أن برز فى كل هذه النواحى مثلما برز فيها ، كما أن الجمحى لم يذكر لامرىء القيس شعرا يؤكد به على كل هذه الخصائص المذكورة ، وإن أورد له بعض النماذج التى يمكن التكشف بها عن بعض الملامح

---

(١) الجمحى . الطبقات جـ١ ص ٦٥ ، ٦٦
(٢) المصدر السابق جـ١ ص ٥٥

الأخرى والتى لم يخصه بها ، وأشرك غـــيره معه فيها ، مثل نعيه نفسه بالفواحش وإظهار التعهر . وذكر لذلك ثلاثة أبيات وهى قوله (١) .

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول(٢)

وقوله :

دخلت وقــــد ألقت لنوم ثيابها
لدى الستر إلا لبسة المتفضل(٣)

وقوله :

سموت إليها بعد ما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال(٤)

وماذكره الجمحى قليل من كثير، وبخاصة فى اللامية الثانية التى أورد منها البيت الأخير ، على أن حكم ابن سلام المذكور حول تعهر امرىء القيس لا تختلف معه فيه حيث طرده أبوه فى مقتبل عمره لمجونه وخلاعته كما تابع النقاد المتأخرون ابن سلام فى رفض المجون والتعهر اللذين تفاخر بهما امرؤ القيس .

(١) البيتان الأول والثانى من المعلقة (الديوان ص٨) والبيت الثالث من اللامية الثانية (الديوان ص٢٧)

(٢) طرق القوم : جاءهم ليلا ، ذى تمائم : صبى ذى تعاويذ، محول : أتى عليه الحول .

(٣) اللبسة : هيئة اللباس ، المتفضل : اللابس ثوبا واحداً .

(٤) ذكر الشيخ محمود شاكر أن الشاعر لم يفحش فى هذا البيت بمثل فحشه فى البيتين السابقين فإنه أراد أن يصف خفة وطئه ، وإخفاء حركته حتى لا يشعر به أحد : (هامش الطبقات ص٤٢ ج ١)

وقد رفض أكثر النقاد التعبير عن التهر والمجون ، ولهذا ذكر فؤاد البستاني : « أن ملاهي الأمير الجيل الغني ، مع ما فطر عليه من رقة الجانب ، ولطف المحادثة ، والبصر بمواقع الكلام ، ومفاعيل المحاورات ، كانت تقوده إلى طرق أنواع الملذات المختلفة من حسنة وسيئة ، فأثر ذلك في شعره ، حتى دفعه تتبع الوصف وذكر المغامرات إلى الفحش في القول والتصوير ، واستعمال تعابير شوه بها الوصف الدقيق والغزل الرقيق ، حتى نعى عليه الأدباء تهره وتهتكه »(١) .

ولم يكن شاعرنا إلا واحداً من هؤلاء الذين عبروا عن مجونهم وخلاعتهم بصورة مكشوفة ومباشرة ، وقد تباينت مواقف النقاد ، فإذا كان الكثيرون قد عارضوا هذا اللون فإن البعض يعطى الشاعر الحرية في التعبير عما بداخله ، ويفصل بين الشعر والواقع فصلا تاما ، ولعل مقولة الأصمعي (أكذبه أعذبه) إن كانت صحيحة تخدم هذا الاتجاه ، وتمضي إلى الفصل بين الشعر والأخلاق . كما سار الغزل الحسي والغزل العذري في اتجاهين متساويين . وإذا كان التهر راجعا إلى الغزل فإن الكثيرين قد رأوا أن تكون المتعة سابقة للتعليم عند الحديث عن أغراض الأدب ، حتى لو كان التهر راجعاً إلى الدين ، فليس لأحد أن ينكر على الشاعر حقه في التعبير والتصوير . ومن أعطوا الشاعر هذا الحق الناقد على بن عبد العزيز الجرجاني الذي قال : « فلو كانت الديانة عاراً على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة عليه بالكفر ... ولكن الأمرين متباينان ، والدين بمعزل عن الشعر »(٢) .

---

(١) فؤاد البستاني — الروائع جـ ٧ ص ٤٠٣

(٢) على بن عبد العزيز الجرجاني . الوساطة ص ٦١

وإذا كان التعهر قد غلب فى الشعر الجاهلى فإن التعفف كان سمة لدى بعض الشعراء مثل عنترة العبسى .

ونرى أن الخلاعة والتعفف يرجعان إلى طبيعة العصر وأذواق الناس ، ولا زال الخلاف قائماً ، فإن لكل لون محبيه ومؤيديه . وإذا جعل الشاعر الفائدة والمتعة فى قرن واحد ، وعبر عن مشاعره وخلجات نفسه بأسلوب عفيف ومعان مستورة كان ذلك أجدى وأسلم حتى لا نأتى فى يوم ونجعل هذا اللون المكشوف بعيداً عن أيدى الكثيرين من الشباب والناشئة .

٤ — أحسن الجاهلية تشبيها :

تميز امرؤ القيس على شعراء عصره بكثرة ما فى شعره من تشبيهات متنوعة انتقل فيها بين المحسوس والمعقول ، والمفرد والمتعدد ، ومستعملا الأداة ، وتاركا لها ، ومتنقلا فى أوجه الشبه بين الصورة والهيئة واللون والحركة .

والهدف من التشبيه عند علماء البيان هو الإيضاح والتقريب بين البعيدين حتى تصير بينهما مناسبة واشتراك(١) .

ويلاحظ على شعر امرىء القيس كثرة ما فيه من تشبيهات متراكمة ومتلاحقة حتى عد البعض صور التشبيه فى شعره ، وجعلها مائتى تشبيه(٢) ، ولذلك لا نعجب إذا وجدنا ابن سلام يذكر عدداً كبيراً من الأبيات التى

---

(١) ابن رشيق العمدة ج ٢ ص ٢٨٩

(٢) الدكتور نصرت عبد الرحمن فى كتابه (الصورة فى الشعر الجاهلى ص ١٨٣)

استشهد بها على حسن التشبيه عند امرىء القيس على غير عادته فى الترجمة للرجال من حيث الاقتصار على عدد محدد من الأبيات للشاعر المترجم له، فضلا عما كرره فى أكثر من موضع بكتابه عن حسن التشبيه عند امرىء القيس قال: «كان أحسن طبقته تشبيها»(١).

وذكر خبراً آخر قريبا من هذا، هو قوله: «كان علماؤنا يقولون: أحسن الجاهلية تشبيها امرؤ القيس ...»(٢).

ولم يقرن ابن سلام هذين الخبرين بشعر يدلل به على قوله، على عكس الخبر الآتى الذى اتبعه بعدد من الأبيات قال: «واستحسن الناس من تشبيه امرىء القيس ....»(٣).

ثم ذكر سبعة عشر بيتا وشطرا من بيت بدون ترتيب من اللامية الثانية التى أولها(٤):

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى
وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

ومن المعلقة التى أولها(٥):

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

---

(١) ابن سلام . الطبقات حـ١ صـ٥٥
(٢) المصدر السابق حـ٢ صـ٥٤٩
(٣) المصدر السابق حـ١ صـ٨١
(٤) الديوان صـ٢٧ (٥) الديوان صـ٨

ونعرض الآن للأبيات التى ذكرها ابن سلام مستشهدا بها على حسن التشبيه عند امرىء القيس . قال(١) :

كأن قلوب الطير رطبا ويابساً
لدى وكرها العناب والحشف البالى

وتقدير البيت كما جاء فى شرح الديوان : « كأن قلوب الطير رطبة العناب وكأنها يابسة الحشف البالى »(٢) .

ولقد استرعى هذا التشبيه انتباه الكثيرين من القدماء ، وإن اختلفوا عن ابن سلام فى بيانهم لسر هذا الإعجاب ، حيث ذكر ابن طباطبا البيت (وغيره) كدليل على امتزاج بعض المعانى ببعض ، وهى ترجع إلى الصورة والهيئة . ولذا جعل هذا التشبيه قويا وحسنا وصادقا(٣) .

أما أبو هلال العسكرى فقد عد هذا التشبيه من بدائع التشبيهات ، لأن الشاعر شبه : « شيئين بشيئين مفصلا — الرطب بالعناب — واليابس بالحشف ، فجاء فى غاية الجودة »(٤) .

وممن تناولوا هذا البيت بالحديث ابن رشيق حيث جعل امرأ القيس فاتحا للشعراء فى تشبيه شيئين بشيئين قال : « وأصل التشبيه مع دخول

---

(١) الديوان ص ٣٨

(٢) الضمير فى (وكرها) للعقاب ، العناب : تمر أحمر غض ذو ماء . الحشف : التمر إذا لم يظهر له نوى . البالى : القديم الفاسد

(٣) ابن طباطبا ، عيار الشعر ص ٢٥ تحقيق الدكتور عبد العزيز المانع طبعة دار العلوم بالرياض (١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ م)

(٤) أبو هلال العسكرى ، كتاب الصناعتين ص ٢٧٢ تحقيق الدكتور مفيد قميحة — دار الكتب العلمية . بيروت الطبعة الثانية (١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م) .

الكاف وأمثالها ، أو كأن وماشاكلها شيء بشيء في بيت واحد ، إلى أن صنع امرؤ القيس في صفة عقاب :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العناب والحشف البالي

فشبه شيئين بشيئين في بيت واحد، واتبعه الشعراء في ذلك»(١) .

أما ابن سنان فقد مثل بهذا البيت للتشبيه المختار ، وبين غرضه ، وغرام الشعراء به فقال : « وهذا من التشبيه المقصود به إيضاح الشيء ، لأن مشاهدة العناب والحشف البالي أكثر من مشاهدة قلوب الطير رطبة ويابسة، وروى عن بشار بن برد أنه قال: وما زلت منذ سمعت بيت امرىء القيس هذا أطلب أن يقع لي تشبيهان في بيت واحد ، حتى قلت :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

شبهت النقع بالليل ، والسيوف بالكواكب ، وهذا تشبيه للمبالغة والتفخيم »(٢) .

وهكذا أخذ القدماء البيت الذي ذكره ابن سلام ، وتحدثوا عنه ، أو نسجوا على منواله ، وكان مثار إعجابهم قدرة الشاعر على تعدد التشبيه في بيت واحد مع أن له بعض الأبيات التي تجاوز التشبيه فيها هذا العدد .

ويلاحظ أن مفردات هذين التشبيهين مستوحاة من البيئة ، فالبيت

(١) ابن رشيق . العمدة حـ ١ ص ٢٩٠
(٢) ابن سنان الخفاجي . سر الفصاحة ص ٢٤٨ الطبعة الأولى بدار الكتب العلمية بيروت (١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م)

يعرض للصيد الذى تفترسه العقاب ، وتحمله إلى وكرها ، ثم تأكل الطرى من قلوب الطير الذى يشبه العناب، وتترك الجاف منها الذى يشبه الحشف البالى وكلها مركبات حسية ساذجة . وكانت العقبان مثار عناية من امرىء القيس فكثيرا ما شبه خيله بها ، ولذا رأيناه يتابع حركتها وهى تحمل الصيد إلى وكرها . ويعد التشبيه عنـــد الجاهليين أبسط التصاوير التى يخلص فيها إلى المعنى بالمقابلة البسيطة من خلال الظواهر الحسية القريبة ، ولم يصل عندهم إلى الحالة المعقدة التى يهدف فيها إلى تقريب الجوهر البعيد. وقال(١) :

كأنى بفتخاء الجناحين لقـــوة
دفوف من العقبان ، طأطات شملال(٢)

وقد شبه فرسه عند تحريكه لها بعقبان سريعة فى دنوها من الأرض وخطفها الصيد ، وتحليقها فى الفضاء . وقال(٣) :

بعجلزة قد أترز الجرى لحمها
كميت ، كأنها هراوة منوال(٤)

فشبه الفرس بالهراوة التى تتخذ من أصول العود .

---

(١) الديوان صـ ٣٨ (فى رواية أبى حاتم عن الأصمعى : صيود من العقبان)

(٢) الفتخاء : العقاب وقد وصفت بذلك للين جناحها . اللقوة : السريعة دفوف : حسنة الدنو من الأرض . طأطأت : دانيت وخفضت وهى جملة معترضة ، شملال . سريعة

(٣) الديوان صـ ٣٧

(٤) العجلزة : الفرس الصلبه الشديدة الأسر ، أترز: أيبس ، الكميت : صفة الفرس ، لونها بين الأحمر والأسود ، وهو أشد الخيل . المنوال : آلة الحائك

وقال(١) :

وصم حوام ما يقين من الوجى
كأن مكان الردف منها على رال(٢)

شبه مؤخرة الفرس (موضع الردف) لإشرافها ، بمؤخر ولد النعامة وهذا الوصف مستحب فى الخيل ، وقال(٣) :

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال(٤)

قال الشاعر : إنه نظر إلى المرأة المشبهة بالنار التى تشب للقفال ، والنجوم كأنها مصابيح الرهبان فى الصحراء ، وجعل ابن طباطبا هذا التشبيه صادقا لقوله (كأنها) وقال(٥) :

كأن الصوار إذ تجاهدن غدوة
على جمزى خيل تجول بأجلال(٦)

---

(١) الديوان ص ٣٦

(٢) فى رواية الأصمعى : وصم صلاب ، صم : جمع أصم ، حوافر صم : صلبة مصمتة ، الحوامى : ميامن حوافره ومياسرها . الوجى : ما يصيب باطن الحافر من الحفا ، الرال مخفف الرأل : ولد النعامة

(٣) الديوان ص ٣١

(٤) القفال : جمع قافل وهو الراجع من سفر

(٥) الديوان ص ٣٧

(٦) الصوار : قطيع بقر الوحش ، وفى رواية أبى حاتم عن الأصمعى (إذ تجهد عدوه) ، جمزى : عدو شديد أو اسم موضع ، أجلال : جمع جل ، وهو ما يوضع على ظهر الفرس ليصان به

شبه سرب البقر أثناء عدوه بالخيل المسرعة وعليها أجلالها البيض .

وقال(١) :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي
ومسنونة زرق كأنياب أغوال(٢)

شبه نصال السهام أو النبل بأنياب الأغوال ، تشنيعاً لها ومبالغة في وصفها »(٣) .

ولقد دارت معظم الصور التشبيهية في الأبيات السابقة حول المحسوسات التي تقع عليها عين الشاعر في حياته بما فيها من خيول وأسراب للبقر وآلات للحرب والقنص وغيرها .

واختار ابن سلام من المعلقة التشبيهات الآتية التي عبر بها الشاعر عن عالم المحسوسات الذي يحيط به في الصحراء . قال (٤) :

مكر مفر مقبل مدبر معاً
كجلمود صخر حطه السيل من عل(٥)

---

(١) الديوان ص ٣٣

(٢) المشرفي : السيف المنسوب إلى قرى الشام أو اليمن التي تشرف على حد الريف . المسنونة الزرق : نصال السهام التي ترى زرقاء لحدتها

(٣) شرح الديوان ص ٣٣

(٤) الديوان ص ١٩

(٥) جمع في هذا البيت بين الطباق والتشبيه . راجع كتابات القدماء عنه (ابن طباطبا ص ٣٦ ، وابن رشيق في العمدة ج ٢ ص ٩٣) وغيرها

وذكر له الأبيات الآتية فى وصف الفرس :

قال (١) :

له أيطــلا ظبى وساقا نعامة
وإرخاء سرحان وتقريب تتفل(٢)

وقد شبه الفرس بأربع تشبيهات بدون أداة وهو كما قال ابن رشيق أول من فتح هذا الباب .

وقال(٣) :

درير كخذروف الوليـد أمره
تقلب كفيه بخيط موصـل(٤)

وقد شبه الفرس بالخذروف فى سرعته وخفته وصوت مروره فى الهواء .

وقال(٥) :

كميت يزل اللبـد عن حال متنه
كما زلت الصفواء بالمتنزل(٦)

---

(١) الديوان ص ٢١

(٢) الأيطل : الخاصرة ، الإرخاء : نوع من السير ليس بالشديد السرحان : الذئب ، التقريب : أن يرفع الفرس يديه معاً ويضعهما معاً ، ويرجم الأرض رجماً . التتفل : الثعلب .

(٣) الديوان ص ٢١

(٤) درير : سريع العدو ، الخذروف : الخرارة التى يلعب بها الصبيان وتسمع لها صوتا .

(٥) الديوان ص ٢٠

(٦) يزل : يزلق ، الصفواء : الصخرة الملساء .

وشبة بذلك ظهر الخيل حالة انزلاق اللبد عليها بالصخرة الملساء .

وقال(١) :

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل(٢)

شبه حمرة دم الوحش على نحر الفرس بعصارة الحناء على الشيب ،

وقال(٣) :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهمـــوم ليبتلى(٤)

شبه الليل فى تموجه بأنواع الهموم ، بموج البحر فى تراكمه وشدة ظلمته .

وقال(٥) :

فيا لك من ليل كأن نجومه
بأمراس كتان إلى صم جندل(٦)

شبه نجوم الليـل بأنها مشدودة بحبـال من الكتان إلى صخور صلاب .

---

(١) الديوان ص ٢٣

(٢) الهـادمات . أوائل الوحش ، المرجل : المسرح .

(٣) الديوان ص ١٨

(٤) السدول : الستور .

(٥) الديوان ص ١٩ مع اختلاف الرواية .

(٦) أمراس كتان: جبال من كتان: الصم : جمع الأصم وهو الصلب، الجندل : الصخرة .

وقال(١) :

. . . . . . ترائبها مصقولة كالسجنجل(٢)

والسجنجل هي المرآة بالرومية ، أى أنه شبه صدر المرأة البراق اللون المتلألىء الصفاء بتلألؤ المرآة .

وقال(٣) :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت
تعرض أثناء الوشاح المفصل(٤)

وأضاف ابن سلام بعد أن ذكر البيت فقال : « فأنكر قوم قوله : « إذا ما الثريا فى السماء تعرضت » وقالوا : الثريا لا تعرض . وقال بعض العلماء عنى الجوزاء . وقد تفعل العرب بعض ذلك »(٥) ، وللقدماء كلام كثير حول هذا التشبيه الذى قصد به أن يشبه تعرض الثريا بتعرض الوشاح ، من غير أن يستعمل أداة التشبيه .

---

(١) الديوان ص ١٥ ، الشطر الأول : مهفهفة بيضاء غير مفاضة .
(٢) الترائب : جمع تريبة وهى موضع القلادة من الصدر .
(٣) الديوان ص ١٤
(٤) تعرضت : أرتك عرضها ، الأثناء : النواحى ، الوشاح : قلائد يضم بعضها إلى بعض ، المفصل : المرصع الذى جعل فيه بين كل خرزتين لؤلؤة .
(٥) ابن سلام . الطبقات جـ ١ ص ٨٩

وقال(١) :

يظل العـــذارى يرتمين بلحمها
وشحم كهـــداب الدمقس المفتل(٢)

شبه شحم الناقة بما تدلى من أطراف الثوب الأبيض المأخوذ من الدمقس .

وقد ذكر ابن سلام الأبيات السابقة مستدلا بها على حسن التشبيه عند امرىء القيس مكتفيا بذوقه الفطرى فى هذه الاختيارات من غير أن يكشف عن نقد تفسيرى أو موضوعى لهذا الإعجاب ، وكان ذلك منهاج القدماء فى نقدهم ، وإن اعتنق القليل منهم بعض القواعد البسيطة من أطر النقـد الموضوعى .

وإذا أعدنا النظر فى التشبيهات السابقة وجـــدناها تكشف عن الظواهر الحسية التى تقع عليها عين الشاعر ، حيث كان التشبيه وسيلة ميسرة للتعبير . وكذلك لم يأت وجه الشبه صورة منتزعة من عدة أمور بأسلوب التشبيه الذى عرف فيما بعد باسم التمثيل . وإنما جاءت الصورة حسية . ولم يتجاوز وجه الشبـه حالة الإفراد أو التعدد ، ولم يعمـق إلى حالات التركيب المعقدة . أى أن الشاعر تناول التشبيه فى أبسط صورة ومستعينا فى ذلك بمظاهر الطبيعة التى تعامل معها من كل وجوهها ، حيث لفت نظره ما فيها من ليل ونجوم وجبال وبحار وسيول وحيوان إلى غير ذلك من مركباتها الصامتة والمتحركة ، كما استحوذ الفرس على غالبية

---

(١) الديوان ص ١١

(٢) هداب الدمقس : ما تدلى من الثوب المصنوع من الحرير الأبيض .

الصور التشبيهية إذ أن شاعرنا واحد من أبرز شعراء الخيل، فقد خبرها وعرف كل صغيرة وكبيرة فيها. كما أن للمرأة نصيب من هذه التشبيهات التي تميزت بالحسية التامة، وابتعدت من حجب المعنويات المتخيلة.

لقد اختار الجمحي من القصيدتين أبياتاً مفردة غير متلاحقة أو مترتبة، ولو جعل اختياره منظماً أو خاضعاً لنوعية واحدة من نوعيات التشبيه لأمكن التعرف من خلال ما ذكره على أسلوب امرىء القيس في التشبيه والبيان.

٥ — من شعر الوصف:

اختار ابن سلام من شعر الوصف عند امرىء القيس ثلاثة نماذج، جاء الأول منها في وصف الفرس تأكيداً على مقولته السابقة عند بيان أفضلية امرىء القيس.

« ... وشبه الخيل بالعقبان والعصي وقيد الأوابد ... » وجعل النموذج الثاني في وصف معزى، وسوف نذكر أو نستخلص بعض ما يمكن أن يكون دافعاً لهذا الاختيار، أما النموذج الثالث فقد سبق ببيتين في وصف المطر لعبيد بن الأبرص أو لأوس بن حجر. كما روى عن يونس بن حبيب سبعة أبيات لعبد بني الحسحاس في الغرض نفسه، ثم ذكر الجمحي ثمانية أبيات أخرى لامرىء القيس في وصف المطر: لتكون آخر ما انتقاه من شعر الوصف.

وبذلك عرض ابن سلام لثلاثة نصوص من شعر امرىء القيس، وهي في الفرس، وفي وصف المعزى وفي وصف المطر. وذكر النموذج الأخير مشفوعاً بنصين آخرين ليقف الناس على بعض المقدمات في نقد

الشعر من خلال الموازنة التي اقتصر فيها على النصوص الشعرية من غير استعراض لأوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف ، كما تأصلت قواعدها فيما بعد .

(أ) وصف الفرس :

نعود إلى ما ذكره امرؤ القيس في وصف الفرس ، قال(١) :

بذى ميعة كأن أدنى سقاطه
وتقريبه هونا ، ذآليل ثعلب(٢)

عظيم ، طويل ، مطمئن ، كأنه
بأسفل ذى ماوان ، سرحة مرقب(٣)

له أيطلا ظبى ، وساقا نعامة
وصهوة عير قائم فوق مرقب(٤)

---

(١) الجمحى : طبقات فحول الشعراء جـ ١ ص ٩٠، ص ٩١

(٢) الميعة : النشاط ، وقوله: بذى ميعة متعلق بقوله في البيت السابق : وقد اغتدى قبل العطاس بسابح .

السقاط : العدو المسترخى ، والتقريب : ضرب من العدو ، ذآليل : جمع ذألان وهو عدو فيه نشاط وسرعة .

(٣) مطمئن : ساكن ، ماوان : موضع ، والسرحة : شجرة طويلة يستظل بها ، المرقب : الأرض المشرفة على ما بعدها .

(٤) العير : حمار الوحش .

له جوجؤ حشر ، كأن لجامه
يعالى به فى رأس جذع مشذب(١)

وعينانان ، كالماويتين ، ومحجر
إلى سند مثل الرتاج المضبب(٢)

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه
تقول هزيز الريح مرت بأثأب(٣)

كأن دماء الهاديات بنحره
عصارة حناء بشيب مخضب(٤)

واختار الأبيات بدون ترتيب من بائية امرىء القيس :

خليلى مرا بى على أم جندب
نقض لبانات الفؤاد المعذب(٥)

التى عارض بها علقمة بن عبدة (الفحـــل) ، وقد اضطرب

---

(١) الجؤجؤ : الصدر .
(٢) الماويتان : المرآتان ، المحجر : العظم الذى حول العين .
سند : مرتفع ، الرتاج : الباب ، المضبب : المغلق بالحديد ويروى « مثل الصفيح المنصب » .
(الديوان ص ٣٨٥) .
(٣) الشأو : الشوط ، العطف : الجانب ، هزيز الريح : صوتها ، أثأب : شجر واسع الظلال ينبت فى بطون الأودية
(٤) مخضب : أى يخضب .
(٥) الديوان ص ٤١

الرواة فى القصيدتين وتداخلت الأبيات فيهما ، ولذا كثر انتقاد الناس لهما .

وجاء ماذكره ابن سلام من هذه القصيدة مكملا لصفة الفرس التى بدأها فى اختياراته السابقة عند ذكر التشبيه.

وللفرس عند امرىء القيس صورة عامة تناول فيها العديد من الصفات مثل السرعة والكرم والعتق والقوة والنشاط وغيرها . وقد استكمل الشاعر الصورة المفصلة لهذا الحيوان فى كثير من القصائد(١).

وقد عمد امرؤ القيس فى البائية المذكورة إلى تقديم صورة للفرس اعتبرها الكثيرون الصورة المثلى للجواد العربى ، لذا احتذاها الشعراء من بعده وتأثروا بها فى أشعارهم . ونعود إلى الأبيات المختارة فنرى فيها تجسيما لأعضاء الحصان وحركاته . إنه جواد سريع ، عظيم ، قوى ، متناسق الجسد ، يشبه الظبى فى خاصرتيه ، والنعامة فى ساقيها ، والعير فى ظهره ، وله صدر ضيق ، وعنق طويل ، وعينان لامعتان صافيتان ، وعظم محكم ، وفى جريه وابتلال جانبه تسمع له صوتا كحفيف الريح بالأشجار وإذا خرج من صيده رأيت دماء الصيد تخضب نحره . وهذه الأوصاف جزء من الصورة العامة لفرس امرىء القيس .

وقد استعمل الشاعر التشبيه فى سائر الأبيات السابقة ، كأداة بيانية لتقريب صورة الحصان الذى وصفه فى النص المذكور من خلال رحلة صيد . وجاء المشبه به صورة من الطبيعة الصامتة أو المتحركة تعبيرا عن شغفه بمظاهرها المتنوعة حيث شبه الحصان فى جريه المسترخى بجرى

---

(١) مثل القصائد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٨ ، ٩ ، ١٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ وغيرها من القصائد والمقطوعات الأخرى التى جاءت بالديوان.

الثعلب الماي. بالنشاط والسرعة ثم شبهه بالشجرة الكبيرة ، وبالظبي في خصره ، وبالنعامة في ساقها ، وبالعير في صهوته ، وبالجذع المشذب في طوله واستوائه ، وبالمرآتين في اللمعان والصفاء . كما شبه صوت جريه بصوت الريح في احتكاكها بالأشجار ، وجعل دماء الصيد في نحره كأنها شيب مخضب ، وبذلك يتضح لنا أن الأبيات التي ذكرها الجمحي لاتقدم إلا جزءا من صورة الفرس عند امرىء القيس ، ولا تكتمل الصورة إلا بذكر ماجاء عن الفرس في البائية وفي بعض القصائد الأخرى كما سبق القول.

والشعر — كما قال ابن رشيق — راجع إلى باب الوصف، ولاسبيل إلى حصره واستقصائه قال : «وأحسن الوصف مانعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع ... وقال قدامة : الوصف إنما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات(١) .

ويعد شعر الوصف من أوسع الأبواب في الشعر الجاهلي ؛ لاتساع مناظر الحياة المحسوسة والمتخيلة ، فضلا عما حظيت به الطبيعة من نصيب كبير من شعر الوصف سواء أكانت صامتة مثل الليل والمطر والطلل والبرق والرعد والبئر ، أم كانت متحركة مثل الفرس والناقة والثور والوحش والأسد والعير وكلاب الصيد وذكر النعام وغيرها من المحسوسات .

ويمثل الفرس في حياة الجاهليين أهمية كبيرة للاستعانة به في الحروب وفي رحلات الصيد ، وفي الركوب والزينة ، وقد عبر امرؤ القيس عن هذه الحالات في شعره ، وصاغ منها صورة مثالية للجواد العربي في القديم .

---

(١) ابن رشيق . العمدة ج ٢ ص ١٩٤

ففي حياته الأولى قبل أن يكون مطالبا بالثأر لأبيه انصرف إلى صيده ولهوه ولذاته ، فقدم صورة للفرس تناول فيها وصفه أثناء رحلات الصيد ، وعبر عن ذلك في المعلقة ، وفي غيرها من القصائد ، وقد ذكر ابن سلام بعضا من الأبيات مثل النموذج الأخير والأبيات التي مثل بها للتشبيه ، والتي تحدث امرؤ القيس فيها عن الفرس .

ونلاحظ أن الشاعر عندما يتحدث عن رحلته للصيد يذكر الفرس، ويشبه بالعقاب والخذروف والجلمود والصخرة الملساء وغيرها من كائنات الطبيعة ومركباتها . وكان يربط — بقصد أم بدون قصد — بين الفرس والماء أو السيل ، وكأنهما سبب واحد من أسباب الحياة ، كما اختار الصفات الملائمة لحصانه في الحالة التي ينشدها ، ويعبر عنها ، فجواد الصيد يختلف في بعض الصفات عن جواد الحرب ، وهذان يختلفان عن جواد الركوب والزينة ، وفي حياته الثانية التي نهض فيها للمطالبة بالثأر لأبيه انخرط في وصف الفرس المجهز للحرب ، وهو إما متحدث عن غاراته السابقة في مقام الفخر والتحدي ، وإما متحدث عن غاراته على بني أسد ، وهو مظهر الشكوى والتحسر ، وربما تحدث عما تصير إليه الخيل بعد الحرب لكننا لم نطالع له وصفا مفصلا للفرس أثناء الحرب حتى نتبين دورها في القتال وتحقيق النصر .

وقد أرجع البعض ذلك إلى سببين أولهما « نفسية الشاعر المتعبة اليائسة التي تنكرت لها الظروف وتغيرت بها الأحوال وتوالت عليها الخطوب»(١) وثانيهما «أنه لم ينتصر على بني أسد انتصارا حقيقيا ولم ينل ثأره منهم ، ولم يسترد شيئا من ملك آبائه ، بل أصبح نهبا للطامعين من

---

(١) د. كامل سلامة . وصف الخيل في الشعر الجاهلي ص ٢٩١ دار الكتب الثقافية بالكويت (١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م) .

القبائل العربية»(١) ، ومن شعره فى وصف الخيل المجهزة للحرب قوله(٢) :

وإن أمس مكروبا فيارب غارة	شهدت على أقب رخو اللبان
على ربذ يزداد عفوا إذا جرى	مسح حثيث الركض والذألان
ويخدى على صم صلاب ملاطس	شديدات عقد لينات متان

وقوله(٣) :

وأركب فى الروع خيفانة	كسا وجهها سعف منتشر
لها حافر مثل قعب الوليـ	ـد ركب فيه وظيف عجر
لها ثنن كخوافى العقـا	ب سود يفئن إذا تزبئر

وقد تناول الشاعر فى القصيدة التى منها هذه الأبيات وصف الفرس المجهزة للحرب وصفا تفصيلا ظاهريا مكتملا حيث أبرز معظم أجزاء جسمها ، ووصف إقبالها وإدبارها ، وإعراضها وسرعتها ، ووثباتها وعدوها وصفا مرتبا تشعر معه بمعرفة الشاعر بكل صغيرة وكبيرة تتعلق بالخيل .

وقال(٤) :

وأعددت للحرب وثابة	جواد المحثة والمرود
سبوحا جموحا وإحضارها	كمعمعة السعف الموقد

(١) المرجع السابق ص ٢٩١

(٢) الديوان ص ٨٦ من القصيدة الثامنة .

(٣) الديوان ص ١٦٣ (٤) الديوان ص ١٨٧

وهكذا ألح الشاعر في كل ما ذكر على أهم صفة في الخيل وهي السرعة حتى رأيناها مكررة ومؤكدة في أكثر ما قاله عن الفرس على اختلاف مهامه وتبعاته، كما نجـــد في شعره عن الخيل قسما تناول فيه الحديث عن الفرس كأداة من أدوات الركوب، ومظهر من مظاهر الزينة(١). فلا غرابة إذا أحبها — كسائر العرب — لطول الصحبة وكثرة الملازمة، وللاستعانة بها في الأغراض المختلفة التي يحتاجها البدوي والحضري.

وقال(٢) :

كأني لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروى، ولم أقل
لخيلي كرى كـــرة بعد إجفال

وقد جمع الشاعر بين حبه لركوب الخيل، وحبه للمرأة، حتى انتقده البعض في ذلك إلا أنه أراد الربط بين لذتين وجعلهما في قران واحد، وهذا ما خفي على النقاد والتبس عليهم.

وقال(٣) :

فظلت وظل الجون عندي بلبده
كأني أعـــدى عن جناح مهيض

ولننظر كيف أبان الشاعر عن تمتعه وحبه للخيل من خلال اتكائه عليه «كما يتكىء ذو الجناح الكسير على جناحه»(٤)، وذكر ابن

---

(١) سجل القرآن الكريم ذلك في حديثه عن الانعام إذ قال :- «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ...» (النحل من الآية الثامنة).

(٢) الديوان صـ ٣٥ (٣) الديوان صـ ٧٤

(٤) شرح الديوان صـ ٧٤

الكلبي أن الجون في اليمن فرس إمرىء القيس،(١) كما ترددت كلمة الجون في مواضع متعددة من الديوان .

وصف امرؤ القيس جواده في سائر أحواله، ولم يكن ما قاله في حدود الأبيات التي ذكرها ابن سلام ، فله العديد من القصائد والمقطوعات التي صور فيها الفرس تصويراً تاماً مستعيناً بالتشبيه على إبراز هذه الصورة الحسية ، والتي ارتبطت بمظاهر الطبيعة ، إذ لم يتجاوز الجاهلي الرؤية الحدقية إلى الرؤية الباطنية إلا في مواضع قليلة لا تغير من حقيقة الرابطة بين الشاعر والصحراء بما فيها من مظاهر مختلفة ترجع إلى طبيعتها الصامتة أو تعود إلى الكائنات التي تجول فيها ، وتتنقل بين جوانبها المختلفة .

(ب) وصف معزى :

ذكر ابن سلام نموذجاً لإمرىء القيس في وصف معزى قال فيه(٢):

تروح كأنها مما أصابت ... معلقـــة بأحقيها الدلى(٣)
إذا ما قام حالبها أرنت ... كأن الحي صبحهم نعي(٤)

وقد وصف أمرؤ القيس في هذين البيتين المعزى التي قدمت له عندما كان

---

(١) ابن الكلبي . أنساب الخيل ص ٣ تحقيق أحمد زكي طبع الهيئـــة المصرية للكتاب عام ١٩٧٧ م .

(٢) الجمحي ، الطبقات جـ ١ ص ٩١ وقد اختلف الرواة في رواية هذه المقطوعة بما فيها البيتان المذكوران .

(٣) تروح : ترجع بعد الرعي عشيا ، الأحق : الكشح والخصر والجانب . الدلى : جمع دلو .

(٤) أرنت : صاحت حزنا . النعي : خبر الموت .

فى طيء ، وقد سلبت دوابه ورواحله ، فقدموا له هذه المعزى التى سخر منها . ولا نعتقد أن الأصمعى كان على حق فى إنكاره نسبة هذه الأبيات لإمرىء القيس بحجة أنه ملك ولا يليق به أن يقول هذا بعد أن قال(١) :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفانى ولم أطلب قليل من المال

وسبق ذكر هذا الرأى والتعقيب عليه فى موضع متقدم بهذا الكتاب .

لم يذكر ابن سلام سببا لاختياره هذين البيتين من شعر الوصف عند امرىء القيس مع أن له عشرات الأبيات فى وصف الحيوانات الأخرى التى تشكل أهمية كبرى لأهل الصحراء والبوادى ، وربما كان السبب راجعاً إلى رغبة ابن سلام فى التأكيد على شمولية الوصف عند شاعرنا إذ لم يترك حيوانا بين جوانب الصحراء التى عاش فيها ، وتنقل بين ربوعها إلا وصفه ، وتحدث عنه سواء أكان عظيم الأهمية مثل الفرس أو قليل القيمة مثل المعزى . ونؤكد أن الشاعر قد ساق هذا الوصف فى مرحلة حرجة من حياته إذ كان مطارداً من قبل أعدائه ، ومتنقلا بين أحياء العرب . وقد أعرب عن سخريته من المعزى التى تذهب إلى المرعى ، وترجع وكأن الدلاء قد علقت بجنبيها ، فإذا تقدم إليها الحالب سمع لها صوتا كأنه صوت الحى إذا جاءهم خبر بموت عزيز عليهم ، ولا تتجاوز هذه المقطوعة الشعرية أربعة أبيات(٢) . وهو قدر يكشف عن الضيق والألم ، وفقد الرغبة فى الكلام .

---

(١) الديوان ص ٣٩

(٢) فى بعض الروايات مثل رواية أبى حاتم .

ونلاحظ أن الشاعر حريص على الجانب التصويرى فى هذا الوصف حيث اتخذ من التشبيه أداة لإبراز المعزى فى كثرة أكلها وقلة حلبها ، وهى صورة تتوافق مع الحالة النفسية التى عاشها فى تلك الفترة ، على أن الدافع الحقيق لهذا الاختيار من قبل الجمحى غير واضح إلا أن يكون ذلك راجعا إلى التنويع فى اختياراته ، وحرصه على التمثيل بمعظم ماذكره امرؤ القيس حتى لو كان قوله مخصصا فى وصف حيوان بسيط مثل المعزى .

(ج) وصف المطر .

يمثل الماء أهميـــة كبيرة للإنسان فى البادية ، ولذا كان الجاهلى يتحدث عنه فى شعره ، ويصوره مطراً وغيثا ووابلا وسيلا ، أو يتحدث عنه فى بئره أو فى تأثيره على الطبيعة . كما تناول مقدماته كالرعد والبرق ونحوها بالوصف والتصوير ، ولا عجب إذا تعددت أوصافهم للماء الذى يرتبط فى سيله وطوفانه بالمطر .

لقد ذكر ابن سلام فى وصف المطر بيتين لامرىء القيس ، تأكيداً على إجادته وتفوقه على بعض الشعراء الآخرين . ولو أبان الجمحى عن سر اختياره لهذين البيتين ، فضلا عن تأكيد جودتهما — كما قال ذو الرمة — لأضاف أبعاداً جديدة للنقد الموضوعى فى مراحله الأولى ، ولكنه اقتنع بما قاله ذو الرمة ، فنقل البيتين ، ثم أضاف محقق الكتاب الأبيات الستة الأخرى (فى متن الكتاب) تعبيراً عن إعجابه بهذا الشعر(١) .

---

(١) كان من الأولى أن يجعل إضافته فى هامش الكتاب لا فى متنه وقد ظننت أن الاختيار بأكله من صنيع ابن سلام ، حتى تنبهت إلى الأقواس الموضوعة .

قال امرؤ القيس(١) :

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحرى وتدر(٢)
تخرج الود إذا ما أشجذت وتواريه إذا ما تشتكر(٣)

وهذان البيتان هما اللذان اختارهما ابن سلام كما قال ذو الرمة ، أما الأبيات التالية فهى التى أضافها محقق الكتاب :

وترى الضب خفيفا ماهرا ثانيا برثنه ما ينعفر(٤)
وترى الشجراء فى ريقها كرءوس قطعت فيها الخمر(٥)
ساعـــة ، ثم انتحاها وابل
ساقط الأكناف واه منهمر(٦)

---

(١) ابن سلام . الطبقات جـ ١ ص ٩٤ والديوان ص ١٤٤

(٢) الديمة : المطر الدائم فى سكون ، الوطف : دنو السحابة من الأرض.طبق الأرض : وجهها .

(٣) الود : الوتد أو اسم جبل ، أشجذت : أسكنت وأقلعت ، تشتكر : تهل بالمطر .

(٤) ما ينعفر : لا يصيبه التراب .

(٥) الشجراء : الشجر الكثير ، أو الأرض الملتفة به ، ريق الديمة : أولى دفعاتها الخمر : جمع خمار وهو غطاء رأس المرأة ، والعمامة بالنسبة للرجل .

(٦) ساعة : متعلق بالبيت الأول : انتحاها : اعتمدها وقصدها والضمير راجع إلى الديمة ، الوابل : المطر الشديد .

راح تمريه الصبا ، ثم انتحى   فيه شؤبوب جنوب منفجر (١)
ثج حتى ضاق عن آذيه   عرض خيم فجفاف فيسر (٢)
قد غدا يحملني في أنفه   لاحق الإطلين محبوك ممر (٣)

لقد وصف الشاعر المطر في أول نزوله عند ما يغشى وجه الأرض ، ثم عندما يسكن فيبدو الود ، أو يشتد فلا يكاد يرى منه شيء حتى يسبح الضب ولا تتعفر برائنه ، ولا يبدو من الأشجار إلا رءوسها ، وكأنها عمائم بيض ، ويزداد المطر وينهمر بغزارة . وينتقل الشاعر إلى تأثير الرياح به فيذكر صنيع الصبا التي تمري السحاب ، وتلاق الجنوب ، فتشققه وتدفعه فيوالي سقوطه وهطوله ، وعند ذلك يغمر الوديان فتضيق به ، ثم يندفع السيل ، خاف الفرس الضامر الكشحين ، القوى ، مؤكداً على سرعة فرسه ، وهي الصفة التي يحرص عليها ويكررها دائما ، وهكذا اقترن وصف المطر بوصف السيل ، واقترن هذا الأخير بوصف الفرس ، وهذه الأشياء ذات علاقة حميمة في حياة الجاهلي لارتباطها بمكانه وزمانه .

وإذا كانت الأبيات المذكورة في وصف المطر — كما تقدم — لكننا نراها مقدمة لوصف الفرس ، فقد تحدث عن الديمة ، وصور اندفاعها في الأودية بسرعة كبيرة ، حتى تجمعت كسيل جارف لم يلحق - على قوته - بفرس الشاعر .

---

(١) راح : عاد السحاب بالمطر آخر النهار ، تمريه تحركه ، الصبا : ريح تهب من الشمال وهي أحد الرياح ، الشؤبوب : الدفعة من المطر ، الجنوب : ريح تدفع المطر بغزارة .

(٢) ثج المطر : صب صباً كثيراً حتى ضاقت به ، خيم ، وجفاف ويسر : أسماء أودية .

(٣) في أنفه (المطر) ويقصد السيل ، لاحق الإطلين : ضامر الكشحين محبوك : مدمج الخلق ، ممر : محكوم الفتل .

٦ — الاحتذاء :

ذكر ابن سلام بيتاً لامرىء القيس من معلقته وهو قوله :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون : لاتهلك أسى وتجمل

ثم أتبعه ببيت لطرفة بن العبد من معلقته أيضاً وهو قوله :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون : لاتهلك أسى وتجلد

ولم يذكر ابن سلام تعليقاً حول البيتين المتفقين فى كل شىء باستثناء الكلمة الأخيرة فى كل منهما يؤكد به أخذ شاعر من آخر ، وإن كان تقديمه لبيت امرىء القيس فى الذكر وسبق شاعرنا لطرفه فى الزمن يؤكد أخذ المتأخر من المتقدم . على أن هذا الاستشهاد الذى لم يصحب بتعليق كان فاتحة لمن جاء بعد ابن سلام فى طرح قضية الأخذ والسرقة بين الشعراء طرحاً جديداً موسعاً .

الفصل الثاني

الشعر والشعراء لابن قتيبة (١)

الشعر والشعراء لابن قتيبة واحد من أمهات كتب الأدب والنقد والتراجم التي لا يستغني عنها أديب أو باحث فيما يتعلق بالمراحل الأولى من حياة التأليف الأدبي، حيث خطا به صاحبه بعض الخطوات في طريق النقد، وإن اختلف عن سلفه (ابن سلام) ومعاصره (الجاحظ) في التأليف والكتابة.

بدأ ابن قتيبة كتابه بمقدمة ضافية شرح فيها منهجه في التعريف بالشعراء، ثم بسط القول في بعض القضايا النقدية التي سنعرض لها بالبيان والإيضاح والتعليق، كما ترجم في متن الكتاب للمشهورين من الشعراء، قال: «هذا كتاب ألفته في الشعراء أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم، وأحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم، وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم. وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وماسبق

---

(١) ابن قتيبة هو: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المولود في عام ٢١٣ هـ ببغداد أو بالكوفة، والمتوفى عام ٢٧٦ هـ ببغداد على أرجح الأقوال. كان ابن قتيبة عالما موسوعيا في الأدب واللغة والنحو وعلوم القرآن والحديث وغيرها من المعارف، كشأن القدماء من أمثال الجاحظ، فله زهاء ثلاثمائة مصنف، طبع منها قرابة خمسة عشر كتابا، منها: الشعر والشعراء، وأدب الكاتب، وعيون الأخبار، والمعارف، وهي متداولة بين أيدي الناس.

إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون . وأخبرت (فيه) عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التى يختار الشعر عليها ويستحسن لها ... »(١) .

وقد ترجم لستة ومائتين من الشعراء بين جاهلى ومخضرم وإسلامى وعباسى(٢) مع الاستشهاد بالمأثور من أقوالهم وأشعارهم . وكان اختياره للمترجم لهم مبنيا على مبدأ الشهرة ، وهم الشعراء « الذين يقع الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب وفى النحو ، وفى كتاب الله عز وجل ، وحديث رسول الله ﷺ »(٢) .

كما اختار من ترجم لهم من بين المشهورين ، لاستحالة أن يجمع كل الشعراء القدماء والمحدثين (على عصره) فى هذا الكتاب ؛ لأنهم « ليسوا بمنزلة رواة الحديث والأخبار والملوك والأشراف ، الذين يبلغهم الإحصاء ويجمعهم العدد »(٣) .

ثم أكد على كثرة الشعراء فى الجاهلية والإسلام فهم أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفذ عمره فى التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال ... »(٤) .

وقد بسط ابن قتيبة هذا القول وأكده ، ودلل عليه برواية مرفوعة إلى كردين بن مسمع ، ذكرت أن فتيانا جاءوا إلى أبى ضمضم ، فأنشدهم لمائة شاعر ، أو لثمانين شاعراً ، كلهم اسمه عمرو ، حتى عد الأصمعى وخلف الأحمر ، فلم يقدرا إلا على ذكر ثلاثين — ولم يكن أبو ضمضم بأروى الناس

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ١ ص٦٥ تحقيق أحمد شاكر الطبعة الثالثة عام ١٩٧٧م .

(٢) ترجم للشعراء العباسيين الذين عاشوا حتى أوائل القرن الثالث الهجرى .

(٣) الشعر والشعراء جـ١ ص ٦٥ (٤) المصدر السابق جـ١ ص ٦٦ .

« وما أقرب أن يكون من لا يعرفه من المسمين بهـــذا الإسم أكثر ممن عرفه » (١) .

وأضاف ابن قتيبة إلى ذلك أدلة أخرى في التأكيد على كثرة الشعراء القدماء والذين سقط الكثير من شعرهم ، ولم يحمله الرواة والنقلة إلى عصر التدوين .

ووجد على عصره كثيراً من الناس ليس لهم إلا الشئ اليسير من الشعر ، ومن المتعذر عليه أن يجمع في كتابه أكثر الناس ، « لأنه قل أحد له أدنى سكة من أدب ، وله أدنى حظ من طبع إلا وقـــد قال من الشعر شيئاً ، ولاحتجنا أن نذكر صحابة رسول الله ﷺ وجلة التابعين ، وقوماً كثيراً من حملة العلم ، ومن الخلفاء والأشراف ، ونجعلهم في طبقات الشعراء »(٢) . وهو بذلك لا يذكر في كتابه من غلب عليه غير الشعر .

وهكذا استطاع ابن قتيبة أن يبرهن على سلامة منهجه في الاختيار . وإن كان بعض الشعراء المترجم لهم لم يصلوا إلى مرتبة الشهرة التي عناها إلا إذا سلمنا بضياع الكثير من الشعر ، وعند ذلك تهتز شهرة الشاعر ، ويسلك في عداد المغمورين بعد أن كان مشهوراً ذائع الصيت ، كأبي الغول (النهشلي)(٣) وشبيل بن ورقاء(٤) وغيرهما .

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٦٨

(٣) ترجمته في الجزء الأول ص ٤٣٦

(٤) ترجمته في الجزء الأول ص ٤٥٩

ترتيب الشعراء .

لم يجعل ابن قتيبة الزمن معياراً فى ترتيبه ، للشعراء ، كما فعل ابن سلام فى الطبقات ، فكثيراً « ما يذكر الجاهلى بعد المخضرم أو الإسلامى قبل الجاهلى أو بعد العباسى »(١) .

حيث بدأ بامرىء القيس ، فزهير ، ثم ذكر ابنه كعبا ، وعاد إلى الجاهليين ، فذكر النابغة : فالمسيب بن علس ، متناولا كل شاعر تناولا مستقلا على عكس ابن سلام الذى قسم الشعراء إلى طبقات. وهذا التبسط من ابن قتيبة جعله يقدم الشعراء كيفما اتفق ، وبدون ترتيب ، ومن غير أن يصرح بالاعتبار الذى جعله يقدم من قدم أو يؤخر من أخر ، وهكذا سار فى كتابه بدون منهج ثابت فى الترتيب . ويبدو أن مسألة تقسيم الشعراء إلى طبقات باعتبار الزمن لم ترق لابن قتيبة ، ولذا خالف سلفه ابن سلام فى الاختيار والترتيب ، قال : « ... ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر (منهم) بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العـــدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه »(٢) .

وقد انطلق ابن قتيبة من مسألة ترتيبه للشعراء إلى التأكيد على القضية التى شغلته وأرقته ، وهى قضية القدم والحداثة فى الشعر فقال : « إنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه فى متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه . أو أنه رأى

---

(١) عبد العزيز عتيق . تاريخ النقد الأدبى ص٣٧٧، دار النهضة العربية بيروت الطبعة الرابعة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦م
(٢) الشعر والشعراء جـ١ ص ٦٨

قائلة »(١) . ولعله قصد بهذا القول أسلافه الذين لم يسايرهم فى منهجهم الأدبى كالجمحى وأبى عمرو بن العلاء وغيرهما ممن كانوا يتعصبون للقديم من الشعر والشعراء . وقد ذكر ابن قتيبة رأيه فى جرأة وصراحة ، ودلل على صواب رأيه فقال : « ولم يقصر الله العلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا فى عصره ، وكل شرف خارجية(٢) فى أوله ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين : وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته »(٣) .

وهذه أهم ميزة فى الطرح النقدى لابن قتيبة إذ لم يفصل فى الشعر بين القديم والمحدث فكل منهما يأتى جيداً ويأتى رديئا . والقديم فى زمنه كان محدثا جديداً ، إذ احتسب جريراً ، ورفاقه — الذين كانوا محدثين عند أبى عمرو — قدماء ، وأكد على أن الشعراء المحدثين على عصره سيكونون قدماء لمن يأتون بعده ، وقال : « فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له . وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه »(٤) .

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٦٨

(٢) الخارجية : الذى يخرج ويعتمد على نفسه من غير أن يكون له قديم .

(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٦٩

(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٦٩

قضايا نقدية :

ذكر ابن قتيبة فى باق المقدمة بعض القضايا النقدية : حيث تحدث عن أقسام الشعر ، وجعله أربعة أضرب ، ومثل لكل نوع ، فالضرب الأول : ما حسن لفظة وجاد معناه ، والثانى : ما حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى . والثالث : ماجاد معناه وقصرت ألفاظه ، والرابع : ما تأخر معناه وتأخر لفظه ، وقد تأثر ابن قتيبة فى تقسيمه للشعر ونقده بالنزعة الإحصائيه التقريرية ، فأغفل حق الذوق فى ضمه للمقاييس التى يحكم بها على جودة الشعر . وبسط القول فى واحد من قضايا النقد وهى مشكلة اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما وأثرهما فى جودة الشعر ورداءته ، وقدم نظريته باعتبار أن الشعر عنصران لفظ ومعنى ، وكشف عن مقياس جودة المعنى وحسن الصياغة ، كما أكد على مذهبه بأكثر من نموذج،مع رفض التسليم بمعظم ما ذكره أسلافه ومعاصروه، وإن استشهد بأقوال بعض القدماء فى تعليقه على الأبيات التى استحسنها أو استقبحها والتى خلت هذه الأقوال من التعليل والإيضاح ، كقولهم : « هذا أبدع بيت قالته العرب» أو « هذا شعر بين التكلف،ردىء الصنعة » أو « لم يقل فى الكبر شىء أحسن منه » (١) إلى غير ذلك من الأقوال التى تنسب إلى ابن قتيبة أو إلى سابقيه من النقاد والرواة .

وقد عرض لرواية تتعلق بشاعرية امرىء القيس فقال : « وقال العتبى : أنشد مروان بن أبى حفصة لزهير فقال : زهير أشعر الناس ، ثم أنشد للأعشى فقال : (بل) هذا أشعر الناس ، ثم أنشد لامرىء القيس فكأنما سمع به غناء على شراب فقال : امرؤ القيس والله أشعر الناس» (٢)

---

(١) انظر المصدر السابق ج ١ ص ٧١

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٨٨

وبعد أن نقل هذا الخبر انصرف إلى قضية أخرى من غير أن يذكر شيئا يعبر به عن وجهة نظره .

وقد أكد على ضرورة السماع والرواية فيما يخص علم الدين والشعر، لما فى هذا الأخير « من الألفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشى، وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه » (١) .

وتحدث عن بناء القصيدة العربية ، واختص منها قصيدة المدح التى تبدأ بالبكاء على الديار والدمن والآثار ، ليجعل الشاعر ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها ، ثم يصل ذلك بالنسيب حيث يشتكى شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ،(٢)ويصل ذلك بالحديث عن الرحلة وشكوى النصب والسهر . . مقررا ماناله من المكاره فى السير ، ثم يبدأ فى المدح : قال ابن قتيبة : « فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام » (٣) على أن كثيرا من الجاهليين لم يلتزموا بذلك ، ولم تكن المقدمة الطللية قانونا جازما لا يصح الانعتاق منه ، ولكن ابن قتيبة لم يلبث أن تراجع عن بعض مادعا إليه من تجديد، إذ ساير كثيرا من العلماء واللغويين فى أن الأصول المتبعة فى صياغة القصيدة ينبغى ألا تمس ، ويجب ألا يخرج عليها الشعراء المتأخرون .

ثم تحدث عن المتكلف والمطبوع من الشعراء ، وكان يقصد بالتكلف الصنعة التى اتخذها زهير وجماعة عبيد الشعر مذهبا أدبيا ، حيث قال : « فالمتكلف هو الذى قوم شعره بالثقاف ، ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة » (٤) .

---

(١) المصدر السابق جـ ١ صـ ٨٨

(٢) انظر المصدر السابق جـ ١ صـ ٨١ (٣) المصدر السابق جـ ١ صـ ٨١

(٤) المصدر السابق جـ ١ صـ ٨٣

والتكلف هنا بمعنى الصنعة يختلف عن نوع آخر من التكلف ذكره فقال: «وتتبين التكلف في الشعر أيضا بأن ترى البيت فيه مقرونا بغير جاره، ومضموما إلى غير لفقه، ولذلك قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك، قال: وبم ذلك؟ فقال: لأنى أقول البيت وأخاه، ولأنك تقول البيت وابن عمه.

وقال عبد الله بن سالم لرؤبة: مت يا أبا الجحاف إذا شئت! فقال رؤبة وكيف ذلك؟ فقال: رأيت ابنك عقبة ينشد شعرا له أعجبنى، فقال رؤبة: نعم ولكن ليس لشعره قران: يريد أنه لا يقارن البيت بشبيه» (١).

وهكذا عرف القدماء الوحدة الموضوعية في القصيدة العربية، وجعلوا الخروج عليها ضربا من التكلف الممقوت.

أما المطبوع من الشعراء فهو «من سمح بالشعر، واقتدر على القوافى، وأراك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر(٢)» (٣) ويقصد بذلك الشعراء الذين يقولون على البداهة والطبع من غير تصنع وتكلف. ولا نوافق ابن قتيبة على قوله عن الشعر المطبوع (وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر)، إذ يقصد بذلك: الارتجال، لعلمنا أن الشاعر المطبوع قد يكون قادرا على الارتجال، وقد يكون غير قادر، والمعول عليه في الطبع هو صدق العاطفة وحرارة الشعور.

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٦٦

(٢) يتزحر: يخرج صوته أو نفسه بمشقة وأنين.

(٣) المصدر السابق جـ١ ص ٦٦

أما القدرة على تجاوز الامتحان بدون تلعثم، فلربما أسفرت عن شعر تقريري أقرب إلى الصناعة اللفظية البحتة .

وقد أطال ابن قتيبة فى بسط هذه القضية ، ومثل لها ، وتحدث عن بعض الأمور المتعلقة بها، كالأوقات التي يحسن فيها نظم الشعر، وعن دور العاطفة فى جودة الشعر المطبوع ، وعن حسن الأسماء وقبحها فى جودة الشعر ورداءته ، وعن أثر الحالة النفسية للشاعر ، فذكر بعض الدواعي لقول الشعر كالطمع والشوق والشراب والطرب والغضب ، وأكد على ذلك بمجموعة من الأخبار والروايات منها قصة الكميت فى مدحه بنى أمية وآل أبى طالب « فإنه كان يتشيع وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعره فى بنى أميه أجود منه فى الطالبيين، ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجـــل الآخرة » (١) .

ثم تحدث عن دواعى حفظ الشعر واختياره فضلا عن جودة اللفظ والمعنى ، وذكر منها : الإصابة فى التشبيه وخفة الروى ، أو لأن قائله لم يقل غيره ، أو لأنه غريب فى معناه ، أو لنبل قائله ، ومثل لذلك بقول الرشيد :

النفس تطمع والأسباب عاجزة
والنفس تهلك بين اليأس والطمع

وتحدث عن عيوب الشعر التي تتصل بالوزن ، وذكر منها الإقواء والسناد والإيطاء والإجازة التي استشهد عليها بقول امرىء القيس :

لا يدعى القوم أنى أفر ... ... فكسر الردف،

---

(١) المصدر السابق جـ ١ صـ ٨٥

وقال فى بيت آخر :

وكندة حولى جميعا صبر ...... فضم الردف

وقال فى بيت آخر :

ألحقت شرا بشر ...... ففتح الردف

وقد فسر بعضهم الإجازة فقال : « أن تكون القوافى مقيدة فتختلف الأرداف » (١) وتحدث عن العيب فى الإعراب ، وذكر منه تسكين ما كان ينبغى تحريكه ، ومثل له بقول امرىء القيس

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

حيث سكن الفعل (أشرب) وحقه الضم ، وقال ابن قتيبة بعد ذكره لهذا البيت : « ولولا أن النحويين يذكرون هذا البيت . ويحتجون به فى تسكين المتحرك لاجتماع الحركات ، وأن كثيرا من الرواة يروونه هكذا لظننته :

فاليوم أسقى غير مستحقب ...... » (٢)

إلى غير ذلك من العيوب التى تحدث عنها ، ومثل لها ، وكلها يتصل بالوزن والإعراب .

ثم أنهى هذه المقدمة الضافية بذكر أوائل الشعراء وهو تابع فى ذلك لابن سلام ومقصر عنه حيث ذكر هنا بعض القدماء الذين يمثلون بأشعارهم القليلة المرحلة الأولى فى طفولة الشعر العربى ، وذكر منهم دويد بن نهد وأعصر بن سعد ، والحارث بن كعب ، ومثل لهم ببعض النماذج الشعرية .

---

(١) المصدر السابق جـ ١ صـ ١٠٣

(٢) المصدر السابق جـ ١ صـ ١٠٤

ثم تحـــدث عن الشعراء المترجم لهم فى متن الكتاب، ويبدأ بامرىء القيس.

ومن خلال هـذا العرض السـابق لمقدمة ابن قتيبة التى قاربت خمسين صفحة نجد أن الرجل كان رائدا فى البحث النظرى لفن الشعر، إذ يعد من أوائل الذين توسعوا فى دراسة الأدب بروح العلم على أن الكثير الذى أسهم به كان مسبوقا إليه، ولكنه استطاع أن يقـــدم بعض الحقائق النقدية فى صورة منظمة ومرتبة لم يسبق إليها، فإذا نظرنا إلى طرح ابن سلام لبعض هـذه القضايا والحقائق، ونظرنا إلى تقديم ابن قتيبة لها وجدنا هذا الثانى أكثر دقة وتمحيصا وتنسيقا للقضايا النقدية المذكورة، فضلا عن منهجه فى الترجمة للشعراء.

امرؤ القيس بين ابن سلام وابن قتيبة

ترجم ابن قتيبة لامرىء القيس ترجمة مستقلة زادت صفحاتها عن الثلاثين، ولهذا تعد من أوسع التراجم التى ضمها كتاب الشعر والشعراء، كما كان امرؤ القيس أول الشعراء المترجم لهم فى هذا الكتاب على عكس ابن سلام الذى تحدث عنه مقرونا بالشعراء الثلاثة الآخرين الذين جعلهم مع شاعرنا فى طبقة واحـدة. وإذا كان لابن سلام فضل السبق فلابن قتيبة فضل الاستقصاء وطول الدراسة، وتنوع البحث، ودقة الأخذ عن السابقين، وبروز شخصيته كناقد أدبى.

ولقد نقل ابن قتيبة عن ابن سلام كثيراً من الأقوال التى تخص امرأ القيس وذكر ذلك، وأضاف إلى مانقله بعض الرؤى الجديدة التى تساير حركة النقد فى القرن الثالث الهجرى. ونعرض هنا إلى بعض المسائل التى تأثر فيها ابن قتيبة بسلفه ابن سلام.

١ — أشعر الناس :

إن هذه المقولة مع عدم التسليم بها بدأت تنتقل بين النقاد والرواة والمؤرخين فى القرون الأولى من عمر الأدب العربى ، وقد أفاض ابن سلام فى الحديث عنها مع شعراء الطبقة الأولى ، وإن ظهر ميله إلى تقديم امرىء القيس ، وسار ابن قتيبة على درب هذه المقولات مثلما سار غيره من النقاد الذين جاءوا من بعده كابن رشيق ، ونقرأ بعض السطور الأولى من ترجمة امرى القيس فى الشعر والشعراء إذ يقول : هو امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندى ، وهو من أهل نجد من الطبقة الأولى ... ثم يقول « قال لبيد بن ربيعة : أشعر الناس ذو القروح يعنى امرأ القيس »(١)

وليس فى هذا الكلام من جديد يمكن التحدث عنه ، كما لم يذكر ابن قتيبة فى قضية (أشعر الناس) سوى امرىء القيس بحكم منهجه فى الترجمة، أما ابن سلام فكان مذبذبا بين عدة شعراء جاهليين .

٢ — نقول عن الجمحي :

نقل ابن قتيبة عن الجمحي عدة نقول فيما يختص بالتعهر فى شعر امرىء القيس ، وسبقه إلى أشياء ابتدعها واستحسنتها العرب ، وحول ما يستجاد من تشبيهه ، وفيما يختص بإجادته فى صفة الفرس ووصف المطر ، وهذه الأمور قد سبق الحديث عنها فى الفصل السابق ، وليس لابن قتيبة جهد أو إضافة حولها باستثناء ما أضافة من بعض الأقوال المؤيدة لهذه الحجج . وتؤكد ذلك ببعض ما نقله حيث نسب الأقوال

(١) ابن قتيبة . الشعر والشعراء جـ١ ص١١١

إلى أصحابها قال : « قال أبو عبد الله الجمحي : كان امرؤ القيس ممن يتعهر في شعره ، وذلك قوله : فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ....

وقوله : ......   سموت إليها بعد ما نام أهلها

وقد اكتفى ابن قتيبة بمصراع من كل بيت على عكس الجمحي الذي ذكر البيتين كاملين ومعهما بيت ثالث وهو(١) :

دخلت وقد ألقت لنوم ثيابها   لدى الستر إلا لبسة المتفضل

ولم يكتف بهذا الذي ذكره ابن سلام ، فأعاد الحديث بصورة جديدة في نهاية كلامــــة عن امرىء القيس ثم قال : « وقد سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها واستحسنها العرب ، واتبعته عليها الشعراء من استيقافه صحبة في الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ»(٢) ويلاحظ أن هذه المقولة للجمحي أيضا ، وإن عمد ابن قتيبه إلى الاختصار فيها .

وفيم يختص بسبق شاعرنا ذكر ابن قتيبه خبرا عن عمر بن الخطاب يقول فيه أمير المؤمنين عن امرىء القيس : «خسف لهم عين الشعر »(٣)

واعتمد ابن قتيبه على بعض النماذج التي اختارها الجمحي من تشبيهات امرىء القيس ، ووصفه للفرس ، وذكر ما وجه إليه من نقد حول بيته :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت   تعرض أثناء الوشاح المفصل

---

(١) المصدر السابق جـ١ صـ١١٦

(٢) المصدر السابق جـ ١ صـ١١٦

(٣) المصدر السابق جـ١صـ١٣٣ ، وتكملة الأثر كما جاء في هامش الشعر والشعر وفي العمدة لابن رشيق « فافتقر عن معان عور أصح بصر » يريد أنه ذلل الطريق للشعراء ، وبصرهم بمعاني الشعر فاحتذوا على مثاله .

حيث عبر بالثريا غلطا وأراد الجوزاء .

وذكر الخبر المرفوع إلى ذى الرمة فيما يختص باختياره لقول امرىء القيس فى وصف المطر :

ديمة هطلاء فيها وطف ... طبق الأرض تحرى وتدر

مكتفيا بهذا البيت على عكس الجمحى الذى أضاف إليه بيتا آخر .

وهـذا يؤكد ميل ابن قتيبه إلى الاجتزاء فى النقول التى يذكرها عن الآخرين فى كتابه ، وإن نسبها إلى أصحابها .

حياة امرىء القيس

يلاحظ على ترجمة امرىء القيس بكتاب الشعر والشعراء أنها تدور حول أمرين أولهما عن حياته ، وثانيهما عن شعره ، ولكن ابن قتيبة لم يفصل بين الأمرين ، لجاء الحديث عن حياته ممتزجا مع الحديث عن شعره تبعا للروايات التى يذكرها ، بل إن بعض الجوانب فى هذه الحياة قد اقترن بما قيل فيها من شعر ، وهـذه ميزة تحسب لابن قتيبة فى ترجمته لامرىء القيس إذ حاول المواءمة بين الواقع والخيال فى حدود مقبولة ، ولعله قد فتح الباب بذلك لمن جاء بعده ممن تصدوا للكتابه عن الأدباء والشعراء من أمثال أبى الفرج والثعالبى وياقوت الحموى وغيرهم ، ولن نعرض هنا لتفاصيل هذه الحياة ، ذلك لأننا تحدثنا عنها فى فصل سابق ، وإنما نستعرض بعض الجوانب التى ذكرها ابن قتيبه لنرى معالجته لها ومنهجه فيها .

لقد ابتدأ حديثه بذكر نسب امرىء القيس ، وبيان الديار التى وصفها فى شعره ، ثم أعقبها بالحديث عن تملك حجر (والد الشاعر) لبنى أسد الذين أطلق عليهم (عبيد العصا) وأسفر هـذا التملك عن قتل حجر ، ثم عاد إلى الكلام عن امرىء القيس الذى طرده أبوه لما صنع فى الشعر

بقاطمه ما صنع إلى أن وصله خبر مقتل أبيه وهو بدمون . واستعرض تاريخ امرئ القيس الذى قال إنه ظفر ببنى أسد ، وذهب إلى قيصر ، ودخل معه الحمام ، وعشق ابنته ، ومات بحلة مسمومة فى أنقرة وقال حين حضرته الوفاة :

وطعنة مسحنفره وجفنة مثعنجره تبقى غدا بأنقره

« قال ابن الكلبى : هذا آخر شيء تكلم به . ثم مات »(١)

ثم عاد ابن قتيبة مرة أخرى إلى ذكر نسب الشاعر ، وتملك جده (الحارث بن عمرو) على العرب ، وتملك والده (حجر) على بنى أسد ، وهكذا كرر صاحب الشعر والشعراء ما سبق أن ذكره وأفاض فيه . وربما كان الرجل حريصا على ذكر أكثر من رواية لحياة امرىء القيس، وإن كان من الأفضل أن يذكر الروايات مجتمعة فى كل موقف أو جانب من جوانب حياته ، وليس بالطريقة التى قدمت بها هذه الحياة . فقد أتمها ثم عاد إليها مرة أخرى باختلافات بسيطة لا تؤثر فى تسلسل الأحداث، ففى هذه الروايات الجديدة تحدث عن غزو المنذر لكندة ، وهروب امرىء القيس إلى طيء وانتقاله إلى السموءل ملك تيماء ، ومعه عمرو بن قميئة ، وذهابه إلى الحارث بن شمر الغسانى ، وارتحاله إلى ملك الروم حيث نادمه فى قصره ، وعاد من عنده ومات بالحلة المسمومة فى أنقرة وقال (٢) :

رب خطبة مسحنفره وطعنة مثعنجره
وجعبة متحيره تدفن غدا بأنقره

---

(١) المصدر السابق حـ١ صـ١١٥
(٢) المصدر السابق جا صـ١٢٧

وهكذا ذكر ابن قتيبة عدة روايات في حديثه عن حيـــاة امرىء القيس ، واعتمد اعتماداً كبيراً على روايات هشام بن الكلبي (ت٢٠٤هـ) إلى جانب بعض الرواة الآخرين الذين لم يذكرهم بأسمائهم مثل الهيثم بن عدى (ت ٢٠٦ هـ) ، وأحدث هذا اضطرابا وخلطا في التفاصيل ، وظهر التكرار المخل الذي أنتج بعض الشك والارتياب. وربما عاد الكثير من هذا الخلط إلى الرواة وكتبه الصحافين ، ومما أسهم في نمو هذا الشك الاختلاف الواضح بين الروايات في الشعر الذي قاله عند موته مع اختلاف هاتين الروايتين عما جاء في رواية هذا الشعر بالزيادات التي ألحقت على نسخة السكرى(١) .

وعلى كل فهذا الشعر لم يرد فيما رواه الأصمعي أو المفضل، فإذا تجمعت كل هذه الأسباب لم نجد أمامنا إلا رفض هذا الشعر المنحول ، ورفض كل تلك التفاصيل التي تتصل بأيامه التي قضاها في القسطنطينية .

وقد وقع ابن قتيبة في بعض التناقضات الأخرى التي تتصل بحياة امرىء القيس نتيجة اعتماده على أكثر من رواية دون تحديد وتمحيص والترجيع إلى واحدة منها قال : « وكان امرؤ القيس مئناثا لا ذكر له ، وغيورا شديد الغيرة ، فإذا ولدت له بنت وأدها فلما رأى ذلك نساؤه غيبن أولادهن في أحياء العرب ، وبلغه ذلك فتتبعهن حتى قتلهن »(٢) .

وهذا الخبر على غرابته وتناقضه لم يذكر ابن قتيبـــة راوية له على عكس ما صنع في معظم مانقله إلى كتابه، ثم أضاف إليه خبرا آخر أسهم في زيادة هذا التناقض ، قال : « وكان امرؤ القيس جميلا وسيما ، ومع

---

(١) انظر الديوان ص ٣٤٩

(٢) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء جـ ١ ص ١٢٧ .

جماله وحسنه مفركا لاتريده النساء إذا جربنه »(١) .

أما أنه كان مفركا لاتريده النساء فذلك أمر تحدث عنه القدماء ، وربما كان حديث امرىء القيس عن عشقه ومغامراته العاطفية نوعا من التعويض عما يشعر به من ضعف أو نقص .

وقال ابن قتيبة بعد ذلك إنه من عشاق العرب والزناة وذكر بعض النساء ممن كان يشبب بهن مثل فاطمة بنت العبيد بن ثعلبة وأم الحويرث وابنة عمه عنيزة صاحبة يوم دارة جلجل ، ولاشك فى أن حياة هذا الشاعر مع المرأة غير واضحة تماما ، وماقيل عن زواجه فى طىء بأم جندب محل نزاع بين المؤرخين ، وبات معظم ما قيل عن حياته مضطربا وغير واضح تماماً .

وقد نقل ابن قتيبة نصا عن محمد بن سلام الذى سمعه يدويه عن أبى شغفل راوية الفرزدق حول ما فعله امرؤ القيس مع ابنة عمه عنيزة وبعض النسوة فى يوم دارة جلجل ، ولايتوافق هذا الخبر الموثق مع ما قاله ابن قتيبة عن امرىء القيس من أنه كان مئناثا لاذكر له .

وهكذا عبث الرواة بهذه الأخبار التى تتصل بحياة شاعرنا ، وأصبحت الحقيقة عزيزة المنال .

من شعر الحكمة :

تنتشر الحكمة فى الشعر الجاهلى بعامة بحيث لاتخلو دواوين الشعراء منها إذ تأتى فى ثنايا قصائدهم أو فى أواخرها ، دون أن ينظموا منها قصائد مستقلة ، إذ لم تكن غرضا خاصا للشعراء القدماء ، والحكمة فى الجاهلية : « دليل على رقى عقلية الشعراء وتفكيرهم ، وتأملهم فى قضايا

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١٢٧

الناس والحياة ، وهى ثمرة تجارب طويلة وفطنة ونظر ثاقب ، وبصيرة نافذة بالناس وأخلاقهم والماضين ومصائرهم ، وتأمل فى سعى الإنسان وغايته ونهايته ، ثم إحساس دقيق بالحياة »(١) .

وقد نبعت الحكمة فى الجاهلية من معين حوادث الدهر وتجاربه ، ولذا فهى تختلف من شاعر إلى آخر بحسب طبائع حياته المادية والمعنوية، فالحكمة فى شعر زهير مثلا تدور فى فلك الحرب والسلام وما يتصل بهما من الموت والحياة ، كما تنطلق إلى آفاق أخرى من طبائع الإنسان مثل الكرم والشجاعة وغيرها ، وربما ظن البعض أن شاعرا مثـــل امرىء القيس ليس له شعر فى الحكمة لغرامه بالوقوف على الأطلال ، والبكاء على الديار والوصف ، وربما أدرك ابن قتيبة ذلك فلفت الأنظار إلى احتواء شعره على ضروب من شعر الحكمة التى جاءت مبثوثة فى ديوانه كسائر الشعراء ، مع أنه لا يرقى فى هذا الفن إلى درجة شاعر كزهير بن أبى سلمى .

وكان ابن قتيبة سباقا إلى ذكر بعض الأبيات التى يتمثل بها من شعر امرىء القيس مؤكدا بذلك على تنوع موهبته وتجاوزها للوصف والغزل والأطلال .

ونعرض هنا للأبيات الثلاثة التى اختارها من شعره .

قال : « ومما يتمثل به فى شعره قوله »(٢) .

وقاهم جـــدهم ببنى أبيهم   وبالأشقين ما كان العقاب(٣)

---

(١) د / يحيى الجبورى ، الشعر الجاهلى ص ٢٨٧ دار التربية بغداد.

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ١ ص ١١٨

(٣) الجد : الحظ ، ببنى أبيهم : بنى كنانة ، فأسد وكنانة أخوان وهما ابنا خزيمة .

وكان امرؤ القيس قد غزا بنى أسد ، فأخطأهم وأوقع ببنى كنانة وهو لايدرى ، حيث هرب الأسديون من ديار بنى كنانة ليلا ، وهؤلاء لايدرون فأعمل القتل فيهم ، وهذا البيت واحد من ثلاثة قالها امرؤ القيس فى هذه المناسبة(١).

وقال فى البيت الثانى :

صبت عليه ولم تنصب من كثب
إن الشقاء على الأشقين مصبوب(٢)

وهو من قصيدة بالديوان ، ومطلعها(٣) .

الخير ما طلعت شمس وما غربت
مطاب بنواصى الخيـــل معصوب

وهى ليست مما رواه الأصمعى أو المفضل ، وقيل إنها لإبراهيم بن بشير الأنصارى، ولولا أن ابن قتيبة ذكر البيت الذى استشهد به لما عرضت له.

وقال فى البيت الثالث(٤) :

وقـــد طوفت فى الآفاق حتى
رضيت من الغنيمـــة بالإياب

فالشاعر لم ير خيراً من الرجوع إلى أهله وطنه ، فهو غنيمته التى آب بهـا .

وإذا رجعنا إلى البيتين الأول والثالث من ابيات لأ المذكورة وجدنا

---

(١) كان الأصمعى يعجب من جودة هذه الأبيات ويفضلها ، انظر الديوان ص ١٣٨ . (٢) صبت العقاب على الذئب .
(٣) الديوان ص ٢٢٥ (٤) الديوان ص ٩٩ .

الحكمة مقترنة عند امرىء القيس بالفخر ، فالبيت الأول حول قتاله لبنى أسد لطلب الثأر لأبيه ، أما القصيدة التى منها البيت الثالث فهى قصيدة فخر ، وهذا ما قاله بعد البيت المذكور (الأخير)(١) :

أبعد الحارث الملك بن عمرو   وبعد الخير حجر ذى القباب
أرجى من صروف الدهر لينا   ولم تغفل عن الصم الهضاب
وأعلم أننى عما قليل   سأنشب فى شبا ظفر وناب
كما لاقى أبى حجر وجدى   ولا أنسى قتيلا بالكلاب

يريد أنه سيموت كما مات آباؤه وأجداده وهم الملوك العظام ، فلاقيمة للحياة من بعدهم .

ولا مرىء القيس بعض الأبيات الأخرى فى الحكمة التى يأتى بها فى وسط قصيدته أو فى آخرها ، وإذا كان الشاعر يفتخر بآبائه وأجداده فإنه يفتخر بيأسه وشجاعته التى تهون معهما الحياة ، فالموت هو النهاية للإنسان كما ذكر فى الأبيات السابقة ، وكما قال أيضا(٢) :

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه
بمدرك أطراف الخطوب ولا آل(٣)

وقال(٤) :

كأن الفتى لم يغن فى الناس ساعة
إذا اختلف اللحيان عند الجريض(٥)

---

(١) الديوان ص ٩٩ ، ص ١٠٠
(٢) الديوان ص ٣٩   (٣) ولا آل : غير تارك جهدا
(٤) الديوان ص ٧٧
(٥) اللحيان : الفكان ، جريض : جف ريقه عند الموت .

وقال(١) :

ألا إنما الدهر ليال وأعصر
وليس على شيء قويم بمستمر

إن هذه الأبيات الثلاثة التي لم يذكرها ابن قتيبة مجرد أمثلة محدودة تعطي انطباعاً عن بعض الجوانب الأخرى من شخصية امرىء القيس ، فهو ليس الفتى الذي قصر حياته على الغزل والصيد والحرب فحسب ، بل هو ذلك الإنسان المتأمل الذي أقبل على الحياة ، وشبع منها ، ثم أدرك أن الموت هو النهاية الطبيعية لكل حي ، وهكذا تنطلق الحكمة عنده من الفخر كواحد من جوانب الحياة مثلما تنطلق من الموت كنهاية حتمية للحياة .

من شعر الغناء :

ذكر ابن قتيبة عدة أسباب لتفضيل امرىء القيس منها صلاحية شعره للغناء حيث استشهد بنموذجين له ، ثم أردفهما ببيت قال كثرة من الناس إنه أرق بيت قالته العرب ، والكثير من الشعر العربي بعامة صالح للغناء ، وتكاد تنحصر الغنائية التي مثل لها ابن قتيبة تتجه إلى رقة الأسلوب ووضوح المعنى ، وخفة الوزن .

لقد كان الجاهليون يحرصون على ذلك كثيراً حتى لقبوا شاعراً مثل امرىء القيس بن ربيعة التغلبي بالمهلهل؛ لأنه أول من هلهل ألفاظ الشعر وأرقها . ويعد الغزل من أكثر الموضوعات الشعرية في العصر الجاهلي حتى لا تكاد قصيدة تخلو منه سواء في موضوعها أم في مطلعها ، وهو أصلح فنون الشعر

(١) الديوان ص ١٠٩

للغناء ، وهذا الفن كثير فى ديوان امرىء القيس سواء أكان فى صورة غزل أو حنين أو أطلال أو مغامرات فى العشق والتطرف .

إن امرأ القيس من أقدر الجاهليين على التعامل باللغة التى تتجاذبها الصلابة والخشونة ، والرقة والسلاسة بما يتناسب مع التعبير عن أفكاره ومشاعره وقد « امتازت لغته بالروعة الفنية فكانت خير صلة بينه وبين قارئه ، تؤدى ألفاظه مهمتها فى التعبير عن حالته التى يحسها ويتصورها ، وفى الإيحاء الذى يصل القارىء إلى دنيا الشاعر فيجعل حاله كحاله مستمتعاً بمتعته ، وهذا حد الفن فى الأدب»(١).

ولا يقل دور الأوزان الموسيقية عن دور الألفاظ فى صلاحية الشعر للغناء فقد أحكم الجاهليون الأوزان الشعرية ، وبرعوا فى تجزئتها « حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة موسيقية »(٢) ويتميز امرؤ القيس بتنوع أجراسه الموسيقية ، حتى تقوم على الألفاظ المفردة أو على انسجام التركيب كما فى مطلع المعلقة أو على تداعى الحروف والحركات التى تجمعها التموجات التى تطول أو تقصر بحسب الحالة التى تستدعيها(٣) .

ويعد ابن قتيبة سباقا فى كشف هذه الميزة لدى شاعرنا الذى يعد واحداً من الشعراء الجاهليين الذين يوصف شعرهم بالجزالة والقوة دون انتباه إلى الجانب الآخر وهو صلاحيته للغناء بما فيه من رقة الأسلوب

---

(١) بطرس البستانى ، أدباء العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام ص١٠٦ دار الجيل ، بيروت ١٩٧٩ م

(٢) د/شوقى ضيف ، فى تاريخ الأدب فى العصر الجاهلى ص٢٢٧

(٣) راجع . بطرس البستانى ، أدباء العرب (ترجمة امرىء القيس) .

وتموجه ووحدة القوافى ، وجمال الموسيقى . قال ابن قتيبة : «ومما يتغنى به من شعره قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل قوله(١) :

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً
عقرت بعيرى ياامرأ القيس فانزل(٢)

إن هذا البيت الذى مثل به ابن قتيبة قد ذكره الشاعر فى أعقاب ما حدث بدارةجلجل،ولعلنا قد أدركنا مابهمن معان غزلية وألفاظ متموجة مواكبة لحركة ميل الغبيط (٣) ، وسير الإبل ، إذا استطاع الشاعر أن يستعمل الكلمة المناسبة فى موضعها الملائم .

أما ابن قتيبه فلم يذكر شيئا من خصائص هذا البيت الذى اختاره لما يتغنى به من شعر امرىء القيس ، وهو سائر بذلك على درب القدماء فى إيراد الأحكام الأدبية دون تعليل أو أيضاح ، لكنه استشهد على غناء شعر امرىء القيس بما قاله أبو النجم فى وصف قينة(٤) :

تغنى ، فإن اليوم يوم من الصبى
ببعض الذى غنى امرؤ القيس أو عمرو

فظلت تغنى بالغبيط وميله
وترفع صوتا فى أواخره كسر

---

(١) أى المعلقة
(٢) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء حـ١ ص ١١٩
(٣) هودج البعير
(٤) المصدر السابق حـ ١ ص ١١٩

ثم ذكر نموذجا آخر من شعر امرىء القيس الذى يتغنى به ، وهو قوله(١) .

كأن المدام وصوب الغمام
وريح الخزامى ونشر القطر
يعل به برد أنيابها إذا طرب الطائر المستحر(٢)

وقد شبه ريقها عند تطريب الطائر فى السحر حيث تتغير الأفواه بالخمر ، وبماء السحاب الذى تمزج به الخمر ، وبريح الخزامى الطيبة ، وبرائحة العود الذى يتبخر به . وأكد ابن قتيبة على سبق امرىء القيس بهذا المعنى فقال : « وكل ماقيل فى هذا المعنى فمنه أخذ »(٣) .

ثم اختار بيتا آخر قيل عنه إنه أرق بيت قالته العرب ، وذكر موقفا له فقال : « واجتمع عند عبد الملك أشراف من الناس والشعراء ، فسألهم عن أرق بيت قالته العرب ، فاجتمعوا على بيت امرىء القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى
بسهميك فى أعشار قلب مقتل(٤)

إلا أن هذا البيت يصلح للغناء مثل الأبيات السابقة ، فالرقة — التى اجتمع عليها الأشراف المذكورون — ماثلة فى البيت حقا ، وهى من أهم

---

(١) المصدر السابق حـ ١ ص ١٩٩

(٢) صوب الغمام : ماء السحاب ، القطر : العود الذى يتبخر به ، يعل به : يسقى به

(٣) المصدر السابق حـ ١ ص ١١٩

(٤) المصدر السابق حـ ١ ص ١٢٠

صفات الشعر الذى يتغنى به ، وكان الأصمعى يرى البيت السابق أغزل بيت قالته العرب(١) .

امرؤ القيس شاعر متميز

ذكر ابن قتيبة خبراً عن أبي عبيدة (معمر بن المثنى) حول تفضيل امرىء القيس على غيره من الشعراء جاء فيه : « إنه أول من فتح الشعر ، واستوقف ، وبكى الدمن ووصف ما فيها »(٢) .

أى أنه قد سبق العرب إلى التحدث عن وصف الديار والبكاء على الدمن ، والوقوف على الطلل ، واستفتاح الشعر بالغزل . وهذا القول لا يسلم لابن قتيبة أو لأبي عبيدة فيما يتصل بنسبة هذا السبق لامرىء القيس ، مع الإقرار له بإمارة الشعر الجاهلى التى لا يعرف عنها شيئا . ذلك لأن شاعرنا ذكر سلفا له فى البكاء على الديار وهو ابن حمام حيث قال :

ياصاحبى قفا النواعج ساعة
نبكى الديار كما بكى ابن حمام

أو ابن خذام إذ قال :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا
نبكى الديار كما بكى ابن خذام

بل إن أبا عبيدة يتناقض مع نفسه ، فيذهب إلى أكثر من هذا حيث يذكر أن امرأ القيس قد أخذ بيتا لابن خذام ، وضمه إلى المعلقة وهو :

---

(١) انظر : ابن رشيق . العمدة ج ٢ ص ١٢٠ .
(٢) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ج ١ ص ١٣٤

كـأنى غـــداة البين يوم تحملوا
لدى سمرات الحى ناقف حنظـل(١)

فكيف إذا يقر بسبقه للعرب فيما يتصل بمطلع القصيدة الجاهلية ثم يذكر ابن خذام، على أن امرأ القيس قد أغار على شعره؟ وتعود لتؤكد على موهبة امرىء القيس التى تترفع فوق الإغارة على شعر الآخرين، لكنه لم يكن أول من وقف على الأطلال، وبكى الديار، ووصف ما فيها كما قال أبو عبيدة أو غيره من القدماء.

وقال صاحب الشعر والشعراء فيما يرويه عن أبى عبيدة أيضا فى شأن امرىء القيس: «وهو أول من شبه الخيل بالعصا واللقوة (العقاب السريعة) والسباع والطير، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف»(٢).

وربما كان هذا صحيحا إذا علمنا أن امرأ القيس من أسبق الشعراء الجاهليين إلى التعرف على الخيل، وتعقب أوصافها حيث يندر أن تجد قصيدة له تخلو من حديثه عن الخيل سواء أكانت الصيد أم للحرب، أم للزينة والتفاخر.

وقد سبق أن عرضنا للأبيات التى اختارها ابن سلام لامرىء القيس فى وصف الفرس. كما سنذكر فى هذا الفصل بعض الأبيات التى قالها فى الخيل، وتأثر بها الشعراء.

ونقل ابن قتيبة عن أبى عبيدة فيما يتصل بسبق امرىء القيس للشعراء فى أمور كثيرة وتميزه عليهم، قال: «قال أبو عبيدة أول من قيد

---

(١) انظر شرح البيت بالمصدر السابق ج١ ص ١٣٤
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٤

الأوابد ، يعنى فى قوله فى وصف الفرس (قيد الأوابد) فتبعه الناس على ذلك »(١) .

وهو يقصد قول امرىء القيس فى المعلقة :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها
بمنجرد قيد الأوابد هيكل

أى أن الفرس لسرعته قد صار قيدا للوحوش .

وقال غيره (غير أبى عبيدة): « هو أول من شبه الثغر فى لونه بشوك السيال فقال :

منابته مثل السدوس ولونه
كشوك السيال وهو عذب يفيص(٢)

فاتبعه الناس »(٣) . والبيت فى الغزل بسلمى من قصيدة بدأها بقوله :

أمن ذكر سلمى أن نأتك تنوص
فتقصر عنها خطوة أو تبوص(٤)

---

(١) المصدر السابق حـ ١ صـ ١٢٩

(٢) منابته : منابت الثغر ، السدوس : الطيلسان ويريد سواد اللثة (لأنهم كانوا يذرون عليها الإثمد ليظهر بريق الأسنان . شرح الشنتمرى صـ ١٢٥) . السيال : شجر له شوك أبيض يشبه الأسنان ، يفيص : يبرق .

(٣) ابن قتيبه . الشعر والشعراء حـ ١ صـ ١٣٩

(٤) الديوان صـ ١٧٧

وقال ابن قتيبة : « وهو أول من قال : (فعادى عداء) فاتبعه الناس »(١) .

ويشير بذلك إلى قوله فى المعلقة :

فعادى عداء بين ثور ونعجة
دراكا ، ولم ينضح بماء فيغسل(٢)

أى أن الفرس أدرك الصيد قبل أن يعرق بالماء فيصير كأنه قد غسل بالماء. وقال صاحب الشعر والشعراء : « وأول من شبه الحمار بمقلاء الوليد » .

وهى عود القلة . و « بكر الأندرى » والكر : الحبل . وشبه الطلل (بوحى الزبور فى العسيب) والفرس بتيس الحلب »(٣) .

ويؤكد ابن قتيبة بهذا النص المذكور ، على سبق امرىء القيس الشعراء فى التصوير الخيالى حيث شبه الحمار بمقلاء الوليد فقال(٤) :

فأصدرها تعلو النجاد عشية أقب كمقلاء الوليد شخيص(٥)

حيث شبه ضمر الحمار بالقلة التى يعبث بها الغلام فى خفتها .

---

(١) ابن قتيبة الشعر والشعراء حـ ١ صـ ١٣٩

(٢) عادى : والى ، دراكا : تباعا ، لم ينضح : لم يعرق .

(٣) المصدر السابق حـ ١ صـ ١٣٩ ، ١٤٠

(٤) الديوان صـ ١٨٢

(٥) أقب : ضامر البطن ، المقلاء : العود الذى يضرب به الغلام ، القلة (اللعبة) .

أما تشبيه الحمار بكر الأندرى ففير موجود بالديوان على حد قول الأستاذ أحمد شاكر . وقال امرؤ القيس مشبهاً الطلل بخـــط الكتاب فى العسيب اليمانى(١) :

لمن طلل أبصرته فشجانى كخط زبور فى عسيب يمان

أما تشبيهات امرىء القيس للفرس فكثيرة جداً ، وقد عرضنا لبعضها فى الفصل السابق . وأشار ابن قتيبة إلى سبق شاعرنا فى تشبيه الفرس بتيس الحلب فقال فى القصيدة التى منها البيت السابق :

مكر مفر مقبل مدبر معا كتيس ظباء الحلب العدوان(٢)

وقد اعتمد امرؤ القيس فى تشبيهاته على المناظر المحسوسة فى بيئته ، وكانت حواسه متجهة إلى الطبيعة بما فيها من ساكن ومتحرك ، خاصة فى المراحل الأولى من حياته التى عشق فيها الصيد وركوب الخيل والتشبيب بالنساء . وأكد ابن قتيبة تفرده فى أبيات أخرى من شعره تتصل ببراعته فى التشبيه والبيان حيث قال فى العقاب :

كأن قلوب الطير رطبا ويابساً

لدى وكرها العناب والحشف البالى

حيث « شبه شيئين بشيئين فى بيت واحد ، وأحسن التشبيه »(٣) ، وقد عرضنا سلفاً لذلك :

وأورد ابن قتيبة قوله فى وصف الفرس :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

(١) الديوان ص ٨٥ .
(٢) الحلب : نبت ترعاه الظباء فتضمر بطونها بسببه ، العدوان أى السريع العدو .
(٣) ابن قتيبة . الشعر والشعراء جـ ١ ص ١٤٠ .

وعقب عليه فقال : « وقد تبعه الناس فى هذا الوصف ، وأخذوه ، ولم يجتمع لهم ما اجتمع له فى بيت واحد »(١) . وذكر أن الشاعر (المعذل)(٢) قد سطا على هذا البيت ، وأخفى سرقته فقال :

له قصريا رئم وشدقا حمامة
وسالفتا هيق من الربد أربدا(٣)

وهكذا أكد ابن قتيبة على تميز امرىء القيس فى نواح عديدة سبق الحديث عنها ، والتمثيل لها .

السرقات الشعرية

أراد ابن قتيبة من حديثه عما أخذه الشعراء من امرىء القيس أن يدلل على عبقريته ، وتأثيره فيمن جاء بعده ، ولكنه لم يذكر ما إذا كان الأخذ أو السرقة فى المعانى العامة التى يشترك فيها سائر الناس ، أم أنها فى المعانى الخاصة التى ينفرد بها الشاعر :

ولقد زادت العناية بموضوع السرقات الشعرية فى القرن الثالث الهجرى بسبب الانشغال بقضية المعنى ، الأمر الذى جعل النقاد يتوجهون إلى رصد المعانى المشتركة بين الشعراء ، وأخذ اللاحق بينهم من السابق(٤) .

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٠ .

(٢) هو عبد الصمد بن المعذل الذى كان شاعراً سكيراً قوى العارضة ، بصرياً . توفى سنة ٢٤٠ هـ . وللمرزبانى كتاب عنه (انظر منهج التأليف عند علماء العرب للدكتور مصطفى الشكعة ص ٢٧٢) .

(٣) القصرى : ضلع بين الجنب والباطن ، السالفة : أعلى العنق ، الهيق : الظليم : وهو ذكر النعام .

(٤) انظر الدكتور إحسان عباس . تاريخ النقد الأدبى عند العرب . دار الأمانة بيروت الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ .

ولا تخفى علينا طبيعة الحياة الأدبية في العصر الجاهلي بما فيها من رواة الشعر، وتعصب قبلي، وحروب مستعرة، وخصومة بين الشعراء كتلك التي كانت بين امرىء القيس وعلقمة بن عبدة، والتي نشبت بأرض طيء أو كالتي كانت بين امرىء القيس وعبيد بن الأبرص في ديار بني أسد إلى غير ذلك من الخصومات. ثم اتسعت دائرة النزاع بين الشعراء في أسواق الأدب سواء ما كان منها في الجاهلية كعكاظ أو في الإسلام كسوق المربد بالبصرة. كما أسهمت ظاهرة التكرار في الشعر الجاهلي سواء ما كان منها راجعاً إلى اللفظ أم إلى المعنى في ظهور الأخذ والسرقة. ومن المعروف أن التكرار شيء والسرقة أو الأخذ شيء آخر. حيث أقر بعض الجاهليين بما في أشعارهم من تكرار. ولو ووجهوا بما نسب إليهم من سرقات — في حالة إثباتها — لخجلوا منها، وربما أنكروها حفظا لماء وجوههم وخوفا من ضياع مكانتهم.

وقد توسع النقاد في بحث هذه الظاهرة للدرجة التي جعلت ناقداً مثل الجرجاني (على بن عبد العزيز) يقول: «ولست تعد من جهابذة الكلام ولا من نقاد الشعر، حتى تميز بين أصنافه وأقسامه، وتحيط علماً برتبه ومنازله، فتفصل بين السرق والغصب، وبين الإغارة والاختلاس، وتعرف الإلمام من الملاحظة، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرقة فيه والمبتذل الذي ليس له واحد أحق به من الآخر، وبين المختص الذي حازه المبتدى فملكه واجتباه السابق فاقتطعه (١).

وقال ابن رشيق: «وهذا باب متسع جداً، لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه، وفيه أشياء غامضة، إلا عن البصير الحاذق بالصناعة. وأخر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل، وقد أتى الحاتمي في (حلية

---

(١) ابن رشيق. العمدة ج ٢ ص ٢٨٠.

المحاضرة) بألقاب محدثة تدرتها ليس لها محصول إذا حققت: كالاصطراف والاجتلاب ، والانتحال ، والاهتدام ، والإغارة ، والمرافدة ، والاستلحاق ، وكلها قريب من قريب » (١) .

وتعود إلى ما رصده ابن قتيبة حول أخذ الشعراء من شعر امرىء القيس . قال :

قال امرؤ القيس :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم
يقولون : لا تهلك أسى وتجمل

أخذه طرفة فقال :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم
يقولون : لا تهلك أسى وتجلد(٢)

وقد أطلق البعض على ما بين هذين البيتين اسم (النسخ) بينما جعله أبو هلال من أقبح أنواع الأخذ . ونقل ابن رشيق عن البعض أن طرفة لم يثبت له هذا البيت حتى استحلف أنه لم يسمعه قط فحلف (٣) ، وليس هناك ما يمنع من عبث الرواة ، فيدخلون بيتاً مأخوذاً بكامله . سوى القافية من شعر امرىء القيس فيجعلونه في شعر طرفة .

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٨٠ .
(٢) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ج ١ ص ١٣٠ .
(٣) انظر ابن رشيق . العمدة ج ٢ ص ٢٨٩ .

وقد سبق أن عرض الجمحي للبيتين من غير أن يذكر شيئا حول سرقة طرفة للبيت ، أما ابن قتيبه فقد أطلق لفظ (الأخـــذ) على مجموعة من الأبيات ، وذكر أصحابها والموضوعات التى تناولتها ، ولا يختلف أحد حول وضوح السرقة فى الأبيات المختارة ؛ لأن إمرىء القيس كان من أسبق الشعراء إلى اختراع المعانى (الخاصة) فجاء بعده أو عاصره هؤلاء الذين ذكرهم ابن قتيبة ، وأخذوا معانيه ، وغيروا فى بعض ألفاظها ، وأضافوها لأنفسهم ، كقوله فى وصف الفرس :

فلأياً بلأى ما حملنا غلامنا   على ظهر محبوك السراة محنب

فأخذه زهير فقال :

فلأياً بلأى ما حملنا غلامنا
على ظهر محبوك ظماء مفاصله(١)

وقال امرؤ القيس يصف فرسا :

سليم الشظا عبل الشوى شنج النسا
له حجبات مشرفات على الفال

فأخذه كعب بن زهير فقال :

سليم الشظا عبل الشوى شنج النسا
كأن مكان الردف من ظهره قصر(٢)

ولا تخفى سرقة زهير وابنه لشعر امرىء القيس كما سبق .

وتنحصر السرقة فى الأمثلة التى ذكرها ابن قتيبة فى الوقوف على الديار ،

---

(١) ابن قتيبة . الشعر والشعراء حـ ١ صـ ١٣٧
(٢) المصدر السابق حـ ١ صـ ١٣٦

ووصف الفرس والناقة والمرأة ، وأكثر السرقة فى وصف الفرس لبراعة امرىء القيس فى هذا اللون ، وإعجاب الشعراء بوصفه لهذا الحيوان ، أما الشعراء السارقون لامرىء القيس كما ذكرهم ابن قتيبة فهم طرفة بن العبد ، والنابغة الجعدى ، والشماخ ، وأوس بن حجر ، وكعب بن زهير ، والنجاشى وزهير بن أبى سلمى ، والمسيب بن علس ، وزيد الخيل : وهم كثيرون مما يؤكد انتشار هذه الظاهرة على نطاق واسع ، وتؤكد أن هذه القضية شائكة جداً لدخول بعض الرواة كطرف فيها ، ولربما برئت ذمة هؤلاء الشعراء أو بعض منهم مما نسب إليهم من أخذ أو سرقة ، أو احتذاء لشعر امرىء القيس . على أن بعض الشعراء الذين لم يذكرهم ابن قتيبة قد سرقوا من امرىء القيس ، ولم يكتفوا بنقل الألفاظ والمعانى بالطريقة التى مثلنا لها ، وإنما أضافوا إلى صياغة البيت قالباً مختلفاً ، فكان ذلك عرضا جديداً للمعنى كقول امرىء القيس :

تمشى بأعراف الجياد أكفنا　　إذا نحن قمنا عن شواء مضهب

وقال عبده بن الطبيب بعده :

ثمة قمنا إلى جرد مسومة　　أعرافهن لأيدينا مناديل

فكشف المعنى وأبرزه(١) .

بل إن بعضهم قد رزق بيته المسروق من شعر امرىء القيس حظاً واشتهاراً : كقول عنترة :

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى
وكما علمت شمائلى وتكرمى

الذى أخذه من قول امرىء القيس :

---

(١) انظر ابن رشيق العمدة جـ ٢ ص ٢٩٠ .

وشمائلي ما قد علمت ، وما نبحت كلابك طارقا مثلي(١)

وبعض الذين سرقوا امرىء القيس تساوى ما سرقوه مع قوله كبيت عبده بن الطبيب :

فما كان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهدما

الذي سرقه من قول امرىء القيس :

فلو أنها نفس تموت جميعة
ولكنها نفس تساقط أنفسا(٢)

إلى غير ذلك من الأمثلة التي تضج بها كتب الشعر والنقد ، وهي تؤكد في مجموعها براعة هذا الشاعر في السبق إلى المعاني المخترعة ، والتي نالت إعجاب الشعراء فعمدوا إلى أخذها وصياغتها . فالقليل منهم قد وفق في أخذه، والكثير قد أخفق فبان عجزه ، واتهم في موهبته ، وإن الشواهد التي ذكرها ابن قتيبة لكافية في التأكيد على ما سعى إليه نحو الإقرار بالسبق لهذا الشاعر الكبير .

ما يعاب من شعره الغزلي

عرض ابن قتيبه لثلاثة نماذج من الشعر الغزلي عند امرىء القيس ، ورد على ما يمكن أن يوجه إلى الأول والثاني من نقد بينما ذكر النموذج الثالث مشفوعا برأيه حول ما في شعر امرىء القيس من تعهر ومجون .

---

(١) المصدر السابق حـ٢ ص ٢٩٠
(٢) المصدر السابق حـ ص ٢٩١

وكان ابن سلام قد عرض لبعض هذه الأبيات التي تفاخر فيها امرؤ القيس بمجونه وخلاعته وتهره ، ثم جاء ابن قتيبه فزاد عليها وفصل بينها بتعليلات نقدية صائبة وها نحن نعرض لهذه النماذج الثلاثة لنبين موقفه منها ، قال : « ويعاب من قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذى تمائم محول

إذا ما بكى من خلفها انحرفت له
بشق وتحتى شقها لم يحـــول

قال أبو محمد (ابن قتيبة) : وليس هذا عندى عيبا ، لأن المرضع والحبلى لاتريدان الرجال ، ولا ترغبان فى النكاح ، فإذا أصباهما وألهاهما كان لغيرهما أشد إصباء وإلهاء »(١) .

يريد بدفاعه عن امرىء القيس أن يجعل من فحشه ومجونه وتهره فخراً غزليا ، كالذى قرأناه عند عمر بن أبى ربيعه فى العصر الإسلامى ، وإذا كانت المرضع والحامل لا تريدان الرجال — كما قال ابن قتيبة — فإن المشهور عن رجال العرب القدماء أيضا أنهم يبتعدون عن هذين الصنفين من النساء . وقد أراد الشاعر أن يؤكد على تعقبه للجميلات حتى فى حالة الحمل أو الإرضاع ، واذا وصلنا بقناعتنا الى التصديق بهذا النوع من الغزل ، والذى قصد منه الفخر والتبـــاهى كان الربط التام بين الواقع الخيالى والصورة الشعرية أمراً غير وارد ، وخارجا عن الدائرة الأخلاقية التى يرجى للشعر غالبا ألا يخرج عن إطارها المحدود . أما

---

(١) ابن قتيبة . الشعراء حـ ١ صـ ١٤١

التفاخر بالمجون لم يخل منه عصر من العصور ، والا فلنرجع الى ماروى عن عمر بن أبي ربيعة عندما دخل المسجد على عبد الله بن عباس وأنشده قصيدته :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر؟
غداة غد أم رائح فمهجر

فأعجب بها ، وحفظها كاملة ، ولم يحفل باستغراب الذين ضربوا إليه أكباد الإبل طلبا للعلم والمعرفة .

أما النموذج الثاني فهو واحد من أبيات الغزل التي تعرض النقاد لها بالتعليق والشرح وبالنقد الدائر في فلك اللغة ، كابن قتيبة الذي قال : « ويعاب من قوله :

أغرك مني أن حبك قاتلي
وأنك مهما تأمري القلب يفعل

وقالوا : إذا كان هذا لا يغر فما الذي يغر ؟ إنما هذا كأسير قال لآسره :

أغرك مني أني في يديك وفي إسارك ، وأنك ملكت سفك دمي !

قال أبو محمد : ولا أرى هذا عيبا ، ولا المثل المضروب له شكلا ، لأنه لم يرد بقوله : « حبك قاتلي » القتل بعينه ، وإنما أراد به : أنه قد برح بي فكأنه قد قتلني . وهذا كما يقول القائل : قتلتني المرأة بدلها وبعينها ، وقتلني فلان بكلامه فأراد : أغرك مني أن حبك قد برح بي . وأنك مهما تأمري قلبك به من هجري والسلو عني يطعك ،

أى فلا تفترى بهذا ، فإنى أملك نفسى وأصبرها عنك وأصرف هواى »(١) .

وقد عرض ابن قتيبة لما قيل عن البيت ، ثم ذكر تعليقه الموسع المبسوط على غير عادته فى نقد الأبيات . ولا يختلف هذا البيت عما ذكر أولا حول تفاخر الشاعر بهذه المغامرات العاطفية ، وقدرته على ضبط شهواته والتحكم فى غرائزه .

وربما كان ذلك لنشأته فى بيت ملك ، وانصرافه إلى اغتنام اللذة فى الحياة بالصورة التى عبر عنها فى هذا الشعر غير أننا نعود لنؤكد على ضرورة الفصل بين الواقع التاريخى والنص الشعرى خاصة إذا كانت الحياة مليئة بالمجون والتعهر . وليس لازما أن يكون الشاعر قد فعل كل ما قال ، أما أن يكون الحكم متجها إلى النص بصرف النظر عن صدقه وكذبه ، فإن ذلك أمر آخر ومشكلة أخرى لا نطمع فى إيجاد حل جذرى لها ، إذ أن قضية الشعر وموقفه من الدين والأخلاق قضية شائكة ولم تحسم الكلمة فيها ، وسوف تبق مثاراً للخلاف بين النقاد . ويتصل بهذا المشكلة فى صورتها الأخيرة تلك الأبيات التى تدخل فى صميم الخلاعة والمجون ، ومن خلال بعض المغامرات التى يقوم بها الشاعر فى جنح الظلام ، ومن خلف ستار الليل البهيم . قال ابن قتيبة : « ويعاب عليه تصريحه بالزنى ، والدبيب إلى حرم الناس ، والشعراء تتوقى ذلك فى الشعر وإن فعلته ، قال(٢) :

سموت إليها بعدما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤١
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢

فقالت : سبـــاك الله إنك مانحى
ألست ترى السماء والناس أحوالى
فقلت : يمـــين الله أبرح قاعداً
ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
حلفت لهـــا بالله حالفة فاجر :
لناموا ، وما إن من حديث ولا صالى
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت
هصرت بغصن ذى شماريخ ميـال
وصرنا الى الحسنى ورق كلامنا
ورضت ، فذلت ، صعبة ، أى إذلال
فأصبحت معشوقاً ، وأصبح بعلها
عليه القتام سىء الظن والبال

إن هـذا اللون الغزلى لم يكن عاما بين سائر الشعراء ، وإن دار على ألسنة بعضهم .

ومن المقبول أن يكون ما قيل ضربا من الخيال الشعرى الذى لا يعبر عن الواقع الحسى تماما حيث كانت الفتاة العربية أو المرأة المتزوجة مصونة عما يشبه هـذا العبث السافر المتنافى مع الغيرة العربية القديمة . وإذا ارتضينا أن يكون ذلك ضربا من الخيال البحت ... نعود فنسأل : ما الذى دفع الشاعر إلى هذه النماذج ؟ قالوا إن الشاعر يحمل عيبا جنسيا حيث وصفوه بأنه كان مفركا أى لا تطيقه النساء ، فكانت هذه المغامرات الخيالية كنوع من التعويض عما به من نقص ، انطلاقا من الدراسات النفسية التى تؤكد على أن الذى يحمل نقصا يحاول تعويضه بسبيل أخرى، ولو فى صورة تفاخر بما ليس فيه . والبعض كالدكتور إبراهيم عبد الرحمن رأى أن

يوظف هذه المغامرات في التأكيد على محاولة امرىء القيس الانتصار على المرأة وغيرها من الكائنات، أو كان ذلك سببا لما لقيه في حياته كطرد أبيه له وإحساسه بذنبه، وحنينه الى دفء الأمومة، كما قال الدكتور عفت الشرقاوى(١) . ونقول لا داعى البتة لاختلاق أسباب وهمية والاستناد إلى تفسيرات خيالية في هذه القضية . أما فيما يتعلق بحق الشاعر في ذكر هذه المغامرات ، وعدم ذكرها فأراها قضيه جديرة بالبحث والتناول انطلاقا من تحديد لنوع العلاقة بين الأدب من ناحية والدين والأخلاق من ناحية أخرى .

---

(١) د/ عفت الشرقاوى — دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلى ص ٢٥٢ : النهضة العربية . بيروت .

الفصل الثالث

الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى(١)

كتاب الأغانى من أوسع الكتب العربية التى ترجمت للشعراء والمغنين والمغنيات فى العصر العباسى وما قبله ، وهو حصيلة ضخمة لجهود أبى الفرج فى خمسين عاما قضاها فى جمع مادته الإخبارية ، وتنسيقها ، وضمها إلى أوراق الكتاب الذى قال عنه ابن خلدون : «وقد ألف القاضى أبو الفرج الأصبهانى ، وهو ما هو كتابه فى الأغانى ، جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم ، وجعل مبناه على الغناء فى مائة الصوت التى اختارها المغنون للرشيد ، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه . ولعمرى إنه ديوان العرب ، وجامع أشتات المحاسن التى سلفت لهم فى كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولا يعدل

---

(١) أبو الفرج هو : على بن الحسين بن محمد بن أحمد صاحب كتاب: الأغانى ، والمولود فى أصبهان عام ٢٨٤ هـ . نشأ أبو الفرج ببغداد ، وتتلمذ على علمائها ، وبرز فى دراسة الأدب واللغة والتاريخ والأنساب والسير والمغازى والغنــــاء والقيان والرواية والشعر ، وهو من أعظم الشخصيات الإخبارية فى القرن الرابع الهجرى . وقد ترجم له ياقوت ، وابن خلكان وابن شاكر وابن النديم والثعالبى وغيرهم . كما أثنى عليه ، وأشاد به الكثيرون . وذمه بعضهم لتشيعه وسلوكه ومظهره . ومن مصنفاته ـــ فضلا عن كتاب الأغانى ـــ مقاتل الطالبيين ، وأخبار القيامة ، والإماء الشواعر ، والأخبار والنوادر ، وله كتب كثيرة فى النسب وأيام العرب . وقد توفى ببغداد فى عام ٣٥٦ هـ .

به كتاب فى ذلك فيما نعلمه ، وهو الغاية التى يسمو إليها الأديب ويقف عندها، وأنى له بها »(١) .

ولقد حرص الكثيرون من القدماء والمحدثين على اقتناء هذا الكتاب والاستفادة منه ، ونقده ، وتمحيصه ، وانطلق البعض إلى اختصاره وتجريده من الأسانيد ومن كل ما لا يحسن ذكره ، ولكن ذلك لم يثن طلاب المعرفة عن إعجابهم بأصل الكتاب ، وبالصورة التى تناقلها الخلف عن السلف منذ القرن الرابع الهجرى .

ابتدأ أبو الفرج كتابه بمقدمة مختصرة بالنظر إلى مقدمات الكتب الأخرى فى ذلك الوقت ، وبالنظر أيضاً إلى مقدمتى ابن سلام وابن قتيبة فى كتابيهما (طبقات فحول الشعراء ، والشعر والشعراء) . ولكن الرجل لم يشغل نفسه فى هذه الصفحات الست(٢) التى عقدها للمقدمة إلا بالحديث عن منهجه فى تأليف الكتاب ، وطريقته فى ترتيب من ترجم لهم من الشعراء وأهل الغناء ، وبيان الباعث على تأليفه للأغانى .

ومن الواضح لكل من طالع الكتاب أن أبا الفرج بنى كتابه على ثلاثة جوانب متصلة وهى الأصوات (الألحـــان) ، والمغنون والمغنيات ، والشعراء، وهذه الجوانب الثلاثة متصلة ومترابطة، ثم تأتى بعدها فى الأهمية بعض الموضوعات المتصلة بها ، مثل أيام العرب ، وأحداث التاريخ ، والعقائد والملل والنحل وغيرها .

ولقد جعل الأصوات أساساً لترتيب الكتاب ، وهى الأصوات المائة

---

(١) ابن خلدون — مقدمة كتاب الأغانى لأبى الفرج جـ ١ صـ ٣٤ (من تصدير الكتاب) ط دار الكتب .

(٢) حسب طبعة دار الكتب التى اعتمدنا عليها فى هذه الدراسة .

التي أمر هارون الرشيد ابراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وفليح ابن عوراء باختيارها له ، لكن هذه الأصوات لم تكن الوحيدة بين دفتى الكتاب فقد أضاف إليها الأصوات التي تغنى بها المتقدمون من أهل الغناء «والأصوات التي تجمع النغم العشر المشتملة على سائر نغم الأغاني والملاهي ، وبالأرمال الثلاثة المختارة ، وما أشبه ذلك من الأصوات التي تتقدم غيرها في الشهرة ... واتبع ذلك بأغاني الخلفاء وأولادهم ، ثم بسائر الغناء الذي عرف له قصة تستفاد وحديثاً يستحسن »(١) .

ولا نريد التوسعة في بيان هذه الأصوات المائة أو الأصوات الثلاثة التي اختاروها للرشيد من المائة ، فإن تلك الأمور المتصلة بالألحان يعرفها أهل الموسيقى والغناء .

ولكننا نذكر أن الأصوات الثلاثة المختارة من المائة كانت تغنى بأشعار لأبي قطيفة وعمر بن أبي ربيعة ونصيب ، ولذا كان أبو قطيفة أول من ترجم له في الأغاني . كما لا يعنينا هنا أن نذكر أهل الغناء الذين تحدث عنهم أو ترجم لهم مثل معبد ، وابن محرز وإبراهيم الموصلي ، وغيرهم .

وقد كان اختيار الشعراء الذين تحدث عنهم على أساس الغناء ، فلا بد أن يكون الشاعر الذي سلكه في الكتاب ممن غنى شعره ، بصرف النظر عن كونه جاهليا أو إسلامياً أو عباسياً ، ولم يخضع في ترتيبه للشعراء(٢) على أساس زمني أو طبقي أو مكاني . وقلنا إنه بدأ بأبي قطيفة وهو أموي

(١) أبو الفرج : الأغاني جـ ١ ص ٢

(٢) ترجم لأكثر من أربعمائة شاعر منذ أقدم عصورهم وحتى نهاية القرن الثالث (صاحب الأغاني) للدكتور محمد أحمد خلف الله ص ٤٧) .

غير مشهور . ثم ختم بالمتلمس وهو جاهلى ذائع الصيت ، ويدور حديثه عمن يترجم له من الشعراء حول نسبه وأصله ، ومولده ، ونشأته ، وأخلاقه ، ومذهبه الفنى ، مع ذكر بعض شعره ، على أنه لا يلتزم بمنهج واحد فى سائر التراجم ، وإنما يختلف من شاعر إلى آخر بحسب المكانة الفنية لمن ترجم له ، وبمقدار ما توفر له من روايات وأخبار حول شعره وتاريخه .

امرؤ القيس

تحــدث أبو الفرج عن امرىء القيس فى قرابة ثلاثين صفحة (١) حديثا يختلف فى مجموعه عما كتبه عنه ابن سلام فى الطبقات ، وابن قتيبة فى الشعر والشعراء ، حيث تناول كل منهما الشاعر من الناحية التى رغب فيها ، وليست هذه هى المرة الأولى التى نعرض فيها لكتاب الأغانى ، فقد سبق أن نقلنا عنه كثيرا من الأخبار التى تتصل بحياة امرىء القيس وغــيرها .

ونحن نعرض هنا للكتاب ، لا لنوازن بينه وبين الكتابين السابقين، فلكل واحد منها منهجه وأسلوبه فى الترجمة للرجال ، وإنما لنعاين ما كتبه أبو الفرج عن هذا الشاعر ، مع أن هذه الترجمة لا يمكن أن تكشف عن منهج المؤلف فى كتابته عن الشعراء ، إلا أنها — بما حملت من روايات غزيرة فى الشعر والأخبار تقفنا على أبواب المعرفة الحقيقية لمنهج الرجل كراو وإخبارى ، وليس كمؤرخ وناقد .

وإذا كان النقد الأدبى هو مبتغانا من النظر فى هذه الترجمة ،فإن

---

(١) فى طبعة دار الكتب التى بين يدى .

أبا الفرج قد استهوته الروايات والأخبار فانشغل بها عن تكرار النظر فى شعر امرىء القيس ، لكنه لم يغفل الشعر تماما ، وإنما استعان به فى تأكيد الروايات الإخبارية ، كما عرض لقضية نقدية مهمة ، وهى قضية الانتحال التى شغلت الأدباء والنقاد من منتصف القرن الثانى من الهجرة إلى الآن .

ونؤكد أن كثيرا من تفاصيل هذه الترجمة قد تناولناها ، أو استشهدنا بها فى حديثنا عن حياة امرىء القيس ، ولا يليق أن نكرر ما سبق أن ذكرناه فى الباب الأول . ولكن نظراتنا هنا متجهة إلى بعض الجوانب المهمة فى هذه الترجمة .

١ — نسب امرىء القيس من جهة أبيه وأمه .

ذكر أبو الفرج مجموعة من الروايات فى حديثه عن نسب امرىء القيس ، وهى للأصمعى وابن الأعرابى ، ومحمد بن حبيب وبعض الرواة ، ولعل حرصه على جمع الروايات المتعددة حول النسب تؤكد براعته فى هذا الفن خاصة وأن له بعض الكتب فى الأنساب ، لكن حرصه على الجمع والاستقصاء جعله يذكر رواية فى نسب امرىء القيس تخالف الحقيقة، ولا تتفق مع الأصول الثابتة فى سلسلة النسب إذ قال فى نسبه على لسان بعض الرواة : « هو امرؤ القيس بن السمط بن امرىء القيس بن عمرو» وامرؤ القيس هذا هو غير امرىء القيس الذى نحن بصدد الحديث عنه. ثم تحدث عن أمه ، وقال إنها أخت كليب ومهلهل ابنى ربيعة ، وهى فاطمة بنت ربيعة ، أما من زعم أنه امرؤ القيس بن السمط بن امرىء القيس ، فقد قال إن أمه هى تملك بنت عمرو بن زبيد ، وقال أبو الفرج إن أصحاب هذا الزعم يستشهدون بقول امرىء القيس :

ألا هل أتاها والحوادث جمة
بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا (١)

ومع أن هذا البيت من مرويات المفضل الضبي ، وورد في نسخة الطوسي ، وفي ثلاث نسخ أخرى من الديوان ، فإن تفرده ، وعدم وضوح العلاقة بينه وبين ما قبله وما بعده من أبيات يجعل منه دليلا هشا ضعيفا .

٢ — المزدكية

اعتنق بعض الرجال من كندة الديانة النصرانية،وجعل لويس شيخو امرأ القيس من شعراء النصرانية ، ووافقه على ذلك فؤاد البستاني وغيره ، وتعد النصرانية أقرب الديانات إلى حياة امرىء القيس وشعره إذا ما قيست بمعتقدات أخرى . وإن لم يكن في شعره ما يجزم باعتناقه لها ، وكما يقول بلاشير ، « يظل اعتناق امرىء القيس النصرانية في حيز الفرضيات » (٢) .

ولكن القرائن التي استخلصت من شعره إذا لم يعبث بها ، أو تتدخل الصناعة فيها يمكن أن نهتدي بها في الحكم بنصرانيته .

ولقد اعتنق جده (الحارث بن عمرو) المزدكية ، واستعان بها في الظفر بالحيرة ثم كانت العاقبة عليه سيئة للغاية، فضربت رقاب بعض رجاله

---

(١) بيقر الرجل : إذا هاجر (الأغاني ٧٧/٩) وبيقر ترك الحضر ، أو أعيا ، أو لم يدر أين يسلك .

(٢) بلاشير تاريخ الأدب العربي . ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر بدمشق ص ٢٩٣

فى ديار بنى مرينا ، أما هو فقد قتل ، أو مات فى أرض كلب ، وتحدث امرؤ القيس عن هذه الأحداث فى شعره ، أما فيما يتصل بالمزدكية فيحسن أن نقدم نبذة موجزة عنها .

نشأت هـــذه الديانة فى بلاد فارس أيام كسرى قباذ ، وعرفت بالمزدكية نسبة إلى الزنديق (مزدك) . ولنقرأ ما قاله الشهرستانى فى الملل والنحل عنها ، قال : « وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال، فأحل النساء ، وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ » (١) .

كما كان يدعو إلى الاقتيات من النبات، لذا حرم قتل الحيوان وصيده ودعا إلى العكوف على اللذائذ والشهوات. فالمزدكية تستحل كل المنكرات ما عدا القتل ، وبعض الأمور التى لا يؤبه لها . وتعد المداهاة فى الدين من تعاليمها حيث يوافقون كل من يصادفهم دون أن يبينوا له حقيقة دينهم، ولعل هذا المبدأ قريب الشبه بما عرف عند بعض الفرق الشيعية بالتقية مع الاختلاف الكبير بين المزدكية كعقيدة منحرفة آثمة ، وبين الشيعة كفرقة إسلامية لا يقر أهل السنة بالعديد من آرائها فى السياسة والعقيدة والتاريخ . وقد اعتنق كسرى قباذ فى أوائل القرن السادس هذه الديانة ليستولى بها على ما فى أيدى الناس من أموال ومتاع ، إرضاء لأطماعه واستجابة لشهواته ، ويقال إن الحارث بن عمرو قد فرق نفوذه على الحيرة بسبب تقربه من قباذ واعتناقه للمزدكية اعتناق المنافقين .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل (على هامش كتاب : الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم) جـ ٢ ص ٨٦ المطبعة الأدبية بمصر عام ١٣٢٠ هـ .

لم يترك أبو الفرج هذه الديانة دون أن يتحدث عنهـــا ، ويشرح مبادئها ومعتقداتها بعد أن جمع كما هائلا من أقوال الرواه الذين استق منهم هذه الأخبار استجابة لمنهجه فى التأليف الذى يقوم على الجمع بين الروايات فى الحادثة الواحدة قال : « ولما ملك قباذ بن فيروز خرج فى أيام ملكه رجل يقال له مزدك فدعا الناس إلى الزندقة ، وإباحة الحرم، وألا يمنع أحد منهم أخاه بما يريد من ذلك ، وكان المنذر بن ماء السماء يومئذ عاملا على الحيرة ونواحيها . فدعاه قباذ إلى الدخول معه فى ذلك فأبى . فدعا الحارث بن عمر فأجابه ، فشدد له ملكه، وأطرد المنذر عن مملكته ، وغلب على ملكه»(١) ، لكن أنوشروان بن قباذ سامة أن يعتنق والده (المزدكيه) ، وأن يسايره الحارث بن عمرو فى اعتناق هذا المذهب ، ثم حدث لأنوشروان ماجعله ينتقم من (مزدك) فيما بعد ، إذ تحكى كتب التاريخ أن (مزدك) دخل مرة على قباذ ، فاستأذنه فى حرمته وقال له ادفعها لى لأقضى حاجتى فيها ، فقال له قباذ : دونكها ، ودخل أنوشروان ، وحاول منعه وأخذ يسأله فى أن يترك أمه ، وقد تركها بعد أن قبل أنوشروان رجله .

(وربما مضى فى سبيله) ، ولما هلك قباذ ، وجلس أنوشروان فى مجلس الملك قضى على الزنادقة ، ومنهم(مزدك)وجماعته ، وأعاد المنذر(اللخمى)إلى الحيرة ، وعاونه فى القضاء على الحارث بن عمرو الذى هرب فى هجائنه وماله وولده ، وكتب أبو الفرج فى نهايه هذه الأحداث يقول : «وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفسا من بنى آكل المرار ، فقدم بهم على المنذر ، فضرب رقابهم بمفر الأملاك فى ديار بنى مرينا العباديين بين دير هند والكوفة »(٢) وذكر بيتا لعمرو بن كلثوم وأربعة أبيات لامرىء القيس يعضد بها هذه الأحداث .

---

(١) أبو الفرج . الأغانى جـ ٩ صـ ٧٩

(٢) أبو الفرج . الأغانى جـ ٩ صـ ٨٠

٣ — تعدد الروايات

سلك أبو الفرج منهجه فى الترجمة لامرىء القيس المبنى على إيراد الروايات المتعددة فى المسألة الواحدة . وإذا علمنا أن واحداً من هؤلاء الرواة الذين اعتمد عليهم أبو الفرج فى جمع الأخبار وروايتها هو ابن الكلبى ، كان لنا أن نأخذ هذه المرويات بالحيطة والحذر ، وإلا فأين الحقيقة فى مقتل حجر (والد الشاعر) إذا قرأنا الأغانى ، واطلعنا على أربع روايات تختلف جميعها فى التفاصيل . وتتقارب ثلاث فى معظم الأحداث بينما تنفرد واحدة بأحداث تختلف عما تقاربت فيه الثلاث وأول هؤلاء الرواة هو ابن الكلبى الذى قال عنه أبو الفرج فى ترجمة دريد بن الصمة ، « وهذا من أكاذيب ابن الكلبى . وإنما ذكرته على مافيه لئلا يسقط من الكتاب شىء قد رواه الناس وتداولوه » . ولنقرأ لبعض من كتبوا عن أبى الفرج ، لنكون على يقظة وحذر مما يرويه ، إذ يقول الدكتور محمد أحمد خلف الله : « عقلية أبى الفرج عقلية إخبارية تقوم قبل كل شىء وبعد كل شىء على رواية الأخبار ... والرواة لا يقفون كثيرا لتحقيق المسائل وتصحيح الأخبار ، وإنما يمضون على روايتها كما أخذوها ، حتى لو كانت من الأكاذيب »(١) .

وربما كان لتعدد الخبر ضرورة وأهمية لإمكان التعرف على وجهات النظر الأخرى فيما يتصل بالرواية المطروحة إلا أن ذكر الروايات المختلفة أو المتضاربة بدون الحكم عليها والفصل بينها يجعل القارىء فى متاهة من أمره ، وتصير الحقيقة عزيزة المنال .

ونتيجة لطرح أبى الفرج للروايات المتعددة فى المسألة الواحدة ظن

---

(١) محمد أحمد خلف الله ، صاحب الأغانى ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

القارىء أن بعض هذه الأخبار غير صحيح، ولذلك تأكدت قضية الانتحال في الأخبار والأشعار، لأن صاحب الأغاني حاول دائماً في كتابه، وفي ترجمة امرىء القيس خاصة أن يربط بين الشعر والحياة، مؤكداً على ما بين الفن والبيئة من صلات وأواصر.

ففي الموقف الواحد يذكر عدة روايات مع الاستشهاد لكل منها بشيء من الشعر، وإذ وجب أن يكون بعض هذه الروايات كاذبا، فلا بد أيضا أن يكون الشعر المتصل بها منحولا ومصنوعا. ونستطيع أن نجد ما يؤكد ذلك في حديثه عن مقتل حجر، وحروب امرىء القيس مع بني أسد، وتواجده في أرض طيء، وانتقاله إلى بعض بني فزارة، ولكن ذلك لم تتضح هوية (هند) التي صاحبت الشاعر بعد مقتل أبيه، فهي في البداية أخته، قال: « فلما قتل حجر انحازت بنته وقطينه إلى عوير ابن شجنه، فقال له قومه: كل أموالهم فإنهم مأكولون، فأبى. فلما كان الليل حمل هندا وقطينها، وأخذ بخطام جملها، وأشأم بهم في ليلة طخياء مدلهمة»(١).

وهي بعد ذلك (ابنته) قال أبوالفرج في الترجمة نفسها: «ونجا امرؤ القيس ومعه يزيد بن معاية بن الحارث وبنته هند (بنت امرىء القيس) والأدرع والسلاح ومال كان بقي معه»(٢) وذكر بعد ذلك أن عامر بن جوين قال شعرا يعرض فيه بهند بنت امرىء القيس (٣). فإذا كانت، هند هذه هي ابنته، فأين ذهبت الاولى وهي أخته؟ ومن أين جاءت الثانية وهي ابنته مما يجعلنا نوقن أنها هند واحدة وهي أخته طبعا جاءت إليه بدمون، أو في أي موضع آخر مع ما تبقى من ميراث أبيه.

---

(١) أبو الفرج، الأغاني جـ ٩ ص ٨٩

(٢) المصدر السابق جـ ٩ ص ٩٣

(٣) انظر المصدر السابق ص ٩٦

ونؤكد أن تعدد الروايات المذكورة فى الموقف الواحد بدون تمحيص سمة تغلب على كتابات أبى الفـــرج ، ولذلك يزداد التضارب وتغيب الحقيقة، ولنأخذ مثالا على ذلك فيما يخص الموضوعات التى تتحدث عنها فى حياة امرىء القيس ، فقد ذكر أبو الفرج رواية عن الهيثم بن عدى ، وهى واحدة من أربع فى هذه المسألة تقول هذه الرواية إن امرأ القيس كان حاضرا للمعركة التى قتل فيها أبوه حجر ، وأنه هرب على فرس له شقراء ، وأعجزهم(١) ، وذكر رواية أخرى للهيثم نفسه جاء فيها أن امرأ القيس عندما قتل أبوه كان غلاما قد ترعرع ، وكان فى بنى حنظلة مقيم لأن ظئره كانت امرأة منهم(٢) ولا نريد الاستطراد فى ذكر الشواهد المؤكدة لما نقول ، وحتى لا نذهب من روعة الجوانب الإيجابية فى هذا الكتاب الضخم .

٤ — موقف امرىء القيس من الزواج

لم تتوفر لأبى الفرج الروايات الكافية للحديث عن موقف امرىء القيس من الزواج ، والفقرة السابقة التى تقلناها عنه، وهى حول إقامة الشاعر فى بنى حنظلة ، لأن ظئره كانت امرأة منهم لا تكفى فى بيـــان موقفه من الزواج مع أن الأصمعى قد ذكر فيما نقله أبو حاتم خبر زواج شاعرنا فى طيىء بأم جندب وأنها كرهته ، وانحازت إلى علقمة بن عبدة فى تحكيمها بينه وبين زوجها امرىء القيس على ماسوف نوضح فيما بعد، ولا ينهض لأبى الفرج عذرا وهو راوية وإخبارى ألا يعرض لما روى عن الأصمعى فى زواج امرىء القيس من أم جندب ، مع أنه ذكر شيئا له فى الحديث عن تنقلاته السابقة لذهابه إلى السموءل فى تيماء ، ولم يذكر شيئا عنه فى ترجمته لامرىء القيس ، مما حدا بنا للقول بأنها ليست بنته .

(١) انظر المصدر السابق جـ ٩ ص ٨٥
(٢) انظر المصدر السابق جـ ٩ ص ٨٨

الشاعر ، وإنما هي أخته (هند) التي جاءت اليه بعد مقتل أبيه ، و نعود إلى موقف امرىء القيس من الزواج .

ولا نرى في حياته بعد مقتل أبيه ما يجعله أهلا للاستقرار والزواج كما أن الروايات التي تابعت أخباره أثناء تنقله بين القبائل لم تذكر زوجة لازمته أثناء هذه التنقلات .

ولقد روى الأصمعي قصة هذا الزواج ، وذكر الديوان ذلك في التقديم للقصيدة البائية التي قالها الشاعر في الموقف الذي تخاصم فيه هو وعلقمة إلى أم جندب : « حدث الأصمعي أن امرأ القيس حين هرب من المنذر بن ماء السماء صار إلى جبلي طيء : أجأ وسلمى ، فأجاروه ، فتزوج بها أم جندب »(١). وجاء في الرواية المذكورة أنه كان مفركا مبغضا حتى أيقظته ذات ليلة من نومه بغضاً فيه ...

« فلما أصبح أتاه علقمة بن عبده التيمي ، وهو قاعد في الخيمة ، وخلفه أم جندب ، فتذاكرا الشعر ، فقال امرؤ القيس : أنا أشعر منك ، وقال علقمة : بل أنا أشعر منك :

فقال : فقل وأقول ، وتحاكما إلى أم جندب « فقال امرؤ القيس :

خليلي مرا بي على أم جندب . . . القصيدة :

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران في غير مذهب . . . . حتى فرغ منها ، ففضلته أم جندب على امرىء القيس فقال لها : بم فضلته علي ؟ فقالت : فرس ابن عبده أجود من فرسك ، قال : ولماذا ؟ قالت : سمعتك زجرت ، وضربت ، وحركت ، وهو قولك :

(١) الديوان ص ٤٠

فللساق ألهوب ، وللسوط درة
وللزجر منـــه وقع أهوج منعب

وأدرك فرس علقمة ثانيا من عنانه وهو قوله :

فأقبل يهوى ثانيا من عنانه
يمر كمر الرائح المتحلب

فغضب عليها ، وطلقهـــا . فخلف عليها علقمة ، فسمى علقمة الفحل »(١) .

إن الثقة فى الأصمعى تجعلنا نقبل كلامه فيما يتعلق بزواج امرىء القيس ، وفشله فى الإبقاء عليه ، ربما لعيب فيه ، أو لخلق سىء فى هذه المرأة التى عرفت بأم جندب . أما التفاصيل التى اقترنت بهذا الزواج فإننا نقف منها موقفا مترددا بين القبول والرفض ، ويمضى هذا التردد معنا فى كل ما تحدث به الشاعر من مغامرات عاطفية مصحوبة بتعهر ومجون ، إذ أنها ترجع — كما رأى البعض — إلى الجانب النفسى ، إذ كان الشاعر مشغولا بالحديث عن تجاربه ليعوض نقصا وعجزا أمام المرأة ، لكن هذا العجز لم يكن بالصورة التى ذكرها ابن قتيبة ، وتحـــدثنا عنها فى الفصل السابق .

أما النقد الذى قالته أم جندب ، أو نسب إليها فهو مقبول على ظاهره بصرف النظر عن بواعثه وأسبابه التى كانت مليئة — قطعا — بالكره لامرىء القيس ، ولو أنهما كانت محبة له لبحثت فى قصيدته عما أعجبها ، وتفوق به على خصمه ، ويبقى بعد ذلك موقف الشاعر من الزواج ، ذلك الموقف الذى لا تنهض الروايات ببيانه والإفاضة فيه وما رواه الأصمعى لا يكفى لحسمه وإيضاحه .

(١) الديوان ص ٤٠

أما الشعر فلا يمكن الاكتفاء به ، ولا يصح الإعتماد عليه فى الكشف عن الحقيقة وتصوير الواقع ، خاصة إذا كانت الحقيقة تتعلق بالمرأة التى يتفاخر الكثيرون من الشعراء بالتحكم فى عواطفها ، ويبالغون فى تصوير مغامراتهم معها ، فما بالك بشاعر مثل امرىء القيس الذى تناقلت الروايات خبر ضعفه وتصوره أمام المرأة فليس غريبا أن نراه ينشد الأقوال الصحيحة والزائفة التى تحدث فيها عن النساء سواء أكن زوجات أم معشوقات ، وإنهن لكثيرات .

٥ — الانتحال

الانتحال هو أن ينتحل الشاعر شعر غيره فينسبه إلى نفسه ، والذين درسوا السرقات الشعرية من معيار النقد الأدبى أطلقوا عليه اسم (الاجتلاب) والانتحال . وهو أهم قضية نقدية عرض لها أبو الفرج فى ترجمته لامرىء القيس ، ذلك لأن ما كتبه فى الأغانى لا يخرج عن نطاق الأخبار والروايات التى تتصل بحياة الشاعر متمثلا لها بالكثير من شعره ، دون أن يفرق بين درجات هذا الشعر من الصحة أو النحل . أما القضية التى عرض لها أثناء تتبعه لسير الشاعر إلى السموءل فهى تستحق التقدير والإبراز .

ذكر أبو الفرج أثناء سرده لبعض الأخبار التى لم يحدد رواتها أن امرأ القيس وفد على الربيع بن ضبع الفزارى وهو شاعر كان يأتى السموءل فينشده للعطاء وأخبر الربيع امرأ القيس إعجاب السموءل بالشعر ، وأخذ الشاعران (امرؤ القيس والربيع) يدربان نفسيهما على ما سوف يقولانه أمام السموءل فأنشد الربيع قصيدة طويلة ، وتبعه امرؤ القيس فقال .

طرقتك هند بعد طول تجنب
وهناً ولم تك قبل ذلك تطرق

وبعد أن أورد أبو الفرج هذا البيت المنسوب إلى امرىء القيس فى الرواية التى اعتمد عليها أعقبه بدفع مقولة نقدية لم يذكر صنوا لها فى هذه الترجمة إذ قال : « وهى قصيدة طويلة ، وأظنها منحولة ، لأنها لا تشاكل كلام امرىء القيس ، والتوليد فيها بين ، وما دونها فى ديوانه أحد من الثقات ، وأحسبها مما صنعه دارم لأنه من ولد السموءل ، ومما صنعه من روى عنه من ذلك ، فلم تكتب هنا (١) .

لم يكن أبو الفرج أول من ذكر الانتحال ، فقد سبقه إلى ذلك الأصمعى وابن سلام الجمحى وغيرهما ، وسبق أن تحدثنا عما قاله ابن سلام .

وقد عرض أبو الفرج للانتحال هنا من خلال قصيدة واحدة ومحددة نسبت إلى امرىء القيس ، وليس من خلال شعره كله ، أو من خلال الشعر الجاهلى بعامة ، ولكن مقولته النقدية مع قصرها تكشف لنا عن تأصيل للمنهج النقدى المتبع فى معالجة قضية مثل الانتحال .

فقوله : « وهى قصيدة منحولة » يؤكد أنه رآها وأطلع عليها ، ونظر إليها نظرا دقيقا متفحصا ، ثم تأتى إلى قوله . « وأظنها منحولة » فكلمة وأظنها تدل على الحذر واليقظة ، فليس من السهل عليه وهو ناقد أن يحكم بانتحال قصيدة ما حتى تتوفر له الأسباب الكافية لهذا الحكم ، إذ أن الوسائل المتبعة فى معرفة الأصيل والدخيل من شعر الشاعر ليست جازمة أبداً ، وهى فى معظمها لا تسفر إلا عن أحكام ظنية واحتمالية . ثم أورد فى مقولته السالفة سببين أساسين لانتحال القصيدة أولها : راجع إلى أسلوبها (متنها)

(١) أبو الفرج . الأغانى جـ ٩ ص ٩٧

وثانيها : راجع إلى سندها (الرواة) ، فهى من ناحية الأسلوب لا تشاكل كلام امرىء القيس ، والتوليد فيها بين ، أى أن صنعه الانتحال فيها ظاهرة ، وترجع من ناحية سندها إلى واحد من ولد السموءل بن عادياء (الشاعر اليهودى الذى سكن تيماء فى الجاهلية) وهو دارم بن عقال ابن حبيب الغسانى أحد ولد السموءل ، وأبو الفرج روى عمن أخذ عنه ، ويستطيع أن يحكم على أخباره ومروياته ، ولذا جاء النحل من ناحية دارم. وأكد أبو الفرج شكه فى هذا السند بأن القصيدة لم يدونها بديوان امرىء القيس واحد من الثقات . ولما كانت القصيدة منحولة من ناحية دارم أو من ناحية واحد ممن أخذوا عنه استبعدها أبو الفرج ، ولم يدونها فى الأغانى .

ولم تذكر هذه القصيدة ذات المطلع السابق فى نسخ الديوان كما قال أبو الفرج ، ولم تطلع على أبيات منها سوى البيت المذكور (١) .

لقد كنت أتمنى أن ينقل أبو الفرج هذه القصيدة إلى كتابه لنستعين بها فى معرفة طرائق التوليد ، ومقدار الصنعة ، وأثر الانتحال عليها . ومن يدرى لعله إن ذكرها لأهملت عبارته ، ودخلت القصيدة فى ديوان الشاعر أو قائمة الشعر المنسوب إليه ، ولصارت واحدة من تلك القصائد التى لم يروها الثقات ، وعند ذلك يصبح الحكم عليها بالانتحال شائكا وعسيرا .

أما الشىء الذى أتساءل عنه فهو انطلاق أبى الفرج لنقد قصيدة

---

(١) أورد حسن السندوبى ذلك البيت الوحيد المذكور فى الصفحة السابقة على أنه مما ينسب إلى امرىء القيس (ص ١٤٢) وذكره أبو الفضل إبراهيم فى الشعر المنسوب إلى امرىء القيس ، وأعقبه بذكر مقولة أبى الفرج ولم يرد فى نسخ الديوان .

امرىء القيس بينما سكت عن كثير من الأخبار والروايات التى لا يمكن له إلا أن يصدق بعضها ويكذب الأخرى ، ولكن غرامه بذكر كل ما قيل عن الحادثة الواحدة كان مقدما على قبول رواية ورفض أخرى .

ويبقى لصاحب الأغانى فضيلة الاستيعاب والشمول والربط بين الواقع والشعر، مع تحفظنا على هذا الربط ، والحرص على نقل كثير من النصوص التى ضاعت ، ولم يبق منها إلا ما ذكره أبو الفرج فى كتابه ، وما ذكره غيره فى بعض الكتب الأخرى .

الفصل الرابع

الموشح للمرزبانى(١)

الموشح ثمرة من ثمار التأليف فى القرن الرابع الهجرى، وكتاب فى النقد التطبيقى للقواعد التى اهتدى إليها النقاد حتى عصر المرزبانى، وخزانة لكثير من النصوص النقدية التى أتت على أصولها يد الحدثان، وامتدت إلى أوراقها عوادى الزمان.

يعرض الموشح لثلاثة جوانب متصلة بالشعر، وهى فى مجموعها لاتحمل جديداً لم يذكره القدماء، وإن تميزت بالجمع والاستقصاء والتبويب من خلال النقل عن مؤلفات السابقين أو الأخذ عن الرواة المعاصرين.

لقد تحدث فى المقدمة التى عقدها للكتاب عن عيوب الشعر مثل السناد والإقواء، والإكفاء والإيطاء، ومثل لها معرفا بأجزاء القافية وحركات حروفها، ثم ترجم لأربعة وستين شاعراً(٢).

---

(١) المرزبانى: هو أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى بن عبيد الذى ولد سنة ٢٩٦ هـ وتوفى سنة ٣٨٤ هـ ببغداد.

لقد كانت حياته مليئة بالنشاط العقلى والتأليف العلمى، إذ خلف نتاجا ضخما فى شتى فروع المعرفة بين مطبوع ومخطوط ومفقود، ومن أشهر كتبه: الموشح، ومعجم الشعراء، وأخبار شعراء الشيعة، وأشعار النساء وغيرها.

(٢) من واقع النسخة التى أعتمد عليها فى هذا الفصل وهى من إخراج محب الدين الخطيب، الطبعة الثانية عام ١٩٨٥م (المطبعة السلفية بالقاهرة).

جاهليا وإسلاميا ومحدثا (عباسيا) فضلا عن جماعة أخرى من الشعراء الذين ترجم لهم مجتمعين لا منفردين ، ويلاحظ أنه يتبع منهجا معينا فى اختياره للشعراء أو فى ترتيبه لهم غير أنه بدأ بالجاهليين ، ثم بالإسلاميين ، ثم بالمحدثين ، ثم ختم الكتاب بما جاء فى ذم الشعر الردىء . وذكر المرزبانى الهدف الأساسى من تأليف كتابه فقال : « سألت . . . أن أذكر لك طرفاً مما أنكر على الشعراء فى أشعارهم من العيوب التى سبيل أهل عصرنا هذا ومن بعدهم أن يجتنبوها ، ويعدلوا عنها ، فأجبتك إلى ما سألت »(١) .

فليس من منهجه إذن أن يتعقب حياة الشاعر كما فعل ابن قتيبة أو أبو الفرج ، وإنما ينحصر هدفه فى جمع المآخذ والعيوب التى أنكرها العلماء على الشعراء ، ثم بين خطته فى تصنيف الكتاب فقال: « .. وابتدأنا بباب أتينا فيه عن حال السناد ، والإيطاء ، والإقواء ، والإكفاء ، وإن لم يكن هذا الكتاب مفتقراً إلى ذكره ، وإنما أوردناه لما جاء فيه من الأشعار المعيبة .... وختمنا الكتاب بباب أتينا فيه بما روى من ذم ردىء الشعر وسفسافه ، وعلى أن كثيراً مما أنكر فى الأشعار قد احتج له جماعة من النحويين وأهل العلم بلغات العرب ، وأوجبوا العذر للشاعر فيما أورده منه وردوا قول عائبه والطاعن عليه ، وضربوا لذلك أمثلة قاسوا عليها ونظائر اقتدوا بها ، ونسبه بعضهم إلى ما يحتمله الشعر أو يضطر إليه الشاعر »(٢) .

وقد ساير المرزبانى كثيراً من القدماء فى تقديمهم لامرىء القيس ، فكان هذا الشاعر أول المترجم لهم فى كتاب الموشح .

---

(١) المرزبانى الموشح ص ١١
(٢) المصدر السابق ص ١١ ، ١٢

امرؤ القيس بن حجر

إن أكثر الأحكام النقدية التي تشملها ترجمة المرزباني لامرىء القيس ليست إلا نقولا جمعها من مصادر مختلفة ، وهي ترجع إلى رجال عصره وسابقيه ، والذي يعنينا — هنا — هو ما قيل عن امرىء القيس سواء أكان تابعا من رؤية المرزباني أو مما نقله عن الآخرين ، لأن الرجل كان حريصا — فيما بدا لي — على الانتصاف للشعراء ، واتباع مذهب السلف في نسبة الأقوال إلى أصحابها متخذا من سلسلة السند طريقا للوصول إلى مآخذ العلماء على الشعراء .

وإذا راجعنا ما كتبه المرزباني عن امرىء القيس وجدناه يعرض في اثنتي عشرة صفحة — وهي مجموع ما كتبه عنه — لما قاله العلماء بالشعر واللغة والنقد في شعر امرىء القيس .

ومن هنا تأتي أهمية الترجمة التي خلصت للنقد ، وبعدت عن الروايات التاريخية التي كثرت بصورة مكثفة في كتاب الأغاني .

تدور الروايات التي نقلها المرزباني في ترجمـــة امرىء القيس عن العديد من المسائل النقدية ، وهي إما تكرار لما ذكره القدماء ، وسبق أن تحدثنا عنه في الفصول السابقة وإما تجميع لبعض العيوب التي قيلت هنا أو هناك حول شعر امرىء القيس . وقد ذكرنا بعضا منها من خلال الحديث عن الكتب السابقة ، وإما عرض لألوان من الشعر أجاد فيها الشاعر ، وامتدحه النقاد ، وهـــذه الألوان هي أهم ما سنعرض له في هذه الترجمة .

أولا — روايات سبق الحديث عنها

نقل المرزبانى بعض الروايات التى سبق أن ذكرها القدماء فيما يتصل بنقد أم جندب لشعر امرىء القيس وشعر علقمة ، ونعجب من سعة صدره لهذا الخبر الذى أورده بثلاث روايات مختلفة الإسناد ، وإن تقاربت فى مجموع النقد الذى عرضنا له فى فصل سابق، حيث ظهر تحامل أم جندب على امرىء القيس ، وتلهفها على الإساءة إلى شعره ، وتفضيل علقمة عليه ، وترجع الرواية الأولى إلى عمر بن شبة ، وبدأها المرزبانى بقوله : « كتب إلى أحمد بن عبد العزيز الجوهرى أخبرنا عمر بن شبة قال : ... » وترجع الثانية إلى أبى عمرو الشيبانى .

وقد بدأها بقوله : « وروى محمد بن العباس اليزيدى . . . » وتعود الثالثة إلى المفضل الضبى ، وبدأها بقوله : « وحـــدثنى إبراهيم بن محمد العطار ... » .

ويلاحظ اختلاف الروايات فى وسيلة الأخذ فى الأولى (كتب إلى) وفى الثانية (روى) وفى الثالثة (حدثنى) .

وربما أراد الرجل أن يوثق هذا الخبر ، وأن يجمع الأقوال التى ذكرته ، فأورد الروايات الثلاث بتمامها ثم أعقبها بقوله :

« وقد روى هذا الحديث أيضا هشام بن الكلبى عن هذه الحكاية ، ورواه أيضا عبد الله بن المعتز »(١) .

وبالنظر فى رواية أخرى لم يوردها المرزبانى وهى لأبى حاتم

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩

السجستانى عن الأصمعى نرى تكاثر الروايات حول هذا الموضوع الذى أنكره كثير من المعاصرين.

أما فيما يتصل بالشك فى شعر امرىء القيس ، فقد نقل المرزبانى روايتين ليستا بجديدتين علينا فى هذه الفصول ، وهما عن الأصمعى ، وعن الرياشى: تقول رواية الأصمعى : « ويقال إن كثيراً من شعر امرىء القيس لصعاليك كانوا معه »(١) وتقول رواية الرياشى(٢) :

« يقال إن كثيراً من شعر امرىء القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا معه مثل عمرو بن قميئة وغيره »(٣).

وقد أورد تشكيكاً آخر فى واحدة من القصائد التى رواها المفضل الضبى ، وأنكرها الأصمعى حيث قال : « وقد زعم بعض الرواة أن هذه القصيدة ليست له ، وأنها ألحقت بشعره ، وأنها لبعض النمريين »(٤).

أما القصيدة المذكورة فهى الرائية التى بدأها امرؤ القيس بقوله :

أحار بن عمرو كأنى خمــر
ويعـدو على المرء ما يأتمـر(٥)

وليس هذا الخبر جديداً على مسيرة النقد الأدبى وإن كنا لم نذكره فيما سبق.

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢

(٢) الرياشى : أبو العباس بن الفرج الرياشى اللغوى والنحوى ، قتله الزنج بالبصرة سنة ٢٥٧ هـ (هامش الشعر والشعراء جـ ١ ص ٧١).

(٣) المرزبانى الموشح ص ٣٢.

(٤) المصدر السابق ص ٣٤

(٥) الديوان ص ١٥٤.

ثانياً : بعض المآخذ على شعر امرىء القيس

ذكر المرزبانى مجموعة من المآخذ والمعايب على شعر امرىء القيس منها ما عيب عليه فى وصف فرسه عندما شبه ذيله بذيل العروس قال :

لها ذنب مثل ذيل العروس تسد به فرجها من دبر(١)

وقالوا : ذيل العروس مجرور ، ولا يجب أن يكون ذنب الفرس طويلا مجرورا ولا قصيرا . قالوا : والصواب قوله :

ضليع إذا استدبرته سد فرجه
بضاف فويق الأرض ليس بأعزل(٢)

ومن المآخذ التى نقلها المرزبانى فيما يختص بشعر امرىء القيس فى الفرس ما ذكره الأصمعى من عيب فى قوله(٣) .

وأركب فى الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر

حيث شبه ناصيتها بسعف النخلة ، وقال الأصمعى فيما ذكره المرزبانى: « إذا غطت الناصية الوجه لم يكن الفرس كريما ، والجيد الاعتدال»(٤) ومن عجب أن هذه المقولة قد تناقلها القدماء فيما بينهم من غير زيادة أو نقص ، فنراها فى عيار الشعر لابن طباطبا ، وفى كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، وفى سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى .

ثم نقل المرزبانى عن مؤدبه (أبى سعيد محمد بن هبيرة) مأخذا آخر فى قول امرىء القيس عن فرسه(٥) :

وللسوط منها مجال كما تنزل ذو برد منهمر

(١) الديوان صـ ١٦٤ (٢) المرزبانى المرشح صـ ٣٣
(٣) الديوان صـ ١٦٣ (٤) المرزبانى الموشح صـ ٣٣
(٥) الديوان صـ ١٦٦

قال : « وهذا أيضا ردىء : مالها وللسوط »(١) وكان استعمال السوط لإلهاب الفرس مما عابته أم جندب على امرىء القيس عند تحكيمها بينه وبين علقمة (الفحل) .

ونقل المرزبانى عن ابن طباطبا نقده لبيتين من شعر امرىء القيس ، وهما حول لهوه وملذاته فى ركوب الخيل وشرب الخمر والفحش مع النساء .

قال : « وقال أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى : روى الرواة لامرىء القيس :

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ، ولم أقل
لخيلى كرى كرة بعد إجفال

وهما بيتان حسنان ، ولو وضع مصراع كل واحد منهما فى موضع الآخر كان أشكل وأدخل فى استواء النسج ، فكان يروى :

كأنى لم أركب جوادا ، ولم أقل
لخيلى كرى كرة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروى للذة
ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال(٢)

وقد روى البيتان على الصورة الأولى ، وتحدثت الكتب عن هذا النقد، وذكر ابن طباطا مايؤكد نقده حيث رأى إمكانية التغيير فى الرواية

---

(١) المرزبانى . الموشح ص ٣٣
(٢) المصدر السابق ص ٣٢

من جهة الرواة والناقلين ، فجاء البيتان بما وجه إليهما من نقد . قال : « وربما وقع الخلل فى الشعر من جهة الرواة والناقلين له فيسمعون الشعر على جهته ، ويؤدونه على غيرها سهوا ، ولا يتذكرون حقيقة ما سمعوه منه »(١) ، ثم ذكر البيتين المرويين ، وعقب عليهما بنقده ، وبالصورة التى يمكن أن يأتيا عليها .

وذكر صاحب الموشح ماقاله النقادعن فجور امرىءالقيس ،وتعهره، وحول تعبيره عن تعرض الثريا ، وهى لا تتعرض ، وعن صموده أمام محبوبته ، وأنها تقر لأن حبها يقتله ، وذكر أيضاً ما قاله النقاد حول قصد امرىء القيس للحبلى والمرضع دون البكر ، وهو ملك وابن ملوك ، قال : « مافعل هذا إلا لنقص فى همته »(٢) .

وذكر أن الشاعر أكذب نفسه عندما قال :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها

ثم قال : وهل عند رسم دارس من معول

ونعجب للمرزبانى كيف كرر فى ترجمته لامرىءالقيس بعض المآخذ، وهذا فيما نظن راجع إلى سهو الرواة وجهل النقلة ، ولا نظن أن أديبا موسوعيا مثل هذا الرجل يقع فى شرك التكرار ، بالصورة التى يذكر بعض المآخذ ، ثم يكررها بعد صفحة واحدة ، ولو اختلفت الرواية أو السند لالتمسنا له أو لمن روى عنه الأعذار.وقد سبق أن ذكرنا ماعرض له من تكرار فى حديثه عما وقع لامرىء القيس مع أم جندب بثلاث روايات تختلف فى السند وفى بعض الألفاظ .

---

(١) انظر ابن طباطبا . عيار الشعر ص٢٠٩ طبعة دارالعلوم بالرياض

(٢) المرزبانى، الموشح ص ٣٤

وإذا رضينا بتكرار الأحكام النقدية بين الكتب فلا نظن أن ذلك سيصير مقبولا إذا حدث التكرار بين صفحات الكتاب الواحد ، ولم يكن امرؤ القيس مستهدفا بهذه المآخذ حيث إن كثيراً من حذاق الشعراء قد عيبت بعض أشعارهم .

قال المرزباني : « وقد عيب على النابغة وزهير والأعشى والفرزدق وجرير والأخطل وغيرهم من حذاق الشعراء أشياء كثيرة »(١) .

ثالثاً : قضايا مستجدة

نقصد بالقضايا المستجدة تلك المآخذ والملاحظات النقدية التي ارتبطت بشعر امرىء القيس ، وعرض لها النقاد والرواة في مراحل متقدمة على عصر المرزباني ، ثم جاء هذا الأخير فذكرها في صورة جديدة وطرح جديد، بما يجعل منها سمة وعلامة لبعض ما قاله امرؤ القيس سواء أكان النقد محسوبا له أم عليه .

١ — شعر الفخر :

نقل صاحب الموشح إلى كتابه رواية وصل بسندها إلى رؤية فيما يتصل بالفخر عند امرىء القيس ، وأتى ببيتين لموازن بينهما وبين بيتين آخرين من شعره في وصف معزى ، واعتبرت الرواية البيتين الآخرين من أنذل ما قيل ، ثم أكد المرزباني ذلك برواية أخرى قالها أحمد بن عبدالله ابن عمار ، ومجموع ما يستفاد من هاتين الروايتين لا يتجاوز حدود الإعجاب بما قاله الشاعر من فخر عندما قال(٢) :

(١) المصدر السابق ص ٣٥ — (٢) الديوان ص ٣٩

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفانى — ولم أطلب — قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

فلو كان الشاعر يسعى لأقرب معيشة لكفاه القليل من المال الذى يحقق به ما يكفيه ، غير أن آماله وطموحاته تتجاوز ذلك إلى تحقيق الملك والمجد المؤثل ، وعلى النقيض من ذلك تماما تراه يقول :

إذا لم تكن إبل فمعزى كأن قرون جلتها العصى

والذين أنكروا على الشاعر أن يذكر هذا البيت وإخوته قد تناسوا تماما ما أحاط به من هموم وأحزان فى مرحلة من حياته .

ونعود إلى أبيات الفخر لنرى أنها الترجمان الحقيق لأطول فترة زمنية عاشها الشاعر ، حيث تندرج ضمن الفخر الشخصى ، الذى يتغنى فيه بنفسه وآماله وطموحاته — وسبق أن عرضنا لبيتين جمع فيهما بعض مفاخره عندما ولى عنه الشباب ، وتغيرت به الأيام وهما :

كأنى لم أركب جواداً للذة
ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل
لخيل كرى كرة بعد إجفال

ونرى فى ديوانه — فضلاً عما ذكرنا — شعراً غير قليل فى الفخر الذى قاله الشاعر فى ظروف صحية ، حيث استرجع أيامه التى امتلأت بالعبث والمجون ، وبركوب الخيل للصيد والقنص ، وبالقوة والشجاعة .

كما افتخر أيضاً بقبيلته كندة بما فيها من ملوك عظام . ونقرأ له أبياتاً أخرى افتخر فيها بالأخلاق الحميدة كالشجاعة والصبر والوفاء بالعهد، قال(١) :

عليها فتى لم تحمل الأرض مثله ... أبر بميثاق وأوفى وأصبرا
هو المنزل الآلاف من جو ناعط ... بنى أسد حزناً من الأرض أوعرا
ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ... ولكنه عمداً إلى الروم أنفرا

وتراه يفتخر بقدرته على كشف الأمر المبهم من إدارة الحرب، قال(٢):

فإن أمس مكروبا فيارب بهمة ... كشفت إذا ما اسود وجه الجبان

ويتجاوز الشاعر ذاته ، ليصل إلى الفخر بأشراف كندة فيقول(٣):

وأنا الذى عرفت معد فضله ... ونشدت عن حجر بن أم قطان
خالى ابن كبشة قد علمت مكانه ... وأبو يزيد ورهطه أعمامى

وكانت شجاعة امرىء القيس من أكثر ما افتخر به خاصة فى المدة التى خاض فيها الحروب مع بنى أسد من أجل الثأر لأبيه ، حيث قطع الأرض ، وجاب الفيافى ، وركب ناقته القوية ونزل بمواطن الكلأ ، وقاد الغارات ، وقتل الرجال ، وسبى النساء والأطفال، قال(٤):

قد أقطع الأرض وهى قفر ... وصاحبى بازل شملال

(١) الديوان ص ٦٥ ... (٢) الديوان ص ٨٦
(٣) الديوان ص ١١٨ ... (٤) الديوان ص ١٨٩

إلى غير ذلك من الأبيات التي تمثل في مجموعها اتجاها قويا وفنا مستقلا في شعر امرىء القيس :

٢ — وصف الليل

نقل المرزباني رواية عن محمد بن يحيى الصولي حول خلاف الوليد بن عبدالملك وأخيه مسلمة في شعر امرىء القيس والنابغة الذبياني عن وصف طول الليل ، وكان حرص المرزباني على نقل الموازنة بين الشاعرين في هذا الوصف قد أعطى بعداً جماليا لهذه المآخذ حيث احتكم الوليد وأخوه إلى الشعبي ، وأنشد الوليد أبيات النابغة ، وهي(١) :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض
وليس الذي يرعى النجوم بآيب
وصدر أراح الليل عازب همه
تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ثم أنشد مسلمة قول امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي
بصبح وما الإصباح فيك بأمثل

(١) المرزباني . الموشح ص ٢٩ ، وديوان النابغة ص ٢٩ : طبع دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ (١٩٨٤ م) .

فيالك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامها   بأمراس كتان إلى صم جندل

لقد شرح المرزبانى بعض الكلمات فى شعر امرىء القيس ، لأن شعره هو المقصود والمستهدف من هذه الموازنة، ثم نقل عن الصولى كلامه الآتى : « فأما قول النابغة :

وصدر أراح الليل عازب همه . . .

فإنه جعل صدره مألفا للهموم ، وجعلها كالنعم العازبة بالنهار عنه ، الرائحة مع الليل إليه ، كما تريح الرعاة السائمة بالليل إلى أماكنها . وهو أول من وصف أن الهموم متزايدة بالليل ، وتبعه الناس .... »(١)

وذكر من هؤلاء الذين اتبعوه مجنون ليلى وابن الدمينة ، وأراد أن يثبت تقدم امرىء القيس إلى الإحسان فى هذا المعنى فقال : «فالشعراء على هذا المعنى يتفقون ، ولم يشذ عنه ، ويخالفه منهم إلا أحذقهم بالشعر والمبتدىء بالإحسان فيه امرؤ القيس ، فإنه بحذقه وحسن طبعه وجودة قريحته كره أن يقول : إن الهم فى حبه يخفى عنه فى نهاره ، ويزيد فى ليله ، فجعل الليل والنهار سواء عليه فى قلقه وهمه وجزعه وغمه ، فقال :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى
بصبح وما الإصباح فيك بأمثل

فأحسن فى هذا المعنى الذى ذهب إليه ، وإن كانت العادة غيره ، والصورة لا توجبه ... »(٢) . أما العادة التى ربما قصدها هى أن يكون

---

(١) المرزبانى : الموشح ص ٣٠
(٢) المصدر السابق ص ٣٠

الليل موطنا للهموم ومبعثا للأحزان، بينما يأتى الليل مفرجا وكاشفا لها .

وذكر المرزبانى سبب إجماع الشعراء على شدة همهم بالليل ، فقال : « وإنما أجمع الشعراء على ذلك من تضاعف بلائهم بالليل وشدة كلفهم، لقلة المساعد وفقد المجيب . وتقييد اللحظ عن أقصى مرامى النظر الذى لابد أن يؤدى إلى القلب بتأمله سببا يخفف عنه ، أو يغلب عليه ، فينسى ماسواه .

وأبيات امرىء القيس فى وصف الليل أبيات اشتمل الإحسان عليها، ولاح الحذق فيها ، وبان الطبع بها فما فيها معاب إلا من جهة واحدة عند أمراء الكلام والحذاق بنقد الشعر وتمييزه ، ولولا خوفى من ظن بعضهم أنى أغفلت ذلك ماذكرته ، والعيب قوله بعد البيت الذى ذكرته :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ...

فلم يشرح قوله : (فقلت له)ما أراد إلا فى البيت الثانى، فصار مضافا إليه متعلقا به . وهذا عيب عندهم ، لأن خير الشعر مالم يحتج بيت منه إلى بيت آخر ، وخير الأبيات مااستغنى بعض أجزائه ببعض إلى وصوله إلى القافية مثل قوله

الله أنجح ماطلبت به والبر خير حقيبة الرحل

ألا ترى أن قوله (الله أنجح ماطلبت به) كلام مستغن بنفسه ، وكذلك باقى البيت . على أن فى البيت واو عطف عطفت جملة على جملة ،وماليس فيه واو عطف أبلغ فى هذا وأجود »(١)

(١) المصدر السابق ص ٣١

ويعد هذا الكلام السابق من أفضل ماقيل من نقد وموازنة فى هذه الترجمة .

ولقد أشار المرزبانى إلى قضية نقدية كان القدماء يتعصبون لها ، ولا يرون لغيرها مزية عليها ، وهى أن يكون البيت وحدة مستقلة بنفسها ، وغير محتاجة إلى مابعدها، ثم ذكر أن الشعراء تبعوا امرأ القيس وساروا على نهجه عندما جعلوا نهارهم كليلهم بدون تفريق ، ولعل هذا ماجعل وصف الليل عنده أشمل وأفضل مع أن أبيات النابغة فى غاية الجودة .

٣ — تفاوت شعره

ذكر المرزبانى ماحدثه به أبو الحسن على بن إبراهيم المنجم حول تفاوت شعر امرىء القيس من خلال رواية ليست بالقصيرة ، ورد بها أن فى شعره مايفضل بعضه بعضا . وإذا كان النقاد قد أشادوا بسبقه إلى أشياء استحسنها العرب واتبعه الشعراء فيها ، فإن له شعرا يجمع بين حوشى الكلام وخلو الألفاظ من كثير من الفائدة »(١) ومثل لذلك بقوله :

يا هند لاتنكحى بوهة   عليه عقيقته أحسبا
مرسعة بين أرساغه   به عسم يبتغى أرنبا
ليجعل فى كفه كعبها   حذار المنية أن يعطبا
ولست بخزرافة فى القعود   ولست بطياخة أخدبا
ولست بذى رثية إمر   إذا قيد مستكرها أصحبا(٢)

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٣٥

(٢) الديوان ص ١٢٨ ، ١٢٩

على أن هذا التفاوت الذى ذكره صاحب الموشح فى الرواية السابقة لا يختص به شعر امرىء القيس وحده، إذ تجد فى ديوان كل شاعر الجيد والردىء. والشعراء فى ذلك مختلفون ومتفاوتون.

ولعلنا قد أدركنا أن المرزبانى لم يقصد إلا إلى رصد المآخذ، وجمع الروايات التى تناثرت فى الكتب القديمة حول شعر امرىء القيس، ولذا لم تظهر شخصيته فى كتابه إلا نادرا، وكان همه منصرفا إلى الرواية عن العلماء وتسجيل مآخذهم مما أوقعه فى شرك الإعادة والتكرار.

الفصل الخامس

إعجاز القرآن للباقلانى (١)

نهض الباقلانى بتأليف كتابه (إعجاز القرآن) للتأكيد على أن معجزة هذا الكتاب المقدس تقوم على بلاغته ، وليس بالصرفة(٢) ولأن ذلك يقتضى أن المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة ، وبذلك يسقط أن يكون القرآن معجزا فى نفسه وبلاغته . وواضح أنه إنما يرد هنا على المعتزلة من أمثال النظام صاحب الفكرة ، والرمانى الذى عد الصرفة من وجوه الإعجاز القرآنى ، (٣).

---

(١) ولد أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى بالبصرة، ونشأ بها ،وأخذ عن علمائها ثم ارتحل إلى بغداد ، واستكمل علومه بها ، إلى أن توفى فيها عام ٤٠٣ هـ . وقد خرج فى حياته إلى شيراز ، وانضم إلى مجلس عضد الدولة معبرا عن رأى أهل السنة ، ومتحدثا بمذهب الأشاعرة فى علم الكلام ، ثم عاد إلى بغداد فى حوالى عام ٣٦٧ هـ . كما جعله عضد الدولة رئيسا للبعثة التى أرفدها إلى ملك الروم بالقسطنطينية عام ٣٧١ هـ ،

ألف الباقلانى ما يربو على الخمسين كتابا ، ولم يصلنا منها إلا القليل مثل إعجاز القرآن ، والتمهيد ، وهداية المسترشدين والانتصار لصحة نقل القرآن ، وغيرها .

(٢) أى بصرف العرب عن معارضته .

(٣) د / شوقى ضيف . البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٨ دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة عام ١٩٧٧ م

وقال الباقلانى فى مقدمة كتابه إن الذين ألفوا قبله فى معانى القرآن لم يبسطوا القول فى بيان إعجازه ، وأن الجاحظ الذى صنف فى نظم القرآن كتابا « لم يزد فيه على ماقاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى » (١) .

وقد جعل الفصل الأول من هذا الكتاب فى بيان أن نبوة محمد ﷺ معجزتها القرآن ، واستدل على ذلك بالعديد من الآيات ، ثم عقد الفصل الثانى لبيان وجه الدلالة على أن القرآن معجز وأكد هذا ببيان عجز الكفار عن الإتيان بمثله ، وأبطل حجة القائلين بالصرفة .

وجعل الفصل الثالث للحديث عن وجوه الإعجاز ، فذكر أن أصحابه الأشاعرة ردوا ذلك إلى ثلاثة أوجه وهى أنه « يتضمن الإخبار عن الغيوب . وذلك مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه » (٢) ، وذكر أمثلة لها . وثانيها أنه « أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيات الأمور ، ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه » (٣) ، مع أنه أى (النبى ﷺ) كان أميا لا يقرأ ولا يكتب .

والوجه الثالث : « أنه بديع النظم ، متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه » (٤) .

وهكذا بسط رأيه فى إعجاز القرآن من الوجهة البلاغية ، ثم أكد على

---

(١) الباقلانى . إعجاز القرآن ص٦ تحقيق السيد صقر الطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٧٢ م

(٢) المصدر السابق ص ٣٣ (٣) المصدر السابق ص ٣٤

(٤) المصدر السابق ص ٣٥

أن الذكر الحكيم لا يتفاوت ولا يتباين بخلاف كلام البشر . وشرح فى عدة فصول متوالية وجوه إعجاز القرآن ، ونفى الشعر والسجع عنه . وعقد فصلا فى ذكر البديع من الكلام ، وتحدث فى فصل عن كيفية الوقوف على الإعجاز ، وساق لهذا الغرض طائفة من خطب الرسول ﷺ ورسائله ، ومن خطب صحابته ورسائلهم ، وذكر مجموعة أخرى من خطب غيرهم ، حتى يقف القارىء على ما بينها وبين القرآن من فروق .

وعقد بابا أبان فيه عن أن نظم القرآن يزيد فى فصاحته على كل نظم . ودرس معلقة امرىء القيس ، وبين ما فيها من تكلف وعوار وحشو وتطويل ، ليؤكد جمال النظم القرآنى الذى وزع على كل آياته بقسطاس وانتقد أيضا واحدة من قصائد البحترى للتأكيد على الغرض نفسه ، وذكر عدة فصول استكمل فيها بحثه عن إعجاز القرآن . واختتم الكتاب بفصل أجمل فيه كثيرا من المسائل التى أفاض فى شرحها حول الإبانة عن معجزة القرآن الكريم .

أولا — إعجاب الباقلانى بشعر امرىء القيس

اعتنى الباقلانى بشعر امرىء القيس فى (إعجاز القرآن) أكثر من أى شاعر آخر ، سواء من خلال الحديث المباشر عن خصائص شعره أم من خلال التمثيل بهذا الشعر فى أكثر الفنون البلاغيـــة التى تحدث عنها فى كتابه . ثم دلل على ما فى ديوان شاعرنا من سوء نظم وفساد تركيب؛ ليؤكد على أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم .

وتعد معلقة امرىء القيس من أهم القصائد التى تحدث عنها ، واستشهد بالعديد من أبياتها ، فضلا عما اختاره من القصائد الأخرى .

وعندما أبان عن إعجابه بشعر امرىء القيس كشأن غالبية النقاد العرب قال : « وأنت لا تشك فى جــــودة شعر (امرىء القيس) ولاترتاب فى براعتـه ، ولا تتوقف عن فصاحته ، وتعلم أنه قد أبدع فى طرق الشعر أمورا اتبع فيها ، من ذكر الديار والوقوف عليها ، إلى مايصل بذلك : من البديع الذى أبدعه والتشبيه الذى أحدثه ، والتمليح الذى تجده فى شعره ، والتصرف الكثير الذى تصادفه فى قوله ، والوجوه التى ينقسم إليها كلامه : من صناعة وطبع ، وسلاسة وعلو ، ومتانة ورقه وأسباب تحمد ، وأمور تؤثر وتمدح .

وقد ترى الأدباء أولا يوازنون بشعره فلانا وفلانا ، ويضمون أشعارهم إلى شعره حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شعره فى أشياء لطيفة ، وأمور بديعة ، وربما فضلوهم عليه ، أو سووا بينهم وبينه، أو قربوا موضع تقدمه عليهم ، وبرزوه بين أيديهم ... »(١).

ثم أعقب ذلك بالحديث عن معلقته ، مؤكدا على سبقها للقصائد الأخرى التى قرن العرب بينها إلى غير ذلك عمـــا قاله فى التقديم لنقده للمعلقة .

فإذا استبعدنا هذا النقدوما أمتلأ به من تحامل وإسقاط ، واستبعدنا أيضا الأبيات التى جمعها من ديوان امرىء القيس ، واستشهدنا بها على ما فى شعره من رداءة واضطراب ، ثم نظرنا بعــــد ذلك فى الكتاب لوجدناه يمتلأ بالإعجاب والثناء على شعر امرىء القيس .

ونؤكد هنا على هذا الإعجاب حيث نجده يدلل على تفاوت كلام البشر من خلال النظر فى قصيد الشاعر :

قفـا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٨

وذكر رواية تفيد « أن العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول ، يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزن :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » (١)

وفي حديثه عن نفي الشعر عن القرآن ذكر أن الكفار زعموا أن قوله تعالى « ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين » (٢) من الوافـــر .

كقول الشاعر (امرىء القيس) :

لنا غنم نسوقها غزار كأن قرون جلتها عصى (٣)

ومثل للتوارد الذي لا يعده أهل الصناعة سرقة إذا لم تعلم فيه حقيقة الأخذ بقول امرىء القيس :

وقوفا بها صحبي علي مطيهم
يقولون : لا تهلك أسى وتجمل (٤)

وقول طرفة :

وقوفا بها صحبي على مطيهم
يقولون : لا تهلك أسى وتجلد

وذكر العديد من أبيات امرىء القيس ، ليستدل بها على الاستعارة كإحدى طرق البديع في الشعر مثل قوله .

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

---

(١) المصدر السابق ص ٦٣ (٢) التوبة آية ١٤
(٣) الباقلاني الإعجاز ص ٥٢ (٤) المصدر السابق ص ٥٤

قال الباقلاني : « قوله : (قيد الأوابد) عندهم من البديع ، ومن الاستعارة ويرونه من الألفاظ الشريفة، وعنى بذلك، أنه إذا أرسل الفرس على الصيد صار قيدا لها ، وكانت بحالة المقيد من جهة سرعة إحضاره ،

واقتدى به الناس ، واتبعه الشعراء فقيل : قيد النواظر، وقيد الألحاظ وقيد الكلام ، وقيد الحديث ، وقيد الرهان » (١)

ومثل للاستعارة البليغة التي جعلها بعض أهل الصنعة من باب الإرداف بقول امرىء القيس :

نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل(٢)

حيث أراد ترفها بقوله :(نؤوم الضحى)

وجعل قوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ...(٣)

من الاستعارة الجميلة .

وذكر أيضاً قوله :

فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازا وناء بكلكل

مستدلا بهذه الاستعارات على طول الليل .

وذكر أن امرأ القيس أراد إخفاء شخصه عندما قال :

---

(١) المصدر السابق ص ٧٠
(٢) صدر البيت : ويضحي فتيت المسك فوق فراشها .
(٣) عجز هذا البيت : على بأنواع الهموم ليبتلي .

سموت إليها بعدما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال(١)

واختار للتشبيه الحسن قوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا
وأرحلنا الجزعُ الذى لم يثقب

وقوله :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً
لدى وكرها العناب والحشف البالى

ثم ذكر بيت بشار بن برد الذى تابع فيه امرأ القيس فى قوله :

كأن مثار النقع فوق رؤسهم
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ووازن بين البيتين ، فقال : « وقد سبق امرؤ القيس إلى صحة التقسيم فى التشبيه ، ولم يتمكن بشار إلا من تشبيه إحدى الجملتين بالأخرى دون صحة التقسيم والتفصيل »(٢)

وجعل من البديع قول الشاعر فى أذنى الفرس :

وسامعتان يعرف العتق فيهما
كسامعتى مذعورة وسط ربرب(٣)

واتبعه طرفة فقال :

وسامعتان يعرف العتق فيهما
كسامعتى شاة بحومل مفرد

(١) المصدر السابق ص ٧٤ (٢) المصدر السابق ص ٧٢
(٣) المصدر السابق ص ٧٢

واختار لوصف الفرس قول امرىء القيس :

وعينـــان كالماويتين ومحجر
إلى سند مثل الصفيح المنصّب(١)

وقال الباقلانى : «ومن البديع فى التشبيه قول امرىء القيس :

له أيطــلا ظبى وساقا نعامة
وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وذلك فى تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء ، أحسن فيها»(٢) .

ولعل فيما ذكرناه ما يكشف عن إعجاب الباقلانى بشعر امرىء القيس وتفضيله على شعر غيره ، وقد مثل به — فضلا عما ذكرناه — للبائنة — وهى ضرب من الاستعارة — والمطابقة ، والموازنة ، والإيغــال ، والترصيع ، والعطف . (من البديع) ، وفى وصف ذيل الفرس والتشبيه (٣) .

أما نقده للمعلقة فلم يكن منزها عن التحامل الذى قصد به التأكيد على إسقاط معانيها وألفاظها ، وإذا سقط شعر صاحبها فلا حاجة للكلام على شعر غيره ، وبذلك تتهاوى — حسب وجهة نظره — حجة من يقارن بين شعر امرىء القيس والقرآن الكريم .

---

(١) المصدر السابق ص ٧٣
(٢) المصدر السابق ص ٧٣
(٣) انظر المصدر السابق [الصفحات : ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٤]

ثانياً : نقد الباقلانى للمعلقة

تعد لامية امرىء القيس والتى عرفت بالمعلقة من أشهر القصائد العربية حيث اختارها القدماء ، وجعلوها أول القصائد السبع المشهورة ، وقد تحدث الباقلانى عنها فقال : « ولما اختاروا قصيدته فى (السبعيات) أضافوا إليها أمثالها ، وقرنوا بها نظائرها ، ثم تراهم يقولون : لفلان لامية مثلها ، ثم ترى أنفس الشعراء تتشوق إلى معارضته . وتساويه فى طريقته ، وربما غيرت فى وجهه فى أشياء كثيرة ، وتقدمت عليه فى أسباب عجيبة »(١) .

ونرى الباقلانى فى النص السابق يؤكد إعجابه بشعر امرىء القيس وبخاصة معلقته التى بزت غيرها ، ولذا تشوق الشعراء إلى معارضته ومسايرته . ونؤكد أن ماذكره منها سواء أكان محلا لإعجابه أم لنقده واستشهاده أكثر من أى قصيدة اخرى . غير أنه أراد المقارنة بين مالا يقارن ، لحرصه على التأكيد بأن كلام البلغاء متفاوت ، وأن القرآن لاتفاوت فيه .

ولقد اقتطع ثمانية وثلاثين بيتاً من هذه القصيدة ، وانكب عليها متلمساً : « مافيها من عوار ، ومن تكلف ، ومن حشو وخلل وتطويل ولفظ غريب ، وكيف تتفاوت أبياتها بين الجودة والرداءة والسلاسة والغرابة »(٢) وكان يمكنه أن ينصف الشاعر فى نقده للمعلقة ، كما أنصفه فى سائر صفحات الكتاب . وليس من الضرورى أن يحكم بالضعف على خمسة وثلاثين أو ستة وثلاثين بيتاً من مجموع ماانتقده ، وتحدث عنه

(١) المصدر السابق ص ١٥٩
(٢) د / شوقى ضيف . البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٢

فى هذا القصيدة . ولكنه أراد — بتحامل لا يرتضيه النقد — أن يؤكد على مايقع فى كلام الشعراء الكبار كامرىء القيس والبحترى من سقوط وضعف على عكس القرآن الكريم .

وقد تحدث عن تفاوت — رآه فى المعلقة — فقال : «اعلم أن هذه القصيدة قد ترددت بين أبيات سوقية مبتذلة ، وأبيات متوسطة ، وأبيات ضعيفة مرذولة ، وأبيات وحشية غامضة مستكرهة ، وأبيات معدودة بديعة .

وقد دللنا على المبتذل منها ، ولا يشتبه عليك الوحشى المستنكر ، الذى يروع السمع ويهول القلب ويكد اللسان ، ويعبس معناه فى وجه كل خاطر ، ويكفهر مطلعه على كل متأمل أو ناظر ، ولا يقع بمثله التمدح والتفاصح . وهو مجانب لما وضع له أصل الإفهام ، ومخالف لما بنى عليه التفاهم بالكلام . فيجب أن يسقط عن الغرض المقصود ، ويلحق باللغز والإشارات المستبهمة»(١)،ثم ذكر مايقع فيه الشعراء من تفاوت فقال.«وإنما أردنا أن نبين الجملة التى بيناها لنعرف أن طريقة الشعر شريعة مورودة ، ومنزلة مشهورة يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم ، ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم»(٢)

ولا نعتقد أن منهج الباقلانى كان سليما فى موازنته بين القصيدة والقرآن الكريم أو فى حكمه على أبياتها بالتفاوت أو السقوط ، ليؤكد بذلك — وبغيره أيضاً — على إعجاز القرآن . على أن شعر امرىء القيس مهما علا قدره لا يصح أن يوازن بالقرآن الكريم ، كما أقر الباقلانى نفسه بذلك ، وكان عليه عند نقده لشعر امرىء القيس أن يحتكم إلى طبيعة الشعر الجاهلى بعامة ، وربما أدرك ذلك ، ولكنه

(١) الباقلانى إعجاز القرآن ص ١٨٠
(٢) المصدر السابق ص ١٨٣

أراد بيان ما في شعره من ضعف وعوار وسقوط وابتذال ، فتكلف البحث عنها في المعلقة ، وكان يمكنه العثور على بغيته في بعض القصائد الأخرى التي لم تكن في قوة هذه القصيدة ، ولكنه قصد إلى أفضل قصيدة عند أكثر الشعراء شهرة وذيوعا ، ليتخذ من إسقاط شعره وتفاوته دليلا على إسقاط شعر غيره، وبذلك يؤكد التفاوت في الشعر العربي بعامة، وليؤكد أيضا خلو القرآن الكريم من هذا التفاوت ، وبذلك يصل إلى منتهى رؤيته في الإعجاز ، وكشف عن ذلك فقال : «وإذ كنا قد بينا أن شعر امرىء القيس — وهو كبيرهم الذي يقرون بتقدمه ، وشيخهم الذي يعترفون بفضله ، وقائدهم الذي يأتمون به ، وإمامهم الذي يرجعون اليه — كيف سبيله ، وكيف طريق سقوط منزلته عن منزلة نظم القرآن»(١) .

لكننا لا نغفل إعجاب الباقلانى ببعض الأبيات القليلة التي لا تقدح في النتيجة التي رمى اليها، بل ربما تخدم الهدف الذي حرص عليه، وهو بيان التفاوت في جنس الشعر .

ثالثا — نقد الأبيات المختارة

اختار الباقلانى من المعلقة ثمانية وثلاثين بيتا ذات أفكار ومضامين مختلفة، من مجموع أبيات القصيدة التي بلغت سبعة وسبعين أو واحدا وثمانين على اختلاف بين الروايات .

فقد انتقد أربعة أبيات من المقدمة التي تمثلت في صورة وقوف على الأطلال ، وبكاء عليها ، ثم انتقد ثمانية وعشرين بيتا من الأبيات الغزلية التي تحدث فيها الشاعر عن ذكريات لهوه ، ومغامراته ووصف فيها محبوبته .

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٥

وانتقد ثلاثة أبيات مما قاله الشاعر عن الليـــل وهمومه، ثم اختتم ما انتقده بثلاثة أبيات أختارها مما ذكره الشاعر عن الفرس — ولم تكن هذه الأفكار كل ماقاله امرؤ القيس فى قصيدته، إذ تحدث فيها — فضلا عما سبق — عن تشرده وانتقاله فى الأرض، كما وصف الصيد والمطر والبرق والسيل تعبيرا عن همومه وأحزانه.

١ — الوقوف على الأطلال والبكاء عليها.

اختار الباقلانى من مقدمة المعلقة أربعة أبيات ذكر اثنين منهـا، وأعتبها بنصيب أكبر من النقد ثم تلاها بآخرين، وذكر معهما بعض نقده الذى يكشف فى مجموعه عن تناول ظاهرى للنص، واحتكام إلى قواعد اللغة من نحو وصرف وغيرهما، وإلى قضايا الأخلاق كالصدق والكذب وإلى قضية التطويل أو الحشو، وإلى الأحكام العامة الخالية من البيان والتعليل كعادة القدماء.

ولم يصمت بعض النقاد على ماقاله الباقلانى، إذ رأوه متحاملا على أمير الشعر الجاهلى حيث تجاهل كثيرا من مفاهيم عصره، ولم يرتض ماقاله القدماء كالأصمعى وأبى عبيدة أحيانا مع أنهم — فى مدى علمى — أعرف بالشعر منه.

وربما كان للباقلانى بعض العذر، فقد نشأ فى بيئة بلاغية أصولية، لم تتجاوز بأفكارها حدود المستوى الأول لفهم الشعر، ولم تنظر إلى الطلل — مثلا — مثلما نظر إليه من عاش فى بيئة مختلفة. ولو انتقد واحد من أمثال الآمدى أو على الجرجانى شعر امرىء القيس لما قال فيه ما قاله الباقلانى، على أن قدرا كبيرا من مآخذه قد سبقه إليهـــا المتقدمون، ولكنه جمع هذه المآخذ، ونظر إليها نظرة تعبر عن مراده ومبتغاه،

ويكفينا أن نعرض لكلامه على ضوء مفاهيم عصره ، مع تقبل كل فهم جديد لشعرنا القديم.

ذكر الباقلانى بيتين من مقدمة المعلقة وهما :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمأل

ثم انتقدهما فقال :

«فأول ذلك: أنه استوقف من يبكى لذكرا لحبيب، وذكراه لا تقتضى بكاء الخلى ، وإنما يصح طلب الإسعاد فى مثل هذا ، على أن يبكى لبكائه ويرق لصديقه فى شدة برحائه ، فأما أن يبكى على حبيب صديقه وعشيق رفيقه فأمر محال .

فإن كان المطلوب وقوفه وبكاؤه أيضا عاشقا صح الكلام من وجه، وفسد المعنى من وجه آخر إذ لأنه من السخف أن لا يغار على حبيبه، وأن يدعو غيره الى التغازل عليه والتواجد معه فيه .

ثم فى البيتين مالا يفيد من ذكر هذه المواضع، وتسمية هذه الأماكن من «الدخول» و «حومل» و «توضح» و «المقراة» و «سقط اللوى» وقد كان يكفيه أن يذكر فى التعريف بعض هذا . وهذا التطويل إذا لم يفد كان ضربا من العى»(١).

لا أود أن أجعل من نفسى مدافعا عن امرىء القيس ، ذلك لأن ديوانه — كسائر دواوين الشعراء — فيه الجيد والردىء ، فضلا عن

(١) المصدر السابق ص ١٦٠

الرحلة الطويلة التى قطعها الشعر الجاهلى ، متنقلا من عصر الرواية إلى عصر التدوين والنسخ بأيدى بعض الوراقين الذين لم يكن الكثيرون منهم يفهمون الفروق اللغوية بين الألفاظ.

ونعود إلى الباقلانى الذى انتقد الشاعر فى أن يطلب من صديقه أن يعاونه فى البكاء على ذكرى حبيبه، مستنكرا أن يبكى الصديق على ذكرى حبيب صديقه ، أما إذا كان الصديق عاشقا فمن السخف ألا يغار له (الشاعر) على حبيبه ، كما رأى أنه لا ضرورة فى ذكر الأمكنة التى وردت بالبيتين .

وقد سبق القول بأن الباقلانى يقف عند ظاهر اللفظ ، ولم يتغلغل فى بنية النص ، ولم يقنع نفسه بإمكانية اعتبار هــذا الصديق شخصا متخيلا من قبل الشاعر ، وحتى لو لم يكن متخيلا فإن الوقوف على الديار والبكاء عليها ينم عن حيرة الشاعر وقلقه ويأسه واضطرابه، فلماذا لا يطالب من صديقه أن يبكى معــه على موت الحبيبة أو على دروس الأماكن وذوبانها فى قلب الصحراء ، أو على حاضر القبيلة التى ذهبت بحبيبته إلى وادى العدم ومتاهة النسيان؟ حيث يعبر الوقوف على الأطلال عن الموت والفناء والحيرة التى اعتورت الشاعر فى لحظة استرجاعه للماضى والحاضر من الزمان والمكان.

لقد ارتبط الطلل بكثير من الرموز التى لم يستوعبها القدماء استيعابا كاملا ، أو لم ينتبهوا لها أصلا ، مثل قضية التغير التى تؤثر فى الأشياء ، وما يرتبط بها من المشاعر والعواطف.

ويقول الدكتور مصطفى ناصف فى ارتباط الطلل بالحياة وما يعتورها من تغيير ، «لقد قال القدماء إن امرأ القيس بكى واستبكى ، ووقف واستوقف ، ولاحظوا أن عظمته كشاعر ترتبط بأشياء من هــذا البكاء والوقوف ، ولكنهم ظنوا أن امرأ القيس يبكى طلل عنيزة أو فاطمة أو غيرها ، الشاعر يروع بفكرة الحياة الذاهبة .

إنه يصحو على الشعور المستمر بأن جانبا من العمر قــد ولى ، والشاعر يقف ويستوقف لكى يعالج هذا الشعور ، لكى يصور نفسه أنه حى يملك عقله زمام الماضى ، ويعيد تخيله وتمثله . كل هـذا وهم نشيط ، ولكنه لا يستطيع أن يفرغ منه .

وقد أخذ هذا البكاء شكل الطقوس الجماعية ، وأصبح العقل الجاهلى مشغولا بمشكلة الموت الذى يتجسد فى الطلل(١) .

ولقد تكاثرت المفاهيم الجمالية فى العصر الحديث عن مغزى الوقوف على الأطلال فى الشعر الجاهلى ، ويمكن أن تتلاقى كلها حول الموت والحياة، أو حول الزمان والمكان وما يتصل بهما من الحسرة والألم والضيق والحيرة والمعاناة بحثا عن مغزى للوجود الإنسانى . كما يقول بعض الباحثين : « وهكذا يصبح للنص الشعرى آفاق جديدة واسعة ومجالات وجودية هامة، إذا نحن تجاوزنا هـذا الفهم المباشر الجزئى للمعنى . ففكرة التفلسف فى مشكلة الموت فكرة ليست مقحمة فى هذا المجال ، وإنما يمكن العثور عليها فى يسر ووضوح عند هؤلاء الشعراء (الجاهليين) سواء جاء ذلك بعبارات صريحة مباشرة أو رمزية غير مباشرة »(٢) .

وتتأرجح تلك المعانى بين الإقدام إليها والإحجام عنها أمام التقليدية فى المقدمة الكلية لكن هناك كثيراً من القرائن(٣) التى تدفع بالمقدمة بعيداً عن دائرة التقليدية .

---

(١) د/ مصطفى ناصف . دراسات فى الأدب العربى ص٢٣٧

(٢) د/عفت الشرقاوى . دراسات ونصوص فى قضايا الأدب الجاهلى ص١٣٥ ، ٢٣٦

(٣) لا يعنينا هنا بحث هـذه القرائن ، لكن أمراً واحداً نقدمه لمن يريد التساؤل حول تغزل الشاعر (بدون تحديد) فى بعض المقدمات أو =

وإذا تفهمنا نفسية الشاعر من خلال المقدمة ، وتعرفنا على مغزى الوقوف على الطلل أصبح علينا عند ذلك ألا نلوم الشاعر عن تعداده الديار المحبوبة إذ « يصير الهدف من هذا التعدد هو التعبير عن استغراق الفناء لجميع ما يكون ، فمهما تتعدد الأماكن ، ومع واقعيتها القريبة التى نعرفها جيداً عن كثب ، فهى إلى زوال ؛ وسواء ألمسنا آثار الأحبة هنا أو هنالك فى هذه أو تلك من الأماكن فالموت فى النهاية يشمل كل حى ، وذلك هو مغزى الإحساس بالألم الذى يعبر عنه امرؤ القيس »(١) .

فالتعدد يكشف عن نفسية الشاعر ، وعن واقعيته وإلمامه ببعض الجزئيات والتفاصيل .

وقال الباقلانى : إن الأصمعى قد ذكر قول الشاعر : « لم يعف رسمها » من محاسنه إذ « أنه باق فنحن نحزن على مشاهدته فلو عفا لاسترحنا »(٢).

ثم عقب صاحب إعجاز القرآن على ذلك فقال : « وهذا بأن يكون من مساويه أولى ، لأنه إن كان صادق الود ، فلا يزيده عفاء الرسوم إلا جِدة عهد ، وشدة وجد : وإنما نزع الأصمعى إلى إفادته هذه الفائدة ، خشية أن يعاب عليه ، فيقال أى فائدة لأن يعرفنا أنه لم يعف رسم منازل حبيبه ؟ وأى معنى لهذا الحشو ؟ فذكر ما يمكن أن يذكر ، ولكن لم يخلصه — بانتصاره له من الخلل .

ثم فى هذه الكلمة خلل آخر ؛ لأنه عقب البيت بأن قال :

فهل عند رسم دارس من معوّل

= فى بعض القصائد الكلية بأكثر من واحدة ، فهذا التغزل فى حد ذاته يذوب كحقيقة أمام الرموز المختلفة .

(١) د/عفت ، الشرقاوى دراسات ونصوص ص٢٣٦

(٢) الباقلانى . إعجاز القرآن ص ١٦٠

فذكر أبو عبيدة أنه رجع فأكذب نفسه(١).

لقد عاب الباقلانى امرأ القيس فى ذكره عفاء الرسوم، إذ يرى أن العفاء يزيد صادق الود وصلا وهياما، أما الأصمعى فيرى أن بقاء الرسم يزيد فى أحزان المحبين. فرؤية الباقلانى حول عفاء الرسوم لا تخلص له، خاصة وأن هذا التعبير كان يشغل النقاد واللغويين من قبله. أما الخلل الآخر الذى استشهد فيه بمقولة أبى عبيدة فيرجع إلى ما قاله امرؤ القيس فى بيتيه التاليين وهما:

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون: لا تهلك أسى وتجمل.
وإن شفائى عبرة «مهراقة»
فهل عند رسم دارس من معول.

حيث ذكر قبلا: «لم يعف رسمها» ثم قال بعد ذلك:

فهل عند رسم دارس من معول

مما يؤكد التناقض والكذب، على أن الوقوف على الطلل وما يكتنفه من بقاء الرسم وعفائه أو عدم عفائه مسألة لا تتقرر فى ضوء الصدق والكذب، إذ تصاب العواطف فى ضوء هذا الموقف بنوع من الاضطراب والتلق لفقد الحبيبة. أو أنه أراد كما يقول صاحب الجمهرة: «أن بعضه درس وبعضه بقى. أو أراد أنه لم يدرس رسمها من قلبى، وهو فى نفسه دارس»(٢).

ثم قال الباقلانى: «والبيت الثانى مختل من جهة أنه قد جعل الدمع فى

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٠، ١٦١

(٢) القرشى. جمهرة أشعار العرب تحقيق على محمد البجاوى ص ٢٢٨ الطبعة الأولى دار نهضة مصر للطبع والنشر

اعتقاده شافيا كافيا ، فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة أخرى وتحمل ومعول عند الرسوم »(١) .

نقول : إن الشاعر قد طلب الشفاء بالدمع إليأسه من وجود حيلة أخرى ، فهو فى الحقيقة لم يطالب هذه الحيلة ، ولو طلبها ، وقنع بها لما أكد شفاءه بالعبرات . كما يقول بعض النقاد : « أما تساؤله القانط بقوله: (وهل عند رسم دارس من معول) فيرمز إلى يأسه من الخلاص وشعوره بعدم جدوى العواطف الإنسانية المقهورة أمام دوامة الحياة ، وفيه إذعان للقدر ، واستسلام عن طلب الحرية التى يستجيب بها الإنسان لعواطفه وينال منالها . وبذلك يغدو وصف الطلل تمثيلا لشعور الإنسان بالهزيمة والاندحار (واللا إرادة) أمام الحياة والكون . ويعانق بؤسه ، وينقاد له ، ولا سبيل له إلا البكاء يسكب به دموعه ، كما يسيل دمه من جرحه الصامت الفاجع »(٢) .

وهكذا وضح لنا كيف ارتكز الباقلانى فى نقده على التعبيرات اللغوية المجردة التى تتجاوب مع وجهته فى الإعجاز من غير مراعاة للمأساة التى يعيشها الشاعر أثناء وقوفه على الأطلال .

٢ — شعر الغزل :

اختار الباقلانى من المعلقة ثمانية وعشرين بيتا من الشعر الغزلى الذى تحدث فيه امرؤ القيس عن مغامراته مع المرأة ، ووصفاً وصفا حسيا

(١) الباقلانى . إعجاز القرآن ص١٦٢

(٢) مطاع صفدى وآخر . موسوعة الشعر العربى ص ٢١٩ — طبع شركة خياط بيروت ١٩٧٤ م

مكشوفاوقد طال هذا القسم فى المعلقة ، ولذا وجد الباقلانى فيه بغيته من النقد لما تميز به شعر صاحبنا من تهور وفجور . حيث انتقد ثلاثة وعشرين بيتا من حديث الشاعر عن مغامراته وذكرياته مع المرأة ، ثم انتقد خمسة أخرى من أبيات المعلقة التى وصف الشاعر فيها محبوبته .

ونعود إلى بعض ما قاله فى نقد الأبيات الغزلية ، إذ نجده يساير أكثر القدماء فى توجيه النقد حول المآخذ اللغوية القريبة ، أو الحكم على ماقاله الشاعر بالصدق أو الكذب ، أو أن البيت قليل الفائدة ، أو ليس له معنى، أو ليس فيـــه معنى يروق ، أو ليس فى المصراع الأول من البيت إلا سفاهته ، كما سنرى فيما يأتى .

بدأ الباقلانى اختياراته من هذا القسم الغزلى ببيتين وهما :

كدأبك من أم الحويرث قبلها
وجارتها أم الرباب بمأســـل

إذا قامتا تضوع المسك منهما
نسيم الصبـــا جاءت بريا القرنفل

لقد تسلل حزن الشاعر إلى هذين البيتين منذ أن تذكر محبوبته ، ووقف على أطلالها فى سقط اللوى ، فاسترجع (هنا) زمانه الماضى ، وتحسر على أم الحويرث وأم الرباب اللتين كانتا بمأسل . ورغم مافى هذه الذكريات الغزلية من مبالغات إلا أنها تكشف عن جو من الحزن الدفين الذى يتلاءم مع اليأس الذى التحفه الشاعر فى أول القصيدة ، فهـــذه المغامرات تنم عن حالة من التحسر على الماضى ، وفيها مايتواكب مع مبدأ التعويض الذى تبطنت به نفسية الشاعر . وإلا فكيف يتغزل بامرأتين فى بيت واحد ؟

ونطالع انتقاد الباقلانى لهذين البيتين حيث يقول : « أنت لا تشك

فى أن البيت الأول قليل الفائدة ، ليس له بهجة ، فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ ، وإن كان منزوع المعنى .

وأما البيت الثانى فوجه التكلف فيه قوله :

إذا قامتا تضوع المسك منهما

ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيبا على كل حال ، فأما فى حال القيام فقط فذلك تقصير !!!

ثم فيه خلل آخر : لأنه بعد أن شبه عرفها بالمسك شبه ذلك بنسيم القرنفل ، وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص»(١) .

إن بعضا من هذه اللفتات النقدية التى تستشف من ظاهر الألفاظ لمكن الاقتناع بها فى ضوء المفاهيم النقدية القديمة التى تساير البيئة البلاغية التى عاش فيها الباقلانى ، ومثل ذلك ما قاله عن قول امرىء القيس :

إذا قامتا تضوع المسك منهما

حتى وإن رد البعض عن المآخذين اللذين قالها عن بيت امرىء القيس الذى ذكرنا صدره . قال : «ويعتذر على الأول بأنه جرى على المعروف من أن الرائحة الطيبة تفوح بقوة وزائدة متى وقع الجسم الذى تقوم به فى حركة لتموج الهواء الذى تنتشر به الرائحة ، وأما الوجه الثانى فقائم على القاعدة البلاغية وهى أن يأخذ المتكلم فى مقام المدح بطريق الترقى من الوجه الأدنى إلى ماهو أبلغ منه ، واعتذر عنه بأن الغرض تشبيه انتشار الرائحة الطيبة عند قيامها بانتشار الرائحة التى يهب بهـا النسيم لاتشبيه نفس

(١) الباقلانى : إعجاز القرآن ص ١٦٣

الرائحة بالقرنفل بعد تشبيها بالمسك »(١) .

ثم يمضى الباقلانى فى نقده للأبيات الغزلية من المعلقة فيذكر هذين البيتين :

ففاضت دموع العين منى صبابة
على النحر حتى بل دمعى محملى(٢)

ألا رب يوم لك منهن صالح   ولا سيما يوم بدارة جلجل

لقد ظفر البيت الأول من هذين البيتين بنصيب كبير من نقد الباقلانى ، وهو نقد لغوى قريب وظاهر . على أن هذا البيت يستكمل به الشاعر ذكريات الماضى مع المرأتين السابق ذكرهما . كا يؤكد به ما قررناه حول موجة الحزن التى تجتاح الشاعر منذ البيت الأول . وقد كان حريصا على ذكر كل ذلك والإفاضة فيه تمهيداً لاسترضاء فاطمة بنت عمه ، والتى اشتهرت بعنيزة — حسب قول البعض — وهى البطلة الوحيدة ليوم دارة جلجل . ولنقرأ ما قاله الباقلانى عن البيت الأول :«قوله (ففاضت دموع العين) ثم استعانته بقوله (منى) استعانة ضعيفة عند المتأخرين فى الصنعة وهو حشو غير مليح ولا بديع ، وقوله (على النحر) حشو آخر ، لأن قوله (بل دمعى محملى) يغنى عنه ، ويدل عليه وليس بحشو حسن ثم قوله حتى بل دمعى محملى إعادة ذكره الدمع حشو آخر ، وكان يكفيه أن يقول : حتى بلت محملى فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله .

ثم تقديره أنه قد أفرط فى إفاضة الدمع حتى بل محمله تفريط منه وتقصير ، ولو كان أبدع لكان يقول : حتى بل دمعى مغانيهم وعراصهم ، ويشبه أن يكون غرضه إقامة الوزن والقافية ، لأن الدمع يبعد أن يبل

---

(١) عبد السلام الحوفى . شرح القصائد العشر للتبريزى . (هامش) ص ٢١ دار الكتب العلمية : بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م)

(٢) المحمل : سير يحمل به السيف

المحمل، وإنما يقطر من الواقف والقاعد على الأرض، أو على الذيل !!
وإن بله فلقلته، وأنه لا يقطر...»(١).

يدور النقد السابق حول مسألة واحدة وهي الإطالة في اللفظ، والتي رصدها الناقد في ثلاثة مواضع وهي قوله «مني» و «على النحر» و «دمعي» ولا يخفى علينا جو الحزن الذي غمر الشاعر منذ بدء القصيدة، وكان الدمع في البيت المذكور تعبيرا عن الأسى الدفين الذي احتوى الشاعر احتواء كاملا، ولم يكن هذا الدمع إلا تخفيفا من اللوعة التي اكتوى بنارها منذ أن وقف وبكى على ديار محبوبته. وقد رد البعض على نقد الباقلاني فقال:

« والجواب عن الأول: أن لفظة (مني) قامت مقام إضافة العين إلى المتكلم، فلو قال دموع عيني لكان لفظ (مني) حشوا مرزولا، ولا تنكر أن الإضافة لو ساعد عليها الوزن تكون ألطف وأخف على الذوق من زيادة لفظ (مني).

والجواب عن الثاني: أن العيب إنما هو إيراد الكلام الذي يغني فيه الأول عن الآخر، أما عكسه فمقبول إذ يكون الأول قرر معنى في نفس السامع ثم أتى الثاني ودل على معنى جديد، وفي ضمنه الدلالة على المعنى الذي دل عليه الأول.

والجواب عن الثالث أن قصارى ما فيه الإظهار في مقام الإضمار، وهو هنا غير معيب إذ لا ينبو عنه الذوق، وقد أكسب التركيب متانة، وفيه قوة الإيماء إلى أن الدمع الذي هو معروف بالقلة ومعهود بعدم الانحدار إلى ما وراء الخدود قد استرسل وانتشر إلى أن سال على النحر وبل المحمل. ولم يرد امرؤ القيس أن يبعد عن الحقيقة فيقول: يسيل دمعي مغانيهم وعراصهم، والتطوع في المبالغة إلى هذا الحد إنما يسرع إليه المولدون»(٢).

---

(١) الباقلاني. إعجاز القرآن ص ١٦٣، ١٦٤
(٢) عبد السلام الحوفي. هامش شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٢٢

ولا يخفى علينا ما قصده الشاعر من التدليل على حزنه بكثرة البكاء . ثم يأتى بعد ذلك قوله :

ويوم عقرت للعذارى مطيتى فياعجباً من رحلها المتحمل

فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل

حيث عاب الباقلانى سفاهة الشاعر الذى عقر ناقته للعذارى، وانقطاع المصراع الثانى عن سابقه فى البيت الأول ، كما عاب تعجب امرىء القيس من تحمل العذارى لرحله . وقال : «ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شىء غريب ولا معنى بديع أكثر من سفاهته مع قلة معناه ، وتقارب أمره ، ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا !

وإلى هذا الموضع لم يمر له بيت رائع ، وكلام رائق(١) .

ولقد وضح لنا تعصب الباقلانى للقديم ، ورفضه لتجديدات المحدثين على عصره ، ولذا رد بعض معانى امرىء القيس لمشاكلتها طبع المحدثين فى العصر العباسى . كما سجل بعض المآخذ على البيت الثانى ، وإن رد على معظمها ، فقد انتقد الشاعر فى أنه وصف طعامه الذى أطعم من أضاف بالجودة ، وان رد على ذلك فقال : «وقد يقال : ان العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيبا ، وإنما الفرس هم الذين يرون هذا عيبا شنيعا »(٢) ، واغتفر التبجح بما أطعم للأضياف وذم تبجحه بما أطعم للأحباب ، ثم استدرك فقيل هذا التبجح الأخير لإيراد الكلام مورد المجون حيث قصد الشاعر وصف حالته مع أحبابه فى اللعب والترامى بلحم الناقة »(٣) .

---

(١) الباقلانى إعجاز القرآن ص ١٦٥

(٢) المصدر السابق ص ١٦٥

(٣) انظر : عبد السلام الحوفى هامش شرح القصائد العشر للتبريزى ص ٢٧

وعرض للأبيات التي تحدث الشاعر فيها عن اليوم الذى دخل فيه خدر عنيزة حيث قال :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة
فقالت : لك الويلات إنك مرجلى
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً
عقرت بعيرى يا امرىء القيس فانزل
فقلت لها سيرى وأرخى زمامه
ولا تبعدينى من جناك المعلل
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له
بشق وتحتى شقها لم يحــول
ويوما على ظهر الكثيب تعذرت
على وآلت حلفة لم تحلــل

ويدور انتقاد الباقلانى لهذه الأبيات التي ذكرها اثنين اثنين حول قضية واحدة ، وإن اختلفت مسمياتها ، وطرق التعبير عنها ، وهى الفجور والتعهر . فعنده أن كلام الشاعر على لسان عنيزة « لك الويلات إنك مرجلى » كلام مؤنث من كلام النساء »(١) .

والبيت الذى يقول فى أوله :

فقلت لها سيرى ...

« قريب النسج ، ليس له معنى بديع ، ولا لفظ شريف ، كأنه من عبارات المتحطين فى الصنعة »(٢) وقوله عن البيت الذى يليه : « وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم عن مثله ، ويأنف من

(١) الباقلانى : الإعجاز ص ١٦٦ (٢) المصدر السابق ص ١٦٧

ذكره »(١) ويقول مثل هذا عن البيتين الأخيرين ، ثم يختم نقده فيقول : « وأنت تجد فى شعر المحدثين من هذا الجنس فى التغزل مايذوب معه اللب ، وتطرب عليه النفس ، وهذا مما تستنكره النفس ويشمئز منه القلب ، وليس فيه شيء من الإحسان والحسن »(٢) .

وقد سبق أن بينا ما قاله ابن سلام عن بعض الأبيات الغزلية التى تعهر بها الشاعر ، وتابعه فى ذلك من جاءوا بعده إلا أن الباقلانى قد زاد فى عدد هذه الأبيات ، وجمع إلى تسفيه الشاعر فى المعنى تسفيهه فى طرائق التعبير حتى رأيناه لم يعجب ببيت واحد من هذه الأبيات التى تقدمت .

ونقف هنا وقفة قبل أن ننطلق إلى بعض الأبيات الأخرى لنلتمس العذر لكثير من القدماء الذين أخذوا ما قاله امرؤ القيس ونظراؤه بمعيار الصدق والكذب . متسائلين عن مدى صدقه ، وعن غايته إذا كان كاذبا .

ولا شك فى أن الشاعر قد تكاشف بغزله الحسى فى الأبيات السابقة وبخاصه ما ذكره حول دارة جلجل .

ولقد جمعت بين هذه الأبيات وحدة كلية ، وهى التفاخر باللهو والمغامرة ، والتحدث عن الذكريات القديمة .

ثم نتساءل عن الرابطة التى تؤلف بين هذه المغامرات ، وما ذكره الشاعر فى المقدمة . . ونقول: إن هذه الأبيات بما فيها منخلاعة ومجون تكشف، بوضوح عن الحسرة والحزن والضيق ، التى اكتنفت الشاعر ، ولم تكن إلا عرضا رخيصا ومغامرة مكشوفة أراد التقرب بها إلى فاطمة التى

(١) المصدر السابق ص ١٦٧ (٢) المصدر السابق ص ١٦٨

طلبها زمانا ولم يصل إليها ، وأراد الزواج منها فلم يقض له ، مع أنه كان شبه عاجز مع المرأة ، وبان ضعفه أمامها فى بعض المواقف الأخرى ، ولهذا التمس النقاد له أكثر من مخرج ، فرأى الدكتور إبراهيم عبد الرحمن أن الشاعر كان مشغولا بفكرة الانتصار على الإنسان والطبيعة فقال : « وانشغال امرىء القيس بتحقيق الانتصار له ما يبرره فقد عاش فى ظروف صعبة قاسية بدأت فيما يقص القدماء من أخباره بطرد أبيه له ، وسواء أصحت هذه الأخبار أو لم تصح فإن فى المعلقة وغيرها من أشعاره وأخباره الصحيحة ما يدل على أنه كان يحيا حياة لهو بعيداً عن أبيه وقبيلته ، وأنه علم بمقتل أبيه فى غربته وتشرده ، فعاد ليأخذ بثأره فى قصة طويلة محزنة »(١) .

ولا يعنينا أن نستطرد فنذكر ما قيل حول هذه المغامرات ، لأن معظم ما كتب عنها لا يتجاوز حدود الرؤية الشخصية التى إن صحت على بعض الأبيات احتاجت إلى ما يؤيدها ويقويها حول بعض الأبيات الأخرى .

ويبقى غلاف الحزن كاسيا الشاعر من جميع جوانبه ، ولذا نخالف من قال بأن الشاعر قد قال هذه القصيدة فى أول حياته عندما كان بعيدا عن أبيه ، إذ لابد أنه قد قالها بعد أن بلغت تجاربه حداً كبيراً ، وكان ذلك فى الرحلة الأخيرة من حياته التى شغل فيها بطلب الثأر لأبيه ، حيث تجمعت الأحزان والهموم عليه ، ووضح ذلك فى أكثر الأبيات ، وإن كان ظاهرها الغزل والتهتك والمجون .

وينتقل الباقلانى إلى نقد بعض الأبيات الغزلية التى تشبه العذرية ، قال فيها امرؤ القيس :

---

(١) د / إبراهيم عبد الرحمن . قضايا الشعر فى النقد العربى ص ١٩٣ .

أفاطم مهلا بعض هــــذا التدلل
وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

أغرك منى أن حبك قاتلى
وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

والبيت الأول فيه ركاكة جداً من وجهة نظر الباقلانى ، كما يرى أن المصراع الثانى منقطع عن الأول ولا يلائمه ولا يوافقه ، كما عاب البيت الثانى « لأنه قد أخبر أن من سبيلها أن لا يغتر بما يريها من أن حبها يقتله، وأنها تملك قلبه فما أمرته فعله ، والمحب إذا أخبر عن مثل هذا صدق .

وإن كان المعنى غير هذا الذى عيب عليه ، وإنما ذهب مذهبا آخر وهو أنه أراد التجلد فهذا خلاف ما أظهر من نفسه فيما تقدم من الأبيات من الحب والبكاء على الأحبة فقد دخل فى وجه آخر من المناقضة والإحاطة فى الكلام .

ثم قوله : « تأمرى القلب يفعل » معناه تأمرينى ، والقلب لا يؤمر ، والاستعارة فى ذلك غير واقعة ولا حسنة »(١) .

إذن فلقد عاب امرأ القيس بما أخبر به محبوبته من أن حبها يقتله ، وأنها تغتر بذلك ، وأنها تأمر قلبه ، وتنصرف عنه . وإذا أراد الشاعر إظهار التجلد — وهذا غير وارد — فقـــد ناقض نفسه . كما رفض الاستعارة فى البيت الثانى مفسراً قوله (تأمرى القلب) بمعنى (تأمرينى) حيث إن القلب لا يؤمر .

ولا شك فى أن الرجل قد صرف الاستعارة عن وجهها الصحيح ، لأن الأمر موجه من الحبيبة إلى قلبها فما يأمر به فعلته . وقد جاء فى كتاب

---

(١) الباقلانى . إعجاز القرآن ص ١٦٩ .

البصائر والذخائر ما يحكيه أبو حيان فيقول : « وقال محمد بن راشد : كنا يوماً مع إسحاق بن إبراهيم الطاهرى نتحدث ونخوض فى ضروب من الأدب ، فأقبل علينا فقال :

ما أراد امرؤ القيس بقوله :

أغرك منى أن حبك قاتلى
وأنك مهما تأمرى القلب يفعل ؟

فكل قال بما حضره ، فقال : لم يرد هذا . قلنا : فما أراد ؟ قال أراد أنك تملكين قلبك فإن أردت صرفى قدرت عليه ، وإن أردت صلتى قدرت عليها ، وأما أنا فلا أملك من قلبى إلا صلتك » (١) .

ويمتد هذا الحوار الوجدانى الذى ذكره الشاعر فى البيتين السابقين إلى قوله فى مخاطبة فاطمة :

فإن كنت قد ساءتك منى خليقة
فسلى ثيابى من ثيابك تنسل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى
بسهميك فى أعشار قلب مقتل

لقد سبق أن عرفنا بمنهج الباقلانى فى نقد القصيدة من حيث وقوفه على جزئيات المعنى وحمله على فجور الشاعر ، وتعهره ، والنظر إلى ظاهر اللفظ ، وإرتكازه على حرفية التفسير اللغوى . وما قاله عن البيت الأول من هذين البيتين لا يخرج فى محتواه عما ذكرناه . أما نقده للبيت الثانى فيحتاج إلى وقفة حيث عده من محاسن القصيدة وبدائعها إلا أن البيت — كما يقول — غير ملائم للبيت الأول ولا متصل به فى المعنى ، وهو

---

(١) السيد صقر . هامش إعجاز القرآن ص١٦٩

منقطع عنه ، لأنه لم يسبق كلام يقتضى بكاءها ، ولا سبب يوجب ذلك ، فتركيبة هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال »(١) .

كما ذكر تفسيرين لهذا البيت أولهما عن الأصمعى ومعناه : « ما بكيت إلا لتجرحي قلبا معشرا — أى مكسرا — من قولهم (برمة أعشار) إذا كانت قطعا »(٢) .

إلا أن هذا المعنى أوقع الشاعر فى خلل لفظى ، وصار كلامه — حسب رؤية الباقلانى — ساقطا مرذولا .

أما المعنى الثانى ، وهو لغير الأصمعى فقد قيل للتخلص من استكراه اللفظ على المعنى الأول . وأبان صاحب إعجاز القرآن عن هذا المعنى فقال : « وقال غيره : وهذا مثل للأعشار التى تقسم الجزور عليها ، ويعنى بسهميك المعلى وله سبعة أنصباء والرقيب وله ثلاثة أنصباء ، فأراد أنك ذهبت بقلبى أجمع ... وقال : وأنت تعلم أنه على ما يعنى به فهو غير موافق للأبيات المتقدمة لما فيها من التناقض الذى بينا »(٣)... « ولأنه إن كان محتاجا على ما وصف به نفسه من الصبابة بقلبه كله لها ، فكيف يكون بكاؤها هو الذى يخلص قلبه لها ؟ »(٤) .

وهكذا رأينا كيف قبل الباقلانى المعنى على الرأى الأول، وعاب اللفظ ، وكيف قبل اللفظ على التفسير الثانى ورفض المعنى ، الا أنه مع ذلك ارتضى هذا البيت ، وعده من محاسن القصيدة ، ولم يذكر سببا لذلك ، ثم ذكر أنه ليس بعجيب أن يسلم للشاعر بيت من عشرين بيتا . « ولأنه

---

(١) الباقلانى ، إعجاز القرآن ص ١٧٠ ، ١٧١
(٢) المصدر السابق ص ١٧٠ (٣) المصدر السابق ص ٧٠
(٤) المصدر السابق ص ١٧٠

لا يدعى على مثله أن كلامه كله متناقض ، ونظمه كله متباين ، وإنما يكفى أن نبين أن ما سبق من كلامه إلى هذا البيت مما لا يمكن أن يقال أنه يتقدم فيه أحدا من المتأخرين فضلا عن المتقدمين » (١) .

وقد وضح لنا أن هذا المنتقد متعصب للمتقدمين على عادة كثير من القدماء الذين لم يروا أى فضل للمتأخرين .

ثم بين الأسباب التى تقدم بها الشاعر غيره وكشف عن توجهه من نقد قصيدة امرىء القيس فقال : « وإنما أنكرنا أن يكون شعره متناسبا فى الجودة ، ومتشابها فى صحة المعنى واللفظ ، وقلنا : إنه يتصرف بين وحشى غريب مستنكر ، وعربية كالمهمل مستكرهة ، وبين كلام سليم متوسط ، وبين عامى سوقى فى اللفظ والمعنى ، وبين حكمة حسنة ، وبين سخف مستشنع ، ولهذا قال الله عز اسمه « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (٢) .

ويواصل الشاعر حديثه عن فاطمة فيقول :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها
تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراساً وأهوال معشر
على حراص لو يسرون مقتلى

وقد استنكر الباقلانى سبق الشاعر إلى تشبيه محبوبته ببيضة الخدر فى البيت الأول، قال :« فقد قالوا : تمنى بذلك أنها كبيضة خدر فى صفائها

(١) المصدر السابق ص ١٧١ (٢) النساء آية ٨٢

ورقتها ، وهذه كلمة حسنة ، ولكن لم يسبق إليها ، بل هي دائرة في أفواه العرب، وتشبيه سائر »(١).

وقد بان تحامله في نقد هذا البيت ، ولذا قال مصطفى صادق الرافعي: « ألا ليت شعري هل كان الباقلاني يسمع من أفواه العرب في عصر امرىء القيس قبل أن يقول : (وبيضة خدر) ؟!

على أن الكناية عن الحبيبة (ببيضة الخدر) من أبدع الكلام ، وأحسن ما يؤتى العقل الشعري »(٢) .

ثم قال : « ... إنما عنى الشاعر العظيم أن حبيبته في نعومتها وترفها ولين ماحولها ، ثم في مسها وحرارة الشباب فيها ، ثم في رقتها وصفاء لونها وبريقها ثم في قيام أهلها وذويها عليها ولزومهم إياها ، ثم في انصرافهم بجملة الحياة إلى شأنها وبجملة القوة إلى حياطتها والمحاماة عنها ، هي في كل ذلك منهم ومن نفسها كبيضة الجارح في عشه ، إلا أنها بيضة خدر، ولذلك قال بعد هذا البيت :

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً
على حراصاً لو يسرون مقتلي

فتلك بعض معاني الكلمة ، وهي كما ترى ، وكذلك ينبغي أن يفسر البيان »(٣) .

أما البيت الثاني من البيتين المذكورين فقد رآه الباقلاني ضعيفاً حيث

---

(١) الباقلاني إعجاز القرآن ص ١٧١

(٢) مصطفى صادق الرافعي مقدمة كتاب (أمير الشعر في العصر القديم) ص ١٣ دار نهضة مصر ١٩٧٤ م .

(٣) المرجع السابق ص ١٤

قال امرؤ القيس : « لو يسرون مقتلى » وكان عليه أن يقول : لو أسروا » فوقع الضعف فيه حتى إن المتأخر ليحترز عن مثله ، ولا نرى أن الضعف يمكن أن يتسرب إلى البيت لمجرد عدول الشاعر عن التعبير بالماضى إلى التعبير بالمضارع . الذى ربما كان اضطراره إلى ذلك من أجل الضرورة الشعرية .

ولقد تحدث القدماء عن البيت الذى يقول شاعرنا فيه :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت　　　تعرض أثناء الوشاح المفصل

وقالوا : إن الثريا لا تتعرض ، والتمس بعضهم العذر له وقالوا إنه أراد الجوزاء وكأن الشاعر قد أحب أن يبين تجاوزه للأصول والأحراس حيث اتجهت الثريا للمغيب وأبانت عرضها (أى ناحيتها) « فشبهها بالوشاح المفصل إذا تلقاك بناحيته »(١) .

وذكر الباقلانى أن البيت المذكور من محاسن القصيدة ، غير أنه لا يفوق أبيات المتقدمين أو المتأخرين فى وصف الثريا ، وأورد لذلك بعض ما قاله الشعراء .

وقال : « ولو نسخت لك كل ما قالوه من البديع فى وصف الثريا — لطال عليك الكتاب ، وخرج عن الغرض ، وإنما نريد أن نبين لك أن الإبداع فى نحو هذا أمر قريب ، وليس فيه شىء غريب ، وفى جملة ما نقلناه ما يزيد على تشبيهه فى الحسن ، أو يساويه أو يقاربه... »(٢) .

ويبدو أنه لم يرد أن ينسب ميزة للشاعر، فاستأنف قائلا إن فى البيت ضربا من التكلف حيث إن قوله « تعرضت » من الكلام الذى يستغنى

---

(١) الديوان (الشرح) ص ١٤
(٢) الباقلانى إعجاز القرآن ص ١٧٥

عنه ، إلى غير ذلك من المآخذ التي رصدها لتكلف الشاعر في هـــذا البيت .

ويكتمل ما اختاره الباقلاني من أبيات امرىء القيس في الغزل بهذه الأربعة التي قال فيها :

فجئت ، وقد نضت لنوم ثيابها
لدى الستر إلا لبسة المتفضل
فقالت : يمين الله مالك حيلة
وما إن أرى عنك الغواية تنجلي
فقمت بها أمشي تجر وراءنا على إثرنا أذيال مرط مرجل
فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى
بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

وقد تابع الباقلاني بعض النقاد القدماء في اعتراضهم على ترتيب الشاعر للمعاني فقال « انظر إلى البيت الأول والأبيات التي قبله ، كيف خلط في النظم وفرط في التأليف ! فذكر اتمتع بها ، وذكر الوقت والحال والحراس — ثم ذكر كيف كان صفتها لما دخل عليها ووصل إليها ، من نزعها ثيابها إلا ثوبا واحدا » (١) .

إن الترتيب الذي عناه منقوض بالكثير من القصائد التي تقدمت فيها أبيات في بعض الروايات ، وتأخرت في روايات أخرى . بل إن هذا التقديم والتأخير قد ورد بالقصيدة التي معنا ، كما اعترض البعض على نقد الباقلاني أو غيره من النقاد فيما يتصل بموضع هذا البيت .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٦

فقال : « وهكذا يسوى هؤلاء النقاد بين المنطق العقلى فى ترتيب المعانى والمنطق الوجدانى فى ذلك ، وينسون أن منطق الوجدان يتحرك فى عالم كأنه الحلم المفعم بالرموز ... وربما قلنا فى تعليل هذا الترتيب إنه يعبر عن متعة الذكرى ، وذلك باستعادة الحكاية من جديد بتفصيلات أشمل بعد السرد الأول... وربما قلنا من جهة أخرى إلى شوق المحبين بعد الذى يحجب عنهم تفصيلات الصورة عند أول اللقاء فناء وانبهاراً بلذة الوصال ، ثم يكون بعد ذلك ما يكون من التحقق من معالم المكان والزمان والوعى بالذات »(١) .

وقد يكون الباقلانى على حق فى انتقاده للألفاظ الوحشية المعقدة فى البيت الأخير ، إذ قال : « وهذا بيت متفاوت من الأبيات المتقدمة ، لأن فيها ماهو سلس قريب يشبه كلام المولدين ، وكلام البذلة ، وهــذا قد أغرب فيه ، وأتى بهذه اللفظة الوحشية المتعقدة . وليس فى ذكرها والتفصيل بإلحاقها بكلامه فائدة »(٢) .

إلا أن بعض المحدثين قد دافع عن الشاعر ، ورأى فى هذه الألفاظ الخشنة بما فيها من وحشية وتنافر مايتلاءم مع الظرف التاريخى الذى تحدث عنه امرؤ القيس فى هذا البيت ، قال : « وذلك لأن الشاعر أراد أن يعبر عن مكان فيه صخور ورمال ومرتفعات ومنخفضات ، وفيه تداخل والتواء وفيه قطعة من أرض سوية مطمئنة ، ومثل هذا الموطن يصلح للاختباء ، ولا سيما فى الليالى الدكناء وقرب موطن الأعداء »(٣) .

وقد اختار الباقلانى خمسة أبيات وصف فيها الشاعر محبوبته وهى :

---

(١) د/عفت الشرقاوى . دروس ونصوص ص٢٤٤ ، ص٢٤٥

(٢) الباقلانى : الإعجاز ص ١٧٧

(٣) د/بكرى شيخ أمين . المعلقات السبع ص٣٤

هصرتُ بغصنى دوحة فتمايلت ... على هضيم الكشح ريا المخلخل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة ... ترائبها مصقولة كالسجنجل
تصد وتبدى عن أسيل وتتق
بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الريم ليس بفاحش
إذا هى نصته ولا بمعطل
ويضحى فتيت المسك فوق فراشها
نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

ونلاحظ أن نقد الباقلانى لهذه الأبيات لا يتجاوز الألفاظ حيث رأى أن قول الشاعر «بغصنى دوحة» تعسف ولم يكن من سبيله أن يجعلهما اثنين.

وأن قوله «بناظرة» لفظة مليحة. أما قول: «من وحش وجرة» فكان يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا حيث «كان من سبيله أن يضيف إلى عيون الظباء أو المها دون إطلاق الوحش. ففيهن ما تستنكر عيونها»(١).

وأن كلمة «مطفل» زيادة لا فائدة فيها. وأن قوله «ليس بفاحش» فى مدح الأعناق كلام فاحش. واستنكر هذه الكلمة فقال: «وإذا نظرت فى أشعار العرب رأيت فى وصف الأعناق ما يشبه السحر فكيف وقع على هذه الكلمة ودفع إلى هذه اللفظة؟»(٢).

---

(١) الباقلانى. إعجاز القرآن ص ١٧٩
(٢) المصدر السابق ص ١٨٩

وقد رأينا الشاعر معنياً بالأوصاف الحسية لمحبوبته ، فهى ضامرة الخصر : ممتلئة الساق : ممشوقة القوام ، بيضاء . غير مترهلة ولا نحيلة ، وصدرها كالمرآة المصقولة ، أو كسبيكة الفضة . ويتخلى عن الحسية ، ليصف طباعها بالتلون،حيث تصدى وتبدى . وإذا ما أدبرت ظهر جانب من خدها الأملس الجميل ، ولعله بذلك قد عاد إلى الحسية ، وشبه جيدها بجيد الغزال إلا أنه ليس خالياً من الحلى والجواهر ، وقد وصف ترفها بجعل المسك يعبق فوق فراشها بعد أن تقوم من نومها فى الضحى ، وهى لا تضع النطاق فوق ملابسها استعداداً للعمل لقيام من ينهض بذلك عنها .

٣ — وصف الليل

اختار الباقلانى ثلاثة أبيات مما قاله امرؤ القيس عن الليل فى هذه القصيدة وقدم لها فقال :

وما يعدونه من محاسنها :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

على بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى

بصبح وما الإصباح منك بأمثل

لقد كشف الشاعر عن آلامه وأحزانه بعد أن حرم من محبوبته (فاطمة) فاشتمله الليل بظلامه ، وألقى عليه سدوله ، ليختبر قدراته على الصبر والتحمل ، وقد شبه الليل بموج البحر ، ثم انتقل إلى تشبيه الليل بالجمل الذى ينوء بصلبه على الأرض فى بطء وتثاقل ، فكشف عن تراحم الهموم عليه فى هذا الليل الطويل الذى لم يكن الصباح بأحسن حالا منه .

وليست الحسرة والآلام التى اشتملت الشاعر فى سائر القصيدة بخافية فى هذه الأبيات التى كان القدماء يعارضونها بقول النابغة :

كلينى لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطىء الكواكب

وصدر أراح الليل عازب همه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانب

تقاعس حتى قلت ليس بمنقض ... وليس الذى يتلو النجوم بآيب

وقد ذكر الباقلانى أبيات امرىء القيس ، وأتبعها بأبيات النابغة حيث جرت الموازنة بينهما بين يدى بعض الخلفاء ثم قال : «فقدمت أبيات امرىء القيس واستحسنت استعارتها ، وقد جعل لليل صدرا يثقل تنحيه، ويبطىء تقضيه ، وجعل له أردافا كثيرة وجعل له صلبا يمتد ويتطاول »(١) ، وكأن الباقلانى رأى فى هذا الإعجاب ما يؤثر على مذهبه فى الإعجاز ، فعقب قائلا : «واعلم أن هذا صالح جميل ، وليس من الباب الذى يقال: إنه متناه عجيب . وفيه إلمام بالتكلف ودخول فى التعمل»(٢) .

٤ — وصف الفرس :

ذكر الباقلانى ثلاثة أبيات لامرىء القيس فى وصف الفرس ، وأعجب بها وأقر بجودتها ، وهى :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل

مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

له أيطلا ظبى وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

---

(١) المصدر السابق ص ١٨١

(٢) المصدر السابق ص ١٨١

وقد امتدح القدماء هذه الأبيات وغيرها مما قاله امرؤ القيس فى وصف الفرس . وتعد سرعة هذا الحيوان من أهم الصفات التى شغل شاعرنا بتصويرها ، والحديث عنها. ولم يعد يخاف علينا أسلوب الباقلانى الذى يتماوج بين الثناء والانفكاك منه ، فإذا امتدح معنى أو أثنى على لفظ نراه يتراجع عما قاله مؤكدا على عدم تفرد الشاعر ، وعدم سبقه إلى ماقال ، فيعرض مثلا لقول امرىء القيس «قيد الأوابد» ويذكر أنه مليح ، ثم يعقب قائلا : «ومثله فى كلام الشعراء وأهل الصناعة كثير والتمحل بمثله ممكن.

وأهل زماننا الآن يصنفون نحو هذا تصنيفا ، ويؤلفون المحاسن تأليفا ، يوشحون به كلامهم ، والذين كانوا من قبل — لغزارتهم — وتمكنهم — لم يكونوا يتصنعون لذلك ، وإنما كان يتفق لهم اتفاقا ، ويطرد فى كلامهم اطرادا»(١) .

ولو راجعنا ماقاله الباقلانى عن هذا البيت عندما كنا نتحدث عن إعجابه بشعر امرىء القيس ، لوجدنا الهوة سحيقة ، والبون شاسعا بين الاستحسان هناك ، والتكاسل عن إظهار الإعجاب هنا مما يؤكد مذهبية الرجل التى اتجه بها إلى نقد الشعر .

وقال فى نقده للبيت الثانى : «وأما قوله فى وصفه : «مكر مفر» فقد جمع فيه طباقا وتشبيها ، وفى سرعة جرى الفرس للشعراء ماهو أحسن من هذا وألطف»(٢).

كما انتقد البيت الثالث بهذه الطريقة فقال : «وكذلك فى جمعه بين أربعة

(١) المصدر السابق ص ١٨٢
(٢) المصدر السابق ص ١٨٢

وجوه من التشبيه فى بيت واحد — صنعه ولكن قد عورض فيه، وزوحم [عليه] والتوصل إليه يسير، وتطلبه سهل قريب»(١).

ونؤكد فى النهاية على فساد الموازنة بين القرآن الكريم وجنس الشعر عامة، وأن الباقلانى كان متحاملا على شعر امرىء القيس لإثبات أن فيه سقوطا وعوارا. وأنه لو أنصف فى نقده، فإن «أخذا واحدا مما سجله القدماء حول المعلقة لكاف فى إثبات النظرية التى تحمس لها، ودافع عنها فى كتابه عن إعجاز القرآن الكريم.

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٢

الباب الثالث

أمرؤ القيس في مؤلفات المحدثين

الفصل الأول : تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي .

الفصل الثاني : في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين .

الفصل الثالث : أمير الشعر في العصر القديم لمحمد صالح سمك .

الفصل الرابع : الشوامخ (امرؤ القيس) للدكتور محمد صبري السربوني .

الفصل الخامس : امرؤ القيس حياته وشعره للدكتور الطاهر أحمد مكي .

الفصل السادس : كتابات أخرى .

الفصل الأول

تاريخ آداب العرب

لمصطفى صادق الرافعي(١)

كتاب مصطفى صادق الرافعي بأجزائه الثلاثة معروف للمشتغلين بالأدب منذ أن بدأ طبع الجزء الأول منه سنة ألف وتسعمائة وإحدى عشرة للميلاد .

---

(١) ولد مصطفى صادق الرافعي عام ١٨٨٠ م ، وحصل على الشهادة الابتدائية ، ثم أصيب بالصمم ، فانقطع عن التعليم ، وواصل دراسته بنفسه ، وكان قد بدأ حياته بكتابة الشعر ، ثم انصرف عنه إلى التأليف والكتابة . وقد ألف كتابه (تاريخ آداب العرب) وعمره ثلاثون عاما ، وهو من بواكير الكتب في هذا الفن ، إذ كتبه استجابة لدعوة الجامعة المصرية إلى تأليف كتاب في (أدبيات اللغة العربية) ، وانقطع لتأليفه عام ١٩٠٩ م وانتهى منه ، ثم بدأ طبعه عام ١٩١١ م . وكان قد سبقه جرجي زيدان في طبع الجزء الأول (فقط) من كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية)

ومن مؤلفات الرافعي أيضا ، وحي القلم (ثلاثة أجزاء) ، تحت راية القرآن ، إعجاز القرآن وغيرها . وتوفي عام ١٩٣٧ م وألفت عنه كتب ودراسات عديدة .

وقد درس موضوعات كتابه (تاريخ آداب العرب) بأجزائه الثلاثة في اثنى عشر بابا ودرس الأبواب الثلاثة الأولى في الجزءين الأول والثانى ودرس بقية الأبواب في الجزء الثالث الذى طبع بعد وفاته ، وإن كان هذا الجزء قد خرج ناقصا بعض الأبواب التي خطط لها الرافعي لبحثها في كتابه المذكور.

أما الموضوعات التي بحثت فيه فإنها من الكثرة بحيث لو تحدثنا عنها بتفصيلاتها لاحتجنا إلى كتاب مستقل لا إلى وريقات معدودة .

وقد قدم الجزء الأول(١) بتمهيد من فصلين، تحدث فيهما عن تاريخ كلمة (الأدب) وعن بلاد العرب . ثم بحث في هذا الجزء بابين وهما عن اللغات واللغة العربية ، وعن الرواية والرواة .

ويعد بحثه عن الرواية والرواة ذا أهمية كبيرة ، لأن القدماء كانوا يعدون طائفة الرواة من أهم الأسباب لوضع الشعر ، فأراد الرافعي أن يكشف عن تاريخ هذه الطائفة في الجاهلية والإسلام ، وكيف اتصلت بالأدب ، فإذا انتهى من بحث كل ذلك عكف على دراسة الوضع والصنعة في الرواية ، وأسباب الاختلاف في رواية الشعر، وأشهر الرواة القدماء إلى غير ذلك مما اتصل بقضية الحكم على الأدب بالصحة والانتحال، وتحدث في الجزء الثاني(٢) عن تاريخ القرآن والقراءة ، وطرق الأداء ، وعن تأثير القرآن في اللغة ، والجنسيات العربية في القرآن . وآداب القرآن . والقرآن والعلوم ، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

وتحدث في الجزء الثالث(٣) عن العديد من موضوعات الأدب العربي وتاريخه ، فعرض في الباب الخامس وهو الأول في هذا الجزء لتاريخ الشعر العربي ومذاهبه ، وبحث الكثير من القضايا المتفرقة ، كحديثه عن أولية الشعر العربي ، ونشأة الشعر ، والباعث على اختراعه ، ثم تكلم عن بيوتات الشعر ، والمعرقين فيه جاهلية وإسلاما إلى غير ذلك من الموضوعات .

---

(١) الطبعة الرابعة عام ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م

(٢) الطبعة الثانية عام ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .

(٣) الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م . دار الكتاب العربي بيروت .

وتحدث فى الباب السادس عن حقيقة القصائد المعلقات ، ودرس شعراءها ، وتكلم عن ثلاثة منهم وهم امرؤ القيس وطرفة بن العبد وزهير ابن أبى سلمى .

وعقد الباب السابع لبحث الأدب الأندلسى ، ثم جعل بابا للحديث عن التأليف وتاريخه عند العرب . ونوادر الكتب العربية ، وجعل الباب الأخير فى دراسة الصناعات اللفظية التى أولع بها المتأخرون مثل لزوم ما لا يلزم ، والقوافى المشتركة والتخميس والتشطير وما إليهما ، ونلاحظ الانفكاك بين قضايا الأدب واللغة التى تم بحثها فى هذا الجزء وربما كان ذلك بسبب طبعه بعد وفاة مؤلفه فخرج ناقصا من بعض الأبواب التى لم يكتبها ، أو كتبها ولم يعثر عليها بعد وفاته .

امرؤ القيس

يعد مصطفى صادق الرافعى من الأوائل الذين تحدثوا عن امرىء القيس ، حيث أفرد له أكثر من أربعين صفحة بالجزء الثالث من كتابه (تاريخ آداب العرب) ، وقد درسه لكونه واحدا من شعراء القصائد الطوال المعروفة بالمعلقات ، ولإعجاب القدماء به ، ولسبقه للشعراء الجاهليين فى أمور اتبعوه فيها فضلا عن مكانته التى أقر بها القدماء والمحدثون مع اختلاف فى وجهات النظر بين الأدباء والنقاد .

وابتدأ الحديث عنه بإيضاح معنى اسمه وهو حندج بن حجر ، وبيان كناه وألقابه ثم تحدث عن قيامه بالثأر لأبيه بعد مقتله ، وقوله لعبارته المشهورة بعد أن علم بمقتله : «ضيعنى صغيرا ، وحملنى دمه كبيرا ، لا صحو اليوم ولا سكر غدا اليوم خمر وغدا أمر» ، وتكلم عن تنقله بين القبائل ، وقدومه على السموءل ، واستنجاده بالحارث بن أبى شمر الغسانى بالشام ، وذهابه إلى قيصر الروم (يوستنياس) ومرضه

بالجدري ، ووفاته عند أنقرة في أثناء عودته من الروم في تاريخ اختلف فيه المؤرخون ، وسبق أن عرضنا لتفاصيل نسب امرىء القيس ونشأته وحياته ولذلك لاداعي إلى إعادة القول فيها خاصة وأن حقائق التاريخ تكاد تكون واحده لا تتغير إلا بمقدار الفروق اللفظية بين رواية وأخرى .

أولا — طويلة امرىء القيس

عرض الرافعي في إيجاز شديد لطويلة امرىء القيس ، وهي المعلقة المشهورة التي قالها يصور فيها ماجرى يوم الغدير عندما كانت تستحم به بعض الفتيات ، وفيهن ابنة عمه فاطمة ثم أحـــدث ممن ما تحدثت به الأخبار والروايات .

وقد تابع الرافعي القصيدة بين أربع نسخ منها ، بروايات مختلفة ، فوجد كل نسخة تختلف عن الأخرى فهي في الجمهرة سبعون بيتا ، وفي الديوان الذي شرحه أبو بكر بن عاصم سبعة وسبعون بيتا ، وفي شرح الزوزني تسعة وسبعون بيتا، وفي نسخة أخرى من الديوان (لم يذكرها) خمسة وسبعون بيتا، حيث تختلف هذه النسخ في تقديم الأبيات وتأخيرها .

وفي رواية بعض الألفاظ ، بحيث لم تجتمع روايتان على صوره واحدة .

وإذا كانت مسألة عدد الأبيات ليست بذي بال في مجال دراسة الشعر إلا أنها تتصل بأمور أخرى في التحقيق والتوثيق كضبط الشعر ، وبيان صحيحه من زائفه ، ومع ذلك فإن بعض الحصر السابق غير صحيح ، فالمعلقة كما جاءت في الجمهرة تسعون بيتا ، وفي شرح الزوزني واحد وثمانون بيتا وربما أطلع الرجل على نسخ أو مخطوطات أخرى من الكتابين المذكورين . وفضلا عما تقدم وصلت أبيات المعلقة في ديوان أمرىء القيس بشرح حسن السندوبي إلى اثنين وتسعين بيتا .

وقد أسهم هذا التضارب والتباعد فى حصر الأبيات وضبط كلماتها وترتيبها فى خلق نوع من الاضطراب فى الشعر العربى ، وفتح الباب لبعض القدماء ولكثير من المحدثين فى التشكيك فى الشعر الجاهلى .

ثم تحدث الرافعى عن أفكار هذه القصيدة التى استخلص معظمها من كتابات السابقين فقال: « أما القصيدة فقد وقف فيها واستوقف ، وبكى واستبكى وذكر الديار والآثار ، ثم استشعر العزاء وتجلد ، ثم التاع وتنهد ، ثم كأنه عفا وتجدد ، وذكر يوم الغدير ، ووصف عقر ناقته للعذارى ، وتبذله لهن تبذل الجآذر وارتماءهن بلحمها وشحمها ، ثم ألم بأطراف العفاف من ابنة عمه ، وتمهر فى ذلك حتى كأن الكلام لا يمر بقلبه بل يخلقه لسانه خلقا ، إلا فى أبيات قليلة ، ووصف الجمال وصفا ظاهرا يبلغ شهوة النظر ، ثم وصف طول الليل ، وخرج من الفخر إلى صفة الخيل ، واستتبع ذلك بالصيد والقنص والطعام ، ثم رفع عينيه إلى البرق والسحاب ، وخفضها إلى الجبل فزمله من المطر فى ثياب ، ثم أغمضها وسكت كما يسكت على خير جواب » (١) .

ثم اختار عشرة أبيات للتمثيل بها على بعض الأفكار السابقة . منها أربعة أبيات فى حديث الشاعر إلى فاطمة وأولها ، قوله :

أفاطم مهلا بعض هـــذا التدلل
وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

وأعقبها بثلاثة فى وصف الليل . أولها :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   على بأنواع الهموم ليبتلى

---

(١) الرافعى . تاريخ آداب العرب حـ ٣ ص ١٩٤

وتلاها بثلاثة أخرى فى وصف الفرس ، ويدأها بقوله :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وهكذا جاء حديث الرافعى عن المعلقة مختصرا جدا ، ولا يتناسب مع مكانة هذه القصدة فى الشعر الجاهلى .

ثانيا — شاعرية امرىء القيس ، وأسباب شهرته .

بحث الرافعى عدة قضايا تتعلق بشاعرية امرىء القيس ، وتميزه على شعراء عصره ، حتى لقب بأشعر الشعراء ، وبأميرهم وبقائدهم، إلى غير ذلك من الألقاب والصفات التى ظفر بها دون سواه ، وهانحن نعرض لما بحثه الرافعى فيما يتعلق بالشاعرية والشهرة .

١ — نقد شعره

انعكست حياة امرىء القيس على شعره فقد شب خليعا ماجنا حتى طرده أبوه حسب بعض الروايات ، ثم أراد أن يشغله عن قول الشعر ، فجعله يرعى بعض الحيوانات ، ولكنه لم يصبر عليها ، وانصرف إلى مصاحبة الصعاليك والذؤبان، ولم يوفق حجر فى أن يطبع ابنه بطابع الملوك، فانصرف إلى قول الشعر الذى يتميز بالمكاشفة والتهر والفجور ، وبالكبرياء التى تمسح شعره ، وبالنعمة التى يرف بها رفيفا . كما اتجه إلى الصيد والغزل ، وعبر عن حياته مع الصعاليك بما جنح إليه فى التشبيه بمساويك الإسحل ، وحب الفلفل ، ونقف الحنظل وغيرها . وقد عابه النقاد المتأخرون فى ذلك ، وما أنصفوه؛ لأنه ليس كابن المعتز الذى انتهى إليه التشبيه فى صناعة الشعر .

ويبين الرافعى خطأ الانتقاد من هذه الجهة إذ أن ذلك سبب طبيعى لاقبل للانتقاد به ، وضرب مثلا لذلك بعيب الطويل لطوله ، والقصير لقصره ، والجبل لنسمعه مع أن فى تلك مناسبات أخرى تستدعى الإعجاب .

وقال : «ولا يذهبن عنك أن الذين ينتقدون امرأ القيس وغيره بما هو من خصائص الجاهلية ، إنما نشأ عندهم ذلك بعد مقابلته بنعمة الحضارة وترف العمران ، ولو كانوا في الجاهلية لكانوا أجهل منه ، ولكن في شعر كل شاعر ما يمكن أن ينتقد في كل زمن ، وذلك مما يكون سبيله سبيل المعاني الطبيعية ، ولا يتفاوت في الناس إلا بميزات أخرى ترجع إلى النشأة ، وسلامة الذوق ، وخلوص الفطرة ونحوهما من الصفات التي هي تأويل معنى التفاوت »(١) .

ولذلك كان التعرف على طبائع العصر وخصائص شعره ، وقاموس شعرائه أمرا ذا بال ، ومقدمة مهمة في نقد الشعر والشعراء .

وذكر الرافعي أنه ربما اعتقد البعض أن الشهرة التي رزقها امرؤ القيس ليست على مقدار شعره ، ولا هي في وزن براعته ، وإنما جاءت إليه لأسباب أخرى ، لعل منها ما زين به الرواة أخباره وأشعاره حتى كأن الدهر قد عوضه عن ملك النسب ملك الأدب .

وأقر الرافعي بأن ذلك يعتريه بعد قراءة بعض ما نسب إليه جميعه . لماذا ؟ لأن في شعره منحولا كثيرا . وهكذا فتح الباب للدخول إلى قضية الانتحال ، وذكر أن بعض المنحول يلائم ديباجته فيكاد يلتحق به حتى لا يميزه إلا دقيق النظر مع انتقاد البرهان الأكيد على النفي والإثبات في شعره .

ولقد كشف عن التدخل في شعره بالتغيير والتبديل فقال : «وليس من شاعر أو راوية الا وقد أحب أن يكون له في كلامه لفظ أو معنى ، ولذلك تعاوروا ألفاظه بالتغيير والتبديل ، وأدخلوا في شعره ما ليس منه وقد نص بعضهم على أنه لم يصح له إلا نيف وعشرون شعرا بين طويل وقطعة »(٢) .

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٩٦ (٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٩٧

واستشهد لذلك بما نفاه الأصمعى من الأبيات المروية والمنسوبة إلى امرىء القيس والتى يقول فيها :

ألا إلا تكن إبل فمعزى
كأن قرون جلتها العصى

وسبق أن بينا رأينا حول نسبة هذه الأبيات التى منها البيت السابق إلى امرىء القيس ، وإمكانية قوله لها .

وذكر الباقلانى أنهم (أى رواة الشعر ونقاده) « قد بالغوا فى الحمل عليه حتى كأنه دابة الشعر ، فنسبوا إليه سخف القول وساقط الكلام وما يجرى مجرى الهذيان »(١) .

ومثل لهذا الشعر المنحول الذى يشبه الطلاسم بما جاء فى بعض نسخ الديوان كاللامية التى ذكر منها بيتين وهما :

فكم كم وكم كم ثم كم كم وكم كم
قطعت الفيافى والمهامه لم أمل

وكاف وكفكاف وكفى بكفها
وكاف كفوف الودق من كفها انهمل

وذكر أن هذه النحل قد جاء على قياس قول امرىء القيس فى القصيدة التى تروى له :

وسن كسنيق سناء وسنما
ذعرت بمدلاج الهجير نهوض(٢)

أما اللامية السابقة فلم ترد فى بعض نسخ الديوان وإنما جاءت

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٩٧
(٢) استشهدت بعض الكتب بهذا البيت على التجنيس الردىء المبتكر ..

فى كتاب العقد الثمن ، وضمها البعض إلى ديوان امرىء القيس فى إطار ماينسب إليه من الشعر(١) .

وذكر الرافعى أن الناقدالبصير يستطيع أن يتعرف على أسلوب امرىء القيس بعد قراءة قصيدتين أو ثلاث مما صح له ، فيستخلص منها صفات شعره التى ميزته بالتقديم ، وجعلته أمير الشعراء وصاحب لوائهم إذ كان أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة(٢) .

٢ — أسباب شهرته

لقد اهتم الرواة بشعر امرىء القيس ، لأنه كان من أهل نجد ولو لم يكن منها لأهملوا رواية شعره ، ثم إنه كان يروى شعر أبى داود الإيادى أحد نعات الخيل المجيدين فى الجاهلية ، فأخذ عنه صفة الخيل حتى لا يكاد شعره يخلو من هذا الوصف كما كان يروى شعر امرىء القيس بن خذام ، فأخذ عنه البكاء على الطلول .

وذكر الرافعى أنه كان يعاصره من الشعراء المعروفين ، علقمة بن ابن عبدة ، وعبيد بن الأبرص ، والشنفرى ، وأبو داود الإيادى ، وسلامه ابن جندل ، والمثقب العبدى ، والبراق بن روحان ، وتأبط شرآ ، والتوءم اليشكرى ، وكان من حشم أبيه شاعر اسمه عمرو بن (قضبة)(٣) ، وهو الذى ذكره فى قصيدته التى قالها حين توجه إلى قيصر ، وذلك فى قوله :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

(١) انظر السندوبى شرح الديوان ص ١٨٦ .
(٢) الرافعى تاريخ آداب العرب جـ ٣ ص ١٩٨
(٣) تحريف والصواب (قميئة) .

وكل هؤلاء لم يقع للرواة فى شعرهم مقدار ما وقع فى أيديهم لامرىء القيس فكان ذلك سبباً من أسباب تميزه وانفراده»(١) .

وأعقب الرافعى ذلك بالحديث عن سبب آخر من أسباب شهرة امرىء القيس فقال : «وثم سبب آخر ، وهو أن الذى فى يد العلماء من أهل الغريب والعربية وعلماء البيان لا يجتمع منه لشاعر واحد جاهلى ما اجتمع لامرىء القيس ، وهو عندهم طبقة متميزة لفصاحته وقدمه ، فشعره أشبه شىء بأقدم كتاب فى اللغة عند من يظفر به من المتأخرين ، وكأنما كان بعضهم يجله عن الانتقاد فى ألفاظه ، فكل ما استعمله فصيح من حيثما تلقفه ، وكيفما جاء به ، وإن كان ذلك لاشك فى صحته دون فصاحته »(٢) ، وذكر أن علماء اللغه يبحثون عن تأويل لما جاء فى شعره مخالفاً لقواعد الفصحى ، كقوله :

لها متنتان خظاتا كما أكب على ساعديه النمر(٣)

وقد تأثر فى استعماله لكلمة (خظاتا) بلغة طىء حيث يقلبون الياء ألفا إذ أن أصل (خظاتا) خظيتا فقلبت الياء ألفا . وعلق الرافعى على هذا المنزع من قبل امرىء القيس فقال : « وهى لغة لم يلتزمها الشاعر ، ولا وجه لها إلا أن يكون ميزان لسانه قد تعطل فى هذه الكلمة كما تعطل فى غيرها فانحدرت منه ثقيلة غثة باردة»(٤) .

وجاء فى شرح الديوان أن أصل (خظاتا) خظاتان وأسقط الشاعر النون ، ومعناها : مكتنزتان ، ولم تقلب الألف ياء كما ذكر ، وإنما ألقيت النون ، وهى مخالفة للفصحى أيضاً .

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٨
(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٩
(٣) الديوان ص ١٦٤
(٤) الرافعى . تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ١٩٩

ولقد انتقد علماء المعانى والنحو والعروض شعره ، وأخذوا عليه أشياء كثيرة ومات انتقادهم ، وبقيت ألفاظ الشاعر حية لم تتأثر بالنقد ، ومثل الرافعى لذلك بكلمة (مستشزرات) التى مازال أصحاب البيان يضربونها مثلا فى التنافر والثقل ، ولكنها قد رسخت قبلهم . ويرى الرافعى أن ذلك من عجائب امرىء القيس فإن له ألفاظاً وإن كانت أحجاراً إلا أنها ثابتة من شهرته ، ثم ذكر ما قاله العلماء بالشعر حول الأسباب التى تقدم بها امرؤ القيس على الشعراء واتبعوه فيها ، قال : «لأنه أول من لطف المعانى ، ومن استوقف على الطلول ، ووصف النساء بالظباء ، والمها والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيدة ، وقرب مآخذ الكلام ، فقيد الأوابد وأجاد الاستعارة والتشبيه ، وقلما يخلو كتاب فى الأدب من هذه الكلمة ، وهى مع ذلك مقبولة كأنها ناموس من نواميس الطبيعة فى شهرة هذا الشاعر»(١) .

ولكنه لم يسلم بهذا الذى قاله العلماء لافتقاده إلى البرهان والدليل ، ولك عرضها على محك النقد حتى يخلص إلى حقيقتها كما قال .

وشرع فى انتقاد كلام السابقين الذى تناقله الرواة والمؤرخون ، وبدأ بقولهم إنه أول من لطف المعانى ، واستوقف على الطلول ، إذ لا يسلم بهذه الأولية لافتقارها إلى الدليل ، قال : «أما أنه أول من لطف المعانى ، واستوقف على الطلول الخ ، فلا يكون دليله إلا تتبع كلام العرب مما كانوا قبله ، وإدارة الآذان فى هواء الجزيرة من أكنافه ، وهو شيء لا يصدق مدعيه كائنا من كان ؛ لأن العرب أنفسهم أهملوا رواية أبى دواد كما ذكر الأصمعى ، وسبيله سبيل غيره ، فضلا عن إهمالهم الزمن ، وجلدت صدورهم التى هى دواوين أشعارهم بصفحات من الكفن»(٢) .

---

(١) المصدر السابق جـ٣ ص١٩٩ ، وانظر ابن رشيق ، العمدة جـ١ ص٩٤

(٢) الرافعى . تاريخ آداب العرب جـ ٢ ص ١٠٠

ونؤكد ماذكره الرافعي بيت لامرىء القيس نفسه سبق أن استشهدنا به ، وهي قوله :

عوجا على الطلل المحيل لأننا   نبكي الديار كما بكى ابن خذام

فكيف يقولون إنه أول من استوقف على الطلول بينما يعترف شاعرنا بسبقه بابن خذام وتقليده له ؟

وهذا المهلهل بن ربيعة المتقدم على امرىء القيس يبدأ قصيدة له بذكر الطلول فيقول(١) .

هل عرفت الغداة من أطلال   رهن ريح وديمة مهطال
يستبين الحليم فيها رسوما   دارسات كصنعة العمال
قد رآها وأهلها أهل صدق   لايريدون نية الارتحال
يالقومي للوعة البلبال   ولقتل الكماة والأبطال

وقد رد الرافعي على فقرة أخرى من كلامهم السابق عن امرىء القيس وهي: «أنه أول من فرق بين النسيب وما سواه من القصيدة » وذكر أن هذه الكلمة صادرة عن مولد قصير النظر في مطارح الكلام ، وقال: «كأن شعراء العرب كلهم كانوا على سنة المولدين من افتتاح القصيدة بالنسيب ثم التخلص بعد ذلك الى ما يأخذون فيه من المعاني ، وهو رأى لم يقل به أحد ، ولايزال في القصائد العربية قبل امرىء القيس بقية من القوة على تكذيبه »، ولكنه لم يذكر نموذجا لهذه القصائد المروية قبل امرىء القيس ولعل في النموذج السابق الذي ذكرناه للمهلهل مايؤكد على نهج هذا الشاعر في التخلص من النسيب إلى موضوع القصيدة ، وهو المنهج الذي نسب ابتكاره الى امرىء القيس مع أنه اتجاه سلكه بعض الشعراء السابقين.

---

(١) حسن السندوبي ، أخبار المراقسة (ملحق على ديوان امرىء القيس) ص ٨٥ المكتبة الثقافية بيروت .

وانتقل الرافعي إلى نقد جزء آخر من الكلام السابق للرواة حول مكانة امرىء القيس فقال: «وأما أن هذا الشاعر أول من قرب مآخذ الكلام فقيد الأوابد، وأجاد الاستعارة والتشبيه، فهو الصحيح، ولكن لا على أنه أول من ابتدأ ذلك، بل على أنه أول من اشتهر به وابتدع فيه، وجملة ما حفظ له منه أشياء معدودة، غير أنها لو توزعها شعراء الجاهلية لزانتهم جميعاً»(١)، ومع أن الرافعي لم يذكر شيئاً من هذه الأشعار التي أجاد امرؤ القيس الاستعارة والتشبية فيها لكنها منشورة في كتب الأدب والنقد مثل عيار الشعر والصناعتين والعمدة وسر الفصاحة وغيرها.

ثم انتقل للحديث عن آخر سبب من أسباب شهرة امرىء القيس، وبقاء شعره على ألسنة العرب، وشرح هذا السبب فقال: «وهو أنهم يجدون في بعض كلامه رقة المنادمة وطرب الخمر، وفتور الغزل وغير ذلك مما هو من حظ القلب، ثم هم يرونه إذا أخــــذ في غير هذه المعاني يطبع ألفاظه على قالبها من الاستعارة والتشبيه، فإذا قابلوا بخشونة غيره، وانصرافه إلى أوصاف البداوة، وجدوا في شعره كالظل الذي يفيء، والماء الذي يجري. والحسن الذي يتميع، والنسيم الذي يترنح فكان ولا جرم كأنما يستهويهم استهواء، وكان مجموع شعره في البدو حضارة وفي الحضر بداوة»(٢). وهذا الذي ذكره يفسر بأن الشاعر قد جمع في شعره بين الطبع والصنعة، ونقل في صدر حديثه عن هذا السبب لشهرة امرىء القيس خــــبراً أو رواية عن الشاعر مروان بن أبي حفصة عندما أنشده المتبي لزهير، فقال: هذا أشعر الناس، ثم أنشده للأعشى فقال: بل هذا أشعر الناس، ثم أنشده لامرىء القيس، فكأنما سمع به غناء على

(١) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٠٠
(٢) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٠٠

بجراب فقال : امرؤ القيس والله أشعر الناس ، وقد أعجب الرافعي بمقولة مروان بن أبي حفصة فقال : « وعندي أن هذا أعظم ما تتميز به شاعرية امرىء القيس ، لأنه دليل الصنعة التي (تبرز على) الطبع ، والطبع الذي يبلغ في سموه مبلغه بالصنعة ، وهو الدليل الذي لو سقط من شعره لسقط بشعره لا محالة »(١) .

ثالثاً — شعر امرىء القيس

ذكر الرافعي أن ما قاله حول شهرة امرئ القيس ليس إلا توطئة لنقد شعره ، وقال إن المتأخرين قد رأوا شهرته قدراً من القدر ، فأخذوا بها ، ولم يعترضوا عليها ، مع أن القدماء كانوا يخطئونه في العروض والنحو والمعاني ، وفي وجوه من التصرف .

ثم تحدث عن معاني شعره ، والتي تطلق عليها أحياناً (الأغراض) أو (الفنون) فقال : « وكل ما يتناوله امرؤ القيس في شعره من المعاني : لا يتجاوز الغزل ، والاستهتار بالنساء ، ووصف الصيد والخمر والطيب والخيل والنوق وحمر الوحش والطلول والجبال والبرق والمطر . أما افتخاره في شعره فقليل جداً ، والحكمة فيه أقل وأكثر جودة ، ومن عيونها قوله :

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ، ولم يغلبك مثل مغلب

وإذا كان الرافعي لم يمثل لهذه المعاني المذكورة ، واكتفى بهذا البيت السابق الذي رأى أنه من عيون الحكمة ، مع أن آثار الصنعة الشعرية فيه بادية ظاهرة ، فإننا لا نعتبر ذلك عقبة في سبيل التعرف على أغراض الشعر ومعانيه في ديوان امرىء القيس . إلا أن هذه المعاني التي ذكرها

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٠١

ليست هي كل ما يشتمل عليها شعره ، فإن له فى الشكوى والتحسر والوعيد والتهديد، ووصف الرحلة، وشعر الحرب والرثاء والمدح والهجاء على اختلاف بين مقدار الأبيات التى قالها أو نسبت إليه فى كل معنى أو غرض من الأغراض السابقة . وربما حانت الفرصة فى فصل آخر للحديث عن كل هذه المعانى والتمثيل لها .

وأكد الرافعى على تفاوت شعر امرىء القيس ، وعلل ذلك بتفاوت الأحوال التى يقول الشعر فيها ، وأنه لم يكن يقصد إلى قول الشعر قصدا إلا فى القليل من الأشعار التى أجاد وبرع فيها، وأوضح ذلك فقال : «وإلا فلا معنى لأن يكون مرة نجما فى السحاب، ومرة حجرا فى التراب. والشاعر الذى يسف إنما يسقط فى طبقات الهواء لا فى طبقات التراب ، ولذلك كان جيد امرىء القيس أجود شىء ، ورديئه أردأ شىء »(١) ونحن ندرك ونوقن أن أكثر شعر هذا الرجل جيد ورائع فى حدود عصره ، وأن القليل من شعره ردىء كطبيعة الأشياء ومنطق الحياة فى أن يجتمع اللونان، بل ويزيد عليهما لون أو أكثر — لكل شاعر ، وإذا كثر الردىء الذى عناه الرافعى فى ديوان امرىء القيس فربما لم يكن من صنيعه بل من وضع الرواة المحترفين . وتكلم عن غزله ، وقال إنه ساقط كله ... لماذا يا رافعى ؟ «لأن استهتاره وتبذله معناه أن يتلطف فى المعانى بما يستلزمه الإبداع فى التعريض والكناية والاكتفاء باللمحة الدالة، فبردت حرارته بذلك التصريح ، وثقل على القلوب »(٢) . ولكنه تراجع وسحب هذا التعميم ، واستثنى من شعره القليل الذى يجىء حسنه من صنعة المعنى لا من المعنى نفسه ، ومثل لذلك ببيتين أولهما قوله :

أغرك منى أن حبك قاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلب يفعل؟

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٠٢

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٠٢

وذكر أن هذا البيت لو دار فى كل أمة لوجد له فى شعرها موضعاً .

وثانى البيتين قوله :

سموت إليها بعد ما نام أهلها   سمو حباب الماء حالاً على حال

وقال إن هذا البيت من مخترعاته ، وإنه أول من طرق هذا المعنى ، وابتكره وسلم الشعراء إليه بذلك .

ثم تكلم عن الوصف ، وقال إن مداره على الاستعارة والتشبيه ، وسوف يأخذ فى الحديث عنهما بطرف فيما بعد .

وعرض لمسألة نقدية خطيرة تتعلق بنحل الشعر البديع ، ويتمثل الهدف لمن يقومون بهذا النحل أن يغضوا من شأن الرواد فى هذا المذهب، ووقع امرؤ القيس ضحية لهذا المنعطف الخطير . وأحب أن أنقل عبارة الرافعى فى هذه المسألة قال : «ولابد لنا هنا من التنبيه على ان الأدباء قد وضعوا أشعاراً من البديع ونحلوها أمرأ القيس ، يقصدون من ذلك إلى الغض من شأن الذين اخترعوا تلك الأنواع حتى يوهموا أنهم سبقوا إليها . أو إقامة الشاهد على بعض ما يتباغضون فيه من مبتذل الشعر»(١).

ومثل لذلك مثالين من كتاب العمدة لابن رشيق : أولهما يتعلق بالمعنى الذى قاله امرؤ القيس فى البيتين التاليين وهما :

لمن طلل دارس آية   أضر به سالف الأحرس

تنكره العين من جانب   ويعرفه شغف الأنفس

وذكر هذين البيتين بعد أن أورد لأبى نواس بيتين آخرين فى نفس المعنى . وقال إن ما نسبوه لامرىء القيس ليس له والتوليد فيه بين .

أما المثال الثانى فيتعلق ببيت للمتنبى ورد فى باب التقطيع والتقسيم بكتاب العمدة لابن رشيق الذى ذكر أنه من قول لامرىء القيس ، أى أن

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٠٢

المتنبي قد سبق إلى ما قاله ، وعقب الرافعي عما ذكره ابن رشيق بقوله: «ومهما تهافت امرؤ القيس ، فلا أراه يسقط على مثل هذا »(١) .

على أن ابن رشيق لم يقتصر على ما ذكره للمتنبي بل أورد أمثلة لشعراء آخرين قال إنها من قول امرىء القيس الذى أكد الرافعي على رفضه(٢) .

رابعا — استعاراته

تحدث الرافعي عن استعارات امرىء القيس معتمدا فيما قاله على كتاب العمدة لابن رشيق، حتى الشواهد التى ذكرها مأخوذة من الكتاب المذكور ، وإن اختلف ترتيبها فى كتاب الرافعي ، وقد ابتدأ هذا البحث عن استعارات امرىء القيس فقال :

« قالوا : إن الاستعارة إنما هى من اتساعهم فى الكلام ، اقتدارا ودالة وليس ضرورة ؛ لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم، وليس ذلك فى لغة أحد من الأمم غيرهم ، فهم إنما استعاروا مجازا واتساعا ، ومرجع ذلك إلى شرح المعنى وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه أو الإشارة اليه بالقليل من اللفظ أو بحسن المعرض الذى يبرز فيه ، تبسطا فى اللغة ، واسترسالا فى طرق التعبير »(٣) .

وتحدث ابن رشيق عن منزلة الاستعارة فقال : «الاستعارة أفضل المجاز وأول أبواب البديع ، وليس فى حلى الشعر أعجب منها ، وهى من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها والناس مختلفون فيها»(٤)

(١) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٠٣

(٢) انظر ابن رشيق : العمدة جـ ٢ ص ٣١

(٣) الرافعي . تاريخ آداب العرب جـ ٣ ص ٢٠٣ — وراجع أكثر هذا الكلام فى ابن رشيق العمدة جـ١ ص ٢٧٤

(٤) ابن رشيق العمدة جـ ١ ص ٢٦٨

ثم نقل مجموعة أقوال فى تفسير الاستعارة للقاضى الجرجانى وابن وكيع وابن جنى والرمانى وغيرهم ، وهى فى مجموعها تكشف عن اختلاف النقاد حول وضع ضوابط للاستعارة .

وليس الغرض من هذا الكلام أن نبسط القول فى شرح هذا الضرب من المجاز ، وإنما نعرض لها من خلال تعليق الرافعى عليها والتمثيل لها من شعر امرىء القيس « فهى التى ميزت شعره ، وقلدت فى جيد الزمان دره وأكسبته شهرة أنه أول من أفلح فى شق هذه الصدفة حتى زعم ابن وكيع (انظر العمدة) أن أول استعارة وقعت فى الكلام قوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازا وناء بكلكل(١)

وذكر ابن رشيق هذه الاستعارة فقال : « فاستعار لليل سدولا يرخيها وهو الستور ، وصلبا يتمطى به ، وأعجازا يردفها وكلكلا ينوء به »(٢) ولعل فى هذا التعاقب ما يؤكد اعتماد الرافعى على ابن رشيق اعتمادا كليا فى هذا الموضوع .

وقد خط الرافعى فى هذين البيتين كلمة موجزة امتدح فيها تشبيه الشاعر الليل بموج البحر : لأنه تشبيه لا أحسن منه ، لما يجيش فيه من الظنون ويتداب من الخواطر ، وذكر أن قول الشاعر أرخى سدوله ذهب بالحسن كله ، وهى عمود الاستعارة فى هذا البيت ، لأن هذا القول منه

---

(١) الرافعى تاريخ آداب العرب جـ ٣ ص ٦٩٣

(٢) ابن رشيق . العمدة جـ ١ ص ٢٧٦

أن الغرض من التشبيه غرض محسوس ، وهو أدنى أنواعه ، وعلل ذلك بأن إرخاء السدول يدل على السكون والحجاب لا أكثر من ذلك ، وصارت كلمة الموج لامعنى لها .

ولا نعتقد أن جمال الاستعارة يتوقف على كونها مبنية على تشبيه محسوس أو غير محسوس ، وإنما اكتمال الصورة الاستعارية لا يتعارض مع اشتمال البحر على الجيشان والقلب الذى تفيده كلمة البحر ، وعلى الهدوء والسكينة اللتين تفيدهما جملة : (أرخى سدوله) . بل إن ذلك أوقع وألطف .

ثم تحدث عن الاستعارة فى البيت الثانى ، وهى قول الشاعر :

لما تمطى بصلبه . . . .

ولا يتفق الرافعى مع النقاد فى كون الاستعارة لوصف طول الليل وإنما أراد ثقل الليل وفتوره وأنه كلما هم أن ينجلى سقط كما يفعل الذى يتمطى ، ثم يردف أعجازه ثم ينوء بكلكله (١)

وانتقل إلى الحديث عن نموذج آخر للاستعارة التى تصرف فيها امرؤ القيس ، وهى التى جاءت فى قوله :

وهر تصيد قلوب الرجال
وأفلت منها ابن عمرو حجر

وذكر أن القدماء نظروا إلى استعارة الصيد مع الهر ، ورأوا أنها مضحكة وهذا ماقاله ابن رشيق ، وأضاف إليه « ولو أن أباه حجرا من

(١) انظر الرافعى تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ١٠٤ .

فارات بيته ما أسف على إفلاته منها هذا الأسف»(١) وقد أكد صاحب العمدة استهجانه لهذه الاستعارة، ووازن بينها وبين استعارة أخرى فى بيت زهير الآتى :

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا
ما كذب الليث عن أقرانه صدقا

وأعجب باستعارة زهير وفضلها على استعارة امرىء القيس، لإن الاصطياد هنا من الليل، وليس من الهر كما هو فى قول شاعرنا.

ورأى الرافعى أن الاستعارة فى بيت امرىء القيس متوسطة، وأن القدماء قد غفلوا عن المعنى الذى قصد إليه، قال: «ولكنهم جهلوا فيها هذا الجهل وكيف يمثله عن مثله؟ والذى أرى أنهم غفلوا عن المعنى الذى قصد إليه، فإن هرا كانت من كلب، وكان امرؤ القيس فى كلب وطيء أيام نفاه أبوه، فهو إنما يتنادر عليه، وإذا خرج البيت على هذا المعنى كانت الاستعاره فيه متوسطة، ولكنها تكون سبباً لكناية من أبلـــغ الكنايات...»(٢)

وأرى أن الشاعر قد ذهب إلى أبعد من مجرد التندر على أبيه، حيث أراد من هر الافتتان بها والوقوع فى حبائلها، وأفات منها حجر بما لها من تأثير ورهبة، تتجاوز بهما حدود هذا الحيوان المسمى بالهر، ولذا كان الانعتاق منها مهما وذا بال، لما لها من تأثير تصيد به قلوب الرجال.

ثم تحدث الرافعى عن استعارة ثالثة لامرىء القيس وهى قوله «قيد الأوابد» والتى كأنما قيد بها شهرته فى هذه الحياة وهى فى بيت من المعلقة سبق أن ذكرناه، وهو قوله :

---

(١) ابن رشيق العمدة جـ١ ص ٧١

(٢) الرافعى تاريخ آداب العرب جـ٣ ص ٢٠٥

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وذكر الرافعى أن المولدين قد حاولوا الإتيان بمثل هذه الاستعارة غير أنها بقيت مفردة ، وعقب على ماتفرد به امرؤ القيس وأتى به فقال : «وهذا وأمثاله مما يدل على فطنة الشاعر وحدة فؤاده ، وأن له من قوة الفطرة مايقوم مقام الصنعة ، وتلك صفات يدل عليها كثير من كلامه ، غير أن امرأ القيس إنما كان مبتدئا فيما ابتدع ، ولذلك لا يمكن أن يؤخذ البديع كله من شعره ، وليس هذا بضائره»(١)

وقد تعاقب فى الإشادة بالاستعارة الأخيرة أكثر المتقدمين ، ورأوا أن امرأ القيس تقدم بها شعراء عصره ، وأنها من مبتكراته التى لا يلحقه فيها أحد .

خامساً : — تشبيهاته

لا أدرى لماذا أخر الرافعى الكلام عن تشبيهات امرىء القيس، وكان من الأنسب أن يتقدم على الحديث عن استعاراته ، فالمعروف أن الاستعارة تشبيه حذف أحد ركنيه ، كما أن تشبيهاته أكثر من استعاراته ، بل إنه — كما سبق أن ذكرنا — أكثر أهل الجاهلية تشبيها .

وقال الرافعى فى حديثه عن تشبيهات امرىء القيس إنه كان شاعرا من شعراء الفطرة ، وإنه لم يعرض شعره على محل تجويد الصنعة ، بل كان حريصا على تقديم شعره من معيار الطبع ، قال : « ثم هو إنما كان شاعرا من شعراء الفطرة ، يعرض للسانه القول كما يعرض لعينه الوحش ، فينطلق كلاهما على نفس واحد يصنع القليل ولا ينقح الجملة ، فكان مايجىء فى كلامه من بدائع الصنعة هو الدليل على فضل قوته التى تغمر فؤاده وتصرفه إلى مشايعة طبيعة اللغة فى النحو ، ولو صرفت تلك القوة

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٦

الى الصنعة التى [يغرق] فيها الكلام من كثرة تقاليبه لكان للكلام فى شعره مذهب آخر ....»(١)

وتكلم عن تشبيهاته ، وبين غرضها فقال : « أما تشبيهاته فهى بجملتها ترمى إلى غرض واحد ، وهو تصوير الحقيقة تصويرا غير ملون ، وله فيها طرائق بديعة هو أول من ابتكرها »(٢) ثم ذكر أربعة تشبيهات لامرىء القيس للتدليل بها على غرض التشبيه فى شعره ، وهذه التشبيهات ليست بغريبة علينا فى هذا الكتاب ، فقد سبق أن بحثناها وتحدثنا عنها فى فصول سابقة ، وبخاصة فيما كتبناه عن كتاب الجمحى تحت عنوان (أحسن الجاهلية تشبيها) ، ولا يحسن أن نكرر هنا ماذكرناه هناك خاصة وأن هذه التشبيهات كانت مادة حية ومتكررة فى كتب القدماء ، وهم يتحدثون عن التشبيه فى ألوانه المتعددة سواء مااختص منها بامرىء القيس أو بغيره من الشعراء .

ولقد توسع القدماء فى الحديث عن هذه التشبيهات ، وبسطوا القول فى خصائصها ولذلك سوف يكون عرضنا لها فى إيجاز شديد وبالطريقة المختصرة التى تحدث عنها الرافعى ، وحتى لا نكرر — كما قلت — ماسبق أن ذكرناه فى الباب السابق .

وأول هذه التشبيهات قول امرىء القيس فى وصف الفرس :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة   وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وهو من تشبيه الإضافة بغير أداة ، وفيه تشبيه أربعة بأربعة ، ولذلك زعم الفرزدق أنه أكمل بيت قالته العرب أو قال أجمع بيت .

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٠٧
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٠٧

وعرض للتشبيه الثانى ، وقال إنه قد جاء مخدجا أى غير تام الأجزاء كقوله فى صفة الفرس :

وأركب فى الروع خيفانة   كسا وجهها سعف منتشر

وقد شبه الفرس بالجرادة التى انسلخت من لونها الأول ، وتحولت إلى الحمرة ، وأراد بذلك وصف الفرس بالخفة ، كما شبه ناصيتها بسعف النخلة .

أما التشبيه الثالث فى قوله :

سموت اليها بعد ما نام أهلها   سمو حباب الماء حالا على حال

وعرض له الرافعى فبدأ بإيضاح معنى (حباب الماء) وقال إنها : إما طرائقه ، والمعنى أنى جئت أتدفع إليها كما يتدفع الماء شيئاً بعد شىء حتى صرت الى ما أريد .

وإما أن يقصد بالحباب الفقاقيع ، وبذلك أراد خفة الوطء وإخفاء الحركة ثم قال : « وكلا المعنيين غاية فى تصوير تلك الحال ، مع اللطف والرقة وبراعة التشبيه »(١) .

ثم أفاض الرافعى فى الحديث عن التشبيه الرابع وهو قول شاعرنا :

كأن قلوب الطير رطباً ويابسا   لدى وكرها العناب والحشف البالى

وذكر أنه قال ذلك يذكر العقاب حين شبه فرسه بها ، وهى من اختراعاته وطرائقه المبتكرة ، ولاشك فى أن الرواة قد أجمعوا على أن هذا أحسن بيت جاء فى تشبيه شيئين بشيئين فى حالين مختلفين .

وسبق أن عرضنا لأقوال القدماء فى بيان هذا التشبيه وإيضاحه ، حيث لم يزد الرافعى شيئا ملحوظا عما قالوه وتوسعوا فيه .

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢١٠

سادسا — تتمة الانتقاد

تحدث الرافعي بكتابه الذي معنا عن جملة وجوه من النقد مستدلا على أكثرها بشعر لامرىء القيس ، ومعتمداً في هذه الوجوه على ما قاله القدماء ، وسوف نعرض لها كما ذكرها الرافعي إذ أنها لا تحتمل بحثا أو تعليقا .

وأول هذه الوجوه أن امرأ القيس أول من فتح باب الاحتراس كقوله :

إذا ركبوا الخيل واستلأموا   تحرقت الأرض واليوم قر

أي واليوم بارد فاحترس ، وشرح الرافعي ذلك فقال : « وكان الاحتراس بالقافية التي هي تمام البيت ، وهذا من أبدع ما يجيء ، لأنه يزيد في تمكين القافية ، ويكسبها عزة لاتكون لكلمة غيرها في البيت بجملته »(١) .

ومنها التتبيع ، وهو من أنواع الإشارة ، وقد شرحه ابن رشيق فقال « أن يريد الشاعر ذكر شيء فيتجاوزه ، ويذكر ما يتبعه في الصفة وينوب عنه في الدلالة عليه ، وأول من أشار إلى ذلك امرؤ القيس يصف المرأة :

ويضحي فتيت المسك ، فوق فراشها
نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فقوله « ويضحي فتيت المسك » تتبيع ، وقوله : « نؤوم الضحى » تتبيع ثان وقوله « لم تنتطق عن تفضل » تتبيع ثالث ، وإنما أراد أن

---

(١) المصدر السابق ا جـ ٣ ص ٢١١ ، ص ٢١٢

يصفها بالترف والنعمة وقلة الامتهان فى الخدمة ، وأنها شريفة مكفية المؤنة ، فجاء بما يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة »(١) .

وإذا رجعنا إلى ماقاله الرافعى فى التتبيع نجده لايختلف فى شىء عما ذكره ابن رشيق ، حتى تأكد لنا أن أكثر هذا الفصل يرجع إلى كتاب العمدة ، ثم تحدث الرافعى عن التمثيل ، واعتمد أيضا على ماقاله ابن رشيق وهو من ضروب الاستعارة ، وذلك بأن تمثل شيئاً بشىء فيه إشارة إليه وامرؤ القيس أول من ابتكره ولم يأت أصلح من قوله فيه :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى
بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وقال ابن رشيق عن هذا البيت : « فمثل عينيها بسهمى الميسر ، يعنى المعلى ، وله سبعة أنصباء ، والرقيب وله ثلاثة أنصباء — فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بهما عينيها ، ومثل قلبه بأعشار الجزور ، فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل »(٢) .

ثم تحدث الرافعى عن الإيغال ، وهو ضرب من المبالغة إلا أنه فى القوافى خاصة لايعدوها ، واعتمد على ابن رشيق أيضا فى بيان أن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى بقوله فى وصف الفرس :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه
تقول هزيز الريح مرت بأثاب

قال ابن رشيق : « فبالغ فى صفته ، وجعله على هذه الصفة بعد أن يجرى شأوين ، ويبتل عطفه بالعرق ، ثم زاد إيغـــالا فى صفته بذكر

(١) ابن رشيق : العمدة جـ ١ ص ٣١٣ ، ص ٣١٤
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٧٧

الأثأب وهو شجر للريح فى أضعاف أغصانه حفيف عظيم، وشدة صوت، ومثل ذلك قوله :

كأن عيون الطير حول خبائنا
وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

فقوله (لم يثقب) إيغال فى التشبيه »(١) .

وذكر ابن رشيق، (واعتمد عليه الرافعى كما هو كائن فى هذا الفصل) أن زهيرا والأعشى قد تبعا امرأ القيس فى هذا الإيغال . وأورد الرافعى بعض الأنواع الأخرى من البديع سوى ما ذكر، مثل الالتفات والتقسيم والمقابلة والغلو ونفى الشيء بإيجابه كقوله :

على لاحب لا يهتدى بمناره

والاتساع، والاشتراك، والإشارة، والإرداف، والترصيع، وجمع المؤتلف والمختلف وغيرها، من غير أن يستدل على ذلك بشعر شاعر معروف قبله أو معاصر له كما صنع القدماء، ولذلك يعدون ما قاله فى ذلك سبقا وابتكارا، ثم ذكر له حسن التخلص، واستشهد عليه من شعره، واستدرك قائلا بأن امرأ القيس اتبع فى تلك الأنواع غيره، كما احتذى فى الغلو قولا للمهلهل . كما اتبع النابغة فى قول له يصف السيوف . على أن المؤلف — وله بعض العذر — لم يستطع أن يفصل بين ما اتبع امرؤ القيس فيه غيره، وبين ما ابتكره وابتدعه على نظام سابق . ثم استرجع الرافعى ما قاله القدماء حول بيت الشاعر :

كأنى لم أركب جوادا للذة
ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٥٧ ، ٥٨ .

ولم أسبأ الزق الروى ، ولم أقــل
لخيلى كرى كرة بعد إجفال

ثم تحدث عن بعض المآخذ فى شعر امرىء القيس . ذكر منها أن له استعانة ضعيفة بالحروف والكلمات كقوله :

ألا رب يوم لك منهن صالح

« وأن له تكراراً قبيحاً فى الألفاظ والمعانى يجىء بها على وجه واحد فى مواضع مختلفة من غير أن يتصرف فى ذلك بمــا يخفى قبح هذا التكرار ... »(١) .

وذكر منها أيضا دخوله فى وجوه المناقضة والإحالة فى بعض الكلام مما يدل على أنه كان يرسله إرسالا كما اتفق ، ولهذا كان يختم قصائده مقتضبا حتى كأن الشعر يقترح عليه اقتراحا . ومنها استعمال الكلام المؤنث فى شعره كقوله :

لك الويلات إنك مرجلى

وهذا ما سبق أن ذمه الباقلانى فى نقده للعلقة ، ثم اختتم الرافعى حديثه عن هذه التتمة بقوله : « أما ما وقع له غير ذلك من اضطراب بعض القوافى وثقل الألفاظ مما يكد لسان الناطق المتحفظ ، فذلك متجاوز عنه بعذر البداوة ، والغريب عندنا مألوف عند أهله »(٢) .

وقد وضح اعتماد الرافعى على غيره من القدماء فى هذا الفصل اعتمادا كليا ، وبخاصة ابن رشيق الذى نقل عنه أكثر الوجوه النقدية والمآخذ البلاغية السابقة .

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب حـ ٣ ص ٢١٦
(٢) المصدر السابق حـ٣ ص ٢١٧

سابعاً — المنازعة بين امرىء القيس وعلقمة

ذكر الرافعي مجموعة من الأقوال التي اقتبسها من كتب القدماء والمحدثين حول المنازعة التي جرت في طيء بين امرىء القيس وعلقمة حيث حكمت بينهما أم جندب (زوج امرىء القيس) في أيهما أشعر من الآخر ، أو في قول علقمة لامرىء القيس : «قل شعراً تمدح فيه فرسك والصيد ، وأقول في مثل ذلك ، وهـذا الحكم بيني وبينك يعني تلك المرأة »(١) .

وبنى نقد أم جندب على بيت امرىء القيس :

فللساق ألهوب وللسوط درة
وللزجر منه وقع أهوج منعب

وبيت علقمة :

فأقبل يهوى ثانيا من عنانه   يمر كمر الرائح المتحلب

وقد شك بعض القدماء في هاتين القصيدتين ، وما دار حولها من تحكيم نقدى لأم جندب ، وصادف هذا الشك هوى في نفوس بعض المعاصرين فرفض القصيدتين والنقد الذي أثير حولها جملة وتفصيلا . ولم يعبأ من انحاز إلى الشك أو الرفض بإسناد الرواية في القصيدتين والنقد المثار حولها إلى راوية ضليع ومشهود له بالأمانة والصدق وهو الأصمعي .

على أن في هـذه الرواية بعض المرغبات في الشك لا في الرفض

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢١٧

وبخاصة فيما يتصل بمقولة أم جندب التي لم تكن منصفة لقصيدة امرىء القيس .

وقد بين الرافعي دوافعها في التحامل فقال : « وما أرى أم جندب إلا أرادت ماتريد الفارك من بعلها ، فقرعت أنفه على حمية ونخوة ، وهي تعلم أنها لا بد مسرحة في زمام هذه الكلمة ... »(١) .

كما أن قصيدة علقمة في جملتها ليست بشيء ، وأكثر ما فيها من ألفاظ بارعة ومعان حسنة مأخوذ من قصيدة امرىء القيس . ونتساءل حول هذه المنازعة وكيف حكمت بينهما أم جندب ، وأنشدكل منهما قصيدته لأول مرة ؟ ونرى التوافق الكبير بين القصيدتين ، أو بمعنى آخر . نرى سطو علقمة على قصيدة امرىء القيس ، ثم تأتي أم جندب لتنصر علقمة على زوجها بالتحامل وعدم النصفة حتى تسرح منه بهذا الأسلوب الذي انكشف لامرىء القيس كما تقول بعض الروايات .

وربما ورد إلى ساحة هذه المنازعة احتمال بأن يكون الشاعران قد أخذا من ثالث ما دام الاتفاق أو التقارب قد وصل بينهما إلى الحد الذي لا يمكن أن يطلق عليه ما يسمى بتوارد الخواطر ، وهذه أيضا تدفع إلى إشكالية أخرى ، فمن هــو هذا الشخص الثالث ؟ وأين شعره ؟

ونأتي إلى آخر هذه المرغبات في الشك وهو «أن أكثر ما في قصيدة امرىء القيس مفرق بألفاظه ومعانيه في قصائد أخرى له ، ومنها أبيات لم يغير منها إلا القافية »(٢) .

---

(١) المصدر السابق جـ٣ ص ٢١٨
(٢) المصدر السابق جـ٣ ص ٢١٩

ولكل ما سبق ارتاب البعض فى هاتين القصيدتين ، والنقد الذى أثير حولها فشك فيهما ، وربما رفضهما ، ورأى آخرون أن رواية الأصمعى تدفع أى شك واتهام حول القصيدتين وما قيل فيهما من نقد ، وذلك للثقة فيه كنا قد وراوية .

وربما عبث الرواة والإخباريون بالقصيدتين ، فغيروا فيهما ، وأضافوا إليهما ، حيث تركت بصماتهم على القصيدتين واضحة جلية مما أسهم فى زيادة القرائن والحجج حول الشك أو الرفض التام ، كما سيأتى فى بعض الفصول الأخرى .

الفصل الثانى

فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين(١)

أصدر الدكتور طه حسين فى عام ١٩٢٦م كتابه (فى الشعر الجاهلى) فثارت حوله ضجة كبيرة عمت أرجاء مصر والعالم العربى ، ثم حذف منه بعض الفصول ، وأضاف إليه بعض الفصول ، وصار عنوانه (فى الأدب الجاهلى) على أن القضية الرئيسية التى شغل طه حسين بها نفسه ، وهى قضية الانتحال لم تتأثر بما حدث للكتاب من تغيير بالحذف والإضافة .

وقد قسم كتابه (فى الأدب الجاهلى) إلى سبعة كتب ، جعل الأول منها للحديث عن الأدب وتاريخه ، تحدث عن درس الأدب فى مصر من خلال بيانه للمذاهب الثلاثة فى تدريسه ، وهى المذهب القديم الذى يتبعه

---

(١) ولد طه حسين فى عام ١٨٨٩ م بإحدى القرى القريبة من مدينة مغاغة بمحافظة المنيا فى صعيد مصر ، وكف بصره وهو صغير ، وحفظ القرآن الكريم ، وتعلم بالأزهر ، والتحق بالجامعة المصرية ، وحصل منها على الدكتوراة فى ذكرى أبى العلاء عام ١٩١٤ م ، ثم سافر إلى فرنسا وحصل على الدكتوراة من السوربون فى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، وترقى فى الوظائف التى شغلها حتى صار وزيراً للمعارف عام ١٩٥٠ م ، وتوفى فى القاهرة عام ١٩٧٣ م . بعد حياة حافلة بالكفاح والنشاط .

ومن بحوثه الأدبية والنقدية : من حديث الشعر والنثر ، مع المتنبى ، فصول فى الأدب والنقد ، مع أبى العلاء فى سجنه ، تجديد ذكرى أبى العلاء . فى الشعر الجاهلى الذى طبع عام ١٩٢٦م ثم غيره الى (فى الأدب الجاهلى) وطبعه عام ١٩٢٧ م ، وغيرها .

الأزهر ، والثانى مذهب المستشرقين الذى يدرسونه فى الجامعة المصرية حسب منهجهم فى تدريس الآداب الأوربية ، أما المذهب الثالث فهو الذى كان قائماً بمدرسة القضاء ودار العلوم ، وفى المدارس الثانوية كلها ، وهو : « مذهب مشـــوه ردىء كله شر ، والخير كل الخير فى أن يصرف عنه الأساتذة والطلاب صرفا » (١) ، وتحدث الدكتور طه حسين عن الإصلاح ورأى أنه يتمثل فى تقريب النصوص من تلاميذ المدارس بأن تحببهم فى قراءتها وتذوقها ، وتحسن لهم اختيارها ، وتنهض بإعداد المعلمين الذين يعلمون اللغة العربية . ثم ذكر رأيه فى عدد من القضايا المتصلة بتاريخ الأدب مثل الثقافة وتعريف الأدب والصلة بين الأدب وتاريخه ، والأدب الإنشائى والأدب الوصفى .

وعقد فصلا فى الكتاب المذكور للحديث عن مقاييس التاريخ الأدبى ، وأعقبه بآخر حول الإجابة عن السؤال الآتى وهو : متى يوجد تاريخ الآداب العربية ؟ . ثم جعل الأخير للكلام عن الحرية والأدب . وبحث قضية الانتحال فى الأدب الجاهلى من خلال عدة كتب وهى (الثانى والثالث والرابع والخامس) حيث أبان فى الثانى عن دوافع شكه فى الشعر الجاهلى ، قال : « ذلك بأن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . ولا أكاد أشك فى أن ما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جداً ، لا يمثل شيئا ، ولا يدل على شىء ، ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى » (٢) .

---

(١) د / طه حسين فى الأدب الجاهلى ص ٧ طبعة دار المعارف بمصر

(٢) المرجع السابق ص ٦٥ .

ومن هذا الكلام السابق يتضح أن الدكتور طه حسين لم يلغ الشعر الجاهلي كله ، ولكنه أبقى على بقية قليلة لا تمثل الصورة الأدبية الصحيحة لهذا الشعر . كما طالب في حديثه عن منهج البحث في الأدب العربي — بأن « ننسى عواطفنا الدينية ، وكل ما يتصل بها ، وأن ننسى ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية ؛ يجب ألا نتقيد بشيء ، ولا نذعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح » (١) .

ثم عاد للحديث عن دوافع شكه في الشعر الجاهلي ، وانتهى إلى أن كثرته المطلقة منحولة بعد ظهور الإسلام . وحصر شكه في الأمور الآتية :

١ — لا يمثل الأدب الجاهلي الحيـــاة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين ، قال : « فإذا أردتُ أن أدرس الحياة الجاهلية فلست أسلك إليها طريق امرىء القيس والنابغة والأعشى وزهير وقس بن ساعدة وأكثم بن صيفي ، لأني لا أثق بما ينسب إليهم ، وإنما أسلك إليها طريقاً أخرى ، وأدرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته أدرسها في القرآن . فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي ، ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه » (٢) .

وقد مضى يفصل الحديث عن كل جانب من جوانب هذه الحياة ، مؤكداً على خلو الشعر الجاهلي من التعرض لهذه الجوانب ، ومؤكداً أيضاً على ما في القرآن من تمثيل للحياة الجاهلية .

٢ — تحدث عن الأدب الجاهلي واللغة ، وذكر أن هذا الأدب لا يصور اللغة الموجودة في جزيرة العرب تصويراً كاملا ، قال : « فهذا

---

(١) المرجع السابق ص ٦٧ . (٢) المرجع السابق ص ٧٠ .

الأدب الذى رأينا أنه لا يمثل الحيـــاة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية فى العقد الذى يزعم الرواة أنه قيل فيه» (١) .

أى أنه لا يمثل اللغة العربية بشقيها الجنوبى والشمالى ، حيث يضيف إلى الجنوبيين (القحطانيين) أشعاراً بلغة الشماليين (العدنانيين) . وأكد على ما بين هاتين اللغتين من فروق أثبتها البحث الحديث ، وقال : «ونحن بإزاء لغتين : إحداهما كانت قائمة فى الشمال وهى التى نريد أن نؤرخ آدابها ، والأخرى كانت قائمة فى الجنوب ، وهى التى تمثلها النصوص الحجرية والسبئية والحميرية . ونحن لا نسرف ولا نشتط حين ننكر ما يضاف إلى أهل الجنوب من إشـــعر وسجع ونثر قيل بلغة أهل الشمال قبل الإسلام» (٢) .

٣ — بين أن الشعر الجاهلى لا يمثل لهجات القبائل العدنانية ، واستشهد على ذلك بالقصائد المشهورة فقال : «تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشىء يشبه أن يكون اختلافاً فى اللهجة أو تباعداً فى اللغة أو تبايناً فى مذهب الكلام ...(٣) فى حين أن هذه اللهجات تمثلها قراءات القرآن الكريم .

٤ — جعل الدكتور طه حسين — من دوافع شكه — حرص العلماء على الاستشهاد بالشعر الجاهلى على ألفاظ القرآن . قال : «نلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هـذا الشعر الجاهلى مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث ونحوهما ، ومذاهبهما الكلامية . ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون فى ذلك مشقة وعسراً ، حتى إنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلى

(١) المرجع السابق ص ٨٠ . (٢) المرجع السابق ص ٩٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٩٣ ، ص ٩٤ .

إنما قد على قد القرآن والحديث كما يقد الثوب على قد لابسه لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولا وسعة ... »(١).

وختم هذا الكتاب بالتأكيد على شكه فى هذا الشعر الذى رأى أنه لا يمثل حياة العرب الجاهليين ، ولا يمثل لغتهم ، وأنه قد وضع وضعا ، وحمل على أصحابه بعد الإسلام ، ويصل إلى الكتاب الثالث الذى بسط فيه القول عن أسباب الانتحال ، مؤكداً أن هذا النحل ليس مقصوراً على العرب ، وأنه شمل الأمم القديمة كاليونانية والرومانية ، وأرجع أسباب النحل إلى السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة ، ولم يقصد من السياسة ما نفهمه منها الآن ، وإنما أراد بها العصبية القبلية التى لعبت دوراً كبيراً فيما كان بين قريش والأنصار من عداء، حيث أضافت قريش نفسها أشعاراً توجهت بها إلى هجاء الأنصار . على أنه قد استشهد على كلامه بشعر إسلامى ، ولم يذكر تأثير هذا السبب فى الشعر الجاهلى .

وتحدث عن الدين ، ومثل له بما قيل من شعر قبل البعثة تبشيراً بالنبى ﷺ ، قال : « وأنت تستطيع أن تحمل على هذا كل ما يروى من هذا الشعر الذى قيل فى الجاهلية ممهداً لبعثة النبى ، وكل ما يتصل بها من هذه الأخبار والأساطير التى تروى لتقنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم وأحبار اليهود ورهبان النصارى كانوا ينتظرون بعثة نبى عربى يخرج من قريش أو مكة ... »(٢).

ومثل لذلك أيضا — بما أضيف الى الجاهليين من عرب الجن وإلى الأمم القديمة السائدة مثل عاد وثمود ، وإلى شعراء اليهود والنصارى ، مع عدم ظهور أى أثر للديانتين اليهودية والمسيحية فى هذا الشعر .

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٨ (٢) المرجع السابق ص ١٣٣

وجعل القصص سبباً ثالثاً للانتحال حيث رفض كل ما يرويه عن أخبار اليمن فى العصور القديمة مثل سيل العرم ، وأخبار الكهان ، وقد رفض كل ما يروى عن أيام العرب وحروبها وخصوماتها فإن لم يكن كل ذلك موضوعاً فإن الكثرة المطلقة منه موضوعة من غير شك . كما ارتاب فى كل ما يروى من أخبار وأشعار تتصل بعلاقات العرب بالأمم الأخرى قبل الإسلام مثل علاقاتهم بالفرس واليهود والحبشة ، قال : « ومن هنا نستطيع أن نقول مطمئنين إن مؤرخ الآداب العربية خليق أن يقف موقف الشك — إن لم يقف موقف الإنكار الصريح — أمام هذا الشعر الذى يضاف الى الجاهليين ، والذى هو فى حقيقة الأمر تفسير أو تزيين لقصة من القصص أو توضيح لاسم من الأسماء ، أو شرح لمثل من الأمثال »(١) .

ولعلنا إذا رجعنا إلى كلام ابن سلام لتكشف لنا تحذيره من مرويات ابن إسحاق وأضرابه ، ولكن القضية عنده لم تبحث بهذه الجرأة أو بهذه الشمولية التى ذكرها طه حسين ، وكأن النحل قد شمل القصاص والرواة جميعاً .

وتحدث عميد الأدب العربى عن تأثير الشعوبية فى نحل الشعر كملمح ظاهر للخصومة بين العرب والموالى ، حيث نحل الشعوبيون أشعاراً وأخباراً كثيرة ، وأضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين ، وأجبروا بذلك خصومهم على النحل والإسراف فيه . ولم يذكر مثالا واحداً على ما قاله الموالى فى هجاء العرب ، وإن أحال على الأغانى وغيره من الكتب .

وتكلم عن آخر سبب للانتحال وهو الرواة حيث تعرض لمجونهم وإسرافهم فى اللهو والعبث ، وإنصرافهم عن قواعد الدين والأخلاق ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٩

ومثل لهذه الطائفة بحماد الراوية وخلف الأحمر وأبي عمرو الشيباني الذين كانوا ينحلون الأشعار ويتكسبون بالروايات .

وجعل الكتاب الرابع للشك في بعض الشعراء الجاهليين من اليمن وربيعة ، أما بالنسبة لليمن فقد قال : « لم يكن لليمن في الجاهلية إذن شعراء ، وما كان ينبغي أن يكون لها شعراء ، لأنها لم تكن تتكلم العربية ولا تلم بها إلماما يكفي لأن تتخذها لغة الشعر » (١) .

ثم قال عن شعر ربيعة : « أما ربيعة فحظها من الشعر والشعراء في الجاهلية أقل من حظ المضريين ، ولكنه أكثر من حظ اليمن ؛ فالرواة يسمون لربيعة شعراء فحولا في الجاهلية ، ولكنهم لا يرون لهؤلاء الشعراء الفحول إلا شيئا قليلا من الشعر ، نحن مضطرون إلى رفضه .... » (٢) .

وقد شك في شعر امرىء القيس وعبيد بن الأبرص وعلقمة الفحل وعمرو بن قيئة والمهلهل ، وجليلة بنت مرة ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث ابن حلزة ، وطرفه بن العبد ، والمتلمس والأعشى ، وأكثرهم من ربيعة .

ثم تحدث في الكتاب الخامس عن شعر مضر ، وحاول أن يتخذ منه مقياسا تعرف به صحة الشعر الجاهلي ، وحسب تقويمه لذلك في الكتاب السابق عندما ذكر شعر مضر ، قال : « فأما مضر فقد كان لها في الجاهلية شعراء ومن قبائل مختلفة منها في قيس وتميم وضبة وغيرها . وكان هؤلاء الشعراء يتخذون الشعر صناعة وفنا ، وكان كل شيء يدل على أن هؤلاء الشعراء يمثلون نهضة عقلية فنية في هذا الإقليم من جزيرة العرب » (٣) .

---

(١) المرجع السابق ص١١٤ (٢) المرجع السابق ص١٩١
(٣) المرجع السابق ص ١٩٢

لقد حاول — كما ذكرت — أن يتخذ من شعر مضر مقياساً للحكم به على صحة الشعر ، مستبعداً السند من هذا المقياس ، ومتخذاً من الخصائص الفنية للنص التي يشترك فيها جماعة الشعراء أساساً لمعرفة الشعر الصحيح ، ومثل لذلك بمدرسة أوس بن حجر وتلاميذه .

وجعل الكتاب السادس للحديث عن بعض الأمور المتعلقة بالشعر، كتعريفه وموقف المعاصرين منه ، ونوعه وفنونه وبحوره . ثم تحدث في الكتاب الأخير عن النثر الجاهلي ، ورأى أن حظه من الفساد والنحل لا يقل عن حظ الشعر ، وأن الموجود منه لا قيمة له ولا غناء فيه .

الانتحال

لقد وضح من العرض السابق أن كتاب الدكتور طه حسين في مجموعه يدور حول قضية الانتحال التي بسط فيها كل حججه وبراهينه . ولعلي قد حرصت في الصفحات السابقة على أن أستشهد بقدر كبير من أقواله التي يصعب تلخيصها بصورة قريبة من الجو الذي يشيعه في النص سواء من ناحية التكرار المتعمد ، والإلحاح على تأكيد المعنى أو من ناحية التهكم والسخرية ، أو من ناحية الاستدلال وبسط الحجة ، أو من ناحية الاكتفاء ببعض الأدلة والروايات ، ما دامت في صالح القضية التي يدعو إليها .

والمؤكد أن كثيراً مما قاله حول الانتحال قد عرض له القدماء ، وأفاضوا في الحديث عنه ، كما ذكرنا ذلك في حديثنا عن ابن سلام الذي كشف عن أسباب النحل أو الوضع ، وأرجعها إلى القبائل والرواة ، ولكن الرواة لم يذهبوا في حديثهم عن النحل إلى حد الشك في مجموع الشعر الجاهلي . وإذا كانوا قد نصوا على الرواة الوضاعين فإنهم أبانوا

عن فريق آخر من الموثوق فيهم ، والذين إذا اتفقوا على أمر فليس لأحد أن يخرج عليه ، وكأنهم قد وضعوا بذلك حدا لفوضى الشك فى الشعر الجاهلى . أما طه حسين فقد أهمل الرواة إهمالا تاماً ، ولم يعتد برواياتهم ولا بشهاداتهم ولو كان الراوى معروفا بالأمانة والصدق ، ولكنه قبل رواياتهم إذا ذكروها للتشكيك فى الشعراء ، أو توهموا بها على الرواة الوضاعين ، أو تنازعوا حول رواية قصيرة تنسب لأكثر من شخص ، فى حديثه عن مالك بن الريب التميمى ذكر قصيدته التى أولها :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بجنب الغضى أزجى القلاص النواجيا

وعقب عليها فى هامش الكتاب فقال : « ويقول أبو عبيدة إن الذى قاله ثلاثة عشر بيتا ، والباقى منحول ولده الناس عليه » (١) .

وقد بدأ بعض المستشرقين فى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا البحث فى قضية الانتحال ، فقد عرض المستشرق (نولدكه) فى سنة ١٨٦٤ م للشكوك التى أثيرت حول هـــذا الشعر . وبعد ثمانى سنوات — كما يقول بلاشير : « تناول المستشرق (آهلوارد) المسألة بدوره دون أى تجديد فيها فعرضها بدقة لم يتوصل إليها سلفه » (٢)

وذكر ذلك وعرضه فى مقدمة كتاب دواوين الشعراء الستة الجاهليين .

---

(١) طه حسين . هامش كتاب (فى الأدب الجاهلى) ص١٨٦

(٢) بلاشير . تاريخ الأدب العربى ص١٩٧ دار الفكر بدمشق الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ (١٩٨٤ م) .

وقد شايع جماعة من المستشرقين أمثال (موير وباسيه وليال وبركلمان) طوال ثلاثين سنة (نولدكه وأهلوارد) في موقفهما الحذر • (١) .

ومن خلال ما كتبه جيمس ليال في مقدمة الجزء الثاني من المفضليات، وفي مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص يتضح موقفه المتحمس في الدفاع عن الشعر الجاهلي حيث رد على الكتابات الأولى لمرجليوث التي هاجم فيها هذا الشعر . ويذكر ليال أن الذين وضعوا هذا الشعر على فرض التسليم بذلك ... « كانوا يحاكون نماذج سابقة وتقاليد أدبية موروثة قلدوها وحاكوها . ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه إذ لا يمكن أن يحاكوا شيئا لم يبق منه ما يتيح لهم هذه المحاكاة، وإذن فلابد أن يكون هناك شعر جاهلي عرفه الإسلاميون ، وحاكوه وهنا دخله انتحال أمثال حماد وخلف ، ولكن وراء انتحالهم شعر صحيح ، ينبغي أن نهتدي في معرفته بالرواية الوثيقة ، وصفاته الشخصية والأسلوبية المميزة» (٢) .

وبقي الأمر على ذلك إلى أن جاءت سنة ١٩٢٥ م فنشر مرجليوث بحثاله بعنوان (أصول الشعر العربي) نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد يوليو سنة ١٩٢٥ م « رجح فيه أن هذا الشعر الذي نقرءوه على أنه شعر جاهلي إنما نظم في العصور الإسلامية ، ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيفون لشعراء جاهليين » (٣) .

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٩٨

(٢) د / طـــه حسين . تاريخ الأدب الجاهلي (العصر الجاهلي) ص ١٦٧ ، ١٦٨

(٣) د / ناصر الدين الأسد . مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٥٣ دار. دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة عام ١٩٧٨ م .

كما عرض بلاشير لقضية الانتحال ، وذكر مقالة مرجليوث وكتاب طه حسين ، وتحدث عن رأيه الذى كان متموجاً إلى حد كبير بين الشك فى جملة الشعر وقبول قدر منه، وكشف عن العجز التــام فى التعرف على الدلائل التى تميز بين الصحيح والفاسد .

أما فيما يتصل بمقالة مرجليوث فقد تكلم عنها الدكتور ناصر الدين الأسد بإفاضة من خلال حديثه عن الوضع والنحل فى الشعر الجاهلى ، وناقش الأدلة التى استند عليها مرجليوث ، وذكر من ردوا عليه من المستشرقين .

وبحث مصطفى صادق الرافعى هذه القضية فى كتابه (تاريخ آداب العرب) الذى نشره عام ١٩١١ م ، واعتمد فى بحثه على سرد آراء القدماء من غير استقصاء طويل لها ، وتمحيص فيها ؛ ليميز زائفها من صحيحها ، وأقر ببعض الوضع الذى لحق شعر الشواهد النحوية والكلامية ، ورأى أن الكوفيين أكثر الناس وضعاً للأشعار ، لحاجتهم إليها فى اعتبارها أصولا يقاس عليها .

ورأى — مثل القدماء — أن الرواة أحد الأسباب لوضع الشعر ، ومثل لهم باثنين وهما : حماد وخلف الأحمر .

ثم جاء طه حسين فبحث الانتحال من جميع جوانبه، وبالغ فى رؤيته، واعتمد على بعض الروايات التى تخدم منهجه .

وقد وفق فى عرض وجهة نظره إلى حد كبير — بصرف النظر عن المنهج الذى تعسف فيـه كثيراً — كما أنه لم يهدم الشعر الجاهلى كله مثل مرجليوث ، بل أبقى على القليل منه الذى أرجعه إلى شعراء مضر بينما رفض معظم شعر ربيعة ، ولم يقبل من شعراء اليمن إلا امرىء القيس الذى سنعرض لحديثه عنه بالتفصيل .

وقد تصدى للرد على طه حسين جماعة من الأدباء والباحثين مثل محمد فريد وجدى فى كتابه (نقد كتاب الشعر الجاهلى) ومحمد لطفى جمعة فى كتابه (الشهاب الراصد) والسيد محمد الخضر حسين فى كتابه (نقض كتاب فى الشعر الجاهلى) ، ومحمد الخضرى فى كتابه (محاضرات فى بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التى اشتمل عليها كتاب فى الشعر الجاهلى) ومحمد أحمد الغمراوى فى كتابه (النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى) ومصطفى صادق الرافعى فى بعض الفصول من كتابه (تحت راية القرآن) .

وهكذا كثر الحديث عن الانتحال عند القدماء والمحدثين من مستشرقين وعرب ، وكتبت حوله أبحاث عديدة فوق ما ذكرنا ، على أن كلام الدكتور طه حسين عن امرىء القيس لا يمكن فصله عن قضية الوضع فى الشعر الجاهلى ، إذ أنه لم يذكره مع غيره من الشعراء إلا ليؤكد نظريته فى الشك فى هذا الشعر .

ويمكن أن تصل بحكمها على الشعر الجاهلى إلى الأخذ بما قاله القدماء ، وبما بسطه الرافعى من حيث وجود قدر من التحــل الذى لا يمكن التعرف عليه بيسر وسهولة والذى تختلف أسبابه وبواعثه ، لكن الشك فى هذا القدر من النحل لا يدفعنا إلى رفض الشعر الجاهلى كله كما قال مرجليوث أو الشك فى معظمه كما قال الدكتور طه حسين ، وإنما نقر بوجود شعر منحول ظهر أثره واضحا فى كثير من الروايات والقصائد الموضوعة ، ويمكن الأخذ بما فى علم الحديث النبوى من نقد للسند والمتن فى بيان الزائف والصحيح من الشعر ، فضلا عن بعض المعايير الأخرى التى يستهدى بها فى نقده وتمييزه .

امرؤ القيس

لقد رفض الدكتور طه حسين شعر اليمن فى الجاهلية ، لاختلاف لغتهم عن لغة قريش التى جاء الشعر الجاهلى بها ، ونزل القرآن الكريم بلهجتها ، خاصة وأن بعض الشعراء اليمانيين لم يهاجروا إلى الشمال . ولم يستوطنوا نجدا أو الحجاز، كما لم يظهر أى أثر للغة قريش فى النقوش التى تركوها ، وتم اكتشافها بما يتيح تعرفهم على هذه اللغة فى الجنوب ، كما استبعد أن يكون لليمن لغتان :

إحداهما : تتخذ فى الكلام والحوار وكتابة التاريخ ، وتخليد المآثر على العمارات والأبنية وغيرها ، وتتخذ الأخرى للشعر والنثر .

لكن هذا الرفض لشعراء اليمن لم يكن عاماً ، فقد استثنى منهم امرأ القيس ، ونبه على ذلك فى أكثر من موضع ، فى حديثه عن الشعر اليمنى القديم ذكر عدة نماذج لشعراء قال إنهم عاصروا إسماعيل بن إبراهيم أو عاصروا أبناءه الأدنين مستبعداً أن توغل لغة قريش فى القدم إلى هذا الحد ، وأضاف إليها بعض النماذج الأخرى ، والتى قال عنها إنها لشعراء من اليمن فى حين أن بعضها لشعراء إسلاميين أو لشعراء هاجروا إلى الشمال واستوطنوا نجدا ، وبعد أن ذكر هذه النماذج ونبه إلى ما فيها من سوء النظم وضعف اللفظ قال . « ومن غريب الأمر أنك تحصى شعراء اليمن هؤلاء ، وتقرأ ما يضاف إليهم من الشعر ، فتراه كله على هذا النحو من السهولة والسخف واللين والإضطراب لا تستثنى منه إلا ما يضاف إلى امرىء القيس »(١) .

وألح على هذه الحقيقة فقال . « فحظ اليمن من هؤلاء الشعراء قليل

---

(١) د/ طه حسين ، فى الأدب الجاهلى ص١٨٤

أو قل لا يكاد يوجد ، فليس لنا فى الجاهلية شاعر إلا امرؤ القيس ، وسترى رأينا فيه »(١) .

وأكد فى نهاية حديثه عن شعراء اليمن عدم رفضه لشعر امرىء القيس وإن علق ذلك بالوقوف عنده وقفات ، قال : « ... نرفض فى غير تردد كل ما يضاف إلى اليمن وأهلها من شعر ، ولكنا لا نستطيع أن نرفض شعر هذا الرجل الذى اعتدت به اليمانية واتخذته لها فخراً ، والذى اعتدت به العرب كلها فى عصر من العصور ، حتى اختلفت فى أنه أكبر شعراء العصر الجاهلى ، وهو امرؤ القيس — نقول : لا نستطيع أن نرفض شعر هذا الرجل جملة دون أن نقف عنده وقفه خاصة »(٢).

وعقد عدة فصول للحديث عن بعض الشعراء الجاهليين ، وبدأ بامرىء القيس مبينا رأيه فى نسبه وحياته وشعره .

أولا — نسبه وحياته

ذكر طه حسين فى حديثه عن امرىء القيس اختلاف الرواة فى اسمه ولقبه وكنيته واسم أبيه واسم أمه ، ونسب قبيلته وتفسير اسمها وأخبار رجالها ، غير أنهم متفقون على أنها قبيلة يمانية ، وأن امرأ القيس واحد منها .

قال : « فقد كان اسمه امرأ القيس ، وقد كان اسمه حندجا ، وقد كان اسمه قيساً ، وقد كان اسم أبيه عمراً وقد كان اسم أبيه حجراً أيضاً وكان اسم أمه فاطمة بنت ربيعة أخت مهلهل وكليب ، وكان اسم أمه تملك

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٠
(٢) المرجع السابق ص ١٩٤

وكان امرؤ القيس يعرف بأبي وهب وكان يعرف بأبي الحارث، ولم يكن له ولد ذكر ، وكان يعد بناته جميعاً ، وكانت له ابنة يقال لها هند ، ولم تكن هند ابنته ، وإنما كانت بنت أبيه ، وكان يعرف بالملك الضليل وكان يعرف بذي القروح»(١) .

ثم بين ما اتفق عليه أكثر الرواة حول اسمه ولقبه وكنيته واسم أمه ، ولكنه عاد فرفض رؤية هذه الكثرة .

وقد تناقل الرواة والإخباريون هذه الأقوال التي ذكرها طه حسين ، فيما يخص امرأ القيس ، وهي مختلفة فيما بينها ، وأغلب الظن أن ذلك راجع إلى الاعتماد على الرواية في العصر الجاهلي ، ولم تستعمل الكتابة في تدوين الشعر والتأريخ للشعراء إلا قليلا أو نادراً.

وكان بعض الرواة في الجاهلية والإسلام تستهويهم الأخبار والقصص ، فينسخون بعضها ، أو يعتمدون على بعض المواقف التي تتصل بحياة الشاعر ، فيضيفون إليها من خيالهم أو من خيال غيرهم . على أن الباحث المنصف يستطيع أن يصل بعد تمحيصه للأخبار والروايات إلى قبول ما اتفقت عليه الكثرة وهو الذي يمكن أن يكون صحيحاً أو قريباً من الصحة .

أما ماعدا ذلك فيجب طرحه وإهماله ، وإلا فما القيمة لاسم أضافه بعض المتأخرين لامرىء القيس قد يكون إثباته راجعاً إلى سهو من الرواة أو ممن كانوا ينسخون المؤلفات في العصور التالية أما طه حسين فقد رفض رأى الكثرة ، ورأى أنه مضطر إلى قبول كل ما يقال .

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٥ ، ص ١٩٦

وإذا جارينا عميد الأدب العربي في وجهته وسلمنا له بما قال حول عدم قناعته بآراء الكثرة لكان علينا ألا نثق في شيء أبداً ، وذلك أن الناس — حتى في عصرنا الحاضر — عصر الطباعة والتصوير يختلفون في أشياء كثيرة تتصل بحياة الأدباء والأعيان والمشاهير . فيكفي أن تقرأ مجموعة من الكتب عن واحد من هؤلاء حتى ترى الاختلاف بينا والآراء متضاربة، فما بالك بعصر الرواة الذين عرف بعضهم بالكذب والتلفيق ، أو بعصر النسخ الذي اعتمد فيه على جماعة من الكتاب ممن كانوا ينسخون المؤلفات ويفتقدون الأمانة العلمية في ضبط الأعلام وتصحيح الأسماء ، ونقل النصوص إلى غير ذلك من الأمور التي ظهر أثرها واضحاً في الفرق بين نسخ الكتاب الواحد : « ولقد رووا أن كيسان مستملي أبي عبيدة كان يكتب غير ما يسمع ، ويقرأ غير ما يكتب ، ويفهم غير ما يقرأ »(١) ولماذا لا نسلم — بعد ذلك — بقدر من التحريف أو التضارب الذي صاحب رحلة الشعر والشعراء عبر العصور .

وإذا رجعنا إلى ما كتبه أبو الفرج عن امرىء القيس رأيناه يذكر اختا للشاعر واسمها هند : ثم يهملها ويجعل هنداً بنت الشاعر في الترجمة نفسها مما حدا بنا للقول أنها أخته وليست بنته أو نقول هنا كما قال الدكتور طه حسين بأنها بنت أبيه حسب كلامه السابق .

ولقد أراد الدكتور طه حسين أن يدفع باحتمال يقوى به وجهته نحو القصص والروايات التي تتصل بحياة امرىء القيس في العصر الإسلامي فذكر أن حياة هذا الشاعر كانت تمثيلا لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي الذي قتـل في زمن ولاية الحجاج على العراق وخراسان

---

(١) مصطفى صادق الرافعي . تحت راية القرآن ص ١٠٦ نشر دار الكتاب العربي الطبعة السابعة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) بيروت .

وسجستان . ووضعها القصاص إشادة بذكر قبيلة كندة . وأورد لذلك بعضاً من تاريخ كندة فى القرن الأول الهجرى وتحدث عن وفد كندة . الذى جاء إلى النبى ﷺ وفيه الأشعث بن قيس ، وعن ردة هذه القبيلة عن الإسلام فى عهد أبى بكر ، ورجوعها إلى الإسلام بعد حصارها فى النجير ، ثم ذكر وفدها الذى جاء قسراً إلى أبى بكر وفيهم الأشعث الذى تزوج بأم فروة أخت الصديق ، وعاش بالمدينة ، وشارك فى حرب الفتوح الإسلامية ، كما كان ابنه محمد بن الأشعث سيداً من سادات الكوفة ، واعتمد عليه زياد فى أخذ حجر بن عدى الكندى الذى قتله معاوية فى نفر من أصحابه ، مما ترك أثراً قوياً فى نفوس المسلمين واليمنيين خاصة .

وتحدث عن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذى ثار على الحجاج ، وخلع عبد الملك ، وعرض ملك آل مروان للزوال ، وأن القتلى بسببه يبلغون عشرات الألوف . وقد تنقل فى مدن فارس ، وغدر به ملك الترك ، وبعث به إلى الحجاج فقتل نفسه فى الطريق إلى العراق . وسواء أكانت حياة عبد الرحمن بن الأشعث على هذه الصورة ، أو أنها تختلف عن ذلك بعض الاختلاف كما ذكر البعض(١) فإن تفاصيل هذه الحياة حسب ما ذكرها الدكتور طه حسين تختلف عن حياة امرىء القيس اختلافاً كثيراً فحجر ابن عدى الذى قال إن ابن الأشعث قد ثار للانتقام له لا يلتقى معه إلا فى الأب الخامس ، وأن حكاية قتل معاوية له قد مر عليها قرابة ثلاثين عاما

ونتساءل : كيف يعتمد زياد على (محمد بن الأشعث) فى أخذ حجر

(١) انظر كتاب محمد الخضر حسين (نقض كتاب فى الشعر الجاهلى) ص ٢٩٨ المكتبة العلمية بيروت

ابن عدى تمهيداً لقتله ، ثم يخرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث للثأر لحجر على أن كل ماذكره من تمثيل تاريخ امرىء القيس لحيـــاة ابن الأشعث لا يتجاوز الشبه إلى التمثيل الكامل كما قال :

«وقصة امرىء القيس بنوع خاص تشبه من وجوه كثيرة حياة عبد الرحمن ابن الأشعث»(١)

وإذا كان الدكتور طه حسين يفترض أو يرجح أن حياة امرىء القيس ليست إلا لوناً من التمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث فإنه لم يذكر خبراً أو رواية عن القدماء يرجح بها هذا الاحتمال ، واكتفى بهذا الربط الضعيف أو الشبه الواهى بين هاتين الشخصيتين ، على أن هـذا التكلف والادعاء بنحل اليمنيين لهذه القصص والروايات التى تتصل بحياة امرىء القيس تمثيلا لحياة ابن الأشعث لا تقوى الحجة التى يذهب إليها ، ولا يتوافق تقديمها أو الاستشهاد بها فى المنهج الذى اتبعه طه حسين فى حياته العملية والعلمية .

وإذا كان رأيه الذى أعلنه وألح عليه فى أكثر من موضع مبنياً على نحل هذا القصص المتصل بحياة امرىء القس فى العصر الإسلامى ، فلن يقوى هذا الرأى قوله بأن حياة امرىء القيس تشبه تاريخ ابن الأشعث. وأن اليمنيين قد وضعوا هذه الروايات فى العصر الإسلامى .

---

(١) طه حسين ، فى الأدب الجاهلى ص ١٩٨

ثانياً — الشك فى شعره

تحدث الدكتور طه حسين عن شعر امرىء القيس ، فذكر أنه ينقسم إلى قسمين :

أحدهما يتصل بالقصة التى تقدمت الإشارة إليها ، وهى قصة عبد الرحمن بن الأشعث ، ورأى أن هذا القسم ليس جاهليا . وإنما هو إسلامى نحل لتفسيرها أو تسجيلها ، ولتمثيل التنافس القوى الذى كان قائماً بين قبائل العرب فى الكوفة والبصرة ، وللأسباب التى ذكرها فى وضع الشعر .

أما القسم الثانى وهو الشعر الذى لا يتصل بهذه القصة ، وإنما يشمل فنوناً أخرى من القول مستقلة عن الأهواء السياسية والحزبية ، فقد أرجأ القول فيه لحين الانتهاء من القسم الأول . وعاد للحديث عن شخصية امرىء القيس وما اتصل بها من الشعر القصصى الذى شك فيه ووصفه بالنحل فى العصر الإسلامى وعقد مشابهة بين شخصية امرىء القيس وشخصية الشاعر اليونانى (هوميروس) . فمؤرخو الآداب اليونانية لا يشكون فى أن هذه الشخصية قد وجدت حقا ، « وأثرت فى الشعر القصصى حقا ، وكان تأثيرها قويا باقياً ، ولكنهم لا يعرفون من أمرها شيئاً يمكن الاطمئنان إليه ، وإنما ينظرون إلى هذه الأحاديث التى تروى عنه ، كما كانوا ينظرون إلى القصص والأساطير لا أكثر ولا أقل »(١) وحكم على شخصية امرىء القيس بهذا المقياس . ورأى أنه الملك الضليل حقا الذى لا يعرف عنه شىء يمكن الاطمئنان إليه ، ورفض الشعر الذى قاله أثناء تنقله بين القبائل ، لأن شيئاً مثل هذا قد لوحظ فى حياة (هوميروس) إذ تنقل بين المدن اليونانية ، ولقى الإكرام من بعضها . ولقى الإعراض من بعضها الآخر .

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٩

وفسر مؤرخو الآداب ذلك بأنه مظهر من مظاهر التنافس بين المدن اليونانية ، ووجد ما يشبه هذا فى تاريخ امرىء القيس . فاستشهد بما ذكره صاحب الأغانى من أن دارم بن عقال من ولد السموءل قد انتحل امرأ القيس القصيدة القافية التى أضافوها إليه .

وإذا كنت أقنع كثيراً بقدرة الدكتور طه حسين على بسط حجته ، وشرح وجهة نظره — بصرف النظر عن قبولها أو رفضها — لكننى أجد نفسى غير مقتنع هنا برفضه لشعر امرىء القيس الذى قاله أثناء تنقله بين القبائل ، لا لشىء إلا لأن (هوميروس) الشاعر الإغريقى الكبير قد تجول بين المدن اليونانية ، ولقى من بعضها الاحترام ، ولقى من بعضها الآخر الإعراض ، ولأن المؤرخين قد ارتابوا فى هذا الشعر الذى قاله أثناء تجواله فى المدن اليونانية ، ولذلك فهو يذهب هذا المذهب فى تفسير الشعر الذى قاله امرؤ القيس أثناء تنقله بين القبائل العربية . ولا أعتقد أن هذه المقارنة يمكن أن تكون دليلا أو حجة يستند إليها طه حسين فى رفضه لشعر امرىء القيس المذكور . إذ لا يختلف الناس حول مقياس القبول والرفض الذى يرجع إلى الرواة (السند) وإلى النص (المتن) .

وإذا كان اليونانيون قد شكوا حقاً فى شخصية (هوميروس) وشعره ، فليس بلازم أن نشك نحن فى شخصية امرىء القيس وشعره إلى المستوى الذى رآه طه حسين . أى أن الرفض لهذا الشعر جاء على غير أساس . على أن العلماء قد نقدوا هذا الشعر ، ونفوا قسما منه . وقالوا : إنه محمول على الشاعر ، مثل تلك القصيدة التى قال أبو الفرج إن دارم بن عقال قد أضافها إلى امرىء القيس يمتدح بها السموءل . ووجد طه حسين فيما ذكره أبو الفرج صيداً ثميناً ، فأقبل على روايته ، واستشهد به ، وأضاف إليه .

فقال : « وأكبر ظننا أن دارم بن عقال لم ينتحل القصيدة وحدها ،

وإنما نحل القصيدة كلها ، ونحل ما يتصل بها أيضاً : نحل قصة ابن السموءل الذى قتل بمنظر من أبيه حين أبى تسليم أسلحة امرىء القيس ، ونحل قصة الأعشى الذى استجار بشريح بن السموءل ...»(١) .

وأعجب من طه حسين كيف يقبل رواية أبى الفرج حينما ينفى قصيدة عن امرىء القيس ، ولا يقبل روايته حينما يحدثنا عن شعر امرىء القيس الذى قاله أثناء تنقله بين القبائل لحثها على معاونته فى الثأر لأبيه ، ولخوفه من خصومه وأعدائه الذين كانوا يتعقبونه ويحاولون الفتك به ، والقضاء على بقايا كندة فى وسط الجزيرة العربية وشمالها .

ولقد استثمر طه حسين مقولة أبى الفرج فى القصيدة التى نحلها ولد السموءل امرأ القيس ، وقال إن نحل هذه القصة كان سبباً فى نحل قصة أخرى ، وهى قصة ذهاب الشاعر إلى القسطنطينية وما يتصل بها من الأشعار كالقصيدة التى قال فى مقدمتها :

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا
وحلت سليمى بطن ظبى فعرعرا

حيث جاء رفض هذه الرحلة ورفض ما جاء عنها من شعر ، لكونها فى أعقاب ذهاب الشاعر إلى تيماء ولقائه بالسموءل ، ونحله القصيدة التى تحدث عنها أبو الفرج .

ولا يخالجنى شك فى أن القارىء يلحظ معى أن هذا الرفض مبنى على غير أساس ولا يستند إلى حجة يقوى بها فى ساحة النقد . وقد امتد حكمه بالنحل على كل ما اتصل بالرحلة من غير أن يستعمل أساليبه المعروفة فى الطرح النقدى المتصل بقضايا الانتحال فى الشعر ، قال : «منحول هذا

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٠

الشعر الذى قاله امرؤ القيس حين دخل الحمام مع قيصر ، والذى نزهه هذا الكتاب عن روايته ، منحول هذا الحب الذى يقال إن امرأ القيس أضمره لابنة قيصر . منحولة هذه الأشعار التى تضاف إلى امرىء القيس حين أحس بالسم وهو قافل من الروم »(١) .

وللدكتور طه حسين أن يرفض أو أن يشك فى بعض التفاصيل التى ذكرتها الروايات ، الإخبارية أو الشعر الذى لا يتوافق مع المقاييس الفنية التى ارتضاها العلماء لشعر امرىء القيس ، والتى يمكن بها — إلى حد كبير — التعرف على الصحيح والموضوع من شعره . ولقد أراد أن يؤكد رفضه لهذه الرحلة وما قيل فيها من شعر فذكر بعض الأسباب الأخرى مثل عدم ظهور أى أثر فى شعر امرىء القيس لما شاهده فى بلاد الروم ، والإحساس بالضعف والاضطراب والجهل بالطريق إلى القسطنطينية بعد قراءة الشعر الذى قيل عنها . وقد وصف الشاعر طريقه إلى القسطنطينية ، وأبان عن سبب توجهه إليها ، وتحدث عن بعض آلامه هناك غير أنه لم يكن فى حالة تسمح لموهبته أن تصف هذه البلاد ، إذ لم يكن ذاهباً للتعرف على القسطنطينية ومشاهدة آثارها ، والتعرف على مواطن الروعة فيها .

كان الشاعر منهوكا من تعب الرحلة ، وألم المرض ، ومشقة الغربة وعناء الخوف ، وكان يأمل فى النصرة والعون على الأعداء ، أما الشعر الذى جاء بالديوان حول هذه الرحلة فلم يكن فى طبقة واحدة ، فبعضه موثق من قبل الرواة المشهود لهم كالأصمعى والمفضل وغيرهما . ونرى فيه شخصية الشاعر ، كما يظهر النحل والوضع فى البعض الآخر ، وهذا القسم قد استبعده النقاد والرواة ، فالرحلة ثابتة فى حياة امرىء القيس ، وتحدثت

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠١

عنها المصادر العربية : وذكرتها كتب الروم(١)، وتحدث عنها الشاعر بشعر يتلاءم مع موهبته وأسلوبه ، وأضيفت إليها أشعار منحولة ظهر عليها الضعف ، وكشفها العدول من الرواة .

ثالثاً — المختار من شعره

رأى طه حسين أن الشعر الذى يتصل بسيرة امرىء القيس إنما هو من عمل القصاص ، ولذا فهو منحول ، أما القسم الثانى من شعره ، وهو الذى لا يفسر سيرته ولا يتصل بها فأحقه بالعناية قصيدتان ، الأولى :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . . . .

والثانية :

ألا أنعم صباحا أيها الطلل البالى . . . .

وأما ما تبقى من هذا الشعر بعد هاتين القصيدتين « فالضعف فيه ظاهر ، والإضطراب فيه بين ، والتكلف والإسفاف يكادان يلمسان باليد »(٢) .

وهكذا ارتضى للشاعر قصيدتين — رأى أنهما أحق بالعناية — ورفض ماعداهما . وبعد أن قبل للشاعر هاتين القصيدتين عاد للشك فى شعره مقدما بعض الحجج الأخرى التى تقوى رؤيته فى الشك منها : «أن امرأ القيس — إن صحت أحاديث الرواة — يمنى ، وشعره قرشى اللغة ، لا فرق بينه ، وبين القرآن فى لفظه وإعرابه وما يتصل بذلك من قواعد

(١) انظر . لويس شيخو ، شعراء النصرانية جـ١ ص٣٥ وكتاب محمد الخضر حسين (نقض كتاب فى الشعر الجاهلى) ص٣٠٣

(٢) طه حسين . فى الأدب الجاهلى ص ٢٠٢

الكلام . ونحن نعلم — كما قدمنا — أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز ، فكيف نظم الشاعر اليمنى شعره فى لغة أهل الحجاز بل فى لغة قريش خاصة»(١) .

إن الدليل اللغوى أقوى حجة استند عليها الدكتور طه حسين فى رفضه لشعراء اليمن فى العصر الجاهلى بصفة عامة ، ولشعر امرىء القيس بصفة خاصة ، وما دمنا مشغولين هنا بإيضاح حجته حول الشك فى شعر امرىء القيس فلا داعى — إذن — لأن نتحدث عن التقارب بين العدنانية والقحطانية قبل الإسلام ، والذى ازداد فى العصر الإسلامى زيادة كبيرة إلى الحد الذى لم يجد أهل اليمن مشقة أو صعوبة فى تفهم هذا الدين الجديد . ولا داعى لأن نتحدث عن هذا التقارب ، ونستشهد له ، وندلك عليه ، لأن شاعرنا لا يحمل من القحطانية إلا مجرد الذكرى — فقط — لأجداده القدماء الذين نزحوا إلى الشمال قبل نهاية القرن الرابع الميلادى تقريبا ، وتخلوا إبان الحقب الطويلة التى أقاموا فيها بنجد عن بقايا لغتهم القحطانية ، وصارت العدنانية هى لغتهم التى يتعاملون بها .

ونأتى إلى امرىء القيس فنجده قد ولد بنجد ، ونشأ فى ديار بنى أسد ، ولهج بلغة العدنانيين ، ونظم شعره بالفصحى التى كان ينظم بها سائر شعراء ربيعة ومضر ، والتى فى مجموعها لا تختلف عن لغة قريش اختلافا جوهريا ، فإذا كان الشاعر يمنى الجنس فإنه نجدى اللغة . ثم كيف يقبل طه حسين من الرواة أن يكون امرؤ القيس يمنيا ، ويأبى لهم أن يكون ولادته ونشأته فى نجد ؟

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٢

لقد سادت لهجة قريش منذ أوائل العصر الجاهلى بين الشعراء بخاصة لاعتبارات كثيرة لعل منها موقع مكة المكرمة ، وقربها من أماكن الأسواق الأدبية فى الجاهلية أثناء موسم الحج ، وبعدها عن التأثيرات الأجنبية سواء من الحبشة أو الفرس أو الروم أو غيرها .

لكن هذا لاينفى تميز كل قبيلة بلهجة خاصة (يمكن أن نسميها محلية) لم يعبأ بها الشعراء فى نظم أشعارهم ، وإن ظهر أثرها فى كثير من النماذج الشعرية التى جمعها العلماء فى عصر التدوين . ونجد قريبا من ذلك فى عصرنا الحاضر ، حيث تختلف اللهجة فى كل بلد عربى عن الآخر ، لكننا لانجد أى اختلاف بين الشعر الذى ينظم باللغة الفصحى فى سائر البلدان ، ولذلك قال الدكتور شوقى ضيف : وبدل مابين أيدينا من شعر جاهلى دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية اصطلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحى كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى هـــذه اللهجة الأدبية العامة (١) .

وكانت هذه اللهجة الفصحى هى عين اللهجة القرشية التى نزل بها القرآن الكريم ، ولم يقتصر انتشارها على الحجاز وتجد بل عمت وسادت معظم القبائل العربية فى الشمال والغرب والشرق ، وفى مواطن أخـــرى كثيرة بجزيرة العرب .

ونعود إلى ماذكره الدكتور طه حسين حول الشك فى شعر امرىء القيس ، ونتساءل : كيف يقبل قصيدتين للشاعر ، ثم يعود فيتشكك فى شعره لأنه مكتوب بلغة قريش والشاعر من اليمن ؟ أى أنه مادام قد رفض شعره

---

(١) شوقى ضيف . تاريخ الأدب (العصر الجاهلى) ص ١٣١

لأنه يمنى — كما قال — وشعره قرشى اللغة فلا ينبغى أن يقبل من شعره مايهدم به شكه ، أو حجته فى الطعن بسبب اللغة .

كما أنه قد قبل الشعر المضرى ، وهو مكتوب بنفس اللغة التى كتب بها شعر امرىء القيس ، ولم يكن شعراء مضر يعيشون جميعا فى مكة ، فكيف قبل شعرهم الذى كتب باللهجة القرشية وهى الفصحى التى سادت فى الجاهلية ؟.

ولا أدرى أن هناك فرقا بين امرىء القيس وعبيد بن الأبرص ، وهو من مضر سوى أن الأول كان جده الرابع أو الخامس يعيش فى اليمن ، ولهذا لا أعتقد أن لغة الشعر الجاهلى يمكن أن تنهض دليلا على النحل فى شعر امرىء القيس .

ومن الأدلة التى ساقها طه حسين على نحل شعر امرىء القيس عدم اشتماله على الأخبار التى واكبت حرب البسوس كمقتل كليب بن ربيعة وبلاء المهلهل فى الثأر لأخيه ، ولذلك نقول إنه من الأفضل دوما فى نقد الشعر أن نبحث عن الأسباب التى من أجلها قيل الشعر . أما أن نتحرى فى معرفة الأسباب التى من أجلها لم يقل الشعر فهذه مسألة غير مقنعة ولذلك نحاول أن نبحث عن إجابة لهذا التساؤل الذى أثاره طه حسين .

وقد روى أن الكثيرين لم يسلموا بخؤولة امرىء القيس المذكورة ، وقيل إن أخت المهلهل وكليب لم تكن إلا زوجه لوالد الشاعر ، وجاء فى شعره مايقوى هذه الحجة ، على أن الشاعر — إن صحت هذه الخؤولة — لم يكن مشغولا بما كان فى حروب أخواله بقدر ما كان مشغولا بقضية الثأر لأبيه من بنى أسد ، واسترجاع ملك كندة وتاريخها القديم ، ولا أرى ماذكره محمد الخضر حسين مقنعا حول احتمال أن يكون امرؤ القيس قد أشار فى شعر آخر إلى مقتل خاله كليب وبلاء خاله مهلهل .

والمحن التى أصابت أخواله ، والمآثر التى كانت لهم ، وذهب هذا الشعر مع الرواة الذين قتلوا فى حرب الردة أو الفتن أو الفتوح»(١).

رابعا — نقد القصيدتين :

لقد شك الدكتور طه حسين فى الشعر الجاهلى ، وقال بنحله بعد العصر الجاهلى ، ورفض شعراء اليمن، واستثنى منهم امرأ القيس ، ثم شك فى شعره أيضا ، وحاول أن يقنعنا بأن شخصيته الشعرية قد ذابت إلى الحد الذى لم يبق منها إلا هاتان القصيدتان ، وهما :

١ — قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل .

٢ — ألا أنعم صباحا أيها الطلل البالى .

ووعد أثناء بحثه للانتحال، وفى حديثه عن امرىء القيس بأنه سيتحدث عن هذا الشعر الذى أقره للملك الضليل، وكرر وعده بالحديث عن القصيدة الثانية إلا أنه جاء هنا ، فدار معظم كلامه حول المعلقة ، ولم يذكر اللامية (الثانية) إلا فى إشارة خاطفة كما سنوضح بعد .

وقد بدأ كلامه عن المعلقة فقال : «فلسنا نعرف قصيدة يظهر فيها التكلف والتعمل أكثر مما يظهران فى هذه القصيدة ، لانحفل بقصة تعليق هذه القصائد السبع أو العشر على الكعبة أو فى الدفاتر، فما نظن أن أنصار القديم يحفلون بهذه القصة التى نشأت فى عصر متأخر جدا»(٢).

لم يرق لى الجزء الأول من الفقرة السابقة أو بمعنى أدق لم أقتنع به تماما فكيف لايعرف عميد الأدب العربى قصيدة يظهر فيها التكلف والتعمل

(١) محمد الخضر حسين نقض كتاب (فى الشعر الجاهلى) ص ٣٠٥
(٢) طه حسين . فى الأدب الجاهلى ص ٢٠٤

أكثر من هذه القصيدة ؟ هل يقصد بذلك قصائد امرىء القيس التي أنكرها سوى هاتين ، أو يقصد الشعر الجاهلي كله الذي أنكره باستثناء ماقاله شعراء مضر وبعض شعراء ربيعة أو أنه يذكر الشعر العربي كله ؟ وأظنه يقصد هذا الأخير .

وأعتقد أن حكمه السابق مبالغ فيه جدا ، ففي التراث الشعري قصائد عديدة يظهر فيها الكثير من التكلف والتعمل أكثر بكثير مما في قصيدة امرىء القيس إذا صح ذلك فيها مع أنها أشهر المعلقات حتى ضرب بها المثل فقيل «أشهر من قفا نبك» ، وقال عنها فؤاد البستاني : «دفعت شهرة هذه المعلقة الكثيرين من العلماء إلى شرحها ، فشرحوا أبياتها بيتا بيتا ، وعلقوا الشروح والآراء الوافية على ما أراد الشاعر التعبير عنه من التشابيه والأفكار ، وقابلوا بينها وبين غيرها من شعر امرىء القيس ، ومن الشعر الجاهلي بالإجمال ، فكان لعملهم فائدة جليلة»(١) وأعقب ذلك بذكر شروحها وترجماتها إلى اللغات الأجنبية .

أما قصة تعليق هذه القصيدة مع أخواتها فإن أكثر القدماء لا يحفلون بها كما أن أنصار القديم في العصر الحديث لا يبالون بها ، ولا حرج في ألا يحفل بها أيضا الدكتور طه حسين .

ثم ذكر في حديثه عن هذه القصيدة أن القدماء يشكون في بعض أبياتها وهي قوله :

ترى بعر الآرام في عرصاتها	وقيعانها كأنها حب فلفل
كأني غداة البين يوم تحملوا	لدى سمرات الحي ناقف حنظل

---

(١) فؤاد البستاني ، الروائع (امرؤ القيس) ص يط ج ١ ، عام ١٩٨٦ م

وقوله :

وقربة أقـــوام جعلت عصامها
على كاهل مـــنى ذلول مرحل

وأورد بعد هذا البيت ثلاثة أخرى .

إن ما ذكره الدكتور طه حسين صحيح ، فالبيتان الأولان من رواية أبى عبيدة ولم يروهما الأصمعى ، ونقل عنه أبو جعفر أنهما من المنحول .

أما الأبيات الأربعة الأخرى فقال عنها الأصمعى وأبو عبيدة ويعقوب ابن السكيت وغيرهم إنها ليست من المعلقة .

وقد خرج محمد الخضر حسين هذه الأبيات المشكوك فيها ، وعلق عليها فقال : « ونقد الرواة القصيدة، وتمييز هذه الأبيات الستة بالانتحال ، يدل على أن أصلها ثابت النسبة لامرىء القيس أكثر مما يدل على انتحال القصيدة بأسرها »(١) .

ولعلنا قد لاحظنا عناية الدكتور طه حسين بالبحث عما فى القصيدة من شكوك للقدماء يؤكد بها رأيه حول الانتحال فى الشعر الجاهلى ، وفى هذه المعلقة بخاصة فقال بعد ذلك : « وهم بعد هذا يختلفون اختلافا كثيرا فى رواية القصيدة فى ألفاظها وفى ترتيبها ، ويضعون لفظا مكان لفظ ، وبيتا مكان بيت ، وليس هذا الاختلاف مقصورا على هذه القصيدة ، وإنما يتناول الشعر الجاهلى كله »(٢) .

على أن اختلاف الرواة فى ألفاظ القصيدة أو فى ترتيب أبياتها أمر طبيعى

(١) محمد الخضر حسين ، نقض كتاب فى الشعر الجاهلى ص ٣٠٩

(٢) طه حسين ، فى الأدب الجاهلى ص ٢٠٤

لقد كان القدماء يعتمدون على الرواية فى حفظ الشعر ونقله للأجيال التالية، وطريق الرواية طريق وعر، للاعتماد على الذاكرة الإنسانية التى تخون أحيانا خاصة إذا كثرت محفوظات الراوى، وتشابهت الأشعار فى الألفاظ والمعانى، وربما كان هذا الاختلاف راجعا إلى الشاعر الذى قال قصيدته على صورة، ثم قالها مرة أخرى مقرونة ببعض التغيرات، وهذا يحدث كثيرا فى حياة الشعراء قديما وحديثا، فيأخذ بعض الرواة القصيدة من الشاعر فى صورتها الأولى، ثم يرويها الآخرون مع بعض التغييرات، فيحدث هذا الاختلاف سواء فى الألفاظ أو فى ترتيب الأبيات.

وقد نبه طه حسين على وجود بعض الأبيات القلقة فقال: «وأظن أن أنصار القديم لا يخالفون فى أن هذين البيتين قلقان فى القصيدة وهما:

وليل كموج البحر أرخى سدوله
عـلى بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

فقد وضع هذا البيتان للدخول على البيت الذى يليهما وهو:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى
بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وهذا البيتان أشبه بتكلف المشطر والمخمس منهما بأى شيىء آخر»(١).

لقد رمى البيتان ببعض الشك فى القديم إذ قيل إن خلفا الأحمر قد وضعهما على امرىء القيس للتمثيل بالاستعارة، ولم يجزموا بذلك، بل تحدثوا عنهما معجبين متذوقين، ولم ينقل عنهم إثبات التكلف الذى

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٥

ذكره طه حسين ، إنما قال عنهما المرزبانى : «وأبيات امرىء القيس فى وصف الليل أبيات اشتمل الإحسان عليها ، ولاح الحذق فيها ، وبان الطبع بها ، فما فيها من معاب إلا من جهة واحدة عند أمراء الكلام والحذاق بنقد الشعر وتمييزه »(١) .

أما العيب الذى نص عليه صاحب الموشح فهو التضمين ، ومعناه عدم استقلال البيت بإفادة المعنى ، قال : «وهذا عيب عندهم ، لأن خير الشعر ما لم يحتج بيت منه إلى بيت آخر ... »(٢) .

وقد أعجب الباقلانى بالبيتين مع تعرفنا على تشدده فى نقد الشعر غير أن الشىء الذى لم يعجبه فيهما هو المبالغة فى الخيال ... «وهى لا تنفى أن يكون صاحب الشعر جاهليا ، فإن للمبالغة فى الخيال مثلا واردة فى الأشعار المعزوة إلى الجاهليين »(٣) .

وقد اختار ابن سلام البيت الأول منهما من مجموع ما اختاره من تشبيهات امرىء القيس ، ولم يذكر أن به أو بالبيت الثانى عيبا أو تكلفا .

ثم حدد طه حسين أجزاء القصيدة فقال : «هى أولا وقوف الشاعر على الدار وما يتصل بذلك من إبكاء وإعوال ، ثم ذكره أيام لهوه مع العذارى ، ثم عتابه لصاحبته وما يتصل بذلك من وصف خليلته ، ثم ذكر الليل والاستطراد منه إلى الصيد ، وما يتوسل به إلى الصيد من وصف الفرس ، ثم ذكر البرق ، وما يتبعه من السيل »(٤) .

ثم انثنى ينتقد هذه الأجزاء واحداً تلو الآخر ، وأغفل الحديث

---

(١) المرزبانى : الموشح ص ٣١ (٢) المصدر السابق ص ٣١
(٣) محمد الخضر حسين : نقض كتاب فى الشعر الجاهلى ص ٣١١
(٤) طه حسين فى الأدب الجاهلى ص ٢٠٥

عن وقوف الشاعر على الدار وما يتصل به ، وتحدث عن أيام اللهو مع العذارى فقال : « ولنسرع القول بأن وصف اللهو مع العذارى وما فيه من فحش أشبه بأن يكون من نحل الفرزدق منه بأن يكون جاهلياً .. »(١) ونقل عن الأغانى خبراً يتصل بالفرزدق عندما شاهد نساء يستحممن بغدير فى ضاحية البصرة ، وقص عليهن قصة امرىء القيس فى يوم دارة جلجل ، ثم أعقبه بقوله : « والذين يقرءون شعر الفرزدق ويلاحظون فحشه وغلظته ، وأنه قد لهج على هذا الفحش ، وعلى هذه الغلظة ، لا يجدون مشقة فى أن يضيفوا إليه هذه الأبيات ، فهى بشعره أشبه ، وكثيراً ما كان القدماء يتحدثون بمثل هذه الأحاديث يضيفونها إلى القدماء ، وهم ينحلونها من عند أنفسهم »(٢) .

ونقض مصطفى صادق الرافعى فى كتابه (تحت راية القرآن) ماذكره طه حسين فى كلامه السابق ، واستبعد أن ينحل الفرزدق شعر امرىء القيس ، وصحح الرؤية التى نقلها الدكتور طه حسين عن الأغانى ، كما أنه ليس بلازم أن ينحل الفرزدق شعر امرىء القيس لمجرد إتفاقهما فى الهجاء والسب والاقذاع ، ثم بين الفحش والتعهر فى شعر امرىء القيس ، وقال إن ذلك أغلب عليه ، وهو يجرى فى شعره من ذلك على خلق وطبيعة وله جرأة عليه تشعرك أنه ابن ملك يرى لنفسه كلمة فوق كلام الناس ، فكلامه إنما يشاكل نفسه ، وفحشه إنما يأتيه من قبل الغزل والنسيب ، لا كفحش الفرزدق فذاك من قبل الهجو واللؤم. والفرزدق لا يعد من شعراء الغزل ، وقد كان أهل الحجاز يقدمون (جميلا) عليه وعلى جرير معاً لموضع جميل من النسب وقلة غنائهما فيه ، وكانا يعلمان ذلك من نفسيهما ، ولا يريان الشعر إلا فى بابهما فى الفخر والهجاء »(٣) ويستبعد

(١) المرجع السابق ص ٢٠٥ (٢) المرجع السابق ص ٢٠٦
(٣) مصطفى صادق الرافعى ، تحت راية القرآن ص ٢٩٨

أن يضع الفرزدق على امرىء القيس ، لأنه يذكره فى شعره ، ويقدمه ، ويجعله أحد النوابغ الذين وهبوه قول الشعر . وقد كان من طبع الفرزدق الإغارة على شعر الآخرين مما يجعل قضية وضع شعره على امرىء القيس بعيدة الوقوع (١) .

وانتقل طه حسين إلى الحديث عن جزء آخر من القصيدة وهو الذى تحدث فيه امرؤ القيس إلى صاحبته وما يتصل به من وصف الخليلة وزيارته لها ، وتجشمه ما تجشم للوصول إليها ، وتخوفها الفضيحة حين رأته ، وخروجها معه وتعفيتها آثارهما بذيل مرطها ، ومشاركتها له فى العبث واللهو ، إلى غير ذلك من المعانى التى يشتمل عليها الشعر الغزلى . وذكر أن هذا اللون أشبه بشعر عمر بن أبى ربيعة منه بأى شىء آخر قال: « فهذا النحو من القصص الغرامى فى الشعر فن عمر بن أبى ربيعة قد احتكره احتكاراً ، ولم ينازعه فيه أحد . ولقد يكون غريباً حقاً أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن ، ويتخذ فيه هذا الأسلوب ويعرف عنه هذا النحو ، ثم يأتى ابن أبى ربيعة ، فيقلده فيه ، ولا يشير أحد من النقاد إلى أن أبى ربيعة قد تأثر بامرىء القيس ، مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرىء القيس فى طائفة من الشعراء فى أنحاء من الوصف »(٢) .

ليس هناك ما يمنع أن يكون هذا القصص الغـــزلى من فن امرىء القيس، خاصة وأن القدماء قد أشاروا إلى أنه سبق الشعراء إلى كثير من المعانى ، وأن الشعراء اتبعوه فيها ، ثم سار على نهجه ، وتأثر به عمر ابن أبى ربيعة فى واحد من هذه الجوانب ، وهو النسيب على أننا نلاحظ فرقاً كبيراً بين هذا اللون فى شعر امرىء القيس وشعر ابن أبى ربيعة ، إذ كانت القصيدة الغزلية عند الثانى موجهة إلى هذا الفن وحده

(١) انظر كتاب (نقض كتاب فى الشعر الجاهلى) ص ٣١٣

(٢) طه حسين . فى الأدب الجاهلى ص ٢٠٦

(غالبا) أى أنها تميل إلى التوحد وترقيق النسيب ، وهذا ما نفتقده فى غزل امرىء القيس . أما ما يتصل بالفحش والتعهر فلا يخفى تأثر عمر بن أبى ربيعة بأمير الشعراء الجاهليين ، ولو أن ابن ربيعة نحل امرأ القيس شعراً لما فات ذلك على القدماء ، وبخاصة فى المدة التى كان الشعر ينتقل فيها من الرواية إلى التدوين .

وقد تحدث الرافعى عن هذا النقد ، ورد على طه حسين بأسلوب شديد وقاس ، ومن كلامه : « فإذا كان ابن أبى ربيعة قد استحسن أسلوباً من أساليب امرىء القيس فى النسيب فأكثر منه ، واستنفد فيه جانباً من شعره فليس معنى ذلك أنه اخــترع الطريقة ولا احتكر الفن »(١) واستبعد وجود نص يثبت اختراع ابن أبى ربيعة لهذه المعانى التى قال القدماء إن امرأ القيس قد سبق إليها . وذكر أن فحول الشعراء يسبقون إلى ابتداع المعانى والأساليب ثم يأتى من يتبعهم ويتأثر بهم . ولم يكن ابن أبى ربيعة بدعا فى ذلك، فقد تأثر أبو نواس بالأعشى ، وتأثر البحترى فى حديثه عن طيف الحبيب وزيارته ببعض الشعراء المتقدمين ، كما تأثر أبو تمام بمسلم بن الوليد فى البديع والاستعارة والتشبيه والمجاز .

وذكر طه حسين أن النحل يشمل القصص الغرامى فى المعلقة وفى القصيدة الثانية :

ألا أنعم صباحا أيها الطلل البالى

ثم انتقل إلى الجزء الأخير من نقده الذى جعله عن الوصف فى المعلقة واللامية الأخرى ، ولا سيما وصف الفرس والصيد ، ووقف من هذا الشعر موقف التردد أيضاً ، وإن كان شكه فى شعر الوصف أقل من شكه فى الشعر الآخر حيث أقر هنا بنبوغ امرىء القيس فى وصف الخيل

---

(١) الرافعى . تحت راية القرآن ص ٣٠١

والصيد ، والسيل والمطر واستحداثه فى ذلك أشياء كثيرة لم تكن مألوفة من قبل ، لكنه لا يعرف إن كان امرؤ القيس قد قال هذه المعانى حقا فى الشعر الذى بين أيدينا أم قالها فى شعر آخر ضاع وذهب به الزمان ، ولم يبق منه إلا الذكر ، أو جمل مقتضبة أخذها الرواة ، ونظموا منها شعرا أضافوه إلى هذا الشاعر القديم ؛ وأوضح ذلك فقال : « فنحن نقبل أن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد ، وشبه الخيل بالعصى والعقبان ، وما إلى ذلك ، ولكننا نشك أعظم الشك فى أن يكون قد قال هذه الأبيات التى يرويها الرواة . وأكبر الظن أن هذا الوصف الذى نجده فى المعلقة وفى اللامية الأخرى فيه شىء من ريح امرىء القيس ولكن من ريحه ليس غير »(١) .

ونلاحظ أن كلام طه حسين فى نقده هذا الجزء لا يتجاوز به حدود الظن إلى الحقيقة ، مع أن القدماء قد نبهوا على تأثر الشعراء بامرىء القيس فى المعانى المذكورة ، وسبق أن تحدثنا عن ذلك فى عدة مواضع من الباب السابق .

خامساً — القصيدة البائية

قال الدكتور طه حسين بانتحال القصيدة البائية التى يقال إن امرأ القيس أنشأها يخاصم بها علقمة بن عبدة (الفحل) وكانت تحكم بينهما أم جندب (زوج امرىء القيس) ، وإنها قد غلبت علقمة زوجها ، وأول قصيدة امرىء القيس :

خليلى مرا بى على أم جندب   لنقضى لبانات الفؤاد المعذب

---

(١) طه حسين فى الأدب الجاهلى ص ٢٠٧

وأما قصيدة علقمة فمطلعها :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب
ولم يك حقا كل هـــذا التجنب

وجزم طه حسين بانتحال قصيدة علقمة أيضا فقال: « وأنت تستطيع أن تقرأ القصيدتين دون أن تجد فيهما فرقا بين شخصية الشاعرين ، بل أنت لا تجد فيها شخصية ما ، وإنما تحس أنك تقرأ كلاما غريبا منظوماً جمع ما يمكن من وصف الفرس جملة وتفصيلا »(١) .

أما فيما يتصل بشكه فى قصيدة امرىء القيس، فنذكر أن بعض القدماء قد سبقوه إلى هذا الشك ، وإن لم يذكر ذلك أو يشر إليه ، وكان مبعث القدماء على الشك فى هذا النقـــد الذى حكمت به أم جندب بين قصيدة زوجها وقصيدة علقمة أن ابن الكلبى كان أحد رواته ، كما رواه أيضا ابن المعتز ، وذكره فيما أنكر من شعر امرىء القيس .

وجاء طه حسين فقبل ما قاله القدماء حول الشك فى قصيدة امرىء القيس ، ورفض الخبر من أساسه ، مع أن الأصمعى كان أحد رواته ، وهو من المشهود لهم فى صدق الرواية وتمحيص الأخبار . وقد نبه القدماء على الشك فى كثير من قصائد امرىء القيس ، على أن هذا الشك لم يكن بدرجة واحدة لضبطه وتحديده بكثير من المعايير التى تسهم فى تحديد المسافة بين القصيدة والشاعر بدرجة كبيرة .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٨

أخيراً :

ونعود إلى مجموع ما قاله طه حسين حول الانتحال فى شعر امرىء القيس بخاصة ، لنرى كلامه وسطا بين الشك الذى نص عليه القدماء من أمثال ابن سلام والأصمعى والرياشى وغيرهم ، وبين الرفض التام الذى قال به أكثر المستشرقين ، والذى لم يشمل امرأ القيس فحسب ، بل عم سائر الشعراء الجاهليين .

وكان طه حسين متأثراً بصنيع المستشرقين فى مناهج البحث وطرق التفكير ، وظهر ذلك فى عرضه لقضية الانتحال ، فضلا عن ثورته العلمية التى أراد أن يواجه بها مناهج تدريس الأدب فى مصر ، ولكنه كان يميل إلى المبالغة أحيانا ويقبل الرواية التى تؤيد وجهة نظره ، ويرفض الأخرى التى تعارض قضيته، فكانت مبالغاته تصل إلى الحد الذى يرفض الشعر الجاهلى كله ، وكان يتناسى تأثر الأخطل وغيره من شعراء القرن الأول بالشعراء الجاهليين . إذ لم يكن ينسج أولئك من فراغ ، ولابد أنهم عرفوا زهيرا وطرفة والأعشى وامرأ القيس ، وتأثروا بقريضهم . فى الألفاظ والمعانى على السواء .

ولا يوجد من ينفى النحل عن الشعر الجاهلى لأسباب كثيرة ودوافع مختلفة فتحدث القدماء عن ذلك ، ونبهوا إلى الوضاعين من الرواة ، ولكنهم لم يشكوا فى جملة الشعر الجاهلى إذ أنهم نبهوا أيضاً إلى الرواة المشهود لهم بالصدق فى القول والأمانة فى النقل . وأقر المحدثون بذلك على تفاوت فيما بينهم ، وكان طه حسين أشدهم جرأة فى البحث وجورا فى الحكم وأدبا فى الحوار .

الفصل الثالث

أمير الشعر فى العصر القديم لمحمد صالح سمك (١)

إنه من المثير حقاً، ومن المدهش أيضاً أن نجد كتاباً فى خمسمائة وخمسين صفحة تقريباً قد ألفه طالب جامعى فى الثانية والعشرين من عمره، ثم يقر الكتاب ويثنى عليه مصطفى صادق الرافعى نابغة البيان العربى فى العصر الحديث. ولذلك يمكن أن يرفع الحرج عن منهج المؤلف فى بحثه عن امرىء القيس وشعره، خاصة وأن الكتاب ينقصه التقسيم والترتيب الذى يأخذ بهما أصحاب التآليف الأدبية والنقدية. كما أن الكتابات التى تحدثت عن امرىء القيس والتى ألفت قبل هذا الكتاب كان أغلبها لايدور

---

(١) تخرج محمد صالح سمك من كلية دار العلوم عام ١٩٣١م، واشتغل بالتحرير الصحفى، والتدريس فى دور المعلمين، وبعض المعاهد العليا، والكليات الجامعية حتى أحيل للمعاش عام ١٩٦٧ م.

ومن مؤلفاته (تاريخ الأدب العربى) طبع عام ١٩٣٣ م، ونبغ فى التأليف عن التربية وطرق تدريس اللغة العربية. ومن أشهر كتبه (أمير الشعر فى العصر القديم) الذى يعد من أوائل الكتب التى ألفت عن امرىء القيس، إذ يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ١٩٢٩ م. وكتب مقدمته نابغة مصطفى صادق الرافعى فى العام نفسه، ووقتها كان المؤلف طالباً فى دار العلوم. وقد نشرت بعض فصوله فى مجلة المقتطف فى عامى ١٩٣٠م، ١٩٣١ م ثم طبعه لأول مرة عام ١٩٣٢م، وأعيد طبعه فى عام ١٩٧٤ م، وقد تحدث فى الطبعة الثانية عن كثير من القضايا، وعرض للعديد من الموضوعات التى لم يكن قد بحثها فى الطبعة الأولى.

فى هذا الإطار العام الذى قدم به محمد سمك كتابه المذكور . ولكن هذه التضاريس التى تحيط بها الكتاب لاتمنع فى أن نتناوله بالدرس والبحث، وأن نذكر ما لصاحبه وما عليه من خلال دراسته عن أمير الشعر فى العصر القديم .

١ — منهج الكتاب :

سبق القول بأن الكتاب المذكور ينقصه الترتيب المتبع فى التأليف ، وربما كان صاحبه حريصاً على إعداده فى صورة بحوث ودراسات تصلح للنشر فى المجلات المتخصصة قبل أن تنتظم من مجموعها الصورة الكاملة للكتاب ، ولذلك — أو لأسباب أخرى — جاء الحديث عن الشاعر متفرقا موزعا بين العديد من صفحات الكتاب ، حيث تكلم المؤلف عن أسرة امرىء القيس ، ومولده ، ونشأته ، ثم تحــدث عن بيئاته (الطبيعية والاجتماعية والعلمية) فى قرابة مائة صفحة . وقد رآها تشكل ثقافته ومعارفه وأخلاقه ، فاهتم بها ، وأفاض فى بحثها . ثم عاد إلى الحديث عن امرىء القيس ومنزلته الشعرية ، كما تكلم عن المعلقة واللامية الثانية ، وتحدث عن صفات الشاعر وعقيدته ، وحالته بعد مقتل أبيه ، وأثر الحوادث فى شعره . وتكلم عن أغراضه الشعرية ، وبين مآخذ العلماء على أشعاره ، وتحدث عن الشاعر من خلال التأثر والتأثير ، ثم عاد للحديث عن شعره ، وختم الكتاب بدراسة موسعة لآراء الدكتور طه حسين حول قصة امرىء القيس وشعره .

ولقد سار المؤلف على نهج القدماء فى الاكتفاء بذكر المراجع والمصادر فى متن الكتاب ، كما أنه لا يبالى بذكرها فى مواضع كثيرة ، وعند ما يذكرها لا يحدد النص الذى استشهد به تحديداً تاما فيصعب كثيراً تمييز كلامه عن كلام غيره ممن نقل عنهم . أما بالنسبة للشعر الذى اختاره لامرىء القيس فلم يكن موثقاً ، حتى اختلط الشعر الذى أقره الرواة الموثوق فيهم

كالأصمعي بالشعر الذي قال بعض الرواة بنحله كالأشعار التي ضمتها نسخة الطوسي ، والتي رأيناها من مصادر الكتاب حسب ثبت المؤلف بذلك في نهاية الكتاب . على أن هذه المآخذ لا تقلل من قيمة الكتاب كواحد من أسبق الآثار التي تحدثت عن امرىء القيس . ولذلك نقدم فيما يلي استعراضاً لأهم القضايا التي تحدث فيها المؤلف عن امرىء القيس مع بيان ما لهذا الكتاب وما عليه .

٢ — امرؤ القيس (حياته وشعره)

لا نود الإفاضة في تناول حياة امرىء القيس أو إعادة ما سبق أن ذكرناه في الباب الأول من هذا الكتاب ، وإنما نهدف هنا — إلى بيان منهج المؤلف وهو محمد صالح سمك وأسلوبه في البحث عن حياة هذا الشاعر. فقد تحدث عن مولده وشاعريته المتوارثة ونشأته ، ثم تكلم عن شبابه وعن النساء اللاتي ذكرهن في شعره ، ثم عقد ثلاثة فصول للحديث عن صفاته وعقيدته وحياته بعد مقتل أبيه . ولعل المؤلف قد بحث معظم القضايا التي تعلقت بحياة الشاعر منذ أن ولد بديار بني أسد إلى أن مات في طريق عودته من القسطنطينية كما تقول بذلك كثير من الروايات .

ولقد تحدث عن قبيلة كندة منذ أن كانت في اليمن حتى انحدرت إلى الشمال في منطقة نجد ، كما تحدث عن حجر — الملقب بآكل المرار وأبنائه الذين توارثوا ملك كندة حتى مقتل حجر (والد امرىء القيس) وقيام هذا الشاعر بالثأر لأبيه من بني أسد .

ونقل إلى كتابه شعراً لآكل المرار باللغة الفصحى ، علماً بأن هذا الرجل كان من حكام كندة بنجد في أوائل القرن الخامس الميلادي .

ولقد لاحظنا أن الأستاذ محمد سمك يجمع بين عدة روايات في الموقف الواحد ، دون أن يقدم واحدة على الأخرى ، أو ينسب تلك الروايات

إلى أصحابها ، أو يذكر المصادر التي استق منها هذه الروايات . واكتفى بأن يعرض لتاريخ كندة من خلال جمعه للأخبار وتوفيقه بينها . كما تحدث عن مولد امرىء القيس وشاعريته المتوارثة ، وذكر عدداً من القصائد والمقطوعات للعديد من رجال كندة كحجر (آكل المرار) وهو الجد الثالث للشاعر وسبق أن ذكرناه وعمه سلمة في رثاء عمه شرحبيل قتيل يوم الكلاب الأول ، وعمه معد يكرب في رثاء شرحبيل أيضاً مؤكداً بهذه الاختيارات على توارث الشعر في كندة وانتقاله إلى امرىء القيس من جهة أجداده وأعمامه ، ثم اختار المؤلف أيضاً عدة قصائد طـــويلة للمهلهل بن ربيعة ، وعدة مقطوعات لكليب بن ربيعة ليؤكد انتقال الشعر إلى امرىء القيس من جهة أخواله ، قال : «والشعر وإن كان سليقة في النفس ، إلا أن الوراثة لها أثر كبير في تلك السليقة الشاعرية ، وقل أن نجد شاعراً ليس في أحد أصوله ملكة الشعر »(١) . على أننا لا نعتقد بوراثة الشعر ؛ لأن قرضه موهبة يختص الله بها من يشاء من عباده ، ولا دخل فيها للوراثة إطلاقا ، فنجد أن بعض الشعراء قد انسلخ من عرق شاعر ، أو نجد بعض أبنائه يقول الشعر ، مثلما نجد الكثيرين من الشعراء لم يكن آباؤهم وأخوالهم يدرون ماذا تعني كلمة الشعر . فما بالك بقرضه والتفنن فيه ، وإلا فكيف خرج المتنبي شاعراً وكان والده سقاء ، ولم يؤثر عن أجداده أي فضل يتحدث به الشاعر . وفي العصر الحديث كان أحمد شوقي شاعراً كبيراً ، ولم يكن أجداده — فيما نعلم — شعراء ، كما لم ينظم أبناؤه الشعر ، والأمثلة على ذلك كثيرة . وتحدث محمد سمك عن نشأة امرىء القيس ببلاد نجد الواسعة ، وفي رباها المعشبة ، وأوديتها المتلاقية بين أبناء الملوك العرب الصيد في ذلك العهد . وذكر شعراً لامرىء القيس قال إنه أول ما طبع به ، وأوله :

أذود القوافي عني ذيادا ذياد غلام جريء جوادا

---

(١) محمد صالح سمك . أمير الشعر في العصر القديم ص٣٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٤ م .

وهذا الشعر ليس من رواية الأصمعى أو المفضل فضلا عما زعمه ابن السكيت من أنه لرجل يلقب بالزائد ، ولذلك نتوقف عن استكمال هذا الشعر والتحدث عنه للشك فى نسبته لامرىء القيس .

ثم تكلم عن شباب الشاعر ، وبين كيف وقعت الجفوة بينه وبين أبيه، مع الاستمرار فى منهجه من حيث إغفال المصادر وعدم توثيق الشعر، والجمع بين الروايات من غير تدقيق فيها ، وتقديم بعضها على البعض الآخر . وعقد فصلا مطولا تحدث فيه عن النساء فى حياة امرىء القيس، وكشف عن ملامح النزعة الحسية فى الشعر الجاهلى بعامة،وفى شعر الغزل بخاصة ، ثم استشهد على رؤيته بنماذج لبعض الشعراء، كما تحدث عن مكانة المرأة فى شعر امرىء القيس فقال : « على أننا لا نكاد نعدو الحقيقة إذا قلنا إن المرأة احتلت فى شعر امرىء القيس مكانا مرموقا بارزا أهم مما احتلته عند أى شاعر جاهلى آخر ، وعلى نحو تفرد به ...

وقد تعرض لها فى مواقف ثلاثة : متذكرا ومتأملا وماجنا... وهو فى الموقف الأول يبكى الأطلال والدمن،ويأسى على أيامه الخوالى معها... وفى الموقف الثانى ... يتناولها مخلوقة جميلة ساحرة فاتنة رقيقة ، يصفها ويتحدث عن جمالها ، ويستغرق فى وصف محاسنها الجسدية ...

وفى موقفه الثالث جعلها مناط مغامراته وحديث لهــوه وعبثه ولذاته . . » (١) .

وبعد أن ذكر هذه المواقف الثلاثة التى تعبر — بصدق — عن نظرة الشاعر للمرأة نراه يعود فيغفل موقفين ، ويبقى على واحد منها فيقول : « ولم يكن امرؤ القيس صبا ولوعا ، ولا عاشقا متيما ، وإنما كان أسير

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٣

لذات ، وصنو شهوات ، وخدين خلاعة ولهو ، ويظهر أثر ذلك فى شعره ، فنحن لا نجد فيه برحاء الحب المستهام ، ولا لوعة الصب الولوع ، وكل ما فى شعره من نسيب إنما هو من ذكر للنساء ومحاسنهن ، ووقوف على ديارهن وأماكنهن ، ووصف عبثه معهن ولهوه بهن » (١) .

وقد استعرض أسماء من تغزل بهن امرؤ القيس فى شعره واللاتى وصل عددهن حسب إحصاء المؤلف إلى أربع وعشرين ، وإن كان عدد أسمائهن يفوق ذلك .

واستشهد لكل واحدة بما ورد فيها من شعر من غير منهج واضح فى اختياره ، فكان يذكر البيت والبيتين والمقطوعة والقصيدة ، بل كان يذكر — أحيانا — عن المرأة الواحدة أكثر من نموذج إلا أنه لم يصل إلى رأى قاطع حول التفريق بين الكنى والألقاب والأسماء لهؤلاء النساء ، كما لم يفرق أيضا بين من كانت زوجة أو عشيقة ، أو محبوبة من نسج الخيال ، باستثناء واحدة منهن وهى أم جندب التى كانت زوجة لامرىء القيس فى طىء . ويعد هذا الفصل من أفضل فصول الكتاب وأرقها رؤية وأكثرها شمولا واتساعا .

وتحدث عن صفات امرىء القيس وأخلاقه وبعض أخباره وحوادثه حيث غير المؤلف منهجه هنا بذكر المصادر والمراجع فى متن الكتاب على عادة القدماء ، فقد نقل عن ابن قتيبة وعبد الرحيم العباسى (صاحب معاهد التنصيص) وابن سلام والجاحظ (فى البيان والتبيين) والميدانى ، وعلى ابن ظافر (صاحب كتاب بدائع البدائه) وأحمد أمين (فى كتابه فجر الإسلام) ولويس شيخو فى (شعــــراء النصرانية) وصاحب الأغانى

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٤

وأبي عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء ، كما أخذ عن كتاب نزهة ذوى الكيس ، والموشح للمرزباني وغيرها .

ومن الملفت للنظر أن نجد صاحب كتاب (أمير الشعر في العصر القديم) يغفل توثيق الأخبار والأشعار التي يعتمد عليها ويتحدث عنها ويؤرخ بها في العديد من الفصول ثم يأتي في فصل لا تتجاوز صفحاته العشر فيذكر كل هذه الأسماء السابقة أو أكثرها مقرونة بمؤلفاتها أو غير مقرونة بها . إلا أن هذا التوثيق لا يمنعنا من استنكار بعض ما ذكره في هذا الفصل ورفضه تماما ، كتلك الألغاز التي أخذ عبيد بن الأبرص يلقيها شعرا على امرىء القيس ، وهذا يجيبه على البديهة بالشعر أيضا مع أن هذه الألغاز والأحاجي لم ترد في أية نسخة من نسخ الديوان .

وفي حديثه عن نساء امرىء القيس ذكر واحدة من كندة وقال عنها : « ولم تصبر عليه من زوجاته إلا امرأته من كندة ، وكان أكثر ولده منها » (١) .

ولم يذيل هذه الجملة بما يكشف عن غموضها وإبهامها ، فمن هذه المرأة ؟ وكم عدد أولاده منها ؟ ومتى تزوجها ؟ وهل لها نصيب من الشعر الغزلي في ديوان امرىء القيس ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الحائرة التي تحوم حول العبارة السابقة .

ثم عقد فصلا تحدث فيه عن عقيدة امرىء القيس ، ورفض أن يكون يهوديا ، وأبقى على احتمال كونه نصرانيا أو مزدكيا أو وثنيا قال : « أما تهود ذلك الشاعر العظيم فلم يقل به أحد ، ولم يقم عليه دليل ، فلم يبق إلا أن يكون نصرانيا أو مزدكيا أو وثنيا آراء ثلاثة قال بها الباحثون »

(١) المرجع السابق ص ٢٥١

ولكل حجة يدلي بها ، ودليل يستند إليه ويعتمد عليه » (١) وعرض حجة من قالوا بوثنيته ، ورد عليهم ، ثم تحدث عن الرأى القائل بأنه كان مزدكيا ، والمنسوب إلى (الأب أنستاس الكرملى) .

وعرض للرأى القائل بأنه كان نصرانيا ، قال « ولا بد أنه كان نصرانيا .

ولقد عده الأب لويس شيخو فى شعراء النصرانية ، وليس أدل على نصرانية هذا الشاعر من أننا نجد فى شعره كثيرا من إقراره بالله وقدرته وحسابه ، وغير ذلك من عقائد النصارى والأديان السماوية التى لا يعرفها ولا يقرها الوثنى ولا المزدكى ، وإنما يقول بها من كان مثالها » (٢) .

وقد استخرج من ديوانه بعض الإشارات التى يستهدى بها فى معرفة عقيدته الدينية ، ولكن أكثر هذه الإشارات ليست محلا للثقة ، لأن المؤرخين والإخباريين والمسجلين للشعر الجاهلى فى عصر التدوين كانوا يحذفون كثيرا من أسماء الأصنام ، ويضعون محلها أسماء لا تتنافى مع العقيدة الإسلامية . على أن الأستاذ محمد سمك استطاع فى هذا الفصل أن يعرض لعقيدة امرئ القيس عرضا منظما ، وأن يكشف عن وجهة الرأى القائل بنصرانيته وهو الرأى الذى اقتنع به ، وقال عنه : « ومن كل هذا نقف على حقيقة دين ذلك الشاعر وهو النصرانية . ولئن قلنا بنصرانية امرىء القيس فلا يمكننا أن نقول إنه كان متمسكا بدينه تمسك البررة الأطهار والقسس والرهبان بل إنها كانت نصرانية شخص مستهتر لا يبالى كثيرا بالدين وفرائضه والله أعلم » (٣) .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٨
(٢) المرجع السابق ص ٢٦٣
(٣) المرجع السابق ص ٢٧٠ .

على أن قضية تدين هذا الشاعر لا تشكل منعطفاً فى توجهاته الشعرية، ولا يمكن القطع باعتناقه ديانة معينة، وأغلب ما قيل من حجج عن عقيدته لا يتجاوز حدود الظن، إذ حفل الديوان بالعديد من الصور والتخيلات الشعرية التى اقتبسها الشاعر من العـــالم المحيط به فى جزيرة العرب التى لم تعرف ديناً واحداً قبل الإسلام ، كما أنه لم يباشر فى حياته أية طقوس أو شعائر يستهدى بها فى التعرف على ديانته .

وتحدث الأستاذ محمد سمك عن امرىء القيس بعد مقتل أبيه باستيعاب وتفصيل يزيد عما ذكره أبو الفرج فى هذا الجانب، مع بقائه على المنهج المتبع من حيث إغفال المصادر والمراجع وتقبل الروايات بغير تدقيق ، ومحاولة التوفيق بينها والاستشهاد عليها بما قاله الشاعر أو نسب إليه من أشعار وأخبار .

٣ — منزلته الشعرية

عقد محمد سمك فصلا للحديث عن منزلة امرىء القيس الشعرية ، كما عقد فصلا آخر لبيان مآخذ العلماء على شعره . ونؤكد أن ما ذكره فى هذين الفصلين ليس بجديد فى التأليف ، كما أنه ليس بجديد أيضاً على فصول كتابنا .

ولقد سبق الحديث عن مكانة امرىء القيس بين شعراء عصره من خلال ماذكره ابن سلام فى كتابه ، كما اعتمد كثير من الرواة والمؤرخين والنقاد على توجهات الجمحى نحو إعجابه بامرىء القيس ، وجمعه لأكثر الأقوال التى أشادت به وامتدحت ابتكاراته فى الشعر العربى . وتبرز جهود محمد سمك فى هذين الفصلين على الجمع والاستقصاء والترتيب إذ زخر كتابه بفيض هائل من أقوال القدماء الذين يسبقون الجمحى ، أو الذين عاصروه أو جاءوا بعده ونقلوا عنه .

ويبدأ حديثه عن منزلة امرىء القيس فقال : « امرؤ القيس فحل من فحول شعراء الجاهلية، وعلماء البصرة يجعلونه رأس الطبقة الأولى، وغيرهم متفق على أنه من الطبقة الأولى ، وإن كانوا يقدمون عليه سواه ، فأهل الكوفة يقدمون عليه الأعشى وعلماء الحجاز والبادية يقدمون عليه زهيراً، والنابغة ، وابن سلام قد قرنه بزهير والنابغة وأعشى قيس ، ولكن الغالبية مع امرىء القيس فى زعامته ورئاسته لتلك الحلبة الجاهلية»(١).

ثم نقل أقوالا أخرى كلها تشيد بامرىء القيس . وهى للفرزدق ولبيد وسيدنا عمر بن الخطاب فى حديثه عن الشعراء حيث قال : « امرؤ القيس سابقهم خسف لهم عين الشعر ، فافتقرت عن معان عور أصح بصراً » ، وسيدنا على إذ قال « رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ، وأنه لم يقل برغبة ولا رهبة » والحطيئة وكثير ونصيب وأبى عبيدة وابن سلام ، كما نقل أقوالا أخرى، وذكرها بدون نقد أو مناقشة وهى للآمدى فى الموازنة وابن قتيبة فى عيون الأخبار الذى ذكر قصة القوم الذين قدموا على النبى من اليمن بعد أن ضلوا الطريق ثلاثة أيام ، واهتدوا إلى ماء غدق بعد استماعهم لراكب أنشد شعرا لامرىء القيس فقال النبى : «ذلك رجل مذكور فى الدنيا شريف فيها منسى فى الآخرة خامل فيها ، يجىء يوم القيامة وبيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار» ، كما روى ذلك الخبر أيضاً الألوسى فى بلوغ الأرب .

كما جاء فى المزهر أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « امرؤ القيس أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار » ويقصد بذلك الجاهليين . وذكر محمد سمك أن أهل الحديث وعلماء السنة وهم الحجة فيما ينسب إلى الرسول ﷺ يضعفون هذه الرواية بل ينكرونها(٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٦

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٧٩

كما نقل أقوالا فى الإشادة بامرىء القيس ليونس النحوى ولويس شيخو صاحب كتاب (شعراء النصرانية) والبغدادى فى (خزانة الأدب) وخلف الأحمر وبشار بن برد .

ثم اختار عدداً من الأبيات التى اشتملت على بديع التشبيهات لامرىء القيس كقوله :

كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل

وقوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا
وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

وذكر بعض الأبيات الأخرى التى انتقاها من المعلقة فى وصف المرأة وتلاها بقوله : « ويجب أن نذكر أن خيال امرىء القيس خيال شاعر عاش فى البادية بين الوهاد والنجـــاد ، والربا والآكام ، والظباء الوادعة والوحوش النافرة ، ولكل هذا جمال خاص ، وجلال يقف على حقيقته من طبع نفسه بطابع البيداء ، وجعلها مرآة لذلك العراء فلا غرابة بعد هذا إن وجدنا لامرىء القيس فى بعض تشبيهاته نزعة لا تروق أهل الحاضرة وسكان الأمصار»(١) .

وأورد بعض الأبيات التى قال عنها : إنها أحسن غزل امرىء القيس الذى جمع فيه بين عذوبة اللفظ ورقة المعنى وهى من المعلقة أيضاً ، كما نقل قولا لابن قتيبة حول أرق بيت قالته العرب ، ثم ذكر قولا للباقلانى حول جودة شعر امرىء القيس .

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٢

وقد وضح من خلال ما قاله فى هذا الكتاب إعجابه الشديد بامرىء القيس حيث جعله أجود الشعراء فيما طرقه من الأغراض ، وما ابتدعه من المعانى . قال : « وينتهى بنا القول إلى أن الأدب العربى فى العصر الجاهلى لم يعرف أحداً من الشعراء بلغ ما بلغه امرؤ القيس فيما أتى به من مقلدات الشعر وغرر القصائد ، وما تصرف فيه من فنون البيان ، وابتكره من المعانى والأساليب ، واتخذه من مذاهب الكلام »(١) .

ثم بين منزلته عند النقاد القدامى وعند أصحاب اللغة ، وقال إن شعره لم يسلم من أن ينفذ إليه الناقدون ، فيكشفوا عيوبه ومثالبه ، وبخاصة فى النحو واللغة والعروض . ومثل لهؤلاء بالباقلانى الذى انتقد معلقة امرىء القيس فى كتابه «إعجاز القرآن » .

وقد خصص محمد سمك فصلا للحديث عن مآخذ العلماء ، وبدأ بالباقلانى ، وحاول أن يرد على كل عيب وجه إلى المعلقة حتى لو استعان فى ذلك بالروايات الأخرى للأبيات التى تخلو من العيب الذى وجه إلى البيت المنقود . وسبق أن عرضنا لنقد الباقلانى ، فلاداعى — إذن — لأن نعيد ما ذكرناه ، وإن كان من المهم هنا أن نذكر نموذجا لنقد الباقلانى ، ورد محمد سمك عليه ، لنعرف أسلوبه فى النقد والتمييز والحكم على شعر امرى القيس ، علماً بأنه نقل مجموع ماقاله الباقلانى فى نقد الأبيات الغزلية بالمعلقة .

ومن الأبيات التى عابها الباقلانى :

فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل

وجاء فى النقد والرد عليه مايأتى : « وقال الباقلانى أيضاً » : « وأما تشبيه الشحم بالدمقس فشىء يقع للعامة ، ويجرى على ألسنتهم ، فليس بشىء قد سبق إليه » . ونحن لا ندرى ماذا « يقصد الباقلانى » بقوله : إن هذا التشبيه

(١) المرجع السابق ص ١٨٤

يقع للعامة أكان ذلك فى عصر امرىء القيس ، أم فى عصر الباقلانى ؟ ولكن الذى يلوح لنا أن الباقلانى يريد بالعامة أهل زمانه هو، وإذا كان الأمر كذلك فليس هذا بضائر امرىء القيس ، لأن العبرة بعصر الشاعر وزمانه هو لا بالأجيال الآتية بعده ، على أن استعمال العامة لهذا التشبيه واشتهاره فى عصر الباقلانى إلى تلك الدرجة مما يدل على براعة امرىء القيس فى تشبيهه حتى أخذ كل إنسان يجريه على لسانه لجودته ، وحسن تنسيقه وعظمة قائله»(١) .

والذى يلوح لنا من هذا التعقيب من قبل محمد سمك أنه كان معجباً إلى حد كبير بامرىء القيس حتى جعل من نفسه مدافعاً عنه ، ومتعصباً له ، وكان يرى ملازمته للجودة ، وأنه أفضل الشعــراء الجاهليين على الإطلاق(٢) . ومن ذلك ما قاله حول كلام الباقلانى فى بيت امرىء القيس الآتى :

فقمت بها أمشى تجر وراءنا ... على إثرنا أذيال مرط مرجل

قال : « وقال الباقلانى أيضاً : قوله : أذيال مرط كان من سبيله أن يقول ذيل مرط » ونحن نحيل القارىء على رواية أخرى فى هذا البيت عبر فيها امرؤ القيس بالمفرد وهى :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا ... على أثرينا ذيل مرط مرجل

نحيل القارىء على هذه الرواية ليرى أن البيت سلم لامرىء القيس ، وأنه لا عيب فيه ، وليدرك مقدار تحامل الباقلانى على شاعرنا

(١) المرجع السابق ص ٤٣٦

(٢) انظر ألواناً من دفاعه عن امرىء القيس فى بعض الصفحات من كتابه مثل ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٤١ وغيرها .

العظيم »(١) ثم تنبه محمد سمك واستوقف هجومه على الباقلانى ودفاعه عن امرىء القيس ، فـآثر فى نهاية نقده للباقلانى أنه محق فيما ذهب إليه أو أن البيت معيب على امرىء القيس .

وختم هذا الفصل حديثه عن نقـــد ابن رشيق حول تكرير المعانى فى بعض الأبيات بالمعلقة ، كما رد على ماوجه إلى القصيدة الثانية من نقد ، وأقر ببعض ماقاله الأصمعى حول بيت لامرىء القيس .

كما انتقد بعض الأقوال الأخرى التى قصد بهـا نقد أبيات أخرى لامرىء القيس وكان فيها مدافعاً عن الشاعر ومتحمساً لفنه ، ومتسامحاً مع سهوه وخطئه .

٤ — دراسة المعلقة واللامية الثانية

تعد المعلقة واللامية الثانية من أشهر القصائد فى ديوان امرىء القيس ، وقد تبين لنا مقدار ما أختاره منهما الجمحى فى حديثه عن الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين ، كما اختارهما طه حسين من شعر امرىء القيس ، وإن كان شكه قد تسرب إليهما أيضاً من نواح عديدة . ولا شك فى أن موهبة هذا الشاعر وفنه قد وضحا فى هاتين القصيدتين وضوحاً تاماً ، ويمكن أن يمثلا شعره تمثيلا كبيرا حيث تحدث فيهما عن بعض معشوقاته من النساء ووصف الفرس والصيد والليل والبرق والمطر وغيرها من مظاهر الطبيعة المتحركة والصامتة ، وكشف فيهمـــا عن بعض الجوانب الإجتماعية والأخلاقية ، كما تحدث عن تجاربه ومغامراته العاطفية مع بعض النسوة ، وتلك هى جوانب الحياة التى يدور حولها معظم الشعر الجاهلى .

(١) المرجع السابق ص ٤٤٤

وقد تابع محمد سمك القدماء والمحدثين فى عنايتهم بهاتين القصيدتين من شعر امرىء القيس ، فتحدث عنهمـــا بإفاضة ، وأبان الباعث على نظمهما ، وأوضح مافيهما من أفكار ، وكشف عن عبقرية امرىء القيس فى التعبير والتصوير .

وابتدأ حديثه عن المعلقة ، وذكر ما قاله الرواة عن سبب نظمها ، وهو ما حدث يوم الغدير بدارة جلجل ، ثم أضاف قائلا . « ومهما يكن من تحدث الرواة عن يوم الغدير،وجعله سبباً لتلك المعلقة ، فالباعث الحق على هذه القصيدة هو اللهو والعبث والرغبة فى قول الشعر : لأنها لم تقتصر على النسيب والتشبيب .

بل تناولت عدة فنون وأغراض ، وذلك معناه أن الباعث على تلك القصيدة إنما هو الرغبة فى الشعر بمختلف فنونه جرياً على سنة الشعراء فى أشعارهم،(١) .

وقال إن هذه القصيدة من شـــعر امرىء القيس فى أيام شبابه تلك الأيام التى كان يزهو فيها بخفض العيش وخلو القلب من هموم الحياة وأثقالها ، وهى التى أناخت عليه بكلكلها بعد موت أبيه وقيامه بطلب الثأر له ، ولاشك فى أن الأستاذ محمد سمك قد تابع الكثيرين فى هذه الرؤية التى تستند على ظاهر الألفاظ ، وعلى المعانى القريبة .

أما منطق الأشياء فلا يقر بأن تكون هذه القصيدة قد قالها الشاعر فى أول حياته إذ أنها أفضل ما فى ديوانه بشهادة الكثيرين، وهى تدل على أن صاحبها ليس فى أول حياته الشعرية بل تؤكد أنه قد قالها بعد أن استوى الفن الشعرى عنده ، وبلغ أقصى مرحلة له من التقدم والتطور

(١) المرجع السابق ص ١٩٧

ولما لا يكون الشاعر قد قالها فى المرحلة الثانية من عمره بعد أن طال منه الصيال فى ساحة الفن مسترجعا فيها أيام شبابه ولهوه ومغامراته ؟! فما قاله محمد سمك لا يسلم له، وإلا لجعلنا كل ما يقوله أى شاعر من غزل وتشبيب مقتصراً على المرحلة الأولى من عمره ، وهى مرحلة الشباب والقوة والعنفوان .

ثم تحدث عن المؤثرات فى تلك القصيـــدة ورأى أنها «مناظر تلك الأماكن التى رادها والمياه التى وردها ، والصحارى التى ضرب فيها ، والجبال التى شاهدها ، حيث الدخول وحومل وتوضح والمقراة ودارة جلجل وبطن خبت ووجرة وظبى ودوار وضارج والعذيب وقطن والستار ويذبل وكتيفة والقنان وتيماء وثبير والمجيمر وصحراء الغبيط »(١) .

واستدل على هذه المواضع بأبيات المعلقة ، ليدل بذلك على ارتباط الشعر الجاهلى بالبيئة المحيطة به ، ثم أكد ذلك بما فى القصيدة من ظواهر اجتماعية وعادات أخلاقية ، منتهياً إلى كون المعلقة مرآة صادقة للحياة فى العصر الجاهلى .

وقد عكف على تحليل القصيدة ، وكشف ملامحها ، فتحدث عن العلة التى جعلت الشاعر يشرك معه صاحبيه فى هذه التجربة العاطفية التى ذكرها فى المعلقة ، ثم يتوسع فى هـــذه المشاركة عندما يوقف أصحاباً آخرين بمطيهم سوى رفيقيه ليتجاوبوا معه فى أحاسيسه ومشاعره ، ويخففوا عنه لوعته ، ولا يتخلوا عنه فى مواقفه الغرامية .

وتوسع فى الحديث عن التجارب العاطفية التى خاضها الشاعر فى شبابه

(١) المرجع السابق ص ١٩٧

وتحدث عنها فى المعلقة ، ووازن بين مغامراته مع العذارى فى يوم دارة جلجل وبين تجربته مع فاطمة التى تتدل عليه ، وتتمنع عنه ، وهو يجتهد فى استرضائها والتوسل إليها .

ويحاول أن يكشف سر هذا التناقض فيقول : « فتفسير ذلك التناقض إنما يرجع إلى تعدد تجاربه الغرامية التى خاضها ، وخبرته الطويلة التى اكتسبها فى هذا المجال ، وانسياحه طول أيام شبابه وصباه مع نوازع الهوى والغرام ، حتى غدا القول فى الغزل طوع لهاته يصرفه كيف يشاء فيجيد أحاديثه ويفتن فى تدبيجه وتنميته وتلوينه ، ويعرف للقول مواقعه لدى كل أنثى على قدر ما تستأهله عنده ومايناسبها لديه »(١) .

وقد تابع امرأ القيس فى وصفه لليـــل ، وفى تجربته مع الشذاذ والصعاليك الذين اختلط بهم ، وعاش معهم فترة من حياته ، وذكر أربعة أبيات تحدث الشاعر فيها عن تجاربه مع هؤلاء الطوائف من الناس وهذه الأبيات ليست فى رواية الأصمعى ، وشك فيها بعض الرواة مثل ابن قتيبة ونسبوها إلى واحد من الصعاليك وهو (تأبط شراً) إلا أن الأستاذ محمد سمك لاينكر شيئاً لامرىء القيس ، وإذا وجد شعراً مشكوكاً فيه بحث عمن ضمه فى ديوان الشاعر وقال برأيه إلا أن هـــذا التساهل فى قبول الشعر ومحاولة تفسيره بما لايتوافق مع سيرة الشاعر أمر لايلق قبولا أو استحساناً فى الدراسات المعاصرة .

واستكمل تحليل المعلقة تحليلا موسعا ، واعتنى بحديث الشاعر عن الفرس وعن مظاهر الطبيعة المختلفة من جبال ووهاد وسباع وطيور وغيرها ، ورأى أن امرأ القيس قد وفق فى هذه القصيدة

---

(١) المرجع السابق ص٢١٠

أعظم توفيق ، وأنه بلغ بها قمة أدبية سامقة، وأنه وثق نفسه بمظاهر الطبيعة التى تحقق له مشاعره وتجلو أحاسيسه ، ثم تكلم عن القصيدة الثانية :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى

وعرض للأفكار التى تحدث عنها امرؤ القيس فى هذه اللامية ، ومثل لها بالعديد من الأبيات وكان إعجابه بها لا يقل عن إعجابه بالقصيدة السابقة، وذكر أن الشاعر قال هذه القصيدة بعد المعلقة ، وأنه قالها فى شبابه أيضاً مثل المعلقة ، وهذا ما لا نوافق عليه إذ لا يوجد ما يؤكده ، وقد عرضنا لذلك فى الحديث عن القصيدة السابقة .

أما ما نوافقه عليه فهو استبعاد أن يكون الشاعر قال هذه القصيدة فى ابنة قيصر . أما المرأة التى تحدث عنها — هنا — فهى سلمى التى كان أهلها بيثرب. وحدد الباعث على نظمها والمؤثرات التى ظهرت فيها ، فقال : «أما الباعث على تلك القصيدة فهو اللهو العام والعبث والرغبة فى قول الشعر ، والمؤثرات التى ظهرت آثارها فى هذه القصيدة هى عين المؤثرات التى تأثر بها فى المعلقة ، لأن الأماكن التى ذكرها هنا فى هذه القصيدة هى من معاهد البلاد التى جاء ذكرها فى المعلقة »(١).

ثم انتقل إلى تحليل هذه اللامية ، وكشف عن تحية الشاعر للطلل ، وعن ذكريات المكان والزمان ، وعن رد امرىء القيس على ما عيرته به بسباسة . وتحدث عن التجارب التى ذكرها الشاعر ، وعرض للأبيات التى وصف بها فرس الصيد ، وأبرز ما صاده الشاعر بهذه الفرس ، وختم تحليله لهذه اللامية بالحديث عن الآمال التى سعى إليها امرؤ القيس كالمجد المؤثل ، فهو خليق به وبأمثاله من طلاب المجد والسؤدد .

(١) المرجع السابق ص ٢٣١ .

٥ — أثر الحوادث فى شعره

ذكر محمد سمك أن شعر امرىء القيس كان صورة لحياته ، وتعبيراً عن أفراحه وأتراحه . ولانختلف مع المؤلف فى أن هذا الشعر قداستمد مادته من حياة الشاعر بكل مراحلها وأطوارها ، كما صور بيئته أصدق تصوير ، ونقل المناظرالطبيعية والمشاهد الحسية نقلا يمكن أن يكون أميناً، لأنه لايتحدث إلاعما شاهده بعينه ، ولذلك إذارجعنا إلى تشبيهاته وجدناه يستمدها من المظاهر الطبيعية الماثلة أمامه . وإذا انحلت لنا مشكلة اللغة فى الشعر الجاهلى استطعنا أن نتعرف على وضوح هذا الشعر وواقعيته ، وأن أكثر الشعراء كانوا صادقين فى تصويرهم للحوادث التى ألمت بهم ، وبقبائلهم ومجتمعاتهم، لكن لايجب أن نسرف فى تصديق ما يقوله هؤلاء الشعراء وفيهم — بالطبع — امرؤ القيس .

إن للحوادث تأثيراً فى شعر كل واحد لكن هذا التأثير يبقى مقروناً بطبيعة الشاعر وظروف حياته . وكان امرؤ القيس لصيقاً بقبيلته ، وبخاصة فى المرحلة الأخيرة من عمره التى نهض فيها بالثأر لأبيه . ولذلك اعتمد كثير من الرواة والمؤرخين على شعره فى التأريخ لحياته ، وحياة كندة فى شمال الجزيرة وشرقها ووسطها . وكانت عنايتهم — للأسف — تدور فى فلك الشعر الذى يصور الطور الأول من حياته بما فيها من لهو شبابى وترف قبلى وعبث أخلاقى ، ذلك لأن عنايتهم لم تتجاوز المعلقة واللامية الثانية ، وهما لايتجاوزان تلك المعانى السابقة . أما الجانب الآخر من حياة امرىء القيس بما فيه من هموم وأحزان فلم يكن محل عناية عند القدماء .

أما المحدثون فقد تنبهوا له ونظروا نظرة شاملة لديوان هذا الشاعر ، وعرض بعضهم شعره على محك الصحة والوضع . ويبدو أن ثورة الشك على هذا الشعر لم تغير كثيراً من مناهج المحدثين فى تناولهم لشعر امرىء القيس ، وللشعر الجاهلى بعامة . فالأستاذ محمد سمك يدلل بكل مافى ديوان

أمير الشعر على حياته ، ويبرز ما فى هذه الحياة من حوادث من خلال الشعر دون أن يذكر احتمالا واحداً لمعيار الصدق والكذب عند الشاعر أو لمعيار الصحة والوضع فى شعره ، وإننا إذ نعرض لما قاله فى هذا الفصل لنقدم هذه التوطئة السابقة لتكون بين يدى القارىء وهو يقبل على مطالعة السطور الآتية :

لقد تحدث المؤلف عما اعتور الشاعر من اللهو والطرب والهم والحزن فى قوله :

ظللت ردائى فوق رأسى قاعداً ‏ ‏ أعد الحصى ما تنقضى عبراتى
أعنى على التهمام والذكرات ‏ ‏ يبتن على ذى الهم معتكرات
بليل التمام أو وصلن بمثله ‏ ‏ مقايسة أيامها نكرات (١)

وقد ارتبط الحزن بامرىء القيس منذ مقتل أبيه ، وقيامه بطلب الثأر له فتحول بفنه إلى المدح والهجاء ، وإلى الرثاء والتفجع والبكاء حسب البواعث على ذلك . أما أنه قد عرف المدح فلا شك فى ذلك حيث توجه به إلى عوير بن شجنة الذى حمل قطينه وأخته إلى مقامه فى دمون ، فقال يمدحه :

ألا إن قوماً كنت أمس دونهم ‏ ‏ هم منعوا جاراتكم آل غدران
عوير ومن مثل العوير ورهطه ‏ ‏ وأسعد فى ليل البلابل صفوان
ثياب بنى عوف طهارى نقية ‏ ‏ وأوجههم عند المشاهد غران

وبعد أن ذكر محمد سعك للشاعر عدداً من الأبيات فى مديح بنى عوف وهم قوم عوير بن شجنة قال : وهذا أول عهده بالمديح ، والمديح ليس من

---

(١) الأبيات من قصيدة بالديوان رواها الأصمعى والمفضل وغيرهما فهى من القصائد المقبولة (الديوان ص ٧٨) .

صناعة الملوك فهم لا يمتدحون ولكنهم يمدحون ، لذلك جاء امرؤ القيس مقصراً فى مديحه ، كما جاء مقصراً فى رثائه ، لأن ذلك ليس من سليقته ولا طبعه »(١) .

وربما يكون الشاعر مقصراً فى المديح — كما يقول المؤلف — لكن ذلك ليس بسبب أنه ملك ، والملوك لا يمدحون بل يمدحون ، إذ لم يكن امرؤ القيس فى هذا الموقف ملكا، بل كان خائفا مذعورا مطاردا بعدد من الخصوم والأعداء ، ولذا نرى شعره على اختلاف ضروبه — فى هذه المرحلة من حياته — صادقا بليغا ، لأن الحوادث التى ألمت به جعلت منه إنسانا جديدا فى حياته وفى تناوله لفن الشعر .

ولقد أعقب المؤلف ذلك الشعر الذى قاله امرؤ القيس فى المدح بنماذج أخرى فى الشكوى والتفجع ، وانتقل إلى التمثيل للشاعر بما قاله فى مدح سعد بن الضباب ، واختار نموذجا له يتحدث فيه عن شدة وطأته على خصومه . وذكر من محاسن شعره تلك القصيدة التى يقول فيها :

رب رام من بنى ثعَل مُتْلِج كفيه فى قُترِه (١)

كما عرض للقصيدة التى تصور رحلته إلى الروم ، وتذكره لأيام اللهو والشباب ، وأولها :

سما لك شوق بعدما كان أقصرا
وحلت سليمى بطن قو فعرعرا

(١) محمد سمك : أمير الشعر فى العصر القديم ص ٢٩٧ .

(٢) مع أن هذه القصيدة من مرويات الأصمعى والمفضل وغيرهما ، فقد شك فيها البعض ، لأنها تصف عمرو بن المسبح الطائى ورميه للصيد ، وهو متأخر زمناً عن امرىء القيس (انظر الأدب الجاهلى لشوقى ضيف ص ٢٤٦ طبعة دار المعارف) .

كتابية بائت وفى الصدر ودها
مجاورة غسان والحى يعمرا (١)

وأكد المؤلف على تأثير الحوادث فى شعر امرىء القيس بما اختار له من هذه القصيدة وغيرها ، مدللا على أن شعره كان صورة لحياته فى جميع مراحلها وأطوارها .

٦ — أغراض شعره

يعد كتاب (أمير الشعر فى العصر القديم)من أول الكتب التى عرضت علينا الأغراض الشعرية فى ديوان امرىءالقيس عرضا مفصلا مع تحفظنا على طريقة هذا العرض وعلى إهمال المؤلف لرواية الديوان الذى نقل عنه ، وبيان قصائده وسنة طبعه .

وقد ذكر الغزل من هذه الأغراض وقال إنه استغرق ربع الديوان ، ثم ذكر الوصف أى وصف الطبيعة المتحركة والساكنة ، وأضاف إليها وصف الدمن والظعائن ، مبينا رؤية النقاد المتباينة حول ضم (الدمن والظعائن) إلى الغزل وفصلها عنه ، وجعلها غرضا قائما بذاته ، ورجح أن تكون مقدمة للغزل ، كما ذكر من الأغراض الشعرية الهموم والشكوى ، والمدح والهجاء ، والخمر ، والفخر والحماسة ، والرثاء .

أولا — الغزل :

عرض محمد سمك للغزل فى فصل متقدم فى كتابه بعنوان (نساء فى حياة الشاعر) .

---

(١) شك البعض فى هذه القصيدة التى منها هذان البيتان لمجرد أن الشاعر ذكر فيها رحلته إلى قيصر الروم .

وأحال القارىء عليه .

وتحدث عن الأطلال والدمن والظعائن بوصفها تقديما أو تمهيدا للغزل والنسيب ، وتلتقط عبارة من كلامه قال فيها : « ويمتاز امرؤ القيس عمن سبقوه بأنه جعل الأطلال عنصرا مستقلا ، فقد أطال القول فيها ، ونوع صورها ورسومها »(١) لكنه لم يذكر واحدا من هؤلاء القدماء أو مثالا له يؤكد به مقولته السابقة ، ولكنى أظنه تابعاً فى ذلك لمنهج القدماء الذين كانوا يتناولون أمثال هذه العبارة بدون نقد ومراجعة .

ولا أظن أنه فرق بين الوقوف على الأطلال والبكاء عليها، إذ تحدث عن ذكر الأطلال، فقال : «هو بداية النسيب ، ومطلع الغزل ، واسترجاع الماضى الحلو ، واستحضار الحالة الشعورية الخاصة بتجاربه المخزونة فى الوجدان والأحاسيس »(٢) .

وقد تنبه المحدثون لما فى الوقوف على الأطلال والبكاء عليها من رموز وإشارات تتلاءم مع طبيعة الحياة فى الصحراء ، وسبق أن أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن نقد الباقلانى للمعلقة ، ولا حرج على الأستاذ محمد سمك فى عدم تعرضه على أمثال هذه الإشارات ، ويكفيه أنه بذل ما استطاع فى حديثه من الأطلال ، وربط بينها ، وبين حياة البدو فى الصحراء كقوله ، « فالبكاء على الأطلال ثمرة البيئة المتنقلة لهؤلاء البدو الرحل عبر الصحارى والقفار لا تتجاوز مواطن الكلأ والمرعى، والرباع التى يجودها الغيث ، وتهمى عليها الأمطار .. والوقوف على الأطلاع يهيج الذكريات ويستدعى الاستغراق فى تأملها، واستحضار ماضيه ومقارنته بحاضرها الذى آلت إليه ، وما فعلت بها الرياح والأمطار وتعاور الليل والنهار »(٣) .

---

(١) محمد صالح سمك ، أمير الشعر فى العصر القديم ص ٣٢١

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٢ (٣) المرجع السابق ص ٣٢٢

وقد ربط بين الوقوف على الأطلال والعاطفة ذات الجانب الإنسانى العميق ، وذكر أن المرأة فى جانبها النفسى وواقعها المعنوى أكثر وضوحاً فى شعر الأطلال منها فى شعر الغزل عند امرىء القيس ... « لأنه فى مقدماته الطللية لايلاحق المرأة كيانا ماديا حسيا يصف دقائقه فحسب ، وإنما يعرض لها معنى إنسانيا يأسى لفراقها ويحزن لرحيلها ، وتمتلىء (عينيه) (١) بالدموع لما تهيجه الذكرى عند تذكر تلك الأيام الخوالى التى نعم فيها بصاحبته ، وهذه اللحظات السعيدة التى قضاها معها » (٢) .

وقال إن امرأ القيس فى مقدماته أوضح ما يكون شاعرا فنانا ... حيث تتجلى مظاهر فنه فى التأرجح بين الحزن القاتل والرجاء المؤمل ، ليخرج من تجربته وقد اتجه إلى واحد مما تأرجح فيهما . وأبان المؤلف عن دور العاطفة فى المقدمات الطللية عند هذا الشاعر، وهى تعكس البيئة التى تناولتها بكل مافيها من عادات وتقاليد؛ لصدق الشاعر وواقعيته وحرصه على ذكر الحقيقة إذ لم يكن فنانا يرسم من الذكرة رسم المطمئن الهادىء. وإنما كان فنانا يستجيب لدواعى العاطفة منفعلا نشيطا ، يسلك شعابا وفجاجا .

وذكر أن امرأ القيس يحدد فى مقدماته المكان غالبا والزمان قليلا، ومن النادر أن تجده متعرفا على الرسوم والأطلال ، وإن كان يعبر عن خلو الديار بالحديث عن سكنى الوحش لها وانطلاقه فى وديانها، كما يذكر ما فعلته الرياح بها، إلى غير ذلك من المعانى الجزئية التى يعرض لها الشاعر فى حديثه عن الأطلال وبكائه عليها .

---

(١) أظنها (عيناه) .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٤

وقال المؤلف إن المقدمة الطللية تتراوح بين بيتين وسبعة عشر بيتا.

ثم انتقل إلى الجانب التطبيق فاختار إحدى عشرة قصيدة (١) ، وتحدث عن مقدماتها ، وكان يذكر الأبيات الطللية ثم يشرحها شرحاً مفصلا ، وهو عدد كبير حقا إذ كان يكفى نموذجان أو ثلاثة للدلالة على منهجه فى الحديث عند شعر الأطلال عند امرىء القيس .

ومما اختاره من هذا الشعر مقدمة القصيدة الثانية الآتية :

غشيت ديار الحى بالبكرات   فعارمة فبرقة العيرات
فغول فحليت فأكناف منعج   إلى عاقل فالجب ذى الأمرات
ظللت ردائى فوق رأس قاعداً
أعد الحصى ما تنقضى عبراتى
أعنى على التهمام والذكرات   يبتن على ذى الهم معتكرات
بليل التمام أو وصلن بمثله   مقايسة أيامها نكرات
كأنى وردنى والقراب ونمرقى
على ظهر عير وارد الخبرات (٢)

---

(١) هى القصائد : (٣ ، ٤ ، ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٣٠) : ويلاحظ أنها من رواية الأصمعى باستثناء الأخيرة فإنها من رواية المفضل وإن اختارها الأعلم فى نسخته .

(٢) محمد سمك ، أمير الشعر ص ٣٢٩ ، والديوان ص٧٨ ، ويلاحظ من خلال النص المذكور أن المؤلف قد اختار النموذج مطابقا لنسخة البطليوس التى اتخذت من رواية الأصمعى أساساً لها ، وأضيفت إليها قصيدة من رواية المفضل ، ومقطوعة لما ألحق على نسخة الطوسى ، ونسختى السكرى وابن النحاس (كما سبق القول) .

وقال فى أعقاب ذكره لهذه الأبيات التى افتتح بها الشاعر هذه التائية التى تبلغ خمسة عشر بيتا : « يبدأ بتعداد المواضع والأمكنة والمياة التى مر بها وهى كثيرة : البكرات وهى مياه لبنى ذوبية من الضباب عندها جبال سود شوامخ وعارمة ، وهى مياه لبنى تميم بالرمل حيالها جبل لبنى عامر بنجد ، وبرقة العيرات وهى أرض بها حجارة سود ورمل أبيض تسرح فيها الحمر الوحشية ، وغول وهو موضع ماء لبنى الضباب بجوف طخفة ، وحليت وهو موضع عند جبال ضرية فيه ذهب ، ومنعج وهو مكان فى جانب حمى ضرية ، وعاقل وهو جبل ، والجب وهو موضع ، والأمرات وهى العلامات فى الطريق ترشد المسافر جمع أمرة وهو الجبل الصغير »(١) .

وأعقب ذلك بشرح دقيق ومفصل لهذا الشعر . وهكذا كان يفعل فى كل ما ذكره عن وقوف امرىء القيس على الأطلال وبكائه عليها وتنقله بين الديار والمواضع والآثار .

ولم يكن امرؤ القيس من الشعراء الثوابت الذين يكتفون بأنماط محدودة فى تعاملهم مع الأطلال وتعبيرهم عن الوقوف عليها . فقد تنقل بين المرور على الديار ومشاهدة الطلل والوقوف أو النزول عليه ومصافحته أو التسليم عليه ، أو يتجاوز كل ذلك ليربط بين الوقوف والبكاء مؤكداً على ما لحق الديار من تغير رسومها ، سواء بتعفية الرياح لها أم بما لحقها من الصمت التام نتيجة رحيل أهلها أم لغير ذلك .

كما يلاحظ أن كثيراً من قصائده لم يبدؤها بالوقوف على الأطلال ، أو بالمرور عليها أو بغير ذلك مما يتصل بهذا التقليد القديم ، وإنما كان

---

(١) محمد سمك . أمير الشعر ص ٣٢٩

يبدأ مباشرة فى الحديث عن غرضه وموضوعه ، كقوله فى مدح عوير بن شجنة :

إلا إن قوماً كنتم أمس دونهم
هم منعوا جاراتكم آل غدران(١)

وقوله فى مدح جارية بن مر من بنى ثعل :

دع عنك نهباً صيح فى حجراته
ولكن حديثاً ما حديث الرواحل(٢)

وقوله فى الحكمة والفخر :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب(٣)

وغيرها كثير .

على أن ارتباط الوقوف على الأطلال أكثر مايكون بفن الغزل ، لكن يأتى كمقدمة له أو على أنه جزء منه ومتصل به وغير منفك عنه ؛ كما يرى أكثر النقاد .

ثانياً — وصف الطبيعة

عرض صاحب كتاب (أمير الشعر فى العصر القديم) للطبيعة فى شعر امرىء القيس عرضاً ظاهرياً متكاملا ، لاستعراض هذا الغرض فصف ديوانه سواء أكانت الطبيعة حية أم صامتة ، وعنى بالطبيعة الحية وصف الشاعر للفرس والناقة والظباء والعقاب ، وحمر الوحش والظليم (ذكر

(١) الديوان ص ٨٣ (٢) الديوان ص ٩٤
(٣) الديوان ص ٩٧

النعام) وكلاب الصيد وبقر الوحش ونعاجه والثعالب والأرانب البرية، والذئب والأوابد والضباب . وما إلى ذلك من كل كائن حي متحرك على رمال الصحراء وعبر الفيافي والقفار»(١) .

كما عنى بالطبيعة الصامتة : «مظاهر الكون من سماء وأفلاك ونجوم، وكواكب وسحاب ومطر وسيل وبرد ورعد وبرق ، ونهار وليل ، وصحارى وقفار ، وجبال ووديان ونجاد ووهاد وأغوار ونوى وأطلال ودمن وعرصات ونسائم ورياح ؛ ونخيل ونبات ، ودوح وأكام ، وأوتاد وأمراس وجبال وبعر وتراب وصخر وخصب ومحل ... ونحو ذلك من مظاهر الطبيعة التي لا تفيض بالحياة ، ولا تقدر على الحركة الإرادية التي فيها سر الموت والبقاء»(٢) . وقد شمل المؤلف بهذين التعريفين :

كل ما عرض له الشاعر فيما يتصل بوصف الطبيعة، ذلك لأنها بمتحركاتها وسواكنها كانت مرآة امرىء القيس التي تعكس عواطفه ومشاعره تجاه الكون ، ففيها ملاعب صباه ومسارح شبابه ، يقضى بها نهاره وليله ، ويعيش فيها حبه وشقاءه ، وسلامه وحربه ، ويشهد بها الأقوياء والضعفاء والإنسان والحيوان والجبال والسهول والرعود والبروق ، وكانت الطبيعة بمكوناتها الحية والصامتة مناط عناية الشاعر ومبعث اهتمامه، فإذا تحدث عن مشاعره وغزله تطرق لوصف المرأة ، وإذا تحدث عن حروبه وصف الفرس وآلات القتال ، وإذا انتقل من رجء إلى آخر تناول ناقته بالوصف لكل أعضائها ... وهكذا كان امرؤ القيس وسائر الجاهليين يوظفون الوصف في معظم أغراض الشعر إن لم يكن فيها جميعاً .

---

(١) محمد سمك — أمير الشعر ص ٣٤٣
(٢) المرجع السابق ص ٣٤٣

أما الوصف بمعناه العام فلا يخرج من التحديد السابق الذى ذكره محمد سمك .

وصف الطبيعة المتحركة

إذا رجعنا إلى حديث المؤلف عن وصف الطبيعة المتحركة فى شعر امرىء القيس نراه يذكر أن الشاعر قد عرض فى أكثر وصفه إلى اثنين من مكونات هذه الطبيعة وهما الفرس والناقة ، أما بالنسبة للفرس فوظيفته معروفة حيث يتخذ للحرب وللصيد ، ولأمور أخرى سبق أن تحدثنا عنها أما بالنسبة للناقة ، وهى عنصر مهم من عناصر الطبيعة ، فلم يسبق أن تكلمنا عنها فى الفصول السابقة ، ولذى يأتى الحديث عنها — هنا — فى موضعه تماما ، «فهى سفينة الصحراء ، وعليها البلاغ فى الشبع والرى ، وفى الارتحال وحمل الأثقال ، والسفر بها عبر الصحارى والرمال والفيافى ، والقفار »(١) .

أما ما أورده الشاعر وتحدث به عن مظاهر الطبيعة الحية الأخرى ، «فإن حديثه عنها لم يكن مقصودا لذاته ، بل جاء به فى مجال الحديث عن الفرس ومتعة الصيد ، أو جاء به فى مجال الحديث عن الناقة ، وضرورة الارتحال على مطاها »(٢) .

ويمكن بذلك أن نقسم كلام المؤلف عن شعر الطبيعـــة الحية عند امرىء القيس إلى ثلاثة أقسام وهى وصف الفرس ، ووصف الناقة ، ووصف الصيد وما يتصل به من المظاهر الأخرى .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤٣

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٣ ، ص ٣٤٤

(أ) وصف الفرس

سبق أن عرضنا لحديث القدماء عن وصف امرىء القيس للفرس ، ويكاد إجماعهم ينعقد على أن هذا الشاعر رائد لا ينازع فى شعر الخيل من خلال حديثه عن الفرس كأداة للحرب أو الصيد أو المتعة أو الزينة .

وقد عرض محمد سمك لحديث امرىء القيس عن الفرس فى المعلقة، وفى اللامية الثانية كما عرض لذلك فى باقى القصائد الأخرى ، ومنها تلك البائية، التى بارى بها امرؤ القيس علقمة بن عبدة (الفحل) ، وذكر منها اثنين وثلاثين بيتا من مجموع أبياتها التى تبلغ الخمسة والثلاثين . ومما اختاره من وصف الشاعر للفرس قوله : (١)

وإن أمس مكروبا فيارب غارة
شهدت على أقب رخو اللبان
على ربذ يزداد عفوا إذا جرى
مسح حثيث الركض والذألان
ويخدى على صم صلاب ملاطس
شديدات عقد لينات متان
وغيث من الوسمى حو تلاعه تبطنته بشيظم صلتان
مكر مفر مقبل مدبر معا كتيس ظباء الحلب العدوان
إذا ما جنبناه تأود متنه كعرق الرخامى اهتز فى البطلان

وكان صاحب الكتاب الذى تحدث عنه يعرض لهذه الأشعار ويشرحها كما صورها الشاعر .

---

(١) محمد سمك ، أمير الشعر ص ٣٥٣ ، والديوان ص٨٦ ، ٨٧

(ب) وصف الناقة

قال محمد سمك إن امرأ القيس قد أجاد أيضا فى وصف الناقة ، لأنها « وسيلة انتقاله عبر الصحارى والقفار ، حيث تصعب الأرض ، ويغزر الرمل ، وتنعدم المياه ، ويقل العشب ، وتكثر الأحمال ، ويثقل المتاع »(١) وذكر أن قصائد الشاعر التى قالها فى شبابه تخلو تماما من ذكر الناقة مثل المعلقة واللامية الثانية وأن أول إشارة لها فى البائية التى بارى بها علقمة عند زوجه أم جندب فى طيء .

وأرى أن السبب الذى لم يجعل الشاعر يذكر الناقة فى الشعر الذى تحدث فيه عن شبابه هو أنه لم تكن تربطه بالناقة علاقة كالتى ربطته أنذاك بالفرس الذى اعتمد عليه فى الصيد أو فى الحرب بعد مقتل أبيه . أما الناقة فهى حيوان أقرب إلى البطء عندما يقاس بغيره من الحيوانات .

وقد ربط الدكتور مصطفى ناصف بين الناقة والاتجاه إلى الأم ، وهذا الاتجاه شاغل مهم فى المجتمع الجاهلى « ذلك أن الأم هى المنبت الحقيقى لفكرة المحبة والرضا والسلام . والشاعر القديم يشتاق إلى أن يتصورها هائلة الجسم ، لأن ذلك يعنى أنها معين لا ينضب ، وطاقة لا يسبر غورها كله » (٢) .

وكان الشاعر الجاهلى يهتم دوما بماله صلة بالحرب من الحيوانات ، ولم تكن الناقة بمعزل عن طبيعة الحياة فى المجتمع الصحراوى . وذكر مصطفى ناصف أيضا أن فكرة الناقة من أكثر الأفكار تنوعا : « فالناقة منبت كل ما أهم وأقلق وأحزن الشاعر الجاهلى ، أوهى التى تخلق الأفكار

---

(١) محمد سمك . أمير الشعر ص ٣٥٥

(٢) مصطفى ناصف . قراءة ثانية لشعرنا القديم ص١٠٢، ١٠٣ .

التي ترفع الإنسان عن رتبة الحيوان . الأفكار العالية التي تتصل بإشباع الحاجات الأولية . الناقة في هذه الحالة ليست وسيلة إلى غاية بل هي تجمع كل شعور بالغائية الواضحة والغامضة . الناقة هي خالقة الأساطير التي أخرجت الشعر من الغناء الساذج إلى التصدي الملح لفكرة المشكلات ، أو لنقل : إن الناقة هي التي نقلت الفكر العربي قبل الإسلام مما نسميه طبيعة الملاحم إلى طبيعة الدراما والصراع » (١) .

وكان القدماء يتحدثون في قصائدهم عن الناقة ثم يشبهونها بحيوان آخر ، ثم يسردون قصة ذلك الحيوان ، ويعودون إلى الناقة فيشبهونها بحيوان آخر وهكذا ، وإذا جاء حديثهم عن الناقة نزرا يسيرا ، باستثناء القلة منهم ، من أمثال طرفة الذي عرض لها في معلقته عرضا مفصلا ، ووقف عندها وقفة متأنية ، وتحدث عنها في ثمانية وعشرين بيتا ، ورسم لها صورة عامة ومتكاملة .

وهي عند سائر الشعراء الجاهلين : « قوية متينة صلبة قبل السفر ، وهي نحيلة مهزولة بعد أن قطعت الفيافي ، وجابت الفلوات في حر الهواجر وقر الشتاء ، يعتنون بوصف شكلها ولونها وصفاتها ويشبهونها بالبقرة الوحشية ، والثور والحمار والأتان والظليم (ذكر النعام) ، كما يشبهونها بالبناء الشامخ والسفينة والسيف والدلو والسحابة ، وفي كل تشبيه من هذه التشبيهات يصورون حالا من أحوالها ، وصفة من صفاتها » (٢) .

ورأى البعض (٣) أن الحديث عن الناقة يمثل الحاضر ، ويؤكد

---

(١) المرجع السابق ص ١١٥

(٢) د / يحي الجبوري . الشعر الجاهلي ص ٢٥٠

(٣) د / مصطفى الشورى في كتابه (الشعر الجاهلي) ص ١٣٧

استمرارية الحياة التى يحرص الناس عليها بعكس الحديث عن الطلل الذى يمثل الماضى ، وإذا ارتضينا أن تكون الناقة رمزا للحياة فلا تكتفى بالإشادة بها وهى وسيلة للرحلة فى الصحراء بل تنظر إليها وهى تؤدى دورها فى الحياة إذ تقدم الغذاء من لبنها، والكساء من وبرها ثم الطعام من لحما ، فهى — إذن — جزء من الحياة التى يعيشها البدوى فى الصحراء، ولذلك توقف مقدار ماتحدث به كل شاعر عنها بمقدار عطائها له أو بمقدار الصلة التى بينها وبينه ، ولذا لا تستبعد أن تكون منزلتها فى شعر امرىء القيس أقل من منزلة الفرس ، لأن احتياجه أو ارتباطه بهذا الحيوان كان أعظم وأكبر من أى ارتباط بحيوان آخر ، ولكنه لم يتجاهل الناقة فلها دورها فى الصحراء الذى يخصها ، ولا ينوب عنها فيه حيوان آخر

وذكر محمد سمك قدرا كبيرا من الشعر الذى قاله امرؤ القيس فى الناقة ، وهو شعر يمكن تناوله ضمن الحديث عن الرحلة أو عن وصف بعض الحيوانات الأخرى .

ففى قصيدته البائية (ألاعم صباحا) يتحدث عن الناقة فيقول :

وإنك لم تقطع لبانة عاشق بمثل غدو أو رواح مؤوب

حيث يذكر الناقة ويشبهها بحمار وحشى، ثم يدعها ويمضى إلى وصف الحمار .

وفى قصيدته (غشيت ديار الحى) يعرض لوصف الناقة فى كلمة عاطفة ، ويذكر أنها تسرع مثل الحمار الوحشى ، وينتقل عند ذلك إلى إلى وصف الحمار .

لكن ذلك لم يكن ديدنه فى كل ما قاله عن الناقة ، فله قصائد تحدث

فيها من هذا الحيوان حديثا مطولا، حيث وصف أعضاءها وصفا ظاهريا أو تناول وصفها وصفا معنويا، كالسرعة وغيرها .

ففي قصيدته القافية : (ألا عم صباحا أيها الربع وانطق) وصف الناقة في سبعة أبيات ، فقال (١) .

فعزيت نفسي حين بانوا بجسرة
أمون كبنيان اليهودي خيفق
إذا زجرت ألفيتها مشمعلة   تنيف بعذق من غراس ابن معنق
تروح إذا راحت رواح جهامة
بإثر جهام رائح متفرق
كأن بها هرا جنيبا تجره   بكل طريق صادفته ومأزق
كأني ورحلي والقراب ونمرقي   على يرفئي ذي زوائد نقنق
تروح من أرض لأرض نطية
لذكرة قيض حول بيض مفلق
يجول بآفاق البلاد مغربا   ويسحقه ريح الصبا كل مسحق

لقد عزى الشاعر نفسه على فراق أحبابه بارتحاله على ناقة نقنق طويلة كبنيان اليهودي ، وذكر عددا من صفات تلك الناقة مثل السرعة، إذ رأى نفسه ومتاعه فوقها ، كأنه يركب ظليما من النعام وبصفاته المذكورة في الشعر السابق ، ومع أن طرفة رائد في حديثه عن الناقة إلا أنه احتذى بيت امرىء القيس الذي قال فيه :

وعنس كألواح الإران نسأتها   على لاحب كالبرد ذي الحبرات(٢)

---

(١) محمد سمك أمير الشعر ص٣٦٢، ٣٦٣ والديوان ص١٦٩، ١٧٠، ١٧١
(٢) البرد ذو الحبرات : ثياب اليمن الموشاة

ووصف طرفة ناقته فقال :

أمون كألواح الإران نسأتها ... على لاحب كأنه ظهر برجد

وهذا يدل من جانب آخر على قناعة الجاهليين بإمارة امرىء القيس للشعر بعامة ، وإلا لما بان احتذاؤهم له فى الألفاظ والمعانى على السواء .

(حـ) وصف الصيد ما يتصل به .

يتلازم حديث الشاعر عن الفرس والناقة بحديثه عن الصيد وما يتصل به من وصف لكلابه ورحلته ورماته وحمر الوحش وبعض الحيوانات الأخرى .

وقد عرض محمد سمك لنماذج متعددة من شعر امرىء القيس حول هذه المكونات لعناصر الطبيعة الحية ، واختار من قصيدة الشاعر (خليلى مرابى ...) ثمانية وعشرين بيتا رسم فيها صورة واضحة لمشاهد الصيد ومتعه ومزاولة نشاطه، كما شمل الوصف الفرس وهو يصرع الثور والنعجة والفحل بينما الغلمان يلاحقون بقية الثيران حتى انتهت المعركة بمصرع ما صرع وهروب ما أفلت ، وخروج الفتيان لإعداد الطعام من اللحم الذى كان كثيراً جدا .

ويضيق المقام هنا عن تناول كل ما فى الديوان حول رحلة الصيد ، ونكتفى بنموذج واحد قاله الشاعر وهو فى طريقة إلى السموءل يصف فيه أشهر الرماة فى عصره ، وهو عمرو بن المسبح الطائى من بنى ثعل ، قال(١) :

رب رام من بنى ثعل ... متلج كفيه فى قتره (٢)

---

(١) محمد سمك . أمير الشعر ص٣٧٣ ، والديوان ص١٢٣

(٢) بنو ثعل : قبيلة من طيىء . متلج : مدخل .

عارض زوراء من نشم　　غير باناة على وتره (١)
قد أتتــه الوحش واردة　　فتنحى النزع فى يسره (٢)
فرماها فى فرائصها　　بإزاء الحوض أو عقره (٣)
برهيش من كنانته　　كتلظى الجمر فى شرره (٤)
راشه من ريش ناهضة　　ثم أمهاه على حجره (٥)
فهو لا تنمى رميتـه　　ماله لا عد من نفره (٦)
مطعم للصيـد ليس له　　غيرها كسب على كبره (٧)

وقد شرح محمد سمك هذه الأبيات فقال : « يصفه امرؤ القيس بأنه صياد ماهر يصيد الوحش مختالا ، يكمن فى القتر التى يكمنون فيها للوحش لئلا يراهم فينفر منهم .

وقد أعد قوسا مائلة الجوانب ليرمى بها ... إنه لا ينحنى على الوتر عند الرمى ، وحين ترد الوحش عليه ، يضع ما يريد صيده منها قبالة وجهه وجبهته ، حتى إذا أصبح الصيد قريبا من الماء مطمئنا ، رماه فى فرائصه ،

---

(١) غير باناة . غير بائنة عن الوتر ، ورجل غير باناة على وتره أى غير منحن على القوس عند الرمى .
(٢) فتنحى النزع : تحرف حيال وجهه ، فى يسره : قبالة وجهه .
(٣) عقره : أى أى الحوض ، وهى موضـــع أخفاف الإبل عند الورود ، يقصد أن هذا الرامى أرصد للوحش عند الماء .
(٤) الرهيش : السهم الخفيف .
(٥) راشه : أى جعل للسهم ريشا . أمهاه : أرقه وحدده .
(٦) لا تنمى رميته : لا تنهض بالسهم فتغيب عنه ، بل تسقط مكانها
(٧) مطعم للصيد : صائد لا يخطىء سهمه .

وأصاب مقاتله بسهم يستله من كنانته ... إنه سهم يتوهج حدة وبريقا كجمر مشتعل، جعل له ريش طائر، وأرقه وحدده .. يسقط ما يصاد به مكانه ولا يستطيع حراكا، ياله من صياد ماهر !! إذا عد قومه فلا مثيل له فيهم إنه صياد محترف لا يكاد سهمه يخطىء. وليس له وسيلة يكتسب منها عيشه وطعامه غير الرماية والصيد على كبر سنه »(١)

لم يكن حديث الشاعر عن الرامى إلا جزءا من حديثه عن الصيد الذى ارتبط فى مواضع كثيرة من الديوان بالحديث عن الخيل، وعن الناقة أيضاً فى عدد من القصائد والمقطوعات، ولقد امتد حديثة إلى أوابد الصحراء التى لها صلة بالصيد كالعــير الوحشى وأتنه وثيران الوحش وأبقارها ونعاجها. ووصف الحمار فى خلقه وخلقه، ورسم له صورة متكاملة، وجاء حديثه عن الصيد ليشمل: ظليم النعام وكلب الصيد وبازى الأجواء وعقاب السماء، وأرانب الصحراء، وفئران البيداء »(٢)

وكان يتجاوز الوصف الظاهرى فى حديثه عن حيوان الصحراء ليكشف بخبرته فى الصيد عن طباع هذا الحيوان وصفاته، وهى طباع تختلف من حيوان لآخر ومن حالة إلى أخرى.

وصف الطبيعة الصامتة

ليس حديث الشاعر عن مظاهر الطبيعه الصامتة بجديد علينا، فقد سبق أن عرضنا لشعره فى المطر والبرق والرعد والسحاب والليل وغيرها.

وقد اختار محمد صالح سمك تسعة أبيات فى وصف البرق فى أول قصيدة لامرىء القيس قال: (٣)

(١) محمد سمك : أمير الشعر ص٣٧٣ ، ٣٧٤

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٩

(٣) المرجع السابق ص٣٨٧ ، والديوان ص٧٢

أعنى على برق أراه وميض
يضيء حبيا فى شماريخ بيض(١)
ويهدأ تارات سناه وتارة
ينوء كتعتاب الكسير المهيض(٢)
وتخرج منه لامعات كأنها
أكف تلقى الفوز عند المفيض(٣)
قعدت له وصحبتى بين ضارج وبين تلاع يثلث فالعريض
أصاب قطيات فسال لواهما
فوادى البدى فانتحى للأريض
بميث دماث فى رياض أنيقة
تحيل سواقيها بماء فضيض (٤)
بلاد عريضةٌ وأرض أريضة مدافعُ غيثٍ فى فضاء عريض
فأضحى يسحُّ الماء عن كل فيقة
يحوز الضباب فى صفاصف بيض (٥)
فأسقى به أختى ضعيفة إذ نأت
وإذ بعد المزار غير القريض (٦)

---

(١) الحبىّ : السحاب المتدانى ، الشماريخ : ما ارتفع من أعالى السحاب وقيل : الجبال المشرفة .

(٢) تعتاب : سير

(٣) المفيض : الذى يضرب فى القداح باليسر

(٤) الميث والدماث : الأرض اللينة السهلة

(٥) الصفاصف : جمع صفصف وهو المستوى من الأرض

(٦) بعد المزار : بعد مزارها منى فلا أصل إلى لقائهما .

لقد تابع البرق وهو يلمع من خلال السحاب المتقارب بعضه من بعض ، وهو برق متغير يهدأ ويسكن ثم يتحرك ويمشى فى تثاقل، كأنه حيوان من ذوات الأربع يمشى على ثلاثة أرجل ، وتخرج منه السحاب نشيطة مسرعة ، وقد ترقبه الشاعر فى عدة مواضع ليعلم المكان الذى سيصب فيه المطر . وقد نزل على أرض مباركة ، بها الضباب التى تخرج من أوجارها وتتلاق فى أرض مستوية ، ويدعو أن تسق أخته بهذا الماء كهدية لها مع شعره وقريضه الذى يرسله لها حيث نأت بها الديار .

وهكذا تابع الشاعر رحلة البرق وتسلطه على السحاب الذى ينزل مطرا على مواضع متعددة . ويعكس هذا التصوير غرام امرىء القيس بعناصر الطبيعة ، وبقيمة الماء فى البادية ، حيث تتغير صورة الأرض من الجفاف والجدب إلى الخضرة والنماء .

ثالثا — هموم وأحزان

اتخذ محمد سمك من شعر امرىء القيس تأريخا لحياته مع الهموم والأحزان ، وذكر أن هذا الشاعر قد صاحب الهم فى صباه ويفاعه وزجولته ، غير أنه لم يقل إن لكل مرحلة من هذه المراحل لونا معينا من الهموم يختلف عن مثيله فى المرحلة الأخرى .

ويعرض لبعض الأبيات من المعلقة التى قالها الشاعر فى أيامه الأولى — أو بمعنى أدق — عن أيامه الأولى عندما كان فتيا ... « تضيق الدنيا بشبابه وآماله ، وقدمها فى صورة رائعة بلغت الذروة فى مجال التصوير والخيال وحسن التعبير والأداء اللفظى ... »(١) . قال(٢) :

(١) محمد سمك . أمير الشعر ص ٣٨٩

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٠ ، والديوان ص ١٩ ، ١٨

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى
بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامها
بأمراس كتان إلى صم جندل

لم يفصح الشاعر عن لون الهم الذى ألم به فى هذه الأبيات ، والتى جعل فيها الليل ينيخ بكل أثقاله وأحماله عليه ، فيكاد يسحقه سحقا وهو جاثم عليه ثم ماذا يرجى من الصبح ؟ لن يجد فيه أقل مما وجده فى الليل من هموم وأحزان .

وذكر الأستاذ محمد صالح سمك فى معرض حديثه من هموم الشاعر وأحزانه ثلاثة أبيات من لاميته (ألا عم صباحاً) ، ولانرى فيها إلا تعبيراً من الشاعر عن أماله وطموحاته ، قال(١) :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى
وما المرء مادامت حشاشة نفسه
بمدرك أطراف الخطوب ولا آل

فهذه الأبيات التى يذكر الشاعر فيها سعيه للمجد المؤثل الذى يليق

(١) محمد سمك ، أمير الشعر ص ٣٩٢ ، والديوان ص ٣٩

به وبأمثاله ، وليس له أن يقلق أو يضجر ، لأن الإنسان مهما بذل من جهد لا يستطيع أن يحقق كل ما تصبو نفسه إليه .

وكشف امرؤ القيس عن كثير من أنواع الهموم التى ألمت به فى حياته ، وتحدث عنها فى القصيدة الرائية التى أفاض فيها عن بعض الجوانب من رحلته إلى بيزنطة ، وأولها :

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا
وحلت سليمى بطن قو فعرعرا

وقد ذكر فيها أن الحزن تسلل إلى أعماقه منذ أن تذكر بقايا أهله الصالحين ، وهو يقطع الفيافى ، ويجتاز المدن ليصل حاضره الممض بماضيه الحافل بالمآثر والأمجاد ، كما كشف عن المرض الذى ألم به وعن الغربة التى واجهته حتى ظنه الناس فى البلدان التى مر بها عابر سبيل ، وليس أميرا أو ماسكا، مع أن أمره لا يعنيهم ولا يهمهم ، كما جعل من أسباب حزنه فى رحلته إلى قيصر ما ألم بأهل رفاقه من جزع عليهم ويأس من لقائهم .

ورسم فى هذه الرائية صورة للهموم التى عرضت له بسبب ما لقيه من الناس والرفاق الذين اتخذهم أصحابا ثم ما لبثوا أن تغيروا عليه ، وخانوا صداقته ، قال(١) :

إذا قلت هذا صاحب قد رضيته
وقرت به العينان بدلت آخرا
كذلك جدى ، ما أصاحب صاحباً
من الناس إلا خانى وتغيرا

(١) محمد سمك ، أمير الشعر ص ٣٩٣ ، والديوان ص ٦٩

وقال فى شعر آخر يندد فيه بالرفاق(١) :

وخليــل قـد أفارقه ثم لا أبكى على أثره
وابن عم قد تركت له صفو ماء الحوض على كدره

فهو لايحزن على فراق من أصفى له الود ، وأخلص له الحب ، ثم اكتشف فيه الغدر .

وذكر محمد سمك قصيدة للشاعر ، « تفيض كلها بزفرات المحزون ، وتأملات المهموم ، واستسلام المقهور ، وقلق المضطرب الحائر ، أمام صروف الدهر وأحداثه ، وأسرار الحياة ونوازلها»(٢) وهى البائية التى قال فى أولها(٣) :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

وأظن الشاعر قد قالها بعد أن عجز عن الثأر لأبيه ، واسترجاع ملك أجداده، ولذا فهى تعبر عن حالة من اليأس التام الذى شمله فى سنواته الأخيرة إذ جاء فيها :

وقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب
أبعد الحارث الملك بن عمرو وبعد الخير حجر ذى القباب
أرجى من صروف الدهر لينًا ولم تغفل عن الصم الهضاب

وإذا بحثنا عن بعض الأسباب لهذه الأحزان والهموم نجدها لدى الشاعر كثيرة فلقد فشل فى كل محاولاته التى قصد بها إلى تحقيق آماله وطموحاته ، كما فقد الصديق الذى يخلص له الود ، ويخفف عنه وقوع الحزن ، وفقد الأمان أيضا أثناء تنقله بين القبائل ، وشعر بالغربة

(١) محمد سمك ، أمير الشعر ٣٩٣ ، والديوان ص ١٢٦
(٢) محمد سمك ، أمير الشعر ص ٣٩٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٩٤ ، والديوان ص ٩٧

والمرارة وهو بين أهله ورفاقه وأثناء رحلته إلى قيصر ، وهكذا توالت الخطوب عليه من كل جانب ، ولم يجد باباً يخرج منه للهروب من كل هذه الأحزان .

وقد جعل محمد سمك الهم الذى ألم بالشاعر لونين : أولهما الهم الذى انتابه كفنان (شاعر) حيث يشكل هذا اللون جزءا من كيانه العام ، وثانيهما الهم الذى مصدره تناقض الحياة أمامه ، واختلافها عليه ، وفشله فى تحقيق أماله ، ويأسه من حاضره ، وأساه على ماضيه ، وقد استعرض فى هذا اللون علاقته بالحياة والأشخاص وبالموت والفناء كما جاء فى الديوان .

رابعاً — مديح وهجاء

جاء فى ديوان امرىء القيس عدد من المقطوعات والقصائد القصيرة فى المدح والهجاء وهى مع قلة أبياتها لاتكشف عن شاعريته وموهبته فى هذين الغرضين .

ولقد ظهر فى الجاهلية عدد كبير من الشعراء الذين برعوا فى المدح وفى الهجاء مثل النابغة وزهير والأعشى ، فهؤلاء الشعراء وغيرهم يتخذون من المديح وسيلة للكسب ، ولذا يعرفون طرائق هذا الفن ، ويبرعون فيه كقول زهير فى مدح هرم بن سنان :

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

أو قول النابغة فى مدح النعمان :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وهكذا يعرف الشعراء أساليب المدح طمعا فى الكسب حتى لو ساقوا تعابيرهم فى شىء من النفاق والتحايل ، وبقـــدر ما ينجح الشعراء

في المديح ينجحون إ غالباً في الهجاء مادام غرضهم لم يتحقق وهو التكسب، وأكثرنا يعرف من تاريخ الأدب في العصر العباسي — مقدرة أبي الطيب المتنبي على المديح والهجاء معاً ، فلقد مدح كافوراً الإخشيدي طمعاً في التكسب وتحقيق بعض الآمال ثم هجاه وأسرف في هجائه عندما خاب ظنه وتبدد طموحه .

أما امرؤ القيس فكان شاعرا في الغزل والوصف وبعض الفنون الأخرى التي ليس منها المديح والهجاء ، فقد كان ملكا أو ابن ملك ، ولم يكن محتاجا للتكسب من أحد حتى يمدحه ويثني عليه ، كما لم يكن مضطراً لأن يذم أحداً لأنه لم يعطه ، ولم يبذل له المعروف ، ثم لما تلاعبت به السنون ، وقلبت له ظهر المجن وصار يتنقل بين القبائل فهذه تقف معه وتساعده ، وتلك تسانده ، وأخرى تحاربه وتقاومه ، فضلا عن الأمان الذي كان يبحث عنه ويسعى إليه ، وهو مع ذلك مطارد من عدو وخصم لدود ، وهو المنذر بن النعمان الذي قتل طائفة من شباب كندة في ديار بني مرينا — عند ذلك احتاج الشاعر إلى المديح والهجاء ، ولكنه افتقد الأداة أو الوسيلة التي يعرفها الموهوبون فقال شعراً في هذين اللونين نرى الشاعر فيهما صادقا وصموتا ، ولكن الصدق وحده لايخلق الشعر الجيد الرائع .

وهكذا وجدت الدواعي لقول المدح والهجاء في المدة التي كان الشاعر يتنقل فيها بين القبائل بعد مقتل أبيه وقبل رحلته إلى قيصر ، ولكن مديحه في تلك المدة يدور ما بين البيتين إلى السبعة ، وكلها أبيات معدودة في مقطوعات متغيرة لم تكتمل منها قصيدة طويلة كالتي نراها في سائر شعره. وقد مدح عوير بن شجنة وسعد بن الضباب وبني عوف قوم عوير والمعلى التيمي وطريف بن مالك وبني ثعل وابن حنبل الثعلبي وبعض الأشخاص الآخرين الذين ورد مديحهم في شعر لانثق فيه الثقة التامة .

وهجا بنى حنظلة ، وهانىء بن مسعود ، وبنى عدوان والبراجم ومن معهم من يربوع ودارم وآل مجاشع ، وكان يجمع فى المقطوعة أو القصيدة بين المدح والهجاء كما فى هجاء خالد النبهانى ومدح بنى ثعل ، وفى هجاء هانىء ابن مسعود ومدح سعد بن الضباب . على أن هجاءه قليل جداً ، ويتراوح بين البيتين والأربعة ، مما يؤكد قصر نفسه فى هذا اللون .

ولم يذكر محمد سمك فى حديثه عن المدح والهجاء نماذج لامرىء القيس ، وأحال على ماسبق التمثيل به فى (أثر الحوادث على شعره) . ولم ير للشاعر شأواً فى هذين الغرضين لأنه « ملك وابن ملك ، والملك يُمدح ولا يمدح .. والملك ليس بصخاب ولا عياب ولا شتام »(١) .

ونحن نذكر للشاعر — هنا — بعض ماقاله فى هذين الغرضين ، لنؤكد على ماسبق أن ذكرناه . قال فى مدح المعلى أحد بنى تيم من جديلة طيىء وكان أجاره ، ومنع عنه شر المنذر بن ماء السماء :(٢)

كأنى إذا نزلت على المعلى ... نزلت على البواذخ من شمام

فما ملك العراق على المعلى ... بمقتدر ولا ملك الشآم

أصد نشاص ذى القرنين حتى ... تولى عارض الملك الهمام

أقر حشا امرىء القيس بن حجر ... بنو تيم مصابيح الظلام

وقد تحقق لامرىء القيس الأمن والأمان وهو نازل عند المعلى التيمى من جديلة طيىء واشتهر قومه بمصابيح الظلام لمقولة امرىء القيس فيهم .

(١) محمد سمك . أمير الشعر ص ٤٠٠

(٢) الديوان ص ١٤٠ ، ١٤١

وله بيتان يمدح فيهما طريف بن مالك بالشهامة والكرم في أوقات الشدة والعسرة.

قال(١):

لنعم الفتى تعشو إلى ضوء ناره
طريف بن مال ليلة الجوع والخصر
إذا البازلُ الكوماء راحت عشية
تلاوذ من صوت المبسَّين بالشجر(٢)

ويروى أنه نزل على خالد بن أصمع النبهاني فلم يستطع حمايته حيث أغار بنو جديلة على إبله فانتهبوها، وذهب خالد لاسترجاعها على رواحل امرىء القيس فأنزلوه عنها وانتهبوها أيضا، فتحول امرؤ القيس عنه، ونزل على جارية بن مر بن حنبل أخي بني ثعل، فأجاره وأكرمه، فقال يهجو خالدا ويمدح جارية وبني ثعل(٣):

دع عنك نهبا صيح في حجراته
ولكن حديثا ما حديث الرواحل
كأن دثارا حلقت بلبونه
عقاب تنوفى لاعقاب القواعل(٤)

---

(١) الديوان ص ١٤٢

(٢) البازل: المسنة من الإبل، الكوماء: العظيمة السنام لسمنها. تلاوذ: تلوذ بالشجر. المبس: الذي يدعو للحلب فيقول: بس بس.

(٣) الديوان ص٩٥، ٩٥، ٩٦.

(٤) تنوف: جبل. القواعل: الجبال الطوال.

تلعب باعث بذمة خالد
وأودى عصام فى الخطوب الأوائل(١)

وأعجبنى مشى الحزقة خالد
كمشى أتان حلّئت بالمناهل(٢)

أبت أجأ أن تسلم العام جارها
فمن شاء فلينهض لها من مقاتل

تبيت لبونى بالقرية أمنا
وأسرحها غبا بأكناف حائل

بنو ثعل جيرانها وحماتها
وتمنع من رماة سعد ونائل

تلاعب أولاد الوعول رباعها
دوين السماء فى رءوس المجادل

مكللة حمراء ذات أسرة
لها حبك كأنها من وصائل(٣)

وهكذا توقفت طموحات الشاعر عند حرصه على أن ترعى رواحله فى أمان فى ديار بنى ثعل، كما شعر هو أيضا بالأمان الذى افتقده فى ديار خالد النبهانى.

(١) باعث : رجل من طيئ، وهو الذى أغار على الرواحل.
(٢) الحزقة : الرجل القصير.
(٣) الأسرة : الطرائق فى النبات، الحبك : الطرائق أيضا.

خامساً — خمر وراح

ذكر محمد سمك أن ديوان امرئ القيس لم يشتمل على ذكر الخمر إلا فى نحو عشرين بيتاً بثها فى أربعة عشر موضعاً ، جاء بعضها فى بيت واحد وبعضها الآخر فى بيتين أو ثلاثة على أكثر تقدير .

وهذا يدل على عدم عناية الشاعر بذكر الخمر على عكس ما كان منه فى غرامه بالغزل والصيد ، كما أنه لم يذكر لنا نسخة الديوان التى اعتمد عليها فى هذا الإحصاء ، وإلا فقد ذكر أبياتاً لم يقطع الرواة فى نسبتها إلى الشاعر . كما أورد بعض الأبيات التى ذكرت فى نسخة واحدة من الديوان ، ولم يروها الأصمعى أو المفضل كالبيت الذى قاله امرؤ القيس عندما جاءه خبر مقتل أبيه وهو بدمون :

خليلى مافى اليوم مصحىً لشارب
ولا فى غد إذ ذاك بالكأس تشربُ

فقد تفردت به نسخة السكرى(١) .

وهكذا نجد أن الأبيات التى ذكرها محمد سمك لشعر الخمر عند امرئ القيس غير مقطوع بصحة بعضها ، وحتى لو افترضنا الصحة فى كل الأبيات فإنها لاتشكل غرضاً شعرياً لدى واحـــد من أمراء الشعر فى العصر القديم .

ومما أورده له من شعر الخمر قوله فى القصيدة التى وصف فيها رحلته إلى الروم :(٢)

---

(١) الديوان ص ٣٤٢ (٢) الديوان ص ٦٠

إذا نال منها نظرة ريع قلبه
كما ذعرت كأس الصبوح المخمرا

وقوله فى آخر هذه القصيدة :

ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا
نقاداً وحتى نحسب الجون أشقرا

وقوله فى القصيدة التى مدح فيها سعد بن الضباب ، وهجا هانىء بن مسعود(١) :

أغادى الصبوح عنـد هر وفرتنى
وليدا وهل أفنى شبابى غير هر

وعقب مؤلف (أمير الشعر فى العصر القديم) على الأشعار التى قالها امرؤ القيس ومنها الأبيات السابقة فقال : «ونخرج من هذا على أن امرأ القيس لم يبلغ حد الجودة والبراعة فى وصف الخمر ، وذكر مجالسها وسقاتها ... إلخ وهو فى هذا المجال لم يكن على مستوى أقرانه من الشعراء من مثل الأعشى وعلقمة الفحل ، والأسود بن يعفر النهشلى وعدى بن زيد ، وعمرو بن كلثوم وغيرهم »(٢) .

ثم ذكر عدداً من الشواهد للشعراء السابقين ، وشرحها وعلق عليها ، وتمخضت موازنته بين ما قالوا ، وبين ما قاله امرؤ القيس عن قوله :

« وبمقارنة ما قاله امرؤ القيس بما قاله هؤلاء الشعراء نجد أنه كان مقصرا عنهم ، وأن شعره فى الخمر كان سطحى المحتوى ، ليس فيه تصوير بارع . ولا خيال رائع ، ولا فن رائق ... »(٣) .

---

(١) الديوان ص ١١٠

(٢) أمير الشعر فى العصر القديم ص ٤٠٣ ، ٤٠٤

(٣) المرجع السابق ص ٤٠٧

ولا نعتقد أن هذا القدر من الأبيات — الذى يمكن أن يتسرب الشك إلى نصفه — يشكل غرضا مستقلا أو فنا مستهدفا لدى امرىء القيس، وهى حصيلة بسيطة قالها عرضا، أو تقليداً، أو تعبيراً عن بعض المواقف البسيطة فى حياته الصاخبة.

سادساً — فخر وحماس

حرص المؤلف على أن يعامل امرأ القيس كملك أو أمير، ولذا استبعد أن يقول مالا يقوله الملوك، ولا أدرى كيف نسى أن هذا الملك — الذى قال عنه إنه ليس بحاجة إلى الفخر — قد لعبت به الأيام، وعصفت به الخطوب وانقطع ما بينه وبين الملك، ولم يبق له منه إلا الذكرى المليئة بالدم والحراب. ثم استشهد لامرىء القيس بثلاثة نماذج قال: إنها كل ما أحتواه ديوانه من الفخر، وهى فخره بالظفر ببنى أسد الذى قتلوا أباه (عشرة أبيات) وفخره على شهاب وعاصم اليربوعيين من بنى مالك (ثلاثة أبيات) وفخره بقوته وشجاعته فى جلاء الأعداء والفتك بهم (خمسة أشطار من الشعر المسمط)، وذكر هذه النماذج الثلاثة، وشرحها مؤكداً فى هذا الغرض على أن الملوك ليسوا بحاجة إلى الفخر.

ومن خلال قراءتنا للديوان وجدنا أن لامرىء القيس شعرا فى الفخر أكثر وأجودها ذكره محمد سمك، وها نحن نذكر أمثلة لهذا اللون حتى نستخلص منها طبائع هذا الغرض، قال ملخصا مفاخره فى اللامية الثانية(١):

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

---

(١) الديوان ص ٣٥، ٣٦

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال
ولم أشهد الخيل المغيرة بالضحا على هيكل نهد الجزارة جوّال

ويبدو أنه قال هذه الأبيات بعد أن تغيرت أحواله ، فقد صار أمره إلى وضع كأنه لم يركب جوادا للصيد ، ولم يستمتع بالكواعب من النساء ، ولم يشرب الخمر ، ولم يلحق بأصحابه فى الكر على الأعداء ، وكأنه لم يشهد الحروب على الخيل المغيرة فى الضحى . وقال فى الرائية التى تحدث فيها عن رحلته إلى قيصر(١) :

عليها فتى لم تحمل الأرض مثله
أبر بميثاق وأوفى وأصبرا(٢)
هو المنزل الآلاف من جو ناعط
بنى أسد حزناً من الأرض أوعرا(٣)

وهو يفتخر بنفسه ، ويتباهى بأخلاقه ، ويتوعد بنى أسد الذين قتلوا أباه بأنه سوف يجبرهم على التحصن بالجبال ، ثم ختم هذه الرائية بخمسة أبيات فى الفخر ، وهى(٤) :

وكنا أناساً قبل غزوة قرمل ورثنا المجد أكبر أكبرا

وما جبنت خيلى ولكن تذكرت
مرابطها من بربعيص وميسرا
ألا رب يوم صالح قد شهدته
بتأذفَ ذات التل من فوق طرطرا

(١) الديوان ص ٩٥ (٢) عليها : أى على الناقة
(٣) ناعط : حصن بأرض همدان ، جو : أرض باليمامة
(٤) الديوان ص ٧٠ ، ٧١

ولا مثل يوم فى قداران ظلته   كأنى وأصحابى على قرن أعفرا

ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا
نقادا وحتى نحسب الجون أشقرا

وهو يتعذر عما لحق بقومه من هزيمة فى لقائهم مع قرمل (ملك اليمن)، ويذكر أن ذلك لم يكن لجبن منهم، ولكن لأن خيله تذكرت لقاءاتها السابقة التى كان ينتصر فيها ويعكف بعدها على شرب الخمر حتى يغفل عن التمييز بين الألوان .

ومن شعره الذى يصور فيه جانبا من صراعه مع أبيه فى المرحلة الأولى من عمره عندما شبب بهرتوج والده أو واحدة من سباياه، فطفق أبوه يحأ فى عنقه حتى أدمى منخريه، ورفع به إلى مولى له اسمه (ربيعة)، وأمره أن يقتله فى مكان بعيد، وذهب به المولى، وذبح جؤذرا، وأتى بعينيه إلى والده حجر، فقرأ الندامة والغضب فى وجهه، وأخبره بأنه لم يقتله، وأنه فى مكان كذا، وانطلق إليه ليحضره إلى أبيه فسمعه يقول(١) :

لا تسلمنى يا ربيع لهذه   وكنت أرانى قبلها بك واثقا

مخالفة نوى أسير بقرية   نوى عربيات يشمن البوارقا

فإما تريْنى اليوم فى رأس شاهق
فقد أغتدى أقود أجرد تائقا

وقد أذعر الوحش الرتاع بقفرة
وقد أجتلى بيض الخدود الروائقا

نواعم تجلو عن متون نقية   عبيرا وريطاً جاسدا وشقائقا

---

(١) الديوان ص ١٩٥ ، ١٩٦

ويذكر ربيعة قائلا : إنه إذا كان اليوم فى رأس جبل فسوف يأتى يوم آخر يكون فيه فارساً مغواراً يرهب الوحوش ، ويعجب النساء الجميلات المتزينات بأفخر أنواع الثياب .

ولقد أخترت هذه النماذج بحسب ترتيب ورودها بالديوان ، ومؤكدا فى الوقت نفسه أنها ليست كل ما قاله امرؤ القيس فى الفخر والحماسة فله غيرها الذى لم أذكره ، ولم يذكره محمد سمك فى هذا الفصل من كتابه .

ونقر بأن ما قاله شاعرنا فى الفخر يختلف عما قاله غيره من الشعراء الجاهليين فى هذا الفن ، فإن فخره من اللون الشخصى الذى يتغنى فيه بنفسه وبأخلاقه ، وصفاته التى كان يراها من المفاخر ، ولم يتجاوز بفنه حدود نفسه إلى رحاب القبيلة الأوسع . وندرك تماما بأن شعره فى الحماسه والفخر لايصل إلى ماقاله أقرانه الجاهليون ، وأين هذه المقطوعات والأجزاء من القصائد مما قاله عمرو بن كلثوم مثلا ؟ ولا نعتبر أن امرأ القيس شاعر فخر بل هو شاعر قال فى الفخر بعض الشعر الذى عبر فيه عن بعض طموحاته ، وافتخر به على خصومه وأعدائه .

ونؤكد على أن معظم ما روى لامرىء القيس من شعر الفخر يرتبط بظروف غير عادية فى حياته ، ولم يكن فى حال رضا نفس « بل كان فى حال إثارة أو غضب أو محنة أو تهديد أو تدم ، حتى إن ما تنسبه إليه الأخبار فى هذا الميدان ، وتدعى أنه قاله ، وهو فى أول صباه يظهر أنه كان فى وقت عصيب كذلك »(١) .

---

(١) د/على الجندى . تاريخ الأدب الجاهلى الجزء الثانى ص ١٥٣ مكتبة الأنجلو المصرية ط ٣ عام ١٩٦٩م

على أن شعره فى هذا الغرض يكشف عن فخره باللهو والمتعة ومغامراته مع النساء ، وبركوبه الخيل للصيد والحرب ، ثم بقتاله للأعداء ، وكره عليهم ومنازلته لهم ، حتى يحقق النصر عليهم.

سابعا — رثاء وعبرة

لامرىء القيس شعر قليل جدا فى الرثاء الذى يختلف — قطعا — عما قاله فى التحسر والألم والبكاء على الأمجاد التليدة لقبيلة كندة ، وقد ذكر محمد سمك أن ماروى عن الشاعر من الرثاء مرثيتان أولاهما — وهى بيتان — فى رثاء الحارث بن حبيب السلمى ، أما الثانية فقد قالها فى رثاء نفر من قومه قتلهم المنذر فى ديار بنى مرينا(١) :

قال :

ألا ياعين بكى لى شنينا ... وبكى لى الملوك الذاهبينا
ملوكا من بنى حجر بن عمرو ... يساقون العشية يقتلونا
فلو فى يوم معركة أصيبوا ... ولكن فى ديار بنى مرينا(٢)
فلم تغسل جماجمهم بغسل ... ولكن بالدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم ... وتنتزع الحواجب والعيونا

ولاشك فى أن حزن الشاعر على هؤلاء الشبان واضح ومؤثر ، ذلك لأنهم قتلوا فى وقت كان الشاعر فيه أحوج إلى كل واحد من أبناء كندة ، ثم إن قاتلهم لم يكن وحيا بهم ، فلم يأخذهم كأسرى مثلا ، وإنما أراق دماءهم فى ديار قوم من بنى عدى بن أوس بن مرينا بالحيرة ، كما أنهم لم

(١) الديوان ص ٢٠٠
(٢) بنو مرينا : قوم من أهل الحيرة بناحية الكوفة .

يقتلوا في معركة يدافعون فيها عن شرف كندة وكرامتها ولم تغسل جماجمهم بما يجب أن تغسل به بل رملت بالدماء ، وتركت لسباع الطير تنتزع منها الحواجب والعيون .

ولو احتوى ديوان امرىء القيس من الرثاء ما يشبه هذه المقطوعة لكان لنا معه كلام آخر يختلف عما ذكرناه في هذا الغرض الشعرى .

أما إذا نظرنا لمناحي الحزن في شعره فسوف نجدها كثيرة جدا ، ولا تقتصر على عدد محدود من القصائد والمقطوعات ، ذلك لأن شعره يضج بالهموم والأحزان ، ويمتلىء باللوعة والتحسر ، ولكن الحزن الشامل — بأسبابه المختلفة — شيء والبكاء على الميت وهو فن الرثاء شيء آخر .

وأخيرا

نكتفي بهذا القدر من كتاب (أمير الشعر فى العصر القديم) إذ لا يتبقى فيه غير بعض القضايا الجزئية البسيطة ، وما قدمناه يكفى فى إعطاء صورة عن امرىء القيس من خلال هذا الكتاب .

وإذا كنا قد أطلنا فى الحديث عن الكتاب المذكور ، فإن ذلك راجع لكثرة القضايا التى تعرض لها محمد سمك ، وتحدث عنها بإفاضة ، كما أنه اعتمد كثيرا على النقل من غيره سواء من القدماء أو المحدثين بدون تمحيص أو تحديد لما ينقل ، فوقع بذلك فى إشكالية خطيرة سنتحدث عنها فى موضع آخر من كتابنا ، وأطال فى الموضوعات التى لا تتصل بشعر امرىء القيس اتصالا مباشرا فتضخم حجم الكتاب ، ولذا جاء حديثنا عنه فى هذا الفصل مطولا وغير متناسب تناسباً فعليا مع قيمته التى اهتزت كثيرا بسبب النقول الكثيرة من الكتب الأخرى ، التى زادت فى الطبعة الثانية . وقد سبق أن أكدنا على التسامح مع المؤلف لحداثة سنه عند الشروع فى تأليف هذا الكتاب .

الفصل الرابع

الشوامخ (امرؤ القيس)

للدكتور محمد صبري (السربوني)(١)

أخرج الدكتور محمد صبري السربوني الجزء الأول من سلسلة كتبه عن الشوامخ عام ١٩٤٤م، وكان امرؤ القيس أول هؤلاء الشوامخ الذي تحدث

---

(١) ولد محمد صبري في حدود عام ١٨٩٠م بمدينة المرج، وانتقل إلى القاهرة، ومال إلى الأدب منذ طفولته، وحصل على البكالوريا عام ١٩١٣ وبدأ التأليف وهو طالب ثانوي بمدرسة الخديوية فألف (شعراء العصر) الجزء الأول عام ١٩١٠م بتقديم المنفلوطي، وألف الجزء الثاني بتقديم صدق الزهاوي عام ١٩١٢، وعاد إلى مصر، وأخرج عدة دراسات أدبية منها كتاب عن البارودي وآخر عن إسماعيل صبري، وذهب إلى فرنسا، وحصل على الدكتوراة من السربون عام ١٩٢٤ عن (نشأة الروح القومية في مصر) ولقب بالجامعة التي تخرج منها فعرف بالسربوني، ورجع إلى مصر، وعمل مدرسا للتاريخ في مدرسة المعلمين العليا ثم في الجامعة المصرية عند افتتاحها، كما درس في دار العلوم، وأصدر مجموعة الشوامخ، وجعل الجزء الأول منها عن امرىء القيس، وطبعه في عام ١٩٤٤، وتنقل في عدة وظائف، وألف العديد من الكتب ومنها: الشوقيات المجهولة، خليل مطران، وغيرهـــا من المؤلفات المطبوعة والمقالات المخطوطة والأحاديث المسجلة. وقد توفي بالقاهرة في يناير عام ١٩٧٨ م

راجع كتاب (صبري السربوني سيرة تاريخية وصورة حياة) لأحمد حسين الطماوي.

عنه فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا ، وقد قسم دراسته عن هذا الشاعر إلى ستة فصول ، ويحث فى كل فصل منها موضوعا مستقلا عما فى الفصول الأخرى ، علما أن أهمية الدراسة فى هذه الموضوعات تختلف بين فصل وآخر ، خاصة وأننا قد تحدثنا عن امرىء القيس من خلال العديد من الكتب التى اختلفت فى تناولها لهذا الشاعر .

ونحن نعرض للكتاب الذى معنا حسب فصوله الستة التى تتألف منها .

أولا — تمهيد

تحدث الدكتور محمد صبرى فى هذا الفصل عن بعض المسائل المتصلة بامرىء القيس كوصف البيئة التى نشأ فيها ، فقال : « .. وهو ابن ملك ، ولوع بالصيد ، يزجر طير الخيال ، ويتعقب آرام البادية ونساءها ، بين أوديتها ونجادها ، وجبالها ووهادها ، بين مائهـــا ومرعاتها ، وصباها وجنوبها وريحها ومطرها ، وبروقها الخافقة وسيوفها اللامعة ، بين عرار نجدها وخزاماه ، وشيح تهامتها وقيصومها ، بين كثبانها وأغوارها ، وسيولها وجداولها ، وظلال شجرها ولفحات هجيرها»(١)

ولقد أطنب محمـــد صبرى السربونى ، واستطرد فى وصف الطبيعة الصحراوية بهذه الجمل القصيرة والمتعاطفة التى تذكرنا بأساليب القدماء فى نظمهم وسبكهم لأجزاء الكلام .

وذكر أن القدماء أقروا بأولية امرىء القيس ومعلقته ، لكنهم لم يكشفوا عن حقيقة هذه الأولية بطريقة شافية تروى النفوس ، كما اعتنى

---

(١) محمد صبرى : الشوامخ (امرؤ القيس ص٥ طبعـــة دار الكتب عام ١٩٤٤ م .

أكثرهم يبحث النواحى اللغوية ، والاستعارات الحسنة كبيضة خدر ، وقيد الأوابد وغيرها .

وغاب عنهم البحث فى نواحى الوصف والتصوير التى هى باب البلاغة أى كأنهم عنوا بالجسم أو بالوشى الذى يغطيه ، وأهملوا الروح . وأعتقد أن هذا الحكم على القدماء فى درسهم لشعر امرىء القيس يحتوى على مبالغة كبيرة من الدكتور محمد صبرى . فإنهم لم يهملوا درس الوصف والتصوير .

ولنأخذ كتاب الجمحى كمثال حيث جاءت فيه الاستعارة والوصف والتشبيه مع التمثيل لها بشعر امرىء القيس .

ولا أدرى كيف فرق المؤلف بين التصوير الذى يقصده ، وبين الاستعارة التى تحدث عنها القدماء ، ولو قال أن القدماء نظروا إلى شعر امرىء القيس نظرة جزئية أو تناوله كل واحد من جانب مهملا الجوانب الأخرى لكان لنا كلام آخر حول ما ذكره سلفا ، أما قوله بأن القدماء لم يوفوا الناحية اللغوية فى شعر امرىء القيس حقها ، فهو قول صحيح ، ذلك لأنهم لم يحرصوا على جمع شتات الموضوع ، ولم يتوسعوا فى بحوثهم مثل المحدثين تخصصا واستيعابا .

وذكر أن القدماء استوفوا الحديث عن الحب ، وضربوا فيه على كل وتر ، وتغنوا به على الأطلال والديار ، ثم امتدح الشعر الغنائى ، وارتقى بامرىء القيس إلى قمة الفن ، فقال : « وقد اتفق رواة الشعر على أن أصدق الشعر ماء ، وأعلاه نفسا فى جميع بلاد الله هو ذلك الشعر الغنائى القديم الذى لهجت به الأمم فى بدايتها أو بداوتها ، ولا شك أن الذى قال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

والذى قال : (وليل كموج البحر) هو صنو هوميروس وشكسبير فى علو النفس وصفاء الخيال)(١) .

ونعتقد أن السربونى فى كلامه السابق — مع الإقرار به والتسليم بما جاء فيه — متأثر بما قرأه عن شعراء اللاتين، إذ يكاد النقاد المحدثون والقدماء أيضا يجمعون على أن منزلة امرىء القيس بين الشعراء العرب كمنزلة هوميروس بين شعراء الإغريق .

ثانيا — حياة الشاعر وشخصيته

لقد تقدم الحديث عن حياة الشاعر وشخصيته فى أكثر من موضع بمؤلفات القدماء والمحدثين . لكن ما الجديد الذى أضافه محمد صبرى السربونى لتصوير هذه الحياة وإبراز معالمها ؟ إن هذا ما سوف نجيب عليه فى السطور التالية .

لقد أراد مؤلف الشوامخ أن يؤكد على الربط بين حياة امرىء القيس وشعره . وعلى أن شخصيته قد تجلت فى حياته وفنه الشعرى قال : « وإن الناظر إلى شعره يرى طابع شخصيته بوضوح ، ولذلك ترى معلقته تقف بين المعلقات الأخرى وقوف البناء المشمخر بين الأبنية الصغرى »(٢) .

وتحدث عن شعر امرىء القيس فذكر أنه قد أضيف إليه شعر كثير منحول ركيك لا ينتظم مع نفس الشاعر وطريقته ، وأورد نموذجا لما أضيف إليه من هذا الشعر المنحول ، وقال إنه من خير ما يروى لامرىء القيس لأنه أول ما يذكره بالطفولة وبلهنية العيش ، وهذا النموذج هو أربعة أبيات من قصيدة أولها :

---

(١) المرجع السابق ص ٨ (٢) المرجع السابق ص ٩

لمن الدار تعفت (مـذ) حِقَب ٭ فجنوب الفرد أقوت فالخَـرب(١)

وهذه القصيدة من المنحول الثانى من نسخة الطوسى حسب ورودها فى الديوان، وقيل عنها إنها لشاعر مخضرم هو عمرو بن ميناس المرادى، وإذا كان القدماء قد وضعوا هذه القصيدة فى دائرة الشعر المنحول، وشكوا فى نسبتها لامرىء القيس، فما كان للسربونى أن يتحدث عنها أو أن يربط بينها وبين الشاعر الذى يترجم له.

وكانت هذه الأبيات بمثابة تمهيد للحديث عن طفولة الشاعر التى كانت ناعمة رقيقة. ولأجل أن يكشف عن رؤيته فى بيان هذه الطفولة ذكر أن الأدب العربى منذ نشأته يتنازعه عاملان: عامل الحقيقة وعامل الخيال وتحدث عن انتصار الثانى على الأول فقال: «وقد كان انتصار الثانى على الأول من أكبر الأسباب التى حالت دون بلوغه الدرجة التى كان خليقاً بها، فإذا رثى شاعر رجلا جعل الجبال تميد جزعا والسماء تضطرب حزنا... وإذا مدح إنسانا أو وصفه كان وصفه كله على سبيل المبالغة والتعميم بحيث يصبح كالثوب المأجور يصلح لكل أحد»(٢).

وقد كان المؤلف مصيبا عندما قال بانتصار الثانى على الأول، ولكنه لم يقض عليه تماما إذ تطالع كثيرا من القصائد الجاهلية التى اتزرت بالحقيقة، وصارت بذلك مميزة فى ديوان الشعر الجاهلى.

وتحدث عن نسب امرىء القيس وتاريخه ونشأته فى نجد، وكثرة تنقله منذ صغره إلى غير ذلك من التفاصيل التى لا داعى للحديث عنها. وختم الفصل بشرح وتعليق للقصيدة التى رثى بها الشاعر نفسه قبل موته

---

(١) الديوان ص ٢٩٣
(٢) محمد صبرى (الشوامخ) جـ ١ ص ١٢

فى أنقرة بعد عودته من القسطنطينية ، وقد تابع المؤلف السابقين له من القدماء والمحدثين فى القول بأن هذه القصيدة قد ذكرت الحلة المسمومة التى يقال إن الشاعر قد لبسها فأسرع السم فى بدنه وتساقط جلده مع أن القصيدة ليس فيها ما يؤكد هذه الحلة التى تحدثوا عنها ، وإنما يصف فيها داء قديما ألم به وعاد إليه ، وأولها(١) :

ألما على الربع القديم بعسعسا
كأنى أنادى أو أكلم أخرسا

فلو أن أهل الدار فيها كعهدنا
وجدت مقيلا عندهم ومعرسا

فلا تنكرونى إننى أنا ذاكم
ليالى حلَّ الحى غولا فألعَسَا

وقد أورد محمد صبرى القصيدة بأبياتها الأربعة عشر ، وذكر أنها تمثل حياة الشاعر وشخصيته أدق تمثيل بما فى هذه الحياة من مرض وألم وفهم للنساء . ويعد تحليله لهذه القصيدة من أفضل ما كتبه فى هذا الفصل عن بعض الجوانب من حياة امرىء القيس .

ثالثا — امرؤ القيس كما يراه المتقدمون

تحدث محمد صبرى عن نقد مناهج القدماء فى الحكم على الشعر والشعراء ، إذ أن كلماتهم مع وجازتها لا تتعدى دائرة معينة من الفكر والنظر ، قال : « ولئن كان لهم العذر فى جهل طريقة النقد البنائية من بحث وتحليل فقد يؤخذ عليهم أنهم فى تقدير الشعر عنوا بالعرض لا بالجوهر ، واهتموا بأمور ثانوية كالمطلع والمعانى المخترعة والاستعارات والتشبيه .

(١) المرجع السابق ص ١٨ والديوان ص ١٠٥

وأمدح بيت وأهجى بيت قالته العرب ، فوقفت عنايتهم عند حد الزخرفة والجزئيات ، وألهتهم الاستعارة عن البيت أو عما وراءه من صورة فذة تتوثب فيها العاطفة والوجدان!، والبيت أو الأبيات عن القصيدة ومحيط شعر الشاعر ، وقد تعمق البعض فى النقد الضيق والفهم السقيم فغابت عنهم روعة الشعر وبيانه»(١) .

إن هـــذا الحكم على القدماء لا يشمل كل ما كتبوه فلهم بعض المؤلفات التى خطت خطوات واسعة على درب النقد المنهجى الصحيح ، وذكر السربونى منها كتاب (الموازنة بين أبى تمام والبحترى) للآمدى ، ولكنه انتقد منهجه فى الموازنة فقال : «ولكن موازنته لم تتعد مقارنة البيت بالبيت والمعنى بالمعنى وما إلى ذلك من سرقات فكان مثله مثل غيره ينظر إلى السماء ويقبع فى حفرة »(٢) .

وكنا قد ذكرنا فى فصل سابق اعتماد الرافعى على ابن رشيق فى الحديث عن استعارات امرىء القيس وتشبيهاته ، وها نحن نذكر هنا أيضاً اعتماد السربونى على كتاب العمدة لابن رشيق فى الحديث عن رؤية القدماء تجاه امرىء القيس .

كما استعان بما كتبه الرافعى للإبانة عن مناحى هذه الرؤية ، ثم اعتمد على رأيه فى امرىء القيس كتعبير عن رؤية المحدثين .

وبسط ما قاله ابن رشيق حول شعر امرىء القيس من خلال ما كتب فى العمدة عن المخترع والبديع والتمثيل ، والإيغال وهو ضرب من المبالغة، والتشبيهات والتتبيع والاستعارة . وقد لاحظنا أن الأبيات المذكورة

---

(١) محمد صبرى (الشوامخ) جـ ١ ص ٢٣

(٢) المرجع السابق ص ٢٣

هنا هى نفس الأبيات المذكورة فى كتاب الرافعى (تاريخ آداب العرب)، كما نقل السربونى ما كتبه الرافعى عن بيتى امرىء القيس وما قاله عنهما ابن وكيع أن بهما أول استعارة وقعت فى الكلام .

كما عرض لما كتبه الرافعى عن شهرة امرىء القيس فى العرب وبقاء شعره على ألسنتهم .

وتحدث السربونى عما كتبه فؤاد البستانى فى كتابه (الروائع) عن قيمة شعر امرىء القيس . أما ما كتبه البستانى فهو خلاصة لكثير من أقوال القدماء التى جمع بينها ونظم شتاتها ومثل لها بالشعر ، ثم أضاف إلى هذه الخلاصة رؤية عن الأحوال الاجتماعية للشاعر وعن الوحدة الاجتماعية فى شعره(١) .

وجاء السربونى فاقتطع جزءاً مما كتبه البستانى وأكمل به الحديث عن رؤية المحدثين ، وقال فى نهاية هذا الفصل : « هـــذا مجمل آراء القدماء والمحدثين فى امرىء القيس ذكرناها على علاتها ليتبين بواسطتها القارىء نهج البحث الذى نسير عليه بعد أن رسمنا أسسه العامة فى الفصلين الأولين »(٢) .

رابعاً — التمثيل والتصوير فى شعر امرىء القيس

عمد السربونى فى هذا القسم من كتابه إلى دراسة شعر امرىء القيس، وتحليله واستخلاص ملامح الشاعر منه ، وعنى أيضاً بما بزّ به أقرانه لشعر الطبيعة بعناصرها المتحركة والساكنة ، ومهد لدراسته لشعر

(١) فؤاد البستانى : الروائع (الجزء السابع) ص ك وما بعدها الطبعة (١١)١٩٨٦ م دار المشرق بيروت .

(٢) محمد صبرى . الشوامخ جـ ١ ص ٣٢

امرىء القيس بالحديث عن ملكة التمثيل وملكة البيان ، لأنهما إذا اجتمعا لشـــاعر كانت عظمته سراً من الأسرار تستعصى على الشرح والتفسير . قال : وذلك لأن التمثيل يصدر عن العقل الشعرى ، وهو مؤلف من الإدراك والحس ، وقوة الملاحظة ، وهذه القدرات الثلاث هى التى تجعل من الإنسان الضئيل (الذى هو شبر فى شبر) قوة تتحرك ، وتتوثب فى حدود (اللانهاية)، فإذا أضيفت إلى ملكة التمثيل ملكة البيان ، وهما صنوان لا يفترقان ظهرت فى شعر الشاعر تلك القوة المغناطيسية الجذابة التى قال عنها النبى ﷺ : (وإن من البيان لسحرا)(١) .

ورأى أن هذه القوة الجذابة الهائلة تتمثل فى أشياء كثيرة كالسَّحَر الذى كان يحبه امرؤ القيس ، ويخرج فيه للصيد بين الهضاب والوديان .

وإذا كان القدماء قد امتدحوا تشبيه الشاعر للحصان بقيد الأوابد فإن مؤلف الشراع قد امتدح روعة البيت الآتى ، وقوة جاذبيته بالشطر الأول منه ، قال :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها
بمنجرد قيد الأوابد هيكل(٢)

كما امتدح كلمة (السدفة) فى قول امرىء القيس :

يغرِّدُ بالأسحار فى كل سدفة ... تغرُّدَ ميَّاح الندامى المطرب(٣)

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣
(٢) المرجع السابق ص ٣٣ والديوان ص ١٩
(٣) الديوان ص ٤٥

وأعجب بالإيغال (مثل القدماء) فى وصف شدة مرور الريح بشجر الأثأب فى قوله يصف الحصان :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه
تقول هزيز الريح مرت بأثاب(١)

وقد كان امرؤ القيس واحدا من الشعراء الذين يرتكزون على أرض الحقيقة ، وهو لا يصور هنا ، وإنما يمثل ، فجاء تمثيله كأروع تصوير ، وهذا الميل إلى الحقيقة هو الذى حدا به إلى سبق كتاب الإفرنج فى مناح كثيرة ، ومنها هذا المنحى الذى نحن بصدده وهو وصف الحقيقة(٢) .

وأكد المؤلف على هذا المنحى من الشاعر ، فذكر أنه كان يجرى على سنة تحديد الأماكن وذكرها فى العديد من الأبيات بالقصيدة الواحدة ، وأن ذلك كان يكثر بصفة خاصة فى مقدمات القصائد التى تبدأ بالوقوف على الديار والبكاء على الأطلال .

وتحدث عن انتشار شعره فذكر أن معظمه يجرى فيه ماء الحضر ، وأن أسلوبه أرق أساليب الجاهلية ، ولكنه لم يكشف عن تلك المشارب التى يجرى فيها التحضر أو ماء الحضر كما قال .

وإذا كان امرؤ القيس قد صرح بأن ابن خذام هو أول من بكى الديار حيث أوجد ينبوعاً جديداً من خيرة ينابيع الشعر الغنائى العربى

---

(١) الديوان ص ٤٩ . وأثاب : شجر يشبه الأثل يشتد صوت الريح فيه .

(٢) انظر محمد صبرى (الشوامخ) جـ ١ ص ٣٧

في صفائه وعذوبة مائه ، فإن امرأ القيس قد أخرج من ذلك الينبوع بحرا مذ قال :

(قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)

وقال عنها محمد صبري : «وهي أكبر صيحة للحب في وجه الفناء ، وستبقى خالدة ما بقي للإنسان قلب يخفق ويتعلل بالذكر والمنى »(١).

وقال إن امرأ القيس مثل الطبيعة التي تلهمه وتمده ، وهكذا لمس محمد صبري الوتر الحساس ، وأبان عن سر الروعة في فن شاعرنا الذى لا ينضب له معين من أفانين التمثيل والتلون والتعبير ، حيث وسعت قريحته كل ضروب التصوير وفنونه ، فأجادها ، وسبق إليها . وقد اختار له قصيدة في (وصف رحلة صيد) بدأها امرؤ القيس بوصف الفرس الذى شبهه بعقاب لاح له ذئب فانحدرت إليه ، وأخذ في وصف هذه المطاردة بأبلغ بيان ، وذكر محمد صبري القصيدة كاملة ، وأولها كما جاءت في الشوامخ(٢) :

قد أشهد الغارة الشعواء تحملنى
جرداء معروفة اللحيين سرحوب

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣

(٢) أولها في الديوان :

الخير ما طلعت شمس وما غربت
مطلب بنواصي الخيل معصوب

وهو البيت الأخير في القصيدة حسب ورودها في الشوامخ . وانظر الديوان بشرح السندوبي ص ٦٨

ولولا أن هذه القصيدة من المنحول الذى ضمته نسخة الطوسى فهى من المشكوك فيه إذ قيل أنها لإبراهيم بن بشير الأنصارى لتحدثت عما قاله السربونى عنها من تحليل ونقد ، لكنى أكتفى ببعض كلامه قال : « والواقع أن هذه الأبيات قطعة فنيـــة من أعلى طراز تلعب بالنفس وتتجاذبها مداً وجزراً كأنها موسيقى تتدفق من عليا الجنان»(١).

خامساً — الحب والتشبيب

تحدث السربونى عن الحب ، وبين أنه نوعان : عذرى وهو المجرد من الشهوات الذى تتلاشى فيه النفس صافية نقية ، وقد يسوس صاحبه إلى الموت ، كما حدث لبعض شعراء الحب عند العرب ، وجسدى وهو الحب الذى تختلط به الأغراض والشهوات ، حب الفاتك المتهالك على اللذات والاستمتاع بذوات الدلال .

وكان حب امرىء القيس من هذا النوع الثانى ، حيث قضى معظم حياته فى اللهو والصيد والتسلى بالنساء والبكاء على الديار ، واستطرد محمد صبرى السربونى فى الحديث عن شعراء التشبيب بالمعنى الصحيح ، واختص منهم ذا الرمة فذكر قصة حبه لمى حيث قضى عشرين سنة يعيش فى ديارها، ويشبب بها ، وعاد للحديث عن امرىء القيس . فذكر أسماء عدد من النسوة اللائى كان يتغزل بهن ، وبين اختلاف شراح الديوان فى هذه الأسماء . ورأى أنها كلها أو جلها أسماء مستعارة ، أو ألقاب مصطنعة لصواحبه اللاتى سعد معهن ساعة من الزمان .

وتحدث عن شعر التشبيب الذى قاله امرؤ القيس فى شبابه ، ورأى أن جزءاً كبيراً منه قد فقد بسبب اعتراض أبيه على تشبيبه بفتيات بنى أسد،

(١) محمد صبرى . الشوامخ جـ ١ ص ٨٠

وقال بصلاحية شعره للغناء لما فيه من حديث عن الحب والذكريات ، قال : « ولولا فرتنا وهنـــد لما عمر شباب امرىء القيس بالحب والذكريات، ولما أصبح شعره ذلك الشعر العالى الذى يتغنى به الركبان ، ويطرب له المحزون فى غربته ، وذو الكبد الحرّى. وهو أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى لذكر الحبيب والمنزل »(١) .

ويلاحظ أن الجملة الأخـــيرة من الفقرة السابقة مما تناقله القدماء ، وأخذها عنهم السربونى، وضمها إلى كتابه مع سبق اعتراضه على أمثال هذه العبارات الجاهزة المحفوظة التى لا تتوافق مع طريقة النقد البنائية التى اتخذها منهجاً لدراسة الشعر .

وقد تحدث فى الفصل السابق عن واقعية امرىء القيس وتحديده للأمكنة ، وهو — هنا — يعرض لحرصه على تحديد الأزمنة والذى تجلى فى الشعر القصصى بالمعلقة، واختار منها ما تحدث الشاعر فيه عن يوم دارة جلجل . وهو اليوم الذى عقر فيه مطيته للعذارى ، وحكى قصة دخول امرىء القيس الخدر على عنيزة ، واستطرد — بعد أن أورد الشعر — فى ذكر قصة هذا اليوم كما حكاه الفرزدق .

وتحدث عن القالب القصصى فى شعره فقـــال : « على أن أسلوب امرىء القيس فى المعلقة كلها ، وفى كثير من شعره قد صيغ فى قالب قصصى يتعمد فيه ذكر وقائعه الغرامية وسرد تفصيلات قد تكون جافية ، ولكنها من ناحية تصوير الحقيقة تتمشى مع ما يكتبه الروائيون الإفرنج اليوم »(٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٧
(٢) المرجع السابق ص ٨٩

ولكن هذا الأسلوب لم يكن ديدن الشاعر فى كل مخاطبته للنساء، فله أساليب متنوعة عنده وعند شعراء الحب من العرب رغماً من خشونة العيش، وعدم توفر الحضارة

واستطرد فى حديثه عن مخاطبة النساء إلى أسلوب عمر بن أبى ربيعة فى تعامله معهن . وعرض لقصيدة له قال إنها تشبه الكتاب الذى نرسله بالبريد اليوم ، حيث جعل فى آخر القصيدة بيتاً عالج فيه لحظة من تلك اللحظات الحاسمة فى الحب ، « لحظة الفتور فى العلاقات وإسراف المرأة فى صدودها ، وازدياد قلب المحب وعنائه من ناحية أخرى ، لحظة أحد من القيراط ، وأدق من الشعرة فاصلة بين القطيعة والحب»(١) .

وأورد أبيات عمر التى تشكلت منها رسالته وفيها هذا البيت الذى يعالج اللحظة الحاسمة فى الحب . وأول الرسالة(٢) :

جن قلبى فقلت يا قلب مهلا
لا تبدل بالحلم والعزم جهلا

وهذا هو البيت الأخير :

إن فى الصرم راحة من عناء
ونعم فى الجواب أحسن من لا

ولا شك فى أن أسلوب ابن أبى ربيعة يختلف كثيراً عن الشعراء الجاهليين من حيث الرقة والتحضر والنعومة التى تريح المرأة وتسبى قلوب النساء .

---

(١) المرجع السابق ص ٩٠
(٢) المرجع الأخير ص ٩٠

وتعرض محمد صبرى لبحث علاج الحب ونسيانه ، فذكر أن بعض الغربيين قد اهتدوا إلى معالجة ذلك بالسفر والاغتراب .

وقال إن امرأ القيس اهتدى إلى هذا الحل من خلال ممارسته للحب والأسفار والتنقل ، ولننظر إلى قوله :

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة
ذمول إذا صام النهار وهجرا

وقوله :

فعزيت نفسى حين بانوا بجسرة
أمون كبنيان اليهودى خيفق

وقد لاحظنا حرص السربونى على موازنة امرىء القيس بشعراء العرب ، ومقارنته بأدباء الإفرج ، وتيسر له ذلك بفضل اطلاعه الواسع ودأبه ونشاطه ، وحرصه على الاستدلال لكل مايقول .

وعاد المؤلف للحديث عن مذهب الشاعر فى الغزل مع بيان توجهه نحو الواقعية عبر الأزمنة والأمكنة ، قال : « ومعظم شعر امرىء القيس الغزلى عبارة عن رواية (وقائعه) الغرامية فى الطريق إلى الخدر ، وهو وإن كان يسهب كثيراً فى وصف الناحية المادية من الحب ومحاسن جسم المرأة (وقــد نضت لنوم ثيابها) فإنه ينظر أحياناً إلى المرأة نظرة إسماعيل صبرى (باشا) .

حين يقول(١) :

واكشفى عن جسمك بين الملا تكونى سكان السماء

---

(١) المرجع السابق ص ٩٢ ، ٩٣

أنت روحانية ، لاتدعي أن هذا الجسم من طين وماء

وهكذا وازن بين رؤية امرىء القيس للمرأة ورؤية الشاعر إسماعيل صبري من ناحية النظر إلى المرأة بمنظور روحاني شفاف ، ودلل على ذلك بقول شاعرنا :

يضيء الفراش وجها لضجيعها
كمصباح زيت فى قناديل ذبال

وقوله :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها
نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

واختار له من شعر الحب والتشبيب ما يكشف عن متابعته للمرأة ، وهي تملأ بصوتها وحركتها الدار ، ثم وهي تبكى . وانتقى له بعض ماقاله عن أخلاق المرأة بصفة عامة .

مثل(١) :

أراهن لا يحببن من قل ماله
ولا من رأين الشيب فيه وقوسا

وذكر له ما يكشف عن لين المرأة بعد إبائها ، وانهيار مقاومتها بعد تمنعها ، وما يكشف عن نظرتها الساحرة ، وأورد فى كتابه أبياتاً لامرىء القيس يصف فيها موت الحب فى فؤاده ، وأنه سلاها ، فأصبحت لاتحرك قلبه كقوله(٢) :

---

(١) المرجع السابق ص ٩٤
(٢) المرجع السابق ص ٩٥

وتبرجت لتروعنـــا فوجدت نفسى لم ترع

وعاد صاحب الشوامخ للموازنة بين امرىء القيس وعمر بن أبى ربيعة فى شعر الغزل ، وقال بعدم إمكانية التمييز بين أسلوبيهما فى بعض الشعر إلا أن ابن ربيعة قد تأثر بأسلوب امرىء القيس القصصى فى مخاطبة النساء ، وأورد أمثلة متعددة لابن ربيعة ليدلل بها على ما قال .

وقدم محمد صبرى السربونى عددا من الأبيات التى ذكرها مثنى ، وفرادى ليستشهد بها على بعض الجوانب المضيئة من شعر امرىء القيس الغزلى ، فذكر له قوله(١) :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال

وعقب على هذا البيت بقوله : « وهذا أروع ما قيـــل فى تصوير إشراقة المرأة فى قلب المحب النائى على بعد الشقة بينهما »(٢) ثم ذكر بعض النماذج الشعرية التى صور الشاعر فيها بلوغه إلى مضجع الحبيبة ، حتى لا يفزع الأهل ، ومضاجعته للمرأة ، ولهوه الشبيه للهو الحكيم الذى يعلم أن الحية كامنة فى الرياض ، وأن عمر الورد قصير .

ولقد أجمع السربونى رأيه فى غزل امرىء القيس فقـال : « وبالجملة لم يكن امرؤ القيس فى حياته وشعره رجل مغامرات نسائية ولهو ولعب فحسب بل كان رجل عاطفة ووجدان ، فلا يجوز أن يشغلنا استهتاره فى شبابه ...... »(٣) .

أغادى الصبوح عند هـــر وفرتنا
وليدا وهل أفنى شبابي غـــير هر

عن أثر تلك الذكريات الشامخة فى حياة الشاعر ...

---

(١) المرجع السابق ص ٩٦ (٢) المرجع السابق ص ٩٦
(٣) المرجع السابق ص ٩٦

ولعنا قد لاحظنا أسلوب المؤلف فى البحث والاستقصاء ، وحرصه على الموازنة والمقارنة والشرح ، والاستشهاد بالشعر ، وإن عيب عليه كثرة الاستطراد ، وعدم استيفاء كل جزئية من جزئيات الموضوع حقها ؛ لانشغاله ببعض المسائل التى يستطرد إليها .

سادساً — الصناعة والبيان

ذكر الدكتور محمد صبرى أن امرأ القيس قد امتاز بقوة الفطرة والطبع ، وساعد على ذلك اتصال عروقه بثرى نجد وأرض اليمن، وأفاض فى الحديث عن هاتين المنطقتين ومن سكنهما من القبائل العربية ، كطيء وبكر وتغلب ، وعنزة وأسد ، وهوزان وسليم وغطفان وعبس وذبيان ، وتميم، حيث اتخذت هذه القبائل من نجد وأطرافها سكناً ومحلا لإقامتها . كما تحدث عن اليمن وحضارتها القديمة التى ذكرها القرآن الكريم ، وقال إن امرأ القيس كان نجدياً ويمنياً وحضرياً وبدوياً ، : « وهو أول شاعر جاهلى ظهر أثر الحضارة فى أسلوبه من ناحية اللفظ وجمال التعبير ، وقوة النحت والرصف والتنغيم، وقل أن تجد له لفظة نافرة أو نسجاً مقلقاً »(١) وأعقب ذلك بالحديث عن أثر البداوة فى شعره ، فقال : « ولعل أكبر أثر للبداوة فى شعره هو فقدان الوحدة فى القصيدة وعدم بناء الموضوع بناء محكما ، كما يبنيه الشعراء المتأخرون من الأدباء خاصة، وذلك راجع إلى طبيعة العربى التى لا تألف البناء وإلى نزعته الفردية الاستقلالية »(٢) . وذكر عدة نماذج من شعر امرىء القيس لهذه النزعة الفردية التى كانت تثب بالبيت وبالبيتين إلى أعلى قمم الشعر ، ومن هذه الأبيات التى أورد طائفة منها قوله :

ألا إنما الدهر ليال وأعصر   وليس على شىء قويم بمستمر

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٢   (٢) المرجع السابق ص ١٠٢

وقوله :

وقد طوفت فى الآفاق حتى   رضيت من الغنيمة بالإياب

وذكر أمثلة أخرى للتدليل بها على أن أسلوبه أقرب أساليب العرب إلى القرآن وبيانه ، ولقد عرض محمد صالح سمك لهذه القضية فى كتابه مع أننا لم نتحدث عنها . وها نحن نذكر بعض الأمثلة التى استدل بها محمد صبرى منها قول امرىء القيس(١) :

أبت أجأ أن تسلم العام جارها
فمن شاء فلينهض لها من مقاتل

أى أبت القبيلة التى تحل أجأ ، قال تعالى : «واسأل القرية التى كنا فيها» يعنى أهل القرية .

وقوله :

وتبرجت   لتروعنا   فوجدت نفسى لم تُرَعْ

وقال تعالى : « غير متبرجات بزينة » والتبرج هو أن تبدى المرأة زينتها .

وقول امرىء القيس :

وأضحى يسح الماء حول كتيفة
يكب على الأذقان دوح الكنهبل

وقال تعالى : « يخرون إلى الأذقان سجداً » .

وأكد على الروعة والسحر فى شعر امرىء القيس اللذين يحسان ويدركان ، ولكن لا يمكن الاهتداء إلى أسرارهما ، لأنهما نابعان من الطبع

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٣

والصنعة ، ولذلك تبدو فى شعره البساطة والسهولة والروعة ، ويعرف هذا الأسلوب فى العصر الحديث بالسهل الممتنع ، وذكر لذلك عدة أمثلة ختمها بالبيتين اللذين افتتح بهما الشاعر معلقته . وامتدح العطف بالفاء فى قوله (فحومل) ، و(فتوضح) ، وذم رواية الأصمعى التى أحل فيها الواو محل الفاء التى فسرها بعض اللغويين بأنها بمعنى إلى ، وعقب على ذلك بقوله: « والذوق البيانى يقتضى فى هذا المقام الفاء لا الواو ، الفاء للتعقيب الشكلى الموسيقى لأنها كالفاصل بين نغمات خاصة ، أو بين أسماء أمكنة ، يطيب للشاعر أن يقف على كل منها إشادة بذكرها لما لها من روعة وأثر»(١) .

ولما كان امرؤ القيس رائعاً فى فنه رائداً فى صنعته ، وجدنا أكثر الجاهليين ومن جاء بعدهم قد سطوا على معانيه وألفاظه ، وأدخلوا بعض أبياته وأشطره كاملة فى شعرهم ، وسبق أن ذكرنا بيت طرفه الذى أخذه كله عن بيت لامرىء القيس إلا كلمه واحدة .

وذكر محمد صبرى أن معظم هذه السرقات لم تكن سطوا متعمداً : « بل كانت مظهراً من مظاهر التبعية والخضوع لتلك الشخصية العبقرية الفذة المجددة التى تطبع الجيل بطابعها ، وتجذب المتطلعين إليها جذباً ، بما لها من سلطان وهيبة وقوة ساحرة تعنو لها النفوس» (٢) وقد كانت هذه الكلمة آخر ما سطره مؤلف الكتاب الذى معنا عن امرىء القيس كأول الشوامخ فى تاريخ الشعر العربى .

ولعلنا قد لاحظنا حرص السربونى على الاستيفاء والتحليل ، وساقه ذلك إلى كثرة الاستطرادات سواء بشرح الكلمات ، أو بالتعليق على الأبيات أو بالحديث عن شعراء آخرين وهو يتحدث عن امرىء القيس . كما أبرز قدرة الشاعر على تصوير الحيوان وحياته وطباعه من خلال منهجه

---

(١) المرجع السابق ص١١٠ (٢) المرجع السابق ص ١١١

فى التأليف الذى اختطه لنفسه ، وسبق به الكثيرين ، وهو المنهج المسمى بالبنائية ، وإن لم يستطع أن يوضح معالمه ، ويرسم صورته وهو يتحدث عن شعر امرىء القيس .

وتخلص مما كان يردده القدماء كقولهم : هذا أشعر بيت ، وهذا أمدح بيت إلى غير ذلك من القوالب المحفوظة ، وإن لم يتخل عنها تماما .

ويؤخذ عليه أنه غض الطرف عن النحل والشك اللذين وجها إلى الشعر الجاهلى ، وإلى شعر امرىء القيس بخاصة ، إذ استشهد ببعض النماذج التى لو تاب فيها بعض القدماء ، ورفضها أ كثر المحدثين .

ويعد كتاب الشوامخ (امرؤ القيس) والذى تحدثنا عنه فى هذا الفصل نموذجاً متفردا فى الكتابة عن الشعر والترجمة للرجال .

الفصل الخامس

امرؤ القيس حياته وشعره

للدكتور الطاهر أحمد مكي(1)

عندما تصفح فهرس الموضوعات لكتاب الدكتور الطاهر مكي عن امرىء القيس نجد أن هذه الموضوعات ليست غريبة علينا ، فقد عرضنا لها ، وتحدثنا عنها ، ولذلك سوف نمر سريعاً على مايتصل منها بحياة الشاعر

---

(1) الطاهر أحمد مكي واحد من الأدباء والنقاد المحدثين الذين ظهروا من خلال الجامعة التي عملوا بها ، واشتهروا بالعديد من المؤلفات العلمية الجادة ، والبحوث المترجمة النافعة . وقد ولد بين عرب المطاعنة في مركز إسنا محافظة قنا عام ١٩٢٤ م . والتحق بالأزهر ، وتخرج من كلية دار العلوم عام ١٩٥٢ م . وحصل على دكتوراة الدولة من كلية الآداب في مدريد عام ١٩٦١ م . وعين مدرساً في دار العلوم عام ١٩٦٣ م ، وصار يترقى بها إلى أن أصبح وكيلا لها للدراسات العليا والبحوث عام ١٩٨١ م ، وهو المنصب الذي يشغله حتى الآن . وقد حاضر في العديد من الجامعات العربية والأجنبية ، وأخرج الكثير من الكتب المطبوعة والمحققة والمترجمة منهـــا : دراسة في مصادر الأدب ، والشعر العربي المعاصر ، ودراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، وطوق الحمامة لابن حزم (تحقيق) ، والحضارة العربية في أسبانيا للمستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال (ترجمة) .

ومن مؤلفاته : كتابه الذي تتحدث عنه في هـــذا الفصل وهو (امرؤ القيس حياته وشعره) الذي طبع لأول مرة عام ١٩٦٨ م .

وجذوره الأولى ، إذ أنها لا تختلف كثيرا من كتاب لآخر ، مادامت الروايات قريبة ، أو متوافقة فى تناول هـذه الحياة ، كما أن الحقائق التاريخية يمكن التماسها من مصادرها الأصلية . أما القضايا التى تتصل بالشعر فهى التى سنقف عندها ، ونتحدث عنها ، لأن النظرة إليها تختلف من كتاب لآخر ، أما إذا توافقت الرؤية فى بعض هذه الموضوعات مع الكتب الأخرى التى تحدثنا عنها ، فيكفى أن نكشف عن هذا التوافق ، وندل عليه ، ولذلك سوف نقسم الكلام عن هذا الكتاب إلى قسمين : القسم الأول وهو الذى نتناول فيه الحديث عن الموضوعات التى لا تتصل بشعر امرىء القيس اتصالا مباشراً كنشأة الشاعر ، وديوان شعره ، وسابقيه من الشعراء وغيرها ، أما القسم الثانى فنتناول فيه الحديث عن الموضوعات التى تحدثت عن شعره تحليلا ونقداً كوصف الأطلال والطبيعة وشعر المرأة وغيرها .

أولا — موضوعات سبق بحثها

يلاحظ أن الكتاب الذى معنا يتعرض لدراسة امرىء القيس من خلال حياته وشعره ولذا يعد إغفال الكلام عن حياة الشاعر ونشأته ورحلته إلى قيصر ، وديوانه ظلما كبيراً لهذا الكتاب ، ولكن حديثنا عنها يعد تكراراً فى كتابنا ، وإطالة كبيرة لا تفيد بحثنا شيئاً سوى إنصاف الدكتور مكى بالحديث التام عن كتابه ، وحتى نخرج من هذه الإشكالية نذكر هنا الرؤية التى تميز بها هذا الكتاب — إذا وجدت — حول الموضوعات التى سبق بحثها أو تكرر الحديث عنها .

١ — تعد مقدمة كل كتاب مفتاحاً للدخول فيه ، ولذلك يعمد كثير من القراء إلى مطالعة مقدمات الكتب والحكم عليها من خلال ماسطره كل مؤلف فى مقدمته ، ولذا تراني قد تحدثت عن مقدمة كل كتاب عرفت به

فى الفصول السابقة . وجئت إلى كتاب الدكتور مكى ، فقرأت مقدمة الطبعة الأولى ، ومقدمة الطبعة الثانية ، ولما كانت هذه أسبق من تلك فى ترتيب الكتاب فقد بدأت بها ، وأخذنى العجب لفقرة جاءت بها قال المؤلف فيها : « ولست أعرف دراسة كاملة لامرىء القيس الشاعر ، حياة وإنتاجاً ، غير قصة لمحمد فريد أبى حديد ، جمع فيها ماصيغ حول الشاعر من أساطير مسلية وممتعة ، دون أن يتجاوزها إلى الدرس والتحليل ، وإلا دراسة متواضعة قام بها الأستاذ محمد صالح سمك ، أيام أن كان طالباً منذ قريب من نصف قرن ، وإلا بضعة مقالات مبتسرة متناثرة فى عدد من المجلات ، أو صفحات محدودة ، مبثوثة فى الكتب التى تعرض للأدب الجاهلى بعامة »(١).

وأقرر أنه لايروق لى — وربما لايروق للكثيرين أيضاً — ذلك المنهج الذى يسلكه بعض المؤلفين عندما يبدءون فى مقدمات كتبهم فيهونون من شأن الدراسات والمؤلفات التى أعدت فى الموضوع الذى يكتبون عنه ، أو تناولت جانباً من جوانبه بالدراسة والبحث .

وإذا رجعنا إلى الفقرة السابقة التى نقلتها من مقدمة كتاب الدكتور مكى لوجدنا فيها تهويناً كبيراً لما كتب عن امرىء القيس وإغفالا لكثير من الكتب والدراسات التى أعدت عن هذا الشـــاعر ، حيث قال : إنه لايعرف دراسة كاملة لامرىء القيس الشاعر حياة وإنتاجا غير قصة فريد أبى حديد جمع فيها ما صيغ حول الشاعر من أساطير مسلية وممتعة ، دون أن يتجاوزها إلى الدرس والتحليل ، وأؤكد أن بعض هذا الكلام غير

---

(١) د / الطاهر أحمد مكى . امرؤ القيس حياته وشعره ص ٨ دار المعارف الطبعة الخامسة ١٩٨٥ م .

صحيح فلم يجمع أبو حديد أساطير حول الشاعر ، وينسج منها ما يسلي ويمتع كما قال الطاهر مكي .

ولقد قرأت كتاب محمد فريد أبي حديد (الملك الضليل) ووجدت أن الروايات التي اعتمد عليها موجودة في كتب الأدب والتاريخ ، وأنه قد تحدث عن امرىء القيس من واقع شعره إذ كان يستشهد في كل فصل بما قاله من شعر حول أحداث حياته ، ولكن الكتاب الذي صيغ في شكل رواية تاريخية لا يتوقع فيه وجود الدرس والتحليل . كما أعتقد أن كتاب محمد صالح سمك لا يمكن أن يوصف بأنه دراسة متواضعة إذ يعد من أوسع الكتب التي ألفت عن امرىء القيس مع نقدنا له واعتراضنا على بعض فصوله ، وليس عيباً يلام عليه مؤلفه أن كتبه وكان طالباً ، ولو أن الكتاب دراسة متواضعة حقاً بما تعنيه هذه الكلمة في عالم التأليف لما أشاد به العلامة مصطفى صادق الرافعي وتحدث عنه وقدمه إلى القراء (١).

وأين الكتب الأخرى التي ألفت عن امرىء القيس في مصر وخارج مصر ؟ وأين كتاب (امرؤ القيس) للدكتور محمد صبري السربوني الذي طبع عام ١٩٤٤ ؟ وأين كتاب (امرؤ القيس) لسليم الجندي الذي طبع في دمشق عام ١٩٣٦ م ؟ وأين الكتب الأخرى التي ألفت عن هذا الشاعر في القاهرة وبيروت والقدس وتونس قبل أن يؤلف الدكتور مكي كتابه ؟

ولكن ليس معنى كثرة الكتابات أن نوقف التأليف عن هذا الشاعر ، فالمكتبة العربية ترحب بكل بحث أو كتاب يضيف بعض الرؤى الجديدة التي لم يعتن بها السابقون .

---

(١) تتوقف النظرة هنا على الطبعة الأولى من كتاب محمد سمك ، والتي خلت من السطو الذي حدث في الطبعة الثانية ، كما سنشير في آخر هذا الفصل .

ونأتى إلى مقدمة الطبعة الأولى لتستوقفنا عبارة أخرى تنقلها إلى كتابنا ثم نعلق عليها بما تستحق من نقد وتمحيص، قال: «ورغبة منى فى دفع جانب من التواكل العقلى بين شباب الدراسين وعدد من الباحثين، حين يقنعون بالدراسات الحديثة ينقلون عنها النصوص القديمة، بالجزء والصفحة، دون أن يستخدموا المصادر الأصلية نفسها، آثرت — كمبدأ عام — ألا أضمن الكتاب المظان التى أعتمدت عليها تفصيلا، وأكتفيت بثبت عام للمصادر والمراجع فى آخر الكتاب» (١).

عندما تصفحت كتاب الدكتور مكى رأيته لا يذكر المصادر إلا نادراً، كما جاء فى عـــدد من الصفحات (٢). وإنى أتساءل كيف يذكر بعض المراجع، ويترك البعض، وهل للمراجع التى ذكرها ميزة على التى لم يذكرها، بل إن ذلك قد يدفع البعض لإساءة الظن بالدكتور مكى، فيقرر أنه قد ذكر المراجع التى عرفهـــا واهتدى إليها، وأغفل ذكر المراجع التى ضل عنها، ولم يصل إليها، ولن نقول بذلك لثقتنا به فهو باحث ورائد ومؤلف كبير، وأكاديمى جاد، لكن يبقى إهماله لذكر المراجع مشكله بدون حل، فإذا تغاضينا عن حكاية ذكره لبعض المراجع البسيطة فى عدد قليل من الصفحات، وتجسد أمامنا المبدأ العام الذى قال إنه يأخذ به فى عدم ذكره للمراجع فكيف — إذن — سنفرق بين كلامه وكلام غيره وربما يقال بعلامة التنصيص. فماذا لو سقطت عند الطبع، وهذا يحدث كثيرا؟ وإذا افترضنا الدقة التامة بما فيها عدم سقوط علامات التنصيص، فكيف يتسنى لنا معرفة الدقة فى النقل وعدمها؟ ماذا يحدث لو جاء واحد من الباحثين، وأهمل المراجع، وغير فى النص المنقول بما يخدم وجهة نظره؟؟ كل ذلك بالطبع وارد وإهمال المراجع خطأ علمى كبير، حتى

(١) المرجع السابق ص ١٥
(٢) أنظر الصفحات (٢٨)، (١٠٥)، (١٠٦)، (١٠٧)، (١١٥) وغيرها

لو كان ذلك مقصودا — أو كبدأ اقتنع المؤلف به — وإذ واقع هذا من بعض المؤلفين فلا يصح من أستاذ جامعى يشرف على الرسائل العلمية والأطروحات الجامعية التى يحاسب فيها الباحث على كل فقرة ذكرها بدون أن ينسبها إلى مصدرها .

ولن يجرؤ واحد من الباحثين على إغفال المراجع بحجة أن مؤلف كتاب (امرؤ القيس — حياته وشعره) قد أهمل ذكر المصادر والمراجع .

ولا أعتقد أن معالجة التواكل العلمى بين شباب الدارسين الذى هو خطأ علمى كبير يكون باقتراف خطأ آخر وهو عدم ذكر المراجع والمصادر .

وأود أن يتدارك الدكتور الطاهر مكى هذا الخطأ فى الطبعة القادمة لكتابه ، ويسجل مصادره ومراجعه كاملة فى الهامش ، أو فى آخر كل فصل ، أو بالطريقة التى تروق له خاصة وأن مبدأه الذى آمن به لم يغير شيئا بين شباب الدارسين الذين يعانون من الكسل العلمى أو التواكل العقلى كما قال .

تحدث الدكتور مكى فى أول كتابه عن عرب الجنوب ، وبدأ ذلك من خلال (استعراض علمى) بالحديث عن البعثة الدانمركية التى أوفدها ملك الدانمرك إلى اليمن عام ١٧٦١ م وذكر أسماء أعضائها بما فيهم الخادم السويدى المرافق ! وتابع وفاة هؤلاء الأعضاء واحدا بعد الآخر حيث لم يتبق منهم سوى شخص واحد قام بجمع قدر كبير من المعلومات فى جزءين ، صدر الثانى بعد وفاته حيث مهدت هذه البعثة للعالم أن يعرف ما تضمه أرض اليمن من نقوش مهمة لتاريخ بلاد العرب .

ثم تابع بعد ذلك البعثات التى أوفدت من بلدان عديدة إلى جنوب الجزيرة العربية ، كما تحدث عن الدول التى قامت بهذه المنطقة ، والهجرات

التى خرجت منها أو جاءت إليها ، وختم كلمته عن هؤلاء العرب الجنوبيين بنص لعباس العقاد من كتابه (اللغة الشاعرة) يؤكد به انتقال قوم من اليمن إلى ما وراءها .

ثم عقد فصلا للحديث عن اللغة العربية فى الشمال والجنوب ، وتابع تطورها وتشعبها إلى لهجات عدة ، وذوبان هـــذه اللهجات فى بعضها واختلاف لغة الجنوب عن لغة الشمال لكن هذا الاختلاف لم يكن بالدرجة التى يصعب معها تحقيق التفاهم بين الناطقين بلغة الشمال والناطقين بلغة الجنوب .

ولكن الدكتور الطاهر تجاهل مقولة لأبى عمرو بن العلاء — سبق أن عرضنا لها — والتى ذكر فيها اختلاف لغة اليمن عن لغة الشمال .

كما تحدث عن قبيلة كندة وهى بطن من كهلان وأرخ لنزوحها إلى قلب الجزيرة العربية فى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى ، وكانت تسكن جبال اليمن الشرقية مما يلى حضرموت حيث استقرت فى أرض لبنى جنادة بن معد فى نجد ، واتخذت (بطن عاقل) عاصمة لها وتحدث عن اتساع نفوذ هذه القبيلة وتكوين مملكة لها ، وتملك حجر بن عمرو (آكل المرار) عليها . وتكلم عن أبنائه وأحفاده حتى وصل إلى الحديث عن مقتل حجر ابن الحارث (والد امرىء القيس الشاعر) والذى انتهى بمقتله نفوذ كندة التى عاشت فى منطقة نجد بوسط الجزيرة العربية .

وتكلم عن نسب امرىء القيس وأسرته ومولده ، وذكر له بيتا من الشعر تحدث فيه عن أمه ، وهو قوله :

ألا هل أتاهـــا والحوادث جمة
بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا(1)

---

(1) انظر : الطاهر مكى ، (امرؤ القيس حياته وشعره) ص ٥٤

وعقب عليه الطاهر مكي فقال : « ولم يرد البيت في أي من مخطوطات ديوان امرىء القيس أو مطبوعه ، ويخيل إلى أنه صنع ليدعم الخبر الذى تضمنته الرواية » (١) .

وبصرف النظر عما يحمله البيت من رأى يتفق المؤلف معه أو يختلف فإن البيت قد ورد فى نسختى الطوسى والسكرى (٢) ونسختى النحاس وأبى سهل (٣) فى القصيدة الرابعة ، وموجود أيضا ضمن أبيات القصيدة المذكورة فى متن الديوان بإخراج حسن السندوبى (٤) .

وتكلم الدكتور مكى عن علاقة الشاعر بالنساء ، وقال إنه كان مئناثا مفركا يفتقد أهم ما يطلب فى الزواج وما من أجله المرأة تتزوج ، كما أساء الشاعر الظن بزوجاته ، وافتقد بينهن الحب والتقدير ، وتحدث عن علاقة امرىء القيس بزوجته التى بنى بها فى طيىء وهى (أم جندب) التى تحاكم إليها هو وعلقمة حول وصف كل منهما للفرس ، أو من منهما أشعر من صاحبه ؟ على حسب الروايات التى جاءت فى هذا الموقف .

وتابع المؤلف رحلة الشاعر ، وهو يبحث عمن يعاونه فى الثأر لأبيه الذى قتله بنو أسد ، وتحدث عن تنقله بين القبائل وتعقب المنذر له ، ونزوله فى طيىء ، وارتحاله إلى السموءل بتيماء ، وانتقاله إلى الحارث ابن أبى شمر الغسانى ، واستعداده للسفر إلى قيصر . ونقف هنا وقفة قصيرة ،

---

(١) المرجع السابق ص ٥٥

(٢) فى القصيدة الرابعة ورقه ٣١

(٣) فى القصيدة الرابعة ورقه (٣٣) وانظر تحقيق هذه القصيدة بالديوان ص ٣٩٢

(٤) حسن السندوبى الديوان ص ٨٦

ولنقرأ فقرة للدكتور مكي قال فيها : « بدأ امرؤ القيس المحاولة فأرسل إلى قيصر وفدا يطلب النجدة على بني أسد وعلى ملك الحيرة ، وكان مع الوفد ابنه معاوية ، فكتب قيصر إلى النجاشي يدعوه لمعاونة امرىء القيس . . . »(١) .

إننا لم نقرأ أن لامرىء القيس ابنا يسمى معاوية ، كأن الدكتور مكي لم يذكر متى ظهر هذا الولد ، ومن هي أمه ، ومتى تزوجها الشاعر ، ولذلك بدا الخبر غريبا من ناحية هذا الابن الذي ظهر فجأة على مسرح الأحداث ، وبدون أن يتقدم عنه شيء فيما سبق .

وذكر المؤلف أن الظروف كانت مهيأة لرحلة الشاعر إلى القسطنطينية ، وأن الروايات قد تواترت على حدوث هذه الرحلة ، وعلى أن الشاعر لم يجن منها شيئا ، وأنها قد تركت صدى في شعره ، ولكنه يستبعد قيام رجل يسمى الطماح الأسدي بالوشاية على الشاعر عند قيصر لمجرد وروده في بيت من الشعر فحسب ، وأن الطماح ليس علما على شخص ، وإنما هي صيغة مبالغة من (طمح) وهي كناية عن رجل عدو لامرىء القيس . وعرض الدكتور مكي بالشرح والبيان للشعر الذي يتصل بالرحلة ، ودرسه واتخذه دليلا على قيام الشاعر بالذهاب إلى قيصر .

وقال إن الشاعر عبيد بن الأبرص قد أشار أيضا إلى هذه الرحلة مما يجعلها حقيقة تاريخية مؤكدة .

٤ — وتحدث عن ديوان الشاعر من نواح متعددة كعناية المتقدمين به ، وحرصهم على روايته والاستشهاد به في النحو والبلاغة ، وتقديم معلقته على غيرها من القصائد المشهورة ، وتكلم عن نسخ الديوان

---

(١) الدكتور الطاهر مكي (امرؤ القيس حياته وشعره) ص ٨٦ .

ومخطوطاته وطبعه وتوثيقه وترجمته إلى بعض اللغات ، وعناية المستشرقين بالمعلقة التي ترجمت إلى أكثر اللغات الحضارية في العالم .

٥ — وعقد فصلا للحديث عن امرىء القيس وسابقيه ، وقال إن السائد بين علماء النقد القدامى أن امرأ القيس أول شاعر جاهلي ، ومنهم من يسبق به مهلهلا (عدى بن ربيعة) .

وقال إن البحث الحديث قد انتهى إلى أن امرأ القيس لا يمثل طفولة الشعر الجاهلي ، وإنما يمثل الفجر الساطع وأن الخطوات الأولى من عمر هذا الفن قد اختفت ، وصار الأمر واضحا بعد نشر التراث في العصر الحاضر فإن عددا من الشعراء سبقوا امرأ القيس في الشعر وفي الحياة ، وأن عددا منهم عاصروه . ومن الصعب أن تحدد الفترة الزمنية التي قطعها الشعر العربي حتى وصل إلى المرحلة التي عاشها شاعرنا بما فيها من جودة بالغة .

وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الأولية ، وبينا رأى ابن سلام في ذلك ورأيه حجة في هذا الموضوع .

وتحدث المؤلف عن ربيعة التي بدأ الشعر فيها ، وتكلم عن شعرائها في العصر الجاهلي ، وبين انتقال هذا الفن إلى مضر ، وتحدث عن ثلاثة شعراء رأى أنهم المدرسة التي استهداها امرؤ القيس ، وهم زهير بن جناب ، وأبو داود الإيادي ، وعمرو بن قميئة ، ثم تكلم عن شاعر آخر وهو لقيط ابن معمر الذي وصلنا ديوانه بما فيه من قصائد ذات قيمة كبيرة ، ثم تحدث عن شاعرين آخرين وهما الشنفرى الأزدي ، وتأبط شرا الفهمي وتكلم عن معاصريه ، وذكر منهم عبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبدة ، وأوس بن حجر ، وختم هذا الفصل بذكر عدد من الشعراء الآخرين الذين عاصروا معه ، ويمكن التعرف عليهم من خلال المظان الكثيرة التي تحدثت عنهم وعن فنهم الشعري ، وهكذا ربط المؤلف بين امرىء القيس وشعره والبيئة المحيطة به بمن فيها من شعراء وفرسان .

ثانيا — موضوعات أخرى

١ — شاعر الأطلال

انتهى الدكتور مكى إلى أن امرأ القيس لم يكن مبدع المقدمات الطللية ولكنه جعل منها عنصراً مستقلا ميزها عن الغزل ، وأطال القول فيها ، ونوع صورها تخرج بها عن الرتابة والجمود ، وأن الشعر الذى تركه سابقوه يضم مقدمات طللية أيضا ، وذكر أن نشأة هذه المقدمات إحدى مشكلات الشعر المعقدة . وتشير عبارته إلى أن الوقوف على الأطلال تصوير لحياة البدوى فى الصحراء وأن امرأ القيس قد بلغ بهذا التصوير قمته فى المعلقة وفى غيرها من القصائد، وقد راجع الدكتور مكى شعر امرىء القيس ، وتأمل الشاعر — كما قال — فى مقدماته الطللية من خلال عدد من القصائد ، ولذلك رأيناه يعرض لمقدمات ثلاث عشرة قصيدة غير مرتبة(١) .

ولم يذكر سواها مع أن ديوان الشاعر به قصائد أخرى بدأها بالحديث عن الأطلال .

ولقد بدأ الدكتور مكى بالحديث عن مقدمة المعلقة واللامية الثانية إلى أن أتم الكلام حول القصائد التى اختارها ، ولم يتجاوز بحديثه عن هذه المقدمات حدود شرح الأبيات وبيان المقصود منها من غير أن يعبر المعانى التى لوح بها الشاعر اهتماما يذكر ، إلى أن انتهى من التعليق والتقديم على الشعر الطللى الذى استغرق الجزء الأكبر من الصفحات التى جعلها للحديث عن هذا الموضوع .

---

(١) هى القصائد أرقام (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٣٧) .

وذكر أن النقد المعاصر لم يصل إلى رأى حول بواعث نشأة المقدمات الطللية وأطوارها التى مرت بها ، وأوضح آراء بعض القدماء كابن قتيبة فى كتابه (الشعر والشعراء) وابن رشيق فى كتابة (العمدة) وعقب على ماذكره لهما بقوله : « وكلهم حام حول المعنى ولم يقع عليه ، فليست المقدمة الطللية فى نشأتها عملا مفتعلا تمهد لما بعدها ، ولاتكلفا يمسك به الشاعر ليقدح قريحته فتواتيه ، إنها فيما يبـــدو أقدم عناصر القصيدة الجاهلية ، بقايا نظام ضارب فى القدم ، ضاعت مراحل تدرجه ، ويعسر علينا الآن أن ندرك تطوره ، والزمن الذى مر به قبل أن يبتلع صورته الأخيرة التى وصلنا عليها »(١) .

وذكر أن النقاد القدماء والمحدثين قد اعتبروا المقدمة الطللية غزلا أو تمهيداً يسبقه ، ورأى أنها نابعة من شىء آخر سماه الحنين إلى الأوطان ، وأوضح ذلك فقال : « ولئن ارتبط الحنين فى عصرنا الحاضر بوطن محدد ثابت تتعلق به مشاعر المواطن ، فقد كان فى حياة الفرد العربى وطنا متجددا متغيراً . كل واد يهبطه يتعلق به ، وله فيه ذكريات ، كل منزل يألفه يلتقط منه مشاعر مغايرة ، كل رحلة يقطعها ترهف وجدانه بجديد من الأحاسيس والحياة والناس فكان الشاعر يعانى تمزقا نفسيا لايشعر معه بالطمأنينة ، ويجد تلذذا وعزاء وسلوى فى تذكر أحداث الماضى »(٢) .

ونعود فنؤكد ماذكره الدكتور مكى فى أن المعاصرين قد اختلفوا فى تفسير ظاهرة الطلل بالشعر الجاهلى ، ولايصح أن نقصرها على الحنين إلى الأوطان — كما قال — أو حتى على الغزل، كما قال غيره ، بل هى أشمل

---

(١) د / الطاهر مكى ، امرؤ القيس حياته وشعره ص ١٧٥
(٢) المرجع السابق ص ١٧٦

وأعمق وأعم من كل ذلك ، فهى قضية الحياة والموت بما تمثله هذه القضية فى وجدان الشاعر من أحاسيس ومضاعفات شعورية ، أو أنها تعبير عن مأساة التغير التى تصيب الكائنات والأشياء ، وما صاحبها من العواطف والأحاسيس . ونبحث فى شعر امرىء القيس فلا نجد حديثه عن الطلل ديدنا له فى كل شعره ، إذ تحدث عنه فى عدد من القصائد يقل عن العشرين ، فى الشعر الذى قاله ، ورواه الأصمعى أو المفضل الضبى أو اجتمعا على روايته .

وربما كان المطلع تعبيراً عن نفسية الشاعر أزاء الموقف الذى قال فيه القصيدة ، أو أنه تعبير عن حيرة الشاعر أمام معميات الحياة ، أو أنه يمثل طوراً من أطوار حياته التى عمرت باليأس والضياع ، والانهزام والاندحار والتوتر ، فرأى فى الطلل كل الآمه التى تسيح بها فى الصحراء ، وربما رأى فى الطلل تعبيراً عن مأساة الزمن ، واليأس من الخلاص ، واستغراق الفناء لكل ما فى الكون ، أى أنه تعبير عن مشكلة الموت الذى تجسد فى الطلل ، أو أنه يجمع بين قضيتى الموت والحياة كما ذكرت فى السطور السابقة ، وهـــذه كلها احتمالات مجردة لاترق أبدا إلى الحقيقة الثابتة التى نؤمن بها وندعو إليها ، ثم نقول : ولماذا لاتكون هذه المقدمة الطللية وصفا خارجيا للطلل على اعتبار أنه وسيلة أو افتتاحية إلى موضوع القصيدة ، وأن الحزن الذى يعترى الشاعر بسبب فقد محبوبته وتغيبها عن ديارها ، وأن البكاء الذى يتحدث عنه بكاء ظاهرى للتدليل على أحزانه التى يعانى منها ؟ ولماذا لاتكون المقدمة الطللية وسيلة أو افتتاحية للدخول منها إلى موضوع القصيدة ، أو أن الشاعر لم يتجاوز بحزنه حدود البكاء الظاهرى على فقد الحبيبة ، وعند ذلك تتخلص الأسماء المكانية من واقعيتها ، وتصير مجرد أسماء لنكرات وهمية ، ونستكمل هذه الرؤية بالتأكيد على الربط بين الطلل من جانب والمرأة والزمان والمكان

من جانب آخر ، وهذا الرأى هو الذى نميل إليه ونرضى به لموافقته لطبيعة الصحراويين فى الجاهلية ، ولغياب كل هذه الفلسفات والرؤى المقنعة فى تفسير الطلل عن مخيلة الجاهليين ، إذ نرى كل القصيدة مبنية على العنصر الحسى وعلى التشبيهات المرئية ، أما الجوانب الشعورية فكانت نادرة فى بنية القصيدة القديمة .

ونعود إلى رؤية الدكتور مكى حول تفسيره لظاهرة الطلل ، والتى رأى أنها نابعة من الحنين إلى الأوطان . وأقول إن هذا التفسير إذا صح على بعض القصائد عند واحد من الجاهليين كامرىء القيس ، فلا أراه صالحاً لكى يشمل أكثر الشعر أو جله الذى بدأ بالطلل ، وأين الحنين إلى الأوطان الذى فصله عن الغزل ، وبعد به عن المرأة من قول امرىء القيس(١) :

خليلى مرا بى على أم جندب ... نقض لبانات الفؤاد المعذب
فإنكما إن تنظرانى ساعة ... من الدهر ينفعنى لدى أم جندب
ألم تريانى كلما جئت طارقا ... وجدت بها طيبا وإن لم تطيب
عقيلة أتراب لها ، لادميمة ... ولاذات خلق إن تأملت جانب

وقوله(٢) :

سما لك شوق بعد ما كان أقصر ... وحلت سليمى بطن قو فعرعرا
كنانية بانت ، وفى الصدر ودها
مجاورة غسان والحى يعمرا
بعينى ظعن الحى لما تحملوا
لدى جانب الأفلاج من جنب تيمرا

(١) الديوان ص ٤١ (٢) الديوان ص ٥٦

وقوله (١) :

أماوى هل لى عندكم من معرس
أم الصرم تختارين بالوصل نيئس

أبينى لنا ، إن الصريمة راحة
من الشك ذى المخلوجة الملتبس

أين الحنين إلى الأوطان الذى ينفصل عن الغزل والمرأة فى هذه المقدمات السابقة مع أننى قد اخترتها من بين مااختاره الدكتور مكى(٢) لأؤكد بها على نفى قابلية الطلل فيها لأن يكون تعبيرا عن الحنين إلى الأوطان دائما . وقد استبان لنا ارتباط المقدمة الطللية بالمرأة غالبا . ولا يجوز بأن تكون المقدمة الطللية غزلا أو وصفاً للمظاهر الطبيعية ، وللدكتور مكى أن يقول : « لست أعد المقدمة الطللية وما يتصل بها من ذكر الأحبة غزلا »(٣) . لكن ليس له أن يفصل هذه المقدمة عن المرأة فصلا تاما فقد تكون غزلا عند البعض ، وقد تأتى مقدمة للغزل ، أو لأى فن آخر أو أنها بداية تقليدية ووسيلة تهدف إلى غاية أخرى ، أو أنها جزء من وصف الطبيعة الصامتة ، وفى كل ذلك لاانفصل بينها وبين المرأة فصلا تاما، وإذا جاز هذا الفصل فى بعض القصائد فلا يتصور وجوده فى البعض الآخر الذى تبدو فيه المرأة عنصرا أساسيا فى حديث الشاعر عن الأطلال ، وما لازمها من وقوف بها وبكاء عليها .

---

(١) الديوان ص ١٠١

(٢) انظر الصفحات ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٤ ، من كتاب (امرؤ القيس حياته وشعره)

(٣) المرجع السابق ص ١٧٦

٢ — عاشق المرأة

تحدث الدكتور مكي في أول هذا الفصل عن مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي ، وذكر أن هذه المكانة مازالت مرزوزة الصورة لم يقدم لها القلم الذي يجـلوها ، والفكر الذي ينير حوالكها مع أنها مفتاح أية دراسة للغزل في عصوره الأولى .

وأقول للدكتور مكي إن المرأة في العصر الجاهلي قد حظيت بنصيب كبير من عناية الباحثين واهتماماتهم ، وتعددت المؤلفات عنها في الأدب العربي بكل فنونه ، وأذكر هنا الكتاب الضخم الذي أعده وألفه الأستاذ الدكتور أحمد الحوفي عن (المرأة في الشعر الجاهلي) فضلا عن غيره من الكتب التي تزخر بها المكتبة العربية .

وتحدث عن المرأة في شعر امرىء القيس ، وقال إنه عرض لها في ثلاثة ألوان متذكرا ومتأملا وماجنا ، وقال : « في الأولى يأسى على أيامه الخوالي معها ، ويكون هذا الجانب جزءا من مقدماته الطللية» (١) وسبق أن تحدثنا عن الأطلال ياسبحانه الله ... لقد قال في حديثه عن الموضوع السابق بانصراف الغاية من المقدمات الطللية إلى الحنين إلى الأوطان ، وانصرافها أيضا عن الغزل ، ثم جاء في هذا الفصل وذكر أن أن هذا اللون الغزلي جزء من مقدمات الشاعر الطللية .

وقال بأن الشاعر تناول المرأة في حالة تأمله لها مخلوقاً جميلا رقيقا ، أما في حالة مجونه معها فقد تحدث عن مغامراته صادقا أو صانعاً . وقد ظهر تأمل الشاعر للمرأة في وصفه لها ، وتصويرها كمثل أعلى الجمال الإنساني ، وأورد الدكتور مكي لهذا الوصف خمسة نماذج من ديوان امرىء القيس ، واختار النموذج الأول من المعلقة ، وأوله (٢) :

(١) المراجع السابق ص ١٨٢
(٢) انظر المرجع السابق ص ١٨٣ ، ص ١٨٤

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

وآخره :

إلى مثلها يرنو الحليم صبابة

إذا ما اسبكرت بين درع ومجول

وقدم شرح وافيا للأبيات التى وصف الشاعر فيها المرأة وصفا مفصلا ثم أختار ثمانية أبيات أخرى من اللامية الثانية فى وصف المرأة أيضا وأولها(١) :

ويارب يوم قد لهوت وليلة

بآنسة كأنها خط تمثال

وتلاها بثمانية أخرى من الرائية التى قال الشاعر فيها (٢) :

وهر تصيد قلوب الرجال

وأفلت منها ابن عمرو حجر

واختار نموذجا ثانيا من المعلقة عن امرأة معينة وهى فاطمة التى خاطبها الشاعر فقال (٣) :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

وإن كنت قد ساءتك منى خليقة

فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

أغرك منى أن حبك قاتلى

وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

وما ذرفت عيناك إلا لتقدحى

بسهميك فى أعشار قلب مقتل

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٥ (٢) المرجع السابق ص ١٨٦

(٣) المرجع السابق ص ١٨٧

وختم هذه الاختيارات الشعرية التي يصف الشاعر فيها المرأة ويتأملها بهذين البيتين : (١)

تمتع من الدنيا فإنك فان
من النشوات والنساء الحسان

من البيض كالآرام والأدم كالدمى
حواصنها والمبرقات الروانى

وتحدث عن جانب المغامرة فى غزل امرىء القيس الذى كان فيه أستاذا مبدعا وشاعرا خلاقا . وذكر ستة نماذج أو مواقف أو قصص أو مغامرات حيث اختار قصتين من المعلقة مع عنيزة التى احتال الشاعر لرؤيتها يوم دارة جلجل ، والثانية مع أخرى إذ قال الشاعر عن هذه المرأة :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها
تمتعت من لهو بها غير معجل

إلى نهاية المغامرة التى صورها الشاعر فى تسعة أبيات آخرها قوله :

هصرت بفودى رأسها فتمايلت
على هضيم الكشح ، ريا المخلخل

أما ثالث المغامرات فمع امرأة أخرى تحدث عنها الشاعر فى اللامية الثانية فقال (٢) :

سموت إليها بعدما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حال

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٧ (٢) المرجع السابق ص ١٩٠

ثم ذكر الدكتور مكي ثلاث مغامرات أخرى من قصائد مختلفة ، وما أكثر المغامرات الغزلية فى شعر امرىء القيس !

وقد اعتنى المؤلف بشرح كل ما اختاره من شعر حيث كان يذكر المعانى ثم يورد بعدها النموذج المختار ، علماً بأن هذه النماذج مكررة ومتداولة فى أكثر الكتب التى تحدثت عن الغزل فى العصر الجاهلى ، أو عن امرىء القيس بصفة خاصة ، ومنها بالقطع كتاب محمد صالح سمك الذى سبق أن تحدثنا عنه وعرفنا به .

ونذكر أيضاً أن الدكتور مكى قد عقب على الشعر الذى اختاره لامرىء القيس فقال « ذلك هو امرؤ القيس فى غزله متحفظا عفيفا ، أو مندفعا صريحاً ، وذوقه فى الجمال هو الذوق الذى ترتضيه الفطرة السليمة فى كل عصر ، ولا أظن حكام مسابقات ملكات الجمال فى العالم اليوم يمكن أن يكون أمامهم مقاييس للحكم بين المتسابقات أوضح وأرق مما ارتآى امرؤ القيس فى صويحباته . »(١)

وقال إن نساء امرىء القيس لسن طرازا واحدا فى أخلاقهن ، وتساءل فقال : « لم شغل امرؤ القيس دون غيره من شعراء عصره بالمرأة ؟ »(٢)

ولا أدرى لماذا توجه المؤلف بهذا السؤال الذى ما كان له أن يتساءل به ليجيب عنه ، لأن امرأ القيس لم يكن الوحيد الذى شغل بالمرأة ، فقد شغل بها كثيرون من شعراء عصره . وتحدثوا عن مشاعرهم نحوها ، ولكن امرأ القيس تفوق عليهم بسعة الحديث وتنوعه ، وبراعة التعبير ورقته فضلا عن تميزه فى شعر القصص الغزلى ، وتحدث عن جرأة الشاعر وفحشه فى شعره ومصادره من الأدب المكشوف ، وقد تناولت هذه القضايا بحثا فى

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٤ (٢) السابق ١٩٤

القديم والحديث على السواء، أما القضايا التي لم تحسم في هذا الفصل، ولم يعرض لها المؤلف عرضاً يكشف عن رؤيته، فذكر منها كثرة الحبيبات اللاتي ورد ذكرهن في شعر امرئ القيس، فهل الأسماء حقيقة أو مستعارة أو وهمية؟ وهل مغامرات الشاعر تعبير عن واقعه، أو هي من قبيل الأحلام والأوهام التي نسجها بخياله؟ كما لم يعرض لخصائص الأسلوب في هذا الشعر. ولم يذكر طرائق التعبير في الأمثلة العديدة التي استشهد بها.

٣ — مع الطبيعة .

جعل الدكتور الطاهر مكي حديثه عن الطبيعة في شعر امرئ القيس ذا شقين :

أحدهما : للطبيعة المتحركة ، وثانيهما : للطبيعة الصامتة ، وأن شعر الطبيعة بشقيه يستنفد نصف ديوانه .

(أ) مع الطبيعة المتحركة

تحدث المؤلف عن إعجاب الشاعر بالفرس كأهم عنصر متحرك بالطبيعة وأبان عن إعجاب امرئ القيس بهـــذا الحيوان المتميز في عالم الصحراء . وذكر له عدة نماذج شعرية مختلفة، مع التقديم لها والكشف عن مضمونها، ثم إذا انتهى عن ذلك ختم الحديث بمقدمة نقدية حول رؤية الشاعر في عناصر الطبيعة المتحركة، وبدأ اختياره للشعر بنموذج من المعلقة وصف فيه الشاعر الفرس فقال :(١)

وقد أغتدى والطير في وكناتها
بمنجرد قيد الأوابد هيكل

(١) المرجع السابق ص ٢٠٠

وأورد ستة أبيات أخرى بعد البيت المذكور ، كما نقل إلى كتابه خمسة أبيات من اللامية الثانية وهي(١) :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة
وإرخاء سرحان ، وتقريب تتفل

ضليع إذا استدبرته سد فرجه
بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

كأن على الكتفين منه إذا انتحى
مداك عروس أو صلاية حنظل

وبات عليه سرجه ولجامه
وبات بعيني قائما غير مرسل

ورحنا وراح الطرف ينفض رأسه
متى ماترق العين فيه تسهل

وذكر المؤلف في كتابه ثلاثة نماذج أخرى لامرىء القيس في وصف الحصان ثم اختار نموذجين تحدث فيهما الشاعر عن فرس الصيد ، مع أن النماذج التي سبق ذكرها يتحدث فيها الشاعر أيضاً عن الفرس كأهم وسائل الصيد .

وتحدث الدكتور مكي عن فرس امرىء القيس كمطية سفر ، وأورد له هذين البيتين(٢)

وخرق كجوف العير قفر مضلة
قطعت بسام ساهم الوجه حسان

---

(١) المرجع السابق ص٢٠٠ ، ص ٢٠١
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٦

يدافع أعطاف المطايا بركنه   كما مال غصن ناعم بين أغصان

ثم اختار عدة نماذج من شعر أبي داود الإيادي ليؤكد اعتماد امرىء القيس على هذا الشاعر الذي كان رائداً في شعر الخيل، وأعقب ذلك باختيار أربعة عشر نموذجاً عن وصف الناقة ورحلات الصيد ودوابه، مع التقديم لها بما يكشف عن مضمونها. وختم الحديث عن الطبيعة المتحركة ببيان صفات كل حيوان كما جاء في الشعر المختار، قال: «ذلك هو امرؤ القيس مع الطبيعة المتحركة، ومن غير معاناة ندرك أن مظهرين منها كانا مناط إعجابه، وموضع إعزازه. الخيل والصيد، وما جاء غيرهما فضرورة اقتضتها طبيعة التصوير أو جاء بها التزام الواقع. إنه موزع القلب بين الفرس والأوابد مايكاد يصف الأولى حتى يمضى إلى الثانية، وإذا طلب الأوابد صائداً وصف تضالها مطلوبة، عطف من حين لآخر على فرسه، فبثه عواطفه، وذكر بعض فضله، وهو يصدر في ذلك كله عن إعجاب وحب وانفعال، ويمتزج حديثه عنه بالحنان والود، يصفه فيختار له أجمل الصفات، ويقارنه بأكمل المخلوقات، ولا يعرض له إلا في أكمل حالاته. لقد كانت الفروسية بمظاهرها المتباينة صيداً وسباقاً وسيادة واحدة من هواياته المفضلة»(١)

(ب) الطبيعة الصامتة

أوضح الدكتور مكي المراد من الطبيعة الصامتة فقال: «نعني بالطبيعة الصامتة ماينتظم مظاهر الكون من سماء وأفلاك، ونجوم وكواكب وسحب وأمطار، ورعد وبرق، وليل ونهار، وكان حظ بلاد العرب منها وافراً ومتلونا، فالسماء صافية أناً، وتلفها السحب آونة، عزيزة المياه حيناً، جارفة المطر أحيانا، وفيها الصحارى والرياض، والجبال والأودية

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٧

والوهاد والنجاد ، والرياح العواتى والنسيم رقيقاً ،(١)

واختار من المعلقة نموذجاً تحدث الشاعر فيه عن المطر الذى سار به على نظام منطق بديع ؛ حيث رأى الشاعر السماء فتحدث عن البرق والرعد والمطر ، وأول هذه الأبيات قوله :

أصاح ترى برقا أريك وميضه
كلمع اليدين فى حبى مكلل

وأورد بعد البيت المذكور أحد عشر بيتا ، وكلها فى وصف هذه المظاهر الطبيعية الصامتة ، وأبرز قدرة الشاعر على تصوير المطر عنيفاجارفا وسيلا دافقاً يكتسح فى طريقه كل شىء .

٤ — هموم شاعر

ذكر الدكتور مكى مقدمة لهذا الفصل قال فيهـا : « كان امرؤ القيس صاحب هم فى صباه ، وطريد هموم فى رجولته ، والهم منشؤه القلق والقلق وراء كل إبداع عبقرى ، وأول ماتلق من همومه أبيات له فى المعلقة طافحة بالأسى قالها فى أيامه الأولى ، فتيا تضيق الدنيا بشبابه ، وقدمها لنا فى صورة جلية جميلة . مايكاد المرء ينشدها ويتملاها حتى تلفه التجربة بأبعادها من كل جوانبه فيرى فيها نفسه خالصة ، وأى الناس بلا هموم ؟ »(٢)

والشىء الذى لا نتفق فيه مع الدكتور مكى أن يكون امرؤ القيس

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٠
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٦

قد قال أبيات المعلقة فى أيامه الأولى ، عندما كان فتياً تضيق الدنيا بشبابه، وذلك لأن الشاعر قد بلغ فيها قمة الفن . ولابد أنه قالها بعد أن طال منه الصيال فى دنيا القريض وأنه تحدث فيها عن شبابه وآماله وطموحاته .

وقد ذكر الدكتور مكى له هذه الأبيات :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى
بصبح وما الإصباح فيك بأمثل

فيالك من ليل كأن نجومه
بكل مغار الفتل شدت بيذبل

كأن الثريا علقت فى مصامها
بأمراس كتان إلى صم جندل

وعقب الدكتور مكى على هذه الأبيات فقال : « رسم امرؤ القيس فى هذه الأبيات صورة أدبية تنبض بالحياة والحركة للهم يتيخ عليه بكل قواه ، فيسحقه تحته سحقا ، لايترك له بارقة من أمـل تحمل إليه شعاعاً من طمأنينة ، ولا نافذة من رجاء يتخذها مهرباً إلى عالم الهدوء الرحيب، ورسم لوحة بمادة عمادها الحقيقة والمجاز والاستعارة والإرداف وأعجب النقاد القدامى بما فيها من ألوان البيان ، وكانت عندهم المثل الأعلى للاستعارة»(١)

(١) المرجع السابق ص ٢٣٦ ، ٢٣٧

وذكر المؤلف لامرىء القيس عدة نماذج شعرية كشف فيها عما اعتراه من ألوان الهم منها قوله(١):

وخليل قـــد أفارقه ... ثم لا أبكى على أثره
وابن عم قد تركت له ... صفو ماء الحوض عن كدره

وقوله(٢):

أرانا موضعين لأمر غيب ... ونسحر بالطعام وبالشراب
عصافير وذبان ودود ... وأجرأ من مجلحة الذئاب
وكل مكارم الأخلاق صارت ... إليه همتى وبه اكتسابى
فبعض اللوم عاذلتى فإنى ... ستكفينى التجارب وانتسابى

إلى آخر الأبيات:

وفي آخر حديث الدكتور مكى عن هموم امرىء القيس قال: «هناك خط فاصل بين لونين من الهم يعرض لهما امرؤ القيس. فيما يتنامى شعره. القلق الذى يعانيه كفنان، ومايعرض له من غرابة الأطوار وتلون اللمحات، ثمن مايعيشه من لحظات سامية، وتمثلها أبياته فى الليل، وهمومه فيها غامضة، لايفصح عنها، أو عن أسبابها، ورغم تشاؤمه فيها يطل من ورائها كإنسان يراها ضرورة، ويراها جزءا من تكوينه. وهم مصدره تناقض الحياة أمامه، واختلافها عليه، وفشله فى تحقيق مطامعه، واستعادة ملكه، وهو فى ذلك يلتق، إلى حد كبير، مع المتنبى شاعر العربية الأكبر فيما بعد عصر الجاهلية، وفى هذا الجانب تتضح أشعاره سوادا ويأسا(٣)».

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٨، ٢٣٩
(٢) المرجع السابق ص ٢٤٠
(٣) المرجع السابق ص ٢٤٠، ٢٤١

ولا يخفى علينا ما بين كتاب محمد سمك وكتاب الدكتور مكي من توافق كبير في النماذج الشعرية والتعليق عليها بالصورة التي سنكشف عنها في نهاية هذا الفصل .

٥ — نقد شعره

بعد أن انتهى الدكتور مكي من الحديث عن شعـــر امرىء القيس بالطريقة التي أوضحناها في الفصول السابقة ختم الكتاب بثلاثة فصول تحدث فيها عن آراء القدماء في امرىء القيس وشعره ، واختص منهم الباقلاني بنصيب أكبر ، وفصل مستقل ، ثم أنهى هذه الفصول برأي المؤلف نفسه في هذا الشاعر الكبير ، وسوف نعرض لكل ذلك فيما يأتي :

(أ) في رأي النقد القديم :

ذكر الدكتور مكي أن الشاعر قد خضع في القديم لثلاثة ألوان من النقد : آراء خاطفة من معجب متذوق وأحكام عامة من ناقد متخصص ... ودراسة مفصلة تلاحق القصيدة أو البيت أو الكلمة يتبين ما فيها من وجوه الإعجاز والسمو ، تتلمس ما تراه أخطاء في النظم أو البلاغة أو النحو .

ومثل للآراء الخاطفة بأقوال لبيد بن ربيعة وابن الكلبي وعمر بن الخطاب ، كما مثل للأحكام العامة بما كتبه ابن سلام في كتابه عن طبقات الشعراء وابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء ، مع أن هذا الكتاب الأخير من أوسع الكتب القديمة التي ترجمت لامرىء القيس ترجمة متكاملة وتحدثت عن شعره بتوسع وإسهاب .

ولذلك عجبت أن يوضع ابن قتيبة بكتاباته عن امرىء القيس في نطاق الأحكام العامة .

وذكر الطاهر مكي من أصحاب الأحكام العامة (الحسن بن بشر الآمدي)

بما كتبه عن شاعرنا في (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) . وضم اليهم أيضاً (الباقلاني) بما كتبه في إعجاز القرآن ، ثم تحدث عن أصحاب النقد المفصل على الشعر نفسه وذكر منهم أبا عمرو بن العلاء والأصمعي وأبا عبيدة وحمادا الراوية ، وإني أعجب أشد العجب . وأتساءل : أين هي الدراسة المفصلة التي نهض بها هؤلاء النقاد ؟ ولماذا لم يتحدث عنها المؤلف ويعرف بها كما تحدث وسوف يتحدث عن نقد الباقلاني للمعلقة ؟ .

وذكر عدة نماذج من نقد هؤلاء القدماء، وهي لاتختلف في روايتها بين كتاب وآخر ، وأكثر الذين يتحدثون عن شعر امرىء القيس يتناقلون هذه الأقوال ويعلقون عليها أو يستشهدون منها على عيب بلاغي أو نحوي أو شعري أو غير ذلك .

(ب) الباقلاني والمعلقة

رأى المؤلف أن الباقلاني قد أطال في نقد المعلقة فاختصه بفصل خاص عرض فيه لأكثر ماجاء في كتابه (إعجاز القرآن) حول هذا النقد .

وقد لاحظنا أن ماكتبه الطاهر مكي في الفصل السابق (في رأي النقد القديم) وهذا الفصل (الباقلاني والمعلقة) لايختلف كثيرا من ناحية الأفكار والآراء المنقولة عن القدماء، عما كتبه محمد سمك في الفصلين اللذين عقدهما للحديث عن (منزلة امرىء القيس الشعرية) و (مآخذ العلماء على امرىء القيس في أشعاره) .

وإذا كان الدكتور مكي قد عرض لما كتبه الباقلاني عن أبيات لامرىء القيس من معلقته فإن غيره قد فعل ذلك أيضا ولا جديد لمن تابع

شعر امرىء القيس ونقده فى أن يرى ناقدا أو كاتبا يعرض لما سطره الباقلانى فى إعجاز القرآن .

وكنا قد عرضنا فى فصل سابق لهذا النقد مفصلا ورددنا على مايستحق الرد منه ، ولذلك لا نود أن نكرر هنا ماقلناه هناك خاصة وأن ماكتبه الدكتور مكى حول نقد الباقلانى ليس جديدا فى مضمونه وأفكاره .

(ج) فى ضوء النقد الحديث .

ذكر الدكتور مكى أن النقد الحديث يلتقى مع النقد القديم فى بعض القضايا ويخالفه فى بعضها الآخر ، وأوضح ذلك فقال : «ويتفق معه فى أن امرأ القيس أبدع صورا أدبية نابضة بالحياة والقوة والجمال ، قلما صنع مثلها أحد من معاصريه أو سابقيه ، أو من جاءوا بعده من الشعراء الجاهليين . وعالج فنونا من التشبيه قصر دونها أنداده ، وكل مازعم له القدامى من أوليات فهى حق ، ما دام شعره أول شعر يصلنا يحمل هذه المعانى والصور .

ويخالفه فى النقد القائم على تصيد الأخطاء المفردة ، أو افتعالها ، والوقوف عند الكلمات والجدل حولها ، والحكم على أعمال الشاعر من خلال قيم لم تكن سائدة فى عصره ، أو كان سائدا ما يناقضها »(١) .

وفى ضوء النقد الحديث ذكر المؤلف أن الشاعر قد نجح فى نقل تجربته كاملة بما فيها حياته التى عاشها ، والصراع الذى عرض له ، والأحداث التى أحاطت به ، كما أنه يفضى بذات نفسه فى إخلاص يجمع بين هدوء

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٨

كالنسيم واكتساح وعصف كالسيل ، ثم ذكر أن امرأ القيس كان شاعر الصورة الناطقة دون منازع ، واستشهد بشعره وتعبيراته على هذه الصورة قال : «وأكثر ما تكون صور امرىء القيس من تشبيه ، وتزدحم قصائده بكل جميل منها ، ويأتى عنده عن طبع لا عن تعمل ، وبعض ألوان التشبيه توجد عند سابقيه لكن معظمها من خلقه، وعنده نجد أول صورة بلاغية، لما يسمية علماء البلاغة بالتشبيه المقلوب... »(١).

وذكر أمثلة أخرى لصور هذا الشاعر مثل التشبيه المقيد والتشبيه الملفوف، والاستعارة بأقسامها ، والمحسنات بألوانها . وقال إن الشاعر واقعى الخيال ينبع من الحقيقة ، ويتناول المألوف ، وإن المادة التى يصوغ منها صوره تتصل بالبادية ومظاهرها اتصالا وثيقا .. ونعتقد أن ذلك لم يكن وقفاً على امرىء القيس فحسب ، وإنما كان عاما عند أكثر الشعراء الجاهليين ، وإن بدا ذلك بوضوح فى ديوان هذا الشاعر ، كما أن قصائده لا تجرى على سنن المنطق .

أى منطق ؟ إنه منطق العصور التالية للعصر الجاهلى الذى لم تعرف فيه الوحدة الموضوعية التى يقول النقاد بها ، ويبحثون عنها فى دواوين الشعر الجاهلى !

وإنه لشيىء غريب حقاً أن نطالب الجاهليين بهذه الوحدة الموضوعية التى لم يعرفها التاريخ الأدبى إلا فى العصر الحديث ، ولذلك من العبث أن نحاكم القصيدة الجاهلية بما فيها قصائد امرىء القيس بمعيار المنطق الحديث، ونطلب أن تقتصر القصيدة الواحدة على موضوع واحد متناسين طبيعة الحياة الجاهلين والخصائص التى تميز بها هذا الشعر من خلال عصره .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٩

ولماذا لا يكون هذا التعدد فى موضوعات أكثر القصائد شيئاً محببا عندهم، لما فيه من تنوع وسذاجةوسهولة تتوافق كلها مع طبيعة المراحل الاولى ، من عمر الكائنات .

ليس عيبا — إذن — أن يكون الشعر الجاهلى قد جاء على الصورة التى قرأناه عليها ، وليس لنا أن نحاكم هذا الشعر بالقضايا والمرئيات التى عرفناها فيما بعد ، وعلينا أن نقرأه ، ونستطلع منه صورة الحياة الجاهلية وننظر فى شعر امرىء القيس ونتساءل : هل وفق هذا الشاعر فى نقل صورة حياته ؟ ونرد بالإيجاب ، وإلا لما كان أميراً للشعراء فى عصره بدون أن تهدى اليه الإمارة أو يسعى اليها .

ولقد ذكر الدكتور مكى أن الموسيقى الداخلية فى أبيات امرىء القيس تناسبت على نحو رائع مع الأحداث ، وأن لغته قد تلاءمت مع الموضوع رقة ولينا ، وغرابة وعسرا . وأن شعره قد كشف عن وفرة فى معلومات حول الحيوان والنبات وسائر مظاهر الطبيعة ، وأن صوره الشعرية كانت بصرية ، أو بمعنى أشمل ، كانت حسية لتوظيفه لبقية الحواس فى التعبير والتصوير .

وهكذا عرض الدكتور الطاهر مكى فى الصفحات الأخيرة من كتابه لبعض ما يتميز به شعر امرىء القيس من واقع النقد الحديث . وتعد هذه الخصائص التى ذكرها من أفضل ما جاء فى كتابه ، وتلخيصا لجزئيات كثيرة من فصوله السابقة ، أما ما تحدث عنه فى سائر الكتاب فلن نعيد الكلام فيه بعد أن بسطنا الحديث عنه فى هـذا الفصل من كتابنا .

ملاحظات هامة

لقد سبق أن تحدثت فى فصل سابق عن كتاب محمد صالح سمك (أمير الشعر فى العصر القديم)، وأطلت فى الحديث عنه، وعرضت لثناء مصطفى صادق الرافعى عليه، وعلى مؤلفه، ثم كان حديثنا فى هذا الفصل عن كتاب الدكتور الطاهر أحمد مكى (امرؤ القيس حياته وشعره) وعرفت به، وذكرت استعراضا عاما لبعض الموضوعات التى وردت فيه. ولم أطل الحديث عن الموضوعات التى تحدثت عنها فى فصول سابقة من خلال كتب أخرى، وذلك خوف التكرار الذى لا يخدم القضية التى شغل هذا البحث بدرسها. ثم كان الحديث عن شاعر الأطلال كأول موضوع تتكلم فيه بتوسع وإفاضة، لكى يأخذ كتاب الدكتور الطاهر حقه كاملا فى هذا الفصل المعقود له، ولما قرأت هذا الموضوع (شاعر الأطلال) به أدركت أن الأفكار التى عرض لها، والشواهد التى استدل بها ليست بغريبة على تماما، فقد سبق أن قرأتها، وأعدت قراءتها أكثر من مرة فى كتاب محمد صالح سمك، وتأكدت من التوافق الكبير بين الكتابين، واستقر فى خاطرى وجود نقل فى أحد الكتابين عن الآخر، وأن واحداً من المؤلفين قد اعتمد على الآخر فى أكثر فصول كتابه، واتجه ظنى نحو الدكتور مكى، وقات فى نفسى لابد أن يكون هو الآخذ والناقل من كتاب محمد صالح سمك، وقد اتجهت إلى هذا الظن بسبب أن كتاب، (أمير الشعر فى العصر القديم) لسمك قد طبع لأول مرة عام ١٩٣٢م، فهو متقدم عن كتاب الدكتور مكى الذى طبع هو الآخر عام ١٩٦٨ م وفضلا ذلك نجد الدكتور مكى فى مقدمة كتابه يتحدث عن كتاب سمك وينقده، ثم يجعله واحداً من مراجعه التى ذكرها فى آخر كتابه. ولم أقتنع بهذا الظن، إذ لم يوجد لدى ما يؤكده أو ينفيه خاصة وأنى كنت أكتب هذه الفصول وأنا

خارج مصر ، وأرجأت إتمام البحث إلى أن عدت إليها ، وأطلعت على النسخة القديمة من كتاب سمك والتى طبعت أولا ، وأطلع عليها الدكتور مكى وانتقدها ، ووجدت أنها تختلف عن النسخة التى قرأتها وتحدثت عنها ووصلت إلى النتيجة الآتية بعد إطالة فى البحث وتأن فى الحكم ، ويؤسفنى أن أذكرها ، أما الأسف فلأنها تدين عالما كبيراً ورائداً تربويا مشهورا بالسطو على كتابات الآخرين . وهو الأستاذ محمد صالح سمك، فلقد أعد كتابه عن امرىء القيس ، وطبعه فى عام ١٩٣٢هفى حدود ثلاثمائة صفحة، وأشاد به مصطفى صادق الرافعى ، وتحدث الناس عنه فى تلك الفترة،وبقى الكتاب على تلك الصورة إلى أن أخرج الدكتور الطاهر مكى كتابه عن امرىء القيس فى عام ١٩٦٨م ، وأعيد طبعه فى عام ١٩٧٠ م ، وتوالت طبعاته فيما بعـــد ، وكأن الأستاذ سمك أراد لكتابه من الشهرة مثل ما لكتاب الدكتور مكى ، فنهض بإعادة كتابته حيث حذف فصولا واختصر فى بعض الفصول ، وأضاف إلى كتابة عدة فصول ، وأعاد طبع الكتاب وأخرجه فى صورة جديدة فى عام ١٩٧٤م ، وجاءت صفحاته فى حدود خمسمائة وخمسين صفحة ، وهذه الطبعة هى التى تحدثنا عنها واعتمدنا عليها ، واتضح منها أن الأستاذ محمد صالح سمك قد أخـــذ من كتاب الدكتور مكى ، ونقل منه نقلا كثيرا وبخاصة ما ضمه إلى كتابه تحت عنوان (أغراض شعره ومناحله) واستغرق مائة صفحة ، وتؤكد على بعض الحقائق فى هذه القضية وهى أن المتقدم فى زمن التأليف وهو الأستاذ (سمك) قد سطا على المتأخر وهو الدكتور مكى ، ولم يشر الأول عندما أعاد طبع كتابه إلى كتاب الثانى ، كما أن النقل قد شمل فصولا كثيرة ضمها الأول إلى كتابه فى طبعته الجديدة ، وظهر هـــذا واضحا فى الباب الذى عقده للحديث عن أغراض شعر امرىء القيس ومناحله (من ص ٣١٩ إلى ص ٤١٤) وإنه لمن الغريب حقا أن نجد المتقدم يسطو على المتأخر وينقل عنه الصفحات تلو الصفحات دون أن يشير إلى هذا النقل ، مقتصرا على إضافة

كلمة أو جملة إلى ما نقل؛ ليغفل القراء عن السطو ، وأظنهم قد غفلوا سنوات طويلة . كما تؤكد أن الاستاذ سمك لم يخرج كتابه كله عن طريق النقل من كتاب الدكتور مكي فهو باحث قديم ومؤلف مخضرم ، وليست لديه هذه السذاجة التي يسهل على الآخرين اكتشافها ، إذ أن له فضل السبق في تأليف كتاب عن امرىء القيس عندما كان طالباً جامعياً في كلية دار العلوم ، ولا شك أيضاً في أن الدكتور مكي قد رجع إلى كتاب الأستاذ سمك في طبعته الأولى ، ولا يمكن للدكتور مكي أن ينفي هذا ، فلقد جعله من مراجعه وانتقده ، ولولا نستطيع أن نحدد مقدار استفادته من الأستاذ سمك لأنه — كما سبق القول — لم يشر في متن الكتاب وهوامشه إلى المراجع كاملة .

ونصل بعد هـــذا التقديم الذي أراه ضرورياً جداً إلى تحديد أهم المواضع التي سطا عليها الأستاذ محمد صالح سمك من كتاب الدكتور مكي ، ونعرض لها عرضاً سريعاً — لإيماني بأن هذه الإشكالية ليست قضيتنا في كتابنا الذي نعده عن امرىء القيس بين القدماء والمحدثين .

أولا — لقد عقد الدكتور مكي في كتابه فصلا بعنوان (شاعر الأطلال) وسبق أن تحدثنا عنه ، ثم جاء الأستاذ سمك ، فأغار على ما كتبه الدكتور مكي ، وصنع من مجموع ما نقله فصلا بعنوان (الأطلال والظعائن)، وتؤكد أن النقل يشمل النصوص الشعرية وشرحها والأفكار والنتائج إلا من اختلافات بسيطة لا تخفى على القارىء . ولكي تتضح هذه الأدلة ، وتبدو سهلة ميسرة نطلق على كتاب الدكتور مكي (امرؤ القيس حياته وشعره) اسم (الكتاب الأول) كما نطلق على كتاب محمد سمك (أمير الشعر في العصر القديم) في طبعته الثانية اسم (الكتاب الثاني) ؛ ولن يخفى على أحد التوافق التام بين ما جاء في الكتاب الأول تحت عنوان (شاعر الأطلال) وما جاء في كتاب الثاني تحت عنوان (الأطلال والظعائن) .

١ — فى حديث الدكتور مكى عن شاعر الأطلال قال فى كتابه الذى نعتناه بالأول : « أما شاعر كندة فجعل من بكاء الأطلال عنصراً مستقلاً، ميزها عن الغزل وأطال فيها القول ، ونوع صورها ... » (١) .

وجاء الأستاذ سمك ، فأخذ هذه الفكرة ونقلها إلى كتابه فى طبعته الثانية والذى نعتناه بالثانى وغير فى بعض كلماتها ، ثم قال :

« ويمتاز امرؤ القيس عمن سبقوه بأنه جعل بكاء الأطلال عنصراً مستقلاً فقد أطال القول فيها ، ونوع صورها ... » (٢) .

٢ — عندما تحدث الدكتور مكى فى كتابه عن بواعث نشأة المقدمات الطللية وأطوارها التى مرت بها نقل نصاً نقدياً لابن قتيبة من كتاب الشعر والشعراء ونصاً نقدياً آخر لابن رشيق من كتابه العمدة(٣) ، ثم استشهد الأستاذ سمك فى كتابه بالنصين نفسيهما كما وردا فى الكتاب الأول (٤).

٣ — وقد انتقد الدكتور مكى آراء القدماء فقال : «وكلهم حام حول المعنى ولم يقع عليه ، فليست المقدمة الطللية فى نشأتها عملا مفتعلا تمهد لما بعدها ، ولا تكلفاً يمسك به الشاعر ليقدح قريحته فتواتيه ...... والشىء الذى يميز الشاعر عن غيره قدرته على استرجاع الماضى ، استرجاعه وليس اكتنازه ... (٥) . كما علق الكتاب الثانى على آراء القدماء فقال : « وكلهم حام حول المعنى ، ولم يقع عليه ، وليس ذكر الأطلال ، وبداية القصائد

---

(١) د/ الطاهر مكى (الكتاب الأول) ص ١٥٩ .
(٢) محمد سمك (الكتاب الثانى) ص ٣٢١ .
(٣) انظر الكتاب الأول ص ١٧٤ ، ص ١٧٥ .
(٤) انظر الكتاب الثانى ص ٣٢١ ، ص ٣٢٢ .
(٥) الكتاب الأول ص ١٧٥ ، ص ١٧٦ .

عملا مقتملا لا ارتباط له بما بعده، بل هو بداية النسيب، ومطالع الغزل واسترجاع الماضي الحلو واستحضار الحالة الشعورية الخاصة بتجاربه المخزونة في الوجدان والأحاسيس(١) وهكذا نلاحظ توافق الأفكار بين الكتابين وإن حاول الأستاذ سمك صاحب الكتاب الثاني أن يخفي نقله واحتذاءه بتغيير في بعض الكلمات وإضافة بعض الجمل التي لا يخفي معها السطو والاحتذاء .

٤ — إذا تركنا جانب النقل في الأفكار الذي يمكن التعبير عنه في سطور بسيطة إلى مجال أوسع وهو نقل الصفحات الطوال مع ما بذل فيها من جهد فسوف نرى حجم المأساة التي اقترفها الأستاذ سمك مؤلف الكتاب (الثاني) . قال الدكتور مكي في حديثه عن شاعر الأطلال : « وذكريات امرىء القيس وأطلاله وليدة دفع عاطفي ، كان صاحبها يحن إلى أمسه فعلا ، ويشتاق إليه ، ويرجوه أن يعود ، وهي عواطف رغم بيئتها المحدودة ومن تكرار بعض صورها ، ذات ملامح إنسانية عميقة ، لا نكاد نفهمها حتى نقف عندها ، ولا نكاد نقف عندها حتى نتجاوب معها ونفكر فيها ، وتتحول إلى واقع مجسم نتصوره ونعايش صاحبه ونلتقي معه ، نفرح له أو نأسى عليه ، لأنه يعبر عن لون من الفراق كلنا نعيشه في صورة أو أخرى . فالموت فراق الحياة ، والفقر فراق الغنى والشقاء فراق السعادة ، والرحيل فراق الأهل والأحبة ، والعالم في حركته اليومية زاخر بألوان من المفارقات ، ويضيق المرء ببعض الأسماء ، تثقل على أذنه ويضطرب معها لسانه ، فإذا تجاوزها إلى ما هو سهل وموسيقي ونافع ، تخلت عنه الوحش التي يحسها وترسبت في وجدانه تجربة الشاعر ، ويعد ذاكرته إلى شعره يغترف منه للتعبير عن مشاعره الخاصة وتصويرها إذا لم يكن قادراً على إبرازها في الشكل الذي يريد .

---

(١) الكتاب الثاني ص ٣٢٢ .

والمرأة فى جانبها النفسى أكثر وضوحا فى شعر الأطلال منها فى شعر الغزل عند امرىء القيس ، لأنه فيها لا يلاحقها كيانا ماديا يصف دقائقه، وإنما يعرض لها معنى إنسانيا يأسى لفراقه ، ويحزن لرحيله ، وتمتلىء عينه بالدموع عند تذكر هـذه اللحظات ، وقلما يتجاوز ذلك أو يتخلى عنه ، فإذا فعل فلكى يقول عنها إنهاطيبة الرائحة موشاة الثياب . والحديث عنها فى المقدمة طبيعى يقتضيه صدق الانفعال ، واكتمال الصورة ، وليس إقحاما لها فى غير موضع، ليقال عنها كلام يمكن أن يقوله الشاعر فى غير هذا المكان» (١) .

وننتقل إلى الكتاب الثانى حيث يقول محمد صالح سمك : «وذكريات امرىء القيس وأطلاله وظعائنه وليدة دفع عاطفى ، كان يحن فيها إلى أمسه ويشتاق إليه ويرجوه أن يعود من جديد... وهى عواطف رغم بيئتها المحدودة ، ومع تكرار بعض صـــورها ذات ملامح إنسانية عميقة ، لانكاد نلم بها ونفهمها ، حتى نقف عندها ... ولا نكاد نقف عندها ونتأملها حتى تتجاوب معها ونفكر فيها ... ثم تتحول لدينا إلى واقع مجسم نتصوره ، ونعايش صاحبه ، ونلتقى معه ونشاركه مشاركة وجدانية ، نفرح له ، ونأسو عليه ، لأنه يعبر عن لون من الفراق ، كلنا نعيشه فى صوره المختلفة ، فالموت فراق الحياة ، والفقر فراق الغنى ، والمرض فراق العافية ، والشقاء فراق السعادة ، والغربة فراق الوطن ، والرحيل فراق الأهل والأحبة ... والعالم فى حركته اليومية الزمنية زاخر بألوان من المفارقات ، والليالى حبالى يلدن كل عجيب... وقد يضيق المرء ببعض الأسماء والألفاظ ، إذ تثقل على أذنه ، ولا يصيخ لها سمعه ، ويضطرب معها لسانه ، فإذا تجاوزها الى ماهو سهل وموسيقى ومفيد ، تخلت عنه الوحشة

(١) د/ الطاهر مكى (الكتاب الأول) ص ١٧٧ .

بحسها ، وترسبت فى وجدانه تجربة الشاعر ، فيمـــد ذاكرته وفكره ، إلى شعر هذا الشاعر ، يغترف منه ، للتعبير عن مشاعره الخاصة وتصويرها إذا لم يكن قادراً على إبرازها فى الشكل الذى يوده .

والمرأة فى جانبها النفسى وواقعها المعنوى أكثر وضوحا فى شعر الأطلال منها فى شعر الغزل عند امرىء القيس ، لأنه فى مقدماته الطللية ، لايلاحق المرأة كيانا ماديا حسيا يصف دقائقه فحسب ، وإنما يعرض لها معنى إنسانيا يأسى لفراقها ويحزن لرحيلها ، وتمتلىء عينه بالدموع لما تهيجه الذكرى عند تذكر تلك الأيام الخوالى التى نعم فيها بصاحبته ، وهذه اللحظات السعيدة التى قضاها معها.. وقلما يتجاوز امرؤ القيس ذلك التصوير العاطفى أو يتخلى عنه . . . فإذا نعل فلكى يقول عنها : إنها طيبة الرائحة ، موشاة الثياب . . . والحديث عن المرأة فى مقدمة قصيدة أمر طبيعى ، يقتضيه صدق الانفعال العاطفى ، واكتمال الصورة الذهنية ، وإبراز الحالة النفسية ... وليست المقدمة وماتتناوله من الحديث عن الخليلات والصواحب بإقحام لها فى غير موضع حتى يمكن أن يقال عنها : إنها كلام مجرد كلام يمكن الشاعر أن يقوله فى غير هذا المكان وذلك المجال »(١) .

ويظهر من هذا النص الطويل أن صاحب الكتاب الثانى وهو محمد سمك ينقل عن الطاهر مكى وهو مؤلف الكتاب الأول مع إضافة بعض الكلمات وتغيير طفيف فى بعض الجمـــل بصورة لايخفى معها الاتفاق التام بين الكتابين فى موضوع الأطلال وفى بعض الموضوعات الأخرى التى سنكشف النقل فيها أيضا ، ويستحيل أن يكون هذا استشهادا لعدم وجود علامات التنصيص واسم المرجع ولعدم الاتفاق التام بين النصين ،

---

(١) محمد صالح سمك (الكتاب الثانى) ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥

كما يستحيل أن يكون هذا توارد خواطر إذ لا يمكن أن تتوافق الخواطر إلى هذا الحد ، بل هو شيء آخر يعرفه مؤلف الكتاب الثانى .

٦ — الشيء الوحيد الذى يختلف فيه الكتابان هو أن مؤلف الكتاب الأول قد رأى أن المقدمة الطللية يمكن أن تفسر بشيء اسمه (الحنين إلى الأوطان) بينما تقوم هذه المقدمة فى الكتاب الثانى على أنها جزء غزلى يلهب الشاعر .

٧ — إننى أتحامل على نفسى ، وأقلق من هذا الوضع المخزى ، وأعلم أن القارىء ربما يصاب بالملل إذ من الممكن الاكتفاء بما ذكرت فى التدليل على ما رأيت . ولكن الأمانة العلمية تقتضى أن أذكر بعض النقول الأخرى من الكتابين ليتضح — بصورة أكمل — حجم المأساة .

ثانياً — لقد عقد الدكتور مكى فصلا عن عاشق المرأة ، وسبق أن تحدثنا عنه ، وعرفنا بموهبة امرىء القيس وقدرته على التصوير ، وذكرنا أن النقل الذى مارسه محمد سمك قد شمل النصوص الشعرية أيضاً ، وامتد النقل من النصوص إلى شرحها ، والتعليق عليها ، وأؤكد هنا أن معظم ما قاله محمد سمك حول غزل امرىء القيس وعشقه للمرأة ، والذى قدمه فى عدة مواضع من كتابه ليس له ولم يقم فيه إلا بدور النقل ، وإضافة بعض الكلمات إلى ما نقله وضمه إلى كتابه .

قال الدكتور مكى مؤلف الكتاب الأول متحدثاً عن دور المرأة فى شعر امرىء القيس : « واحتلت المرأة فى شعر امرىء القيس مكانا أهم مما احتلته عند أى شاعر جاهلى آخر ، وعلى نحو تفرد به ، فيعرضها فى ألوان ثلاثة : متذكراً ومتأملا وماجنا ، فى الأولى يأسى على أيامه الخوالى معها ، ويكون هذا الجانب جزءاً من مقـــدماته الطللية . ومعها

دوسناه . وفى الثانية تناولها مخلوقا جميلا رقيقاً يصفه ، ويستغرق فى وصفه وفى الثالثة جعلها مناط مغامراته »(١) .

وقال الكتاب الثانى : « إن المرأة احتلت فى شعر امرىء القيس مكانا مرموقاً بارزاً أهم مما احتلته عند أى شاعر جاهلى آخر، وعلى نحو تفرد به ... وقد تعرض لها فى مواقف ثلاثة : متذكرا ومتأملا وماجنا ، . . وهو فى الموقف الأول يبكى الأطلال والدمن، ويأس على أيامه الخوالى معها... وفى الموقف الثانى يتناولها مخلوقة جميلة ساحرة فاتنة رقيقة يصفها ويتحدث عن جمالها ، ويستغرق فى وصف محاسنها الجسدية ... وفى موقفه الثالث جعلها مناط مغامراته .. »(٢) .

ولعلنا قد لاحظنا الاتفاق بين النصين من غير أن يشير مؤلف الكتاب الثانى إلى الكتاب الأول مكتفياً بإضافة بعض الكلمات وتغيير طفيف فى بعضها، وهو أمر لايخفى على الباحثين والدارسين ؛ حيث جاء ذلك بصورة مكشوفة عارية يسهل رصدها والتعرف عليها .

وإذا كان النموذج المذكور قصيراً لايقتنع به البعض فى إثبات النقل الحرفى فإنى أورد نموذجاً آخر ؛ حتى تتضح أبعاد هذه القضية ، وتنمحى عنها حكاية الاقتباس وما يسمى بتوارد الخواطر .

قال الدكتور مكى عن نساء امرىء القيس فى كتابه الذى نعتناه بالأول: « ونساء امرىء القيس لسن طرازاً واحداً فى أخلاقهن ففاطمة متدللة معزوزة ، وليلى ناسية ناكرة ، وعنيزة متمنعة مستجيبة ، وأسماء حوّل قلب ، وسلمى غرة نافرة ، وماوية خبيثة ماكرة ، وهر لعوب مستجيبة،

---

(١) د/مكى (الكتاب الأول) ص ١٨٢
(٢) محمد صالح سمك (الكتاب الثانى) ص ١٥٣

ورقاش معترضة باذلة ، وأخريات كثيرات لا يذكر أسماءهن ، فهن الساخطة المحتجبة ، والساذجة العاقلة ، الخائفة المتكبرة ، ومن تقصر حبها على رجل ، ومن تهب نفسها الناس جميعاً .

وصورها رقيقة الحديث ، هامسة الحوار ، تلذ معه حتى يغشى عليها فما تستطيع قياماً إلا متكئة على ساعده ، وهناك من لها قوم يغارون عليها ، ويلاحقون امرأ القيس إذا ألم بحيهم ، ولو استطاعوا قتلوه ، ومن لا يمثل زوجها ثقلا في البـــادية ، من السفهاء أو الرقيق أو غمار الناس ، يأتيها امرؤ القيس ولا يقيم لزوجها وزنا ، وهناك الحامل والمرضع ، والشابة الفتية ، والصبية المراهقة، والحرة والجارية ، وبائعة الهوى ليس من حرج في أن يلم بدارها ، وإنما الحرج كله فيما يصيب المرء بعدها من تهلكة ، جاء ذلك في شعره : عرضاً ومتناثراً ، ولكل امرأة صفة لا تتجاوزها.

أما نصيب المرأة الواحدة من مشاعر متباينة حين ترضى أو تغضب ، أو تسر أو تحزن ، وحين تخلص وتفى ، أو تتنكر وتخون ، فلا يعرض، له ، وهو يغفل تماماً الحديث عن عقل المرأة ، وفضائلها النفسية وجمالها غير المرئي»(١) .

وقد أخذ محمد سمك صاحب الكتاب الثاني كل هذا الكلام السابق وغيره ، ونقله إلى كتابه فقال : « وصواحب امرىء القيس لسن طرازاً واحداً في أخلاقهن فناطمة متدللة مغرورة،وليلى ناسية متجاهلة ناكرة ، وعنيزة متمنعة مستجيبة ، وأسماء حول قلب ، وسلمى غرة نافرة ، وماوية خبيثة ماكرة وهر لعوب راغبة ورقاش معترضة باذلة . . وثم معشوقات أخريات يتحدث عنهن ، وقد لايذكر أسماءهن ، فيهن الساخطة المتأبية ،

(١) د/ الطاهر مكى (الكتاب الأول) ص١٩٤

والثاقلة المستأنية والوجلة المتكبرة ، والقاصرة حبها على رجل واحد ، والباذلة نفسها لكثير من الرجال... وفيهن من هي رقيقة الحديث ، دامسة الحوار ، تسعد معه حتى يغشى عليها من حساسية الموقف فما تستطيع قياماً إلا متكئة على ساعده... وفيهن من لها قوم يغارون عليها ، ويحرصون على قتله إذا ألم بحيهم... ومنهن من يأتيها ليلا ويدب إليها دبيباً متغفلا أحراسها وغير عابىء بزوجها . . وهنـــاك الحامل والمرضع والشابة الفتية والحرة والجارية ، وبائعة الهوى لكل من يلم بدارها ؛ والويل كل الويل لمن يحل عندها ... ولكل امرأة من معشوقاته صفة لا تتجاوزها عنده .

وهو لا يعرض بالبيان عن مدى نصيب المرأة الواحدة من هؤلاء المعشوقات الكثيرات ومقدار ما لديها من مشاعر ، وما عنده من أحاسيس حين ترضى أو تغضب ، أو تسر أو تحزن ، وحين تخلص أو تخـــون ، وحين تفي أو تتنكر . . وهو لا يعرض كذلك في غزله للحديث عن عقل معشوقاته ، وفضائلهن النفسية وجمالهن الروحي غير المرئي(١) .

إن القارىء يستطيع أن يتبين بيسر هذا التوافق الذي يفسر بشيء واحد فقط شيء معروف لمن يحمل القلم ، ويسود الصفحات ، ولا يستطيع مؤلف الكتاب الثاني أن يقول إنه توارد خواطر ، لأن المكتوب ليس بيتاً من الشعر يشترك الناس في معرفة معناه ، ولا يستطيع أن يقول إنه استشهاد ولم يحدد المرجع ، لأن النقل يعني التوافق التام في كل كلمة وهو هنا ليس كذلك !

ثالثاً : لم يقتصر ما قام به محمـــد سمك من نقل على ما ذكرناه في الموضوعات السابقة ، وإنما امتد ليشمل فصولا أخرى من كتابه الدكتور مكي.

---

(١) محمد سمك (الكتاب الثاني) ص ١٧٤ ، ١٧٥

لقد نقل الأستاذ سمك ماذكره صاحب الكتاب الأول عن الطبيعة فى شعر امرىء القيس وامتد النقل إلى ماكتبه الدكتور مكى عن هموم الشاعر ؛ أما ما يتعلق بحياة امرىء القيس فيصعب علينا أن نحدد سارقا ومسروقا ؛ لأن الحقائق التاريخية والروايات الإخبارية ملك للجميع ؛ ومحفوظة فى أمهات الكتب مثلها مثل الشواهد الشعريه تماماً إلا إذا اقترن الشرح بالشعر ، وامتد النقل إليهما معاً ، وعند ذلك لانجدما نعأمن التنبيه إلى النقل والاختلاس كاحدث فى هذه الواقعة التى تحدثنا عنها .

الفصل السادس

كتابات أخرى

كثرت الكتابات والدراسات المتنوعة التى أعدت عن امرىء القيس ابن حجر فى العصر الحديث ، وسبق أن تكلمنا عن خمسة مؤلفات تحدثت عن هذا الشاعر ، وإن اختلفت فى حجمها ، فمنها ما جاء فى كتب تاريخ الأدب ، ومنها ما صدر فى كتاب مستقل . أما الدراسات الأخرى التى لم تتحدث عنها ، فمنها أيضاً ما جاء فى كتاب مستقل ، ومنها ما خرج مقروناً بغيره من موضوعات الأدب ، وإنه لمن الصعب علينا أن نحصى هـــذه الدراسات الحديثه التى تكلمت عن هـــذا الشاعر ، وإذا جاز ذلك فى المؤلفات القديمة ، فلا يمكن الأخذ به فى العصر الحاضر حيث كثرت ، وسائل الطبع فى العديد من البلدان العربية وغير العربية ، وإذا ذكرنا كتاباً صدر فى بلد فسوف يغيب عنا ما صدر فى بلد آخر ، وإذا حصرنا ما طبع فى البلاد العربية فلن نعرف ما طبع فى البلاد الأجنبية ، خاصة وأن شعر امرىء القيس قد ترجم إلى العديد من اللغات كما سبق القول.

ولا تستطيع أن تنهض بجميع ما كتب عن واحد مثل امرىء القيس إلا جهة علمية تملك من الوسائل والأدوات الحديثة ما لا يملكه فرد واحد أو مجموعه أفراد ، نظراً لأن ابن حجر شاعر طموح ، وأمير ارتبط اسمه بتاريخ كندة فى جنوب الجزيرة ووسطها ، وفى أطراف أخرى منها ، فلذلك اهتدينا إلى العديد من الكتب والمجلات التى تحدثت عن هذا الشاعر من الجوانب المختلفة فى العصر الحديث(١).

---

(١) نذكر من هذه الكتب (امرؤ القيس) لسليم الجندى (دمشق) =

وإننا لنختار من بين هذا الكم الهائل (مما ذكرناه أو مما لم نذكره) أربعة كتب أخرى نتحدث عنها بإيجاز فى هذا الفصل .

وقد راعينا فى اختيارها البعد الزمنى فى التأليف واختلاف المنهج الفكرى فى العرض والتقديم ، ولأشياء أخرى سيتعرف عليها القارىء بنفسه من خلال مطالعته لهذا الفصل .

= و (امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة) لإيليا الحاوى (بيروت) و (امرؤ القيس) لرئيف الخورى (بيروت) و (امرؤ القيس بن حجر) لمحمد حسن علاء الدين (القدس) و (امرؤ القيس) لمحمد العروسى (تونس) (امرؤ القيس كبير شعراء الجاهلية) رضوان الشهال (بيروت) و(زعامة الشعر الجاهلى بين امرىء القيس وعدى بن زيد) (عبد المتعال الصعيدى) (القاهرة) و (القيصر وامرؤ القيس) نجيب الأرمناوى (القاهرة) و (الصورة الفنية فى شعر امرىء القيس) لسعد الحاوى (الرياض) و(شعراء النصرانية) لويس شيخو (بيروت ومصر) و(تاريخ آداب اللغة العربية) لجرجى زيدان (القاهرة) و (أدباء العرب) بطرس البستانى (بيروت) ، و (تاريخ الأدب العربى) عمر فروخ (بيروت) و(تاريخ الأدب العربى) أحمد حسن الزيات (مصر) ، و (شعراء من الماضى) (كامل العبد الله (بيروت) (المفصل فى تاريخ العرب) جواد على (بيروت وبغداد) و(تاريخ الأدب العربى) بلاشير (دمشق) و(الرؤى المقنعة) كمال أبو ديب (القاهرة) وغيرها كثير .

١ — تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان(١)

سبق أن اعتمدنا على كتاب بروكلمان فى بعض الفصول السابقة خاصة فى القضايا التى تتصل بجذور الأدب العربى كأوليه الشعر الجاهلى وبواعثه مثل الحب الذى ذكر أنه لم يكن من هذه البواعث على الإطلاق . قال : « أما الحب فإنه لم يكن من البواعث الأصلية للشعر . . . فإننا لا نجد مثل ذلك عند العرب إلا قليلا . (أى مثل ما كان عند العبرانيين القدماء من شعر ساذج الغريزة) كما فى فخر امرىء القيس بمغامراته من العشق والتظرف إلى جانب غير ذلك من أعمال البطولة » .

وقال : ولم نجد للحب والغزل صدى فى القصيد إلا فى أبيات النسيب الذى يصف الجمال المادى وصفاً حسياً . ليس فيه شىء من طرب العاشق ولوعته وذكريات شبابه وأحبابه »(٢)

وفى حديثه عن قوالب الشعر العربى ذكر امرأ القيس الذى كان

---

(١) ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، وقد نشر بروكلمان الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى مدينة فايمر عام ١٨٩٨ فى جزءين ، ثم نشر ملحقين كبيرين أضخم من ضعف الجزءين الأولين عام ١٩٣٧ م ونشر فى عام ١٩٤٥ م جزءا ضخماً فى تاريخ الأدب العربى الحديث ، وأعاد طبع الجزءين الأولين مصححين عام ١٩٤٣م وعام ١٩٤٩م وقد أذن بترجمة كتابه عام ١٩٤٨م للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، ولم تكتمل حتى الآن ترجمة الكتاب ، إذ لم يطبع منه معربا إلا ستة أجزاء صدر الأول منها عام ١٩٥٩ م ، ومن المقرر أن يكتمل إخراج الكتاب فى ثمانية عشر جزءا

وكارل بروكلمان مستشرق ألمانى توفى عام ١٩٥٦ م .

(٢) بروكلمان تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ٤٩ ، ٥٠ .

واحدا من الشعراء الذين تغلب عليهم البحور الطويلة النفس ، إذ يأتى بحر الطويل فى المرتبة الأولى ، ثم الكامل والوافر والبسيط ، كما يوجد عنده المتقارب ، ويوجد عنده المنسرح . واستعمل المديد فى قصيدة واحدة ولم يذكرها وأعتقـــد أنها القصيدة الطويلة التى قال امرؤ القيس فى أولها(١) .

رب رام من بنى ثعل متلج كفيه فى قتره

وقال إن امرأ القيس من الشعراء الذين لهم قصائد بها أبيات خارجة عن العروض الذى وضعه الخليل بن أحمد ، وماوضعه سعيد بن مسعدة (الأخفش الأوسط) ولم يذكر أمثلة لهذه الأبيات وإن أحال المترجم فى هامش الكتاب على مقدمة الجزء الثانى من شرح المفضليات للمستشرق لايل(Lyall) وكرنكو فى دائرة المعارف الإسلامية . وعند مراجعة الديوان لأول مرة وجدت به بعض الأشعار الخارجة على القانون العروضى : منها المقطوعة التى قال امرؤ القيس فى أولها(٢) :

ابلغ شهابا وابلغ عاصماً ومالكا هل أتاك الخبر مال

وفى حديث بروكلمان عن طبيعة الشعر الجاهلى نفى أن يكون هذا الفن قد خضع لمؤثرات أجنبية . وأعتقد أن هذه المقولة لاتعبر عن مجموع الآراء التى تناولت الاختلاف بين العلماء فى وقوع هذه المؤثرات وعدم وقوعها ، وإلافقد قيل إن العرب عرفوا بعض الألوان الغزلية من الحبشة ، والمسألة كما قلت محل خلاف بين مؤرخى الآداب .

وتحدث بروكلمان عن بعض القضايا الأخرى المتصلة بالشعر الجاهلى

(١) الديوان ص ١٢٧ وهى القصيدة رقم ١٧
(٢) الديوان ص ٢١٠

وكان شعر امرىء القيس محل استشهاد فى أكثر هذه القضايا ، وتأتى بعد ذلك إلى الترجمة التى عقدها بالجزء الأول من كتابه لشاعر كندة الشهير .

ترجمة امرىء القيس .

إننا نعرف سلفا مذهب بروكلمان فى الحكم على الشعر الجاهلى ، ولكنه على كل حال لا يقترب من مذهب د . س . مرجليوث الذى كان متحاملا بدرجة كبيرة على هذا التراث الشعرى القديم .

أما ترجمة بروكلمان لامرىء القيس فهى مختصرة جدا إذ لم تزد عن خمس صفحات حسب مذهبه فى التأليف . ولكن هذه الترجمة على قصرها تعد من أطول التراجم التى عقدت عن شاعر جاهلى فى كتابه ، فلديه ترجمات لم تزد عن صفحة . وبعضها مثل ترجمة علقمة بن عبده والمتلمس ، لم تصل كل منها إلى صفحة . وتعد ترجمته لامرىء القيس على صفحاتها المعدودة ذات أهمية كبيرة ، إذ كشفت لنا عن رؤية واحـــد من المستشرقين الذين عرفوا بمواقفهم المتحاملة على الأدب العربى . ولكنهم على كل حال ليسوا ســـواء ، فمنهم المتحامل ، ومنهم المنصف ، ومنهم الجاحد الحاقد .

وقد بدأ بروكلمان فى التعريف بشاعرنا فقال إنه (حندج) أو عدى أو مليكة ، وقال إنه قضى حياته فى محاولات متكررة باءت كلها بالفشل لإعادة ملك كندة اليمانية ، وذكر مجموعة من أخباره قال بعدها : « ولا نعرف شيئاً ثابتاً عن حياة امرىء القيس ويريد طه حسين فى الأدب الجاهلى أن يرى فى تاريخ امرىء القيس مثالا لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الكندى ، ووضعها القصاص إشادة بذكر قبيلته »(١) ولكن بروكلمان لم يحدد رأيه

---

(١) بروكلمان تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ٩٨

حول كلام الدكتور طه حسين، فهل هو راض به ؟ أم معترض عليه ؟ وأغلب ظني أنه نظر إليه كواحد من الأخبار التي جعلت من شاعرنا بطلا من أشهر أبطال العرب ، ومثلها تماما ذلك القصص الذي تناول حياته منذ أن كان في كندة في ديار بني أسد، يقول الشعر ، وأبوه يهدده ويتوعده ، ويأمر بقتله ، ويحزن لذلك ثم يفرح بنجاته .

ويدخل أيضاً في دائرة الأخبار المشكوك فيها ماقيل إنه فجر باحدى بنات ملك الروم ، فأمر بقتله في أنقرة . وذكر أن قصة موته محترقا ، لأنه لبس حلة مسمومة منحولة عليه أيضا .

وانتقل إلى شعره فقال « ويرى النقاد العرب أن امرأ القيس أول من استعمل النسيب وغيره من معاني الشعر في أسلوب القصائد ، ومن الخصائص العروضية في كثرة استعمال الضرب المقبوض، وكثرة الإقواء وكثرة التصريع في غير أول القصيدة »(١) .

وفيما يتصل برواية شعرة قال « ويرجع الفضل في رواية أشعار امرىء القيس الكثيرة الاضطراب إلى حماد الرواية على وجه الخصوص، كما يرجع بعض ذلك إلى أبي عمرو بن العلاء »(٢) وإذا قبلنا ما قاله عن حماد فان نوافقه على ماقاله عن أبي عمرو بن العلاء وإن كان قوله (بعض ذلك) فيما يتصل بأبي العلاء يخفف من مقدار الشك في قدرة هذا الراوي القدير ومصداقيته . وختم دراسته عن امرىء القيس يثبت للمصادر على اختلاف تاريخ تأليفها وطبعها ، وجهة الطبع ، ويستطيع القارىء أن يراجع عناية بروكلمان بذكر المراجع في الكتاب المذكور(٣)

---

(١) المرجع السابق ص ٩٩
(٢) المرجع السابق ص ٩٩
(٣) انظر المرجع السابق ص ١٠٠ ، ١٠١

٢ — الروائع (امرؤ القيس) لفؤاد إفرام البستاني

يبدو الجزء السابع من كتاب الروائع والذى كتبه فؤاد البستانى عن امرىء القيس فى صورة كتيب صغير ، ولذا نرى القضايا التى بحثها المؤلف لم تأخذ طابع العمق والتقصى على ما سوف نرى .

لقد بدأ الحديث عن أجداد امرىء القيس ، ثم تحدث عن أعمامه ، وبحث مصير والده الذى أنجب عدة أولاد أكبرهم نافع ، وأصغرهم امرؤ القيس ، وتحدث عن حياة شاعرنا قبل مقتل أبيه ، وذكر أنه كان ولوعا بالشعر منذ نشأته التى قال عنها : « نشأ امرؤ القيس فى الترف واللهو ، شأن أولاد الملوك ، فلم ينقصه أمر من ملذات الحياة ، وكان جميل الطلعة ، وسيما ، مفطورا على الشعر ، فنظمه فتيا ، وتوسع فى أنواعه من أوصاف الملاهى والألباب ، وأيام السرور ، والمغامرات الغرامية بكلام كان يتجاوز أحيانا إلى ذكر أمور أنف منها أبوه ، فنهاه عن قول مثل هذا الشعر ، فلم ينته فغضب وطرده ، فكان ينتقل فى أصحابه ، فإذا صادفوا غديرا نزلوا فيه ، فاصطادوا وأكلوا ، وشربوا الخمر ، وأقاموا فى شعر وغناء ، حتى ينضب الماء ، فيحملهم امرؤ القيس إلى غيره »(١) .

ثم تحدث عن حياته بعد مقتل والده ، فبحث عدة أمور فى هذه المرحلة من عمره كوصول خبر القتل إليه عندما كان يدمون بأرض اليمن أو بأرض الشام ، ثم استعداده للثأر ، ومقابلته لوفد بنى أسد ، وارتحاله للانتقام ، وتحدث عن الفترة التى لقب فيها امرؤ القيس بالملك الضليل وهى التى طلبه فيها المنذر ، ولذا كان شاعرنا يتنقل بين القبائل ، حيث ذهب إلى السموءل ، وارتحل إلى قيصر ، ومات فى أنقرة عند عودته .

---

(١) فؤاد البستانى . الروائع (امرؤ القيس) ص ٣٨٥ ، ٣٨٦

وكتب عن عقيدة امرىء القيس ، وتابع لويس شيخو فى القول بنصرانيته .

وتحدث عن الديوان ، وذكر أن أكثر شعره فى الوصف ، وأن المعلقة هى أشهر شعره ، وأنها الأولى بين المعلقات ، فدرسها درساخاصاً وتكلم عن سبب إنشائها وأقسامها ، وشهرتها وطبعاتها المختلفة ،وترجماتها المتعددة .

ويعد ماكتبه تحت عنوان (قيمة شعره) أفضل ماجاء فى هذا الكتاب على صغر حجمه ، وشمولية البحث فيه ، قال : «فضل امرىء القيس فى سبقه الشعراء إلى أبواب كثيرة وتصرفه بمعانيها العديدة. ساعده على ذلك ترف شبابه ، ثم تقلبات الدهر عليه ، وتتابع أسفاره ، وهو وافر الشعور بكل ذلك يجمعه إلى خيال منبسط وروعة شعرية سامية . فسن للشعراء طرقاً وأساليب تبعوها عن قرب ولما يزالوا مأخوذين بتلك المطالع الجميلة :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فكان أول من شخص الأطلال ، وناجاها ، وبكى لذكر الأحبة ، وتبسط فى مواضيع الغزل الرقيقة ، مع إطالة الوصف ، واستيفاء جميع صوره »(١) .

وذكر أنه يمكن التعرف على الأحوال الاجتماعية فى عصره من خلال شعره ،وهذا الأمر واضح فى ديوانه ، فأكثر قصائده تصوير للواقع الذى عاشه بما فيه من هموم وأحزان. وبما فيه أيضاً من لهو وترف ومغامرات.

وقد نظر البستانى إلى شىء فى شعر امرىء القيس أسماه الوحدة

(١) المرجع السابق ص ٤٠٠ و ٤٠١

الأدبية . وهو لا يقصد بذلك وحدة التعبير أو وحدة الأسلوب . وإنما يقصد وحدة التفكير ووحدة التنسيق . وأبان عن هــذا الملمح فقال : « وهذا من الموضوعات التى تمس الأدب العربى القديم كله . وعما يعيبنا بعدم وجوده بعض المستشرقين . وبعض الآخذين من أدبائنا مآخذ الآداب الأجنبية . إذ يطلعون على ما فيها من وحــدة فى التأليف تروقهم . ثم ينتقلون إلى أدبنا القديم فلا يرون تلك الوحدة التأليفية المقررة ، فينعون عليه الاضطراب والتناقض . على أن هـذا الحكم جائر ، لأنهم يقارنون بين شاعر مثقف (يؤلف) وشاعر لا ثقافة له (ينشد) فيؤدى بهم فساد المقارنة إلى فساد النتيجة »(١) .

وقد رأى أن فى المعلقة (مثلا) وحدة أسماها وحدة الشعور أو وحدة التذكار التى يلمحها كل من تعمق فى درس أكثر المعلقات وما إليهـا من الشعر الجاهلى المطبوع .

وتحدث عن المآخذ التى اعتمد عليها ، ونقل منها سواء أكانت من الكتب القديمة أم من المؤلفات الحديثة . وهى مع اختلافها وتنوع مناهجها ذات قيمة كبيرة لأنها المفتاح الذى نلج به عالم امرىء القيس .

أما القسم الثانى من هذا الكتاب فكان عبارة عن اختيارات شعرية فى أكثر الفنون التى تحدث عنها شاعرنا . وقد نهض البستانى بشرح غريبها . وبيان معانيها مع تقديم لبعض القصائد التى تحتاج إلى شرح وإيضاح .

(١) المرجع السابق ص ٤٠٤

٣ — تاريخ الأدب الجاهلي (الجزء الثاني)

للدكتور علي الجندي(١)

يعد هذا الكتاب خالصا للحديث عن امرىء القيس وشعره، إلا خمس صفحات جعلها المؤلف لشعراء كندة . ولذا صرت أتساءل : كيف يكون عنوان الكتاب عن شعراء كندة . ولا يتحدث عنهم إلا في هذه الصفحات المعدودة ؟ شيء غريب حقا !

أما ما كتبه عن امرىء القيس فيقع في حوالي ثلاثمائة صفحة ، تحدث فيها عن أكثر القضايا المتصلة بهذا الشاعر سواء ما كان منها عن حياته . أو عن ديانته . أو عن ديوانه .

ولقد عرض الدكتور علي الجندي من خلال فصول هذا الكتاب لمعظم ما كتب عن امرىء القيس ، ورد فيها على ما قاله الدكتور طه حسين حول حياته . وعما قاله لويس شيخو عن ديانته . إلى غير ذلك من القضايا التي سبق بحثها في الفصول المتقدمة من كتابنا .

وتحدث عن شعره ، وبدأ يبحث الأصيل والدخيل منه ، ونقل معظم ما قاله القدماء والمحدثون حول ما فيه من شك وانتحال . ولعل هذه المسألة من أهم المسائل التي يجب بحثها وبيانها قبل الحديث عن هذا الشعر .

---

(١) صدرت الطبعة الثالثة من هذا الكتاب عام ١٩٦٩ . وقد تناول المؤلف في هذا الجزء القسم الأول من شعراء القحطانيين . وهم شعراء كندة .

فقد قال «وعلى ذلك نقبل كل نص رواه الأصمعى أو المفضل. ومن باب أولى ما اتفقا عليه. بشرط ألا يكون هذا النص محلا للطعن، أو الشبهة، وقد يكون هذا الطعن على غير حق، أو الدافع إليه كيدى بسبب الخصومة الشخصية ... وبالرجوع الى الديوان نجد أن أظهر الروايات فيه روايتا الأصمعى والمفضل.

وقد جاء فيهما سبع وأربعون قصيدة ومقطعة. ولكنها لم تسلم كلها من الشك والاحتمال. ولذلك إزاء ما أشرنا إليه سابقا يجب أن نخرج منها كل ما كان للظن فيه مجال. ومن مجموع ما سلم لنا منهما بين الروايتين نستطيع — بعد دراسته — أن نستنتج منه مقياسا فنيا نعرض عليه النصوص الأخرى التى تنسب إلى الشاعر. لنرى فى كل منها مدى الاتفاق ومدى الاختلاف. وعلى ضوء النتيجة التى وصلنا إليها يكون الحكم على هذه النصوص بجواز القبول أو بالرفض»(١).

ثم تحدث عن سبع قصائد(٢) ومقطوعتين(٣) تطرق إليها الشك من بين العدد السابق الذى رواه الأصمعى أو المفضل. أو اجتمعا على روايته. وبقى بعد ذلك ثمان وثلاثون قصيدة ومقطوعة قال عنها: «وهى فى نظرى تستحق أن تتخذ أصلا لشعر امرىء القيس حيث لم يتطرق إلى واحدة منها شك أو احتمال من أى رواية مهما كان. وبدراستها يمكن أن نقف على شخصية صاحبها، وخصائصه الفنية وعلى الأساس الذى

---

(١) د/ على الجندى (تاريخ الأدب الجاهلى) الجزء الثانى ص ٧٢ الأنجلو المصرية ١٩٦٩ م الطبعة الثالثة

(٢) أرقامها: ٥، ٨، ١٢، ١٨، ٢٩، ٣٢، ٤٠

(٣) رقماها: ٢٢ و ٤٣

ننتهي إليه نستطيع أن ننظر في هذه النسخ ، وفي النصوص الباقية من المائة التي حواها الديوان ، وما أضافه الناشر ، مما ورد منسوباً إلى إمرىء القيس »(١) .

وأعتقد أن هذا الرأي من أفضل الآراء التي تفحصت شعر امرىء القيس لبيان الأصلي والدخيل فيه ؛ وذلك لاعتماده على نقد الرواية ونقد النص الشعري نفسه (المتن).

وانتقل المؤلف إلى تحليل هـــذا الشعر الذي قال بخلوصه للشاعر وسلامته من الطعن والانتحال ، وقسمه إلى قسمين ، أولهما : شعر اللهو والفراغ ، وثانيهما : شعر الجد والعمل ، قال : «أما القسم الأول فنجد فيه امرأ القيس يتغنى بالتنقل بين المنازل والديار ، وفي جنبات الوديان والجبال ، مصوراً مغامراته مع الظباء والغزلان من بني الإنسان والحيوان وأوقاته التي يقضيها في المتعة واللذة ، أما القسم الثاني فشعر يصور — كذلك — تنقله بين مختلف الأحياء والأوطان ، وفي وسط الصحارى والقفار ، لا للمتعة واللهو كما كان أولا ، ولكن رغبة في تحقيق آمال طوال عراض »(٢) .

وتحدث عن المرأة في شعره ، وعن الطرد والقنص والطبيعة والفخر والمدح والذم والشكوى والتحسر ، حيث مثل لها ، وشرح نماذج منها واستخرج خصائص شعره في كل الموضوعات التي عرض لها .

وتحدث عن الشعر المنسوب له سواء ما جاء منه في نسخ الديوان أو ما جاء في بعض الكتب الأخرى ، وضم إلى ما نسب إليه ، وذكر أن

(١) المرجع السابق ص ٧٥
(٢) المرجع السابق ص ٧٨ ، ص ٧٩

قلة ضئيلة من هذا الشعر ، فيها روح مشابهة لروح امرىء القيس وميوله وأسلوبه ، وهى لم تكن عرضة للطعن ، ولا مثيرة للشك والاحتمالات ، ومن ثم يجوز أن تكون نسبتها إليه صحيحة .

أما الغالبية العظمى من هذا — كما رأينا فى تتبعنا لقصائده ومقطوعاته واحدة واحدة — فتثير الشك والاتهام »(١) .

وتحدث عن نقد شعره ، فذكر آراء السابقين فيه . واستخرج منه كثيراً من الصور البلاغية مثل التشبيه والاستعارة ، وجعلهما من المحسنات ، ثم تكلم عن الكناية والرمز والطباق والمقابلة والجناس والترصيع والتكرار والاتساع ، والتتميم والإشارة والإرداف والمبالغة والإيغال إلى غير ذلك من الخصائص والصور البلاغية .

وقال إن ما ذكره الشاعر من الصور الشعرية مأخوذ من ألوان الحياة فى عصره ، سواء ما اتصل منها بالإنسان أو الحيوان أو بالمظاهر الأخرى الطبيعية وقال : « ومهما يكن فإن التعبير عند امرىء القيس يبين أن الشاعر كان يملك ثروة كبيرة من الألفاظ والعبارات ، وكان يحسن التصرف فيها ، ويجيد رصفها وصنعها فى دقة وإحكام ، كما يدل على أنه كان على علم بما تتضمنه هذه الكلمات من معان وأفكار ، وأنه كان دقيق الحس بما فيها من تنغيم موسيقى ، وأنه كان يجيد اختيار أنسب الألفاظ وأحسن العبارات ، ويضعها فى مواضعها الصحيحة إلا فى القليل النادر » (٢) .

---

(١) يشمل هـــذا الحكم القصائد التى رواها الأصمعى أو المفضل ، وسرى الشك إليها ، أو القصائد التى لم يروها واحد منهما ، أو الشعر الذى نسب إليه .

(٢) د/على الجندى تاريخ الأدب الجاهلى جـ٢ ص٢٦٤

وتحدث عن بحوره الشعرية ، وقال إنه كان شغوفا ببحر الطويل الذى قال فيه ما يقرب من ثلاثة أرباع المجموعة الشعرية المدروسة ، كما تأتى اللام فى مقدمة الحروف التى جعلها رويا لقصائده ومقطوعاته .

ثم ختم كلامه بالحديث عن مــــدى دلالة التعبير على الحالة النفسية للشاعر وذكر أن القصائد « التى تبدأ وتنتهى بحالة نفسية غير طبيعية للشاعر فلا تبدأ بمقدمات فى الأطلال ونحوها ، بل كان الشاعر يدخل فيما يريد أن يعرضه مباشرة كالقصيدة الحادية عشرة التى تفيض بالحزن واليأس والخفاقات المرة ، إذ بدأها بقوله(١) :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

ويندب فيها حظه عندما يقول :

وقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

وقال المؤلف : « ومن ثم نجد أن أسلوبه فى التعبير وطريقته فى العرض مما يساعد على معرفة حالة الشاعر النفسية »(٢) .

ولا شك فى أن هذا الكتاب من أفضل الكتب التى تحدثت عن امرىء القيس فى العصر الحديث ، ومن الأجدر أن يستقل الشاعر بهذا الكتاب ، وأن يخففه المؤلف من النقول الكثيرة التى امتلأت بها بعض الفصول ، وأن توجه جل العناية — فوق ما ذكر — إلى تحليل الشعر وبيان قيمته الفنية . على أن هذه الهنات البسيطة لا تقدح فى قيمة الكتاب الذى نجح المؤلف من خلاله فى تقديم وجهة نظره حول امرىء القيس وشعره .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩١ (٢) المرجع السابق ص ٢٩٢

٤ — تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)

للدكتور شوقي ضيف(١)

تحدث الدكتور شوقي ضيف عن امرىء القيس وشعره في أربعة وثلاثين صفحة من كتابه المذكور . بدأها بالكلام عن قبيلة الشاعر وأسرته ، ثم تحـــدث عن حياته، وهي القضايا التي تكرر الحديث عنها من زوايا مختلفة ، ومن خلال وجهات نظر متباينة وإن كانت وجهته واضحة في وصم الأخبار التي تحدثت عن امرىء القيس بعد مقتل أبيه بالانتحال ؛ ورأى أن ما قاله الدكتور طه حسين حول تمثيل القصص الذي تناول حياته بأنه تمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث ضرب من المبالغة والخيال البعيد .

وتحدث عن ديوان الشاعر وطبعاته المتعددة ، وبخاصة الطبعة التي أخرجها محمد أبوالفضل إبراهيم عام١٩٥٨م ، وارتضى أن يناقش الديوان على رواية الأصمعي ، ولهذا رفض ما عداها ، قال : « وإذن فالرواية التي ينبغي أن تناقش الديوان ونفحصه على أساسها هي رواية الأصمعي ، وقبل أن نلاحظ الشبه العامة التي تحوم حول شعر امرىء القيس ، ولعل أهم ما جاء على لسان الأصمعي نفسه إذ روى عنه أنه كان يقول : « كل شيء في أيدينا من شعر امرىء القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتفا سمعناها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء ، وحماد في أشعاره يقابل ابن الكلبي في أخباره ، فأكثرها من منحوله »(٢) .

(١) خرج هذا الكتاب في عدة طبعات منها التي نتعامل معها هنا ، وفي الفصول السابقة ، وقد صدرت هذه الطبعة (السابعة) عام ١٩٧٦ م .

(٢) د/ شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ص٢٤٤ دار المعارف عام ١٩٧٦ م الطبعة السابعة .

وأورد بعض المسوغات التى تجعل شكه فى رواية الأصمعى مقبولا ، مع قناعته بهذه الرواية ، ورضاه بأن يدرس الديوان من خلالها ؛ ولذلك نراه يعرض للقصائد والمقطوعات التى اشتملت عليها هذه الرواية واحدة واحدة ، ويقول بكل شك تسرب إليها ، ويبدأ بالحديث عن المعلقة ، وقبل بشك الأصمعى فى أربعة أبيات منها ، والتى نسبها بعض الرواة إلى الصعلوك (تأبط شراً) .

وإنى أتساءل أيضاً ، إذا كان الدكتور شوقى قد قبل كل ما قيل عن هذه الرواية من شك ونحل ، فلماذا لم يورد ما تسرب إلى المعلقة أيضاً من هذا الشك ... ألم يزعم بعض الرواة أنها ألحقت بشعر امرىء القيس وأنها لبعض النمريين ؟ !

لم يبق من رواية الأصمعى صحيحا عنده إلا المعلقة واللامية والثانية ، والقصيدة الحادية عشرة (أرانا موضعين لأمر غيب) والمقطوعة السابعة والعشرون (ديمة هطلاء فيها وطف) ، لأن هاتين الأخيرتين من رواية الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء . وشك فى بقية القصائد والمقطوعات من هـــذه الرواية بينما رفض ما جاء فى الروايات الأخرى .

وتحدث عن شعره من خلال ما اختاره من رواية الأصمعى ، وعرض لما جاء فيه من موضوعات ، ثم قال : « وأكبر الظن أنه قد اتضحت الآن الموضوعات الأساسية التى كان ينظم فيها امرؤ القيس شعره قبل مقتل أبيه ، وهى التشبيب ، والغزل القصصى الصريح ووصف الطبيعة المتحركة بما فيها من خيل ووحش والطبيعة الصامتة بما فيها من أمطار وسيول ، فتلك هى الموضوعات التى تستغرق أشعاره الأولى ، وتجمعها المعلقة جميعاً بينما تقف المطولة الثانية (الأعم صباحا أيها الطلل البالى)

عند التشبيب والقصص المادى ، ووصف الوحش والفرس ، وهو في أثناء وصفهما يعرض لصيده ، وما يجده فيه من لذة ومتاع ولهو »(١) .

ثم أبان عن قيمة شعره فقال «فهو الذى نهج للشعراء الجاهليين من بعده الحديث فى بكاء الديار والغزل القصصى ووصف الليل والخيل والصيد والمطر والسيول والشكوى من الدهر ، ولعله سبق بأشعاره فى هذه الموضوعات ، ولكنه هو الذى أعطاها النسق النهائى مظهراً فى ذلك ضروبا من المهارة الفنية ، جعلت السابقين جميعاً يجمعون على تقديمه »(٢) .

وتحدث عن تراكم التشبيه فى شعره الذى استمده من واقعه الحسى ، ومثل لذلك بالعديد من النماذج بينما كانت الاستعارة قليلة فى أشعاره ، ولكنها على كل حال مبثوثة فيها . كما أنه يعنى بالتلاؤم بين ألفاظه . كما يعنى أيضاً بالموسيق . وإن اشتمل شعره على بعض العيوب فى الوزن والقافية مثل الإقواء الذى جاء فى قوله :

كأن أبانا فى أفانين ودقه كبير أناس فى بجاد مزمل

فاللام مضمومة فى (مزمل) حسب القياس النحوى . ولهذا اختلفت حركة الروى إذ أنها مجرورة فى بقية القصيدة ، وإن كان هذا قليلا فى شعره . وقد ختم الدكتور شوقى ضيف حديثه عن هذا الشاعر بقوله : « والحق أنه يعد أبا الشعر الجاهلى بل الشعر العربى جميعه . فقد استوى عنده فى صورة رائعة سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها أو من

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٨

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٠

حيث قدرته على الوصف والتشبيه . وقـــد مضى يعنى بأخيلته ومعانيه وألفاظه مما نجده ماثلا فى استعاراته وبعض طباقاته ،وجناساته . وبذلك أعد الشعراء من بعده للعناية بحلى معنوية ولفظية مختلفة »(١) .

وهكذا أنصف الشاعر الذى افتقد شعره الإنصاف من بعض النقاد المحدثين .

(١) المرجع السابق ص ٣٦٥

الخاتمـــة

١ — لقد اعتنى القدماء والمحدثون على السواء بشعر امرىء القيس، ولعل ذلك راجع إلى عدة أسباب منها موهبة الرجل وقدرته على تقديم صياغة شعرية جديدة فى عصره، لم يكن الشعراء قد طرقوها أو تعرفوا عليها، ثم رأوا طريقته فاتبعوه فيها، ولهذا صار أميرا للشعراء، كما يقول الناس فى العصر الحديث. وساعد على تلك العناية ارتباط الشاعر بقبيلته (كندة) التى نزحت من الجنوب إلى الشمال، وصار حديثه عنها ضربا من العصبية الصادقة التى كان يحياها الجاهليون، خاصة وأن هذه القبيلة قد ظهر فيها أكثر من شاعر سبق امرأ القيس، وهم الذين يمثلون مع غيرهم طفولة الشعر العربى أو صباه المبكر، وبعضهم عاصر الشاعر وتصادق أو اختلف معه، ولذا انعكس هذا التأثير البيّن على شعره، والأهم من ذلك كله أن امرأ القيس قد ولد فى نجد ونشأ بها، وعبر عن شبابه بين ربوعها وأسهم فى وصف ديارها. وكان الإخباريون يهتمون برواية كل شاعر عاش فى نجد، ولذلك كثرت الروايات التى تناقلت القصائد والمقطوعات، وزادت بالتالى نسخ الديوان الــتى تشكلت فيما بعد من مجموع هذه الروايات.

٢ — لقد كثرت الكتابات التى تحدثت عن الشاعر عند القدماء، من ناحية النظر فى شعره والحكم عليه من واقع المعايير النقدية التى كانت سائدة فى العصور القديمة.

ورأينا كيف اختلفت هذه الكتابات بين مؤلف وآخر. وقد كتب عنه ابن سلام الجمحى وابن قتيبة، وأبو الفرج والمرزبانى والباقلانى، وهؤلاء هم الذين اختصوا الشاعر بأجزاء من كتبهم، فتحدثوا عن حياته

أو شعره ، أو عنهما معا . وسبق أن تكلمنا عن كتبهم فى فصول سابقة . ونؤكد أن مؤلفات هؤلاء السابقين لم تكن كل التى كتبت عن الشاعر ، بل هناك العديد من الكتب الأخرى التى تناولت شعره أو جانبا منه بالنقد والتمحيص. وأشهرها عيار الشعر لابن طباطبا (ت ٣٢٢هـ) وكتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ) والعمدة لابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى (ت ٤٦٦هـ) . وغيرها كثير .

أما الدراسات الحديثة فكانت أكثر وأشمل ، وبعضها جاء فى صورة جزء أو فصل من كتاب ، وبعضها جاء فى كتاب مستقل ، وقد تحدثنا عن خمسة منها أفردنا كل واحد بفصل خاص ، وهى لمصطفى صادق الرافعى ، والدكتور طه حسين ، ومحمد صالح سمك ، والدكتور محمد صبرى السربونى والدكتور الطاهر أحمد مكى ، ثم تحدثنا عن أربعة كتب أخرى جمعنا بينها فى فصل خاص ، ولم نطل الكلام فيها خوفا من التكرار ، لأن كثيرا من الكتب القديمة والحديثة أيضا ، والتى ترجمت لامرىء القيس كررت النماذج الشعرية . وتناقلت القضايا النقدية المتصلة بشعره ، وصارت حياته بعد استعراض عدة كتب بفصول هذا الكتاب واضحة تماما سواء ما كان منها متفقا عليه أو متنازعا حوله . أما الكتب الأربعة التى تحدثنا عنها فى فصل خاص فهى لكارل بروكلمان . وفؤاد البستانى والدكتور على الجندى والدكتور شوقى ضيف .

٣ — لاشك فى أن الفرق كبير جدا بين مناهج القدماء ومناهج المحدثين فى تناولهم لشعر امرىء القيس . فنقد الأولين نقد ذاتى ونظرى وغير معلل غالبا إلا من كلمات وجمل بسيطة كانوا يقدمون بها حديثهم عن هذا الشاعر كأن يقولوا : سبق العرب إلى أشياء ابتدعها واستحسنتها العرب ، واتبعته فيها الشعراء ، كاستيقاف صحبه ، والتبكاء على الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ ... أو أن يقولوا هو أشعر الناس فى الجاهلية أو أشعر الشعراء ، أو أحسن الجاهلية تشبيها إلى غير ذلك من الأقوال المرسلة ، وكان هؤلاء

يتناقلون الروايات التى يمتدح بها الشاعر أو ينتقد فيها شعره مدحا ، أو ذماً .

أما نقد المحدثين فقد خضع فى أول هـذا القرن الميلادى للموروث القديم ، وتابع بعضهم مثل الرافعى ابن رشيق فى كتابه العمدة ، فنقل عنه كثيرا من تلك الآراء القديمـة ، وإن أضاف إليها رؤية وتصويرا جديدا يختلف فى أكثر جوانبه عن فهم القدماء لشعر امرىء القيس ، ثم انتقل النقد فيما بعد إلى مرحلة جديدة متطورة فى فهم الشعر وتحليله لمسناها فى بعض المؤلفات الحديثة . مثل كتاب الدكتور محمد صبرى السربونى وكتاب الدكتور على الجندى . ونعطى مثلا لذلك بالمقدمة الطللية التى كان الشاعر (مثل غيره من الجاهليين) يفتتح بها بعض قصائده . أما القدماء فلم يضيفوا شيئا فوق ما ذكره ابن قتيبة فى مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) من أنها مجرد افتتاح للقصيدة . أمـــا المحدثون فقد توسعوا فى فهم الطلل ، ولم يسكتوا عما سكت عنه القدماء ، ورأوا أن الشاعر قد تطور باستعماله إلى أبعد من تسخيره لبدء القصيدة . فربطه بعضهم بالغزل ، وجعله آخرون تعبيرا عن نفسية الشاعر إزاء الموقف الذى قال فيه القصيدة ، أو أنه تعبير عن حيرة الشاعر أمام معميات الحياة أو تصوير لمأساة الزمن ، واليأس من الخلاص واستغراق الفناء لجميع ما فى الكون إلى غير ذلك من الأقوال المبسوطة فى الكتب الحديثة .

٤ — لقد ارتبط الحديث عن امرىء القيس بقضية قديمة متجددة هى أولية الشعر ، وتأكد أنه لم يكن أول الشعراء بل سبق بعدد منهم ، وهم الذين مثلوا الطفولة الحقيقية لهـذا الفن ، وربما كان منهم ذلك الشاعر المجهول الذى عرف بابن خذام . أو باسم قريب من ذلك ، مع أن المرحلة التى تقدمت عـــلى امرىء القيس لا زالت مقرونة بالضبابية والخفاء ، ولذا تضاربت أقوال القدماء والمحدثين عن هذه الفترة ، وقد أسرفت المرويات القديمة فى الحديث عن طفولة الشعر الجاهلى ، فذكرت عددا من الشعراء

القدماء الذين شك فيهم ابن سلام وغيره، وارتبطت بالحديث عن هذا الشاعر أيضا قضية (أفضل الشعراء)، وتقل ابن رشيق كثيرا من النقول التي تجعل امرأ القيس أفضل الشعراء، وأورد نقولا أخرى تجعل من غيره أفضل الشعراء، وإن كانت الكثرة قد مالت الى تفوق شاعرنا على الكثرة الجاهلية في أكثر الفنون الشعرية حيوية وذيوعا واستعمالا.

ورأى أكثر القدماء أن معظم الشعر يعود الى الوصف، فكان شاعرنا مقدما في هذا الفن سواء ما اتصل منه بعناصر الطبيعة أو بغيرها مما وقع تحت هذا الغرض، إلا أن الحكم الذي ارتضاه بعض القدماء وأكثر المحدثين يجعل الشاعر مفضلا على غيره في واحد من فنون الشعر، ويجعل شاعرا آخر مفضلا على غيره في لون أو غرض آخر من الأغراض.

٥ — لقد تفوق امرؤ القيس في الغزل وما يتصل به من وقوف على الأطلال، وبكاء على الديار، كما تفوق في وصف الفرس التي استعملها العرب للحرب أو الصيد أو الزينة، وأنه سبق إلى أشياء كثيرة خاصة ما اتصل منها بصوغ التشبيه وسبك الاستعارة وجودة الوصف، وأنه جعل من ديوانه صورة لحياته وحياة قبيلته كندة بديار بني أسد في نجد. وقد انعكست همومه وأحزانه على الكثير من القصائد والمقطوعات فجاءت معبرة عن مأساته في الحياة. أما ما جاء في ديوانه من فخر ورثاء ومدح وهجاء وغيره، فقد كان الشاعر فيه قصير النفس إذ لا يرتبط أكثر شعره في هذه الموضوعات إلا بمواقف طارئة في مسيرة حياته. ولذا أغفل البعض الحديث عن هذه الموضوعات الأخيرة، وقصر شعره على الأطلال والغزل والوصف والهموم والأحزان. وتؤكد أن المعلقة واللامية الثانية يصوران موهبة الشاعر أفضل تصوير، ويكشفان عن النواحي التي برز فيها، وتفوق بها على الشعراء الجاهليين.

٦ — إذا كان الشاعر قد ارتبط من خلال فنه بعدة قضايا مثل أولية الشعر، وأفضل الشعراء وغيرها ، فإنه ارتبط أيضا بقضية الوضع فى الشعر الجاهلى، وأن القدماء قد تنبهوا إلى هذه القضية ، وبسط بعضهم — مثل ابن سلام — القول فيها ، ودلل عليها بحجج قوية ، ورأى النحل عند القدماء حقيقة واقعة ، وأن بعض العشائر قد استقلت شعر شعرائها، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسنة شعرائهم، ثم جاء الرواة فزادوا فى الأشعار التى قيلت ، وأنه يسهل على أهل العلم معرفة ما زاد الرواة ووضع المولدون .

وإذا اجتمع العلماء والرواة الموثوق بهم على ابطال شيء من الشعر ، فليس لأحد أن يخرج على هذا الاجتماع ، أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج عنه .

وكان ابن سلام أول من وسع الكلام فى الانتحال ، وفصل فى هذه القضية ، وحذا البعض حذوه ، حتى جاء العصر الحديث ، فتوسع المستشرقون فى بحث هذا الموضوع ، وأسرفوا فى الشك ، حتى وصل بهم الحال إلى رفض هـــذا الميراث الضخم ، وسايرهم بعض العرب فى هذا الرفض ، وإن لم يكن فى صورة الرفض التام الذى دعا إليه المستشرقون من أمثال مرجليوث .

ولا يقول أحد بأن ما فى ديوان امرىء القيس خالص له ، ففيه بعض القصائد والمقطوعات التى شك القدماء فيها ، ووصموها بالوضع أو النحل، أو نسبوها إلى غيره من الشعراء .

كما أن فى الديوان أيضا بعض القصائد التى سكت القدماء عنها ، مع أن أبياتها لا تتوافق مع شعر امرىء القيس فى أى شيء .

٧ — إن أكثر التفاصيل التى تتعلق بحياة الشاعر ليست محل اتفاق بين

القدماء أو بين المحدثين . لقد اختلفوا فى أمور كثيرة ، مثل أمه وخاله ، وزوجاته ، وانتقامه من بنى أسد ، وذهابه إلى قيصر ، وأن هذا الاختلاف قد دفع الدكتور طه حسين إلى الشك فى شخصية امرىء القيس ، ورأى أنها تصوير أو تمثيل لحياة الشاعر الكندى عبد الرحمن ابن الأشعث ، ودفعه هذا الشك إلى شك آخر يتمثل فى إنكار شعره إلا المعلقة واللامية الثانية ، ثم عاد فشك فيهما أيضا .

أما القدماء فلم يصلوا بخلافاتهم حول الشاعر وشعره إلى هذا المستوى من الشك وإن تناقلوا بعض الأخبار التى تتضارب مع نفسها مثل الروايات التى ذكرها صاحب الأغانى عن المكان الذى وجد فيه أثناء قتل والده ، وعن الموضع الذى مات فيه امرؤ القيس ، وعن العلة التى مات بسببها .

وربما كانت هذه الخلافات غير ذات موضوع لكنها إذا انعكست على قضايا أخرى شكلت أمرا مهما جدا ، فالذى يرفض ذهاب الشاعر إلى القسطنطينية (مثلا) لا يمكن أن يقبل منه أن يذكر فى شعره شيئا عن هذه الرحلة ، كما أنه لا يقبل أيضا ذلك الشعر الذى قاله حول تنقله بين القبائل مادام لا يقر بهذا التنقل ولا يعترف به .

٨ — لقد عرض القدماء — كما تحدثنا فى الباب الثانى — لشعر امرىء القيس وحياته ، وأن هذا العرض قد اختلف من كتاب لآخر ، ففى كتاب ابن سلام الجمحى رأينا كيف تحدث عن الشاعر من خلال الطبقة الأولى التى تضم معه ثلاثة آخرين من فحول الشعراء الجاهليين ، وهم زهير والنابغة والأعشى .

ووضح لنا أن نظام الطبقات الذى أخذ به ابن سلام لم يستطع معه أن يكشف عن أوجه الشبه التى تجمع بين هؤلاء الفحول الأربعة . وإن كانت عنايته بامرىء القيس قد فاقت عنايته بالآخرين ، حيث تحدث عن

خصائص شعره ، ومثل له بالعديد من الشواهد التي استدل بها على هذه الخصائص ، وذكر أنه كان أحسن الجاهلية تشبيها ، واختار له عددا كبيرا من الأبيات الشعرية التي تراكم فيها التشبيه الحسي ، والذي تميز به امرؤ القيس ، وتحدث عن الوصف في شعره ، ومثل له بوصف الفرس والمعزى والمطر وبعض مظاهر الطبيعة الأخرى .

بينما ترجم ابن قتيبة للشاعر على غير نظام الطبقات الذي أخذ به سلفه ابن سلام ، وجعله أول الشعراء المترجم لهم في كتابه (الشعر والشعراء) وكانت ترجمة شاعرنا أوسع التراجم بهذا الكتاب ، واعتمد في بعض ما ذكره بهذه الترجمة على ما قاله صاحب الطبقات ، وإن أضاف إلى ما قاله بعض الرؤى الجديدة التي تساير حركة النقد المتطورة في القرن الثالث الهجري ، وكان ابن قتيبة من أوائل القدماء الذين توسعوا في الحديث عن حياة امرىء القيس ، وذكر الرأي والرأي الآخر فيما يتصل ببعض القضايا المختلف فيها مثل نسبة ، وموقفه من المرأة . وعاب على الشاعر تفاخره بالعبث والمجون ، وحديثه عن مغامراته مع المرأة بصورة مكشوفة .

أما أبو الفرج فقد وجد في أخبار الشاعر مادة صالحة لأن يصوغ منها ترجمة له بكتاب (الأغاني) . ومثل له بالعديد من الشواهد الشعرية المتصلة بمسيرة حياته ، وحرص على ذكر الروايات المرتبطة بالموضوع الذي يتحدث عنه ، ولذا رأينا كل من ترجم لحياة الشاعر لم يغفل كتاب أبي الفرج كأهم مصدر ذكر — بالتفصيل والروايات الموثقة — أخبار امرىء القيس .

وعرض صاحب الأغاني لقضية الانتحال عرضا سريعا من خلال قصيدة شك فيها ، وذكر أنها منحولة ، لكن السمة الغالبة على هذه الترجمة أنها ترجمة إخبارية وليست دراسة نقدية .

ولا نستطيع القول بأن كتاب الموشح للمرزبانى قد أضاف جديداً إلى دراسة امرىء القيس وشعره، ولقد بينا أن أكثر الأخبار والروايات التى ذكرها لم يقم فيها بدور يتجاوز الجمع والترتيب ، وإن أطال القول فى التعليق على بعض الروايات التى ذكرها القدماء باختصار ، فأضاف إليها بعداً جديداً .

أما الباقلانى فقد انتقد نصف أبيات المعلقة تقريبا ، ليؤكد بذلك — وبغيره أيضا — على إعجاز القرآن ، وقد بان تحامله على الشاعر ومعلقته ، مع أن الموازنة بين القرآن والشعر منقوضة أساساً لكن الرجل قد أقر لامرىء القيس بجودة بعض المعانى .

أما الكتب الأخرى التى عرضت لشعر امرىء القيس مثل كتاب العمدة وكتاب عيار الشعر وغيرها — وهى المؤلفات التى لم نخصها بحديث مستقل — فلم تأت بجديد والتناقل بينها وبين الكتب الأخرى قائم وملحوظ ، ولذلك اكتفينا بالبعض الذى يغنى عن الكل .

٩ — أما المحدثون فقد توسعوا فى بحث الشاعر وحياته، وانصرفوا لدراسة الشعر ونقده ، وقلت عنايتهم بأمور الحياة التى أفاض فيها القدماء، وأفاض فيها أيضا بعض المحدثين ، وجمع الرافعى فى كتابته عن امرىء القيس بين النقل عن القدماء والأخذ بالرؤية الجديدة فى النقد .

أما الدكتور طه حسين فقد شك فى الشعر الجاهلى على إجماله ثم قبل بعضه ، وشك فى شعر امرىء القيس ، ثم اختار له قصيدتين ، فتحدث عنهما ، ثم شك فيهما أيضا .

ولقد أبنا عن رؤيته للانتحال ، الذى قال به بعض القدماء من أمثال ابن سلام ، ولا تصل رؤيتـــه إلى مستوى الرفض الذى قال به بعض المستشرقين من أمثال مرجليوث .

ولقد نهض الكثيرون بالرد على الدكتور طه حسين فيما يتصل بشكه في الشعر الجاهلي بعامة وامرىء القيس بخاصة .

أما الأستاذ محمد صالح سمك فقد أعد كتابا كبيرا عن امرىء القيس كأمير للشعر في العصر الجاهلي، وبحث فيه أمورا كثيرة لم يبحثها أحد قبله — فيما نعتقد — وأفاض في دراسة شعر امرىء القيس،وإن توسع في قبول أكثر ما روى له ، مع أن بعضه محل شك ، لعـــدم مطابقته لأكثر القصائد والمقطوعات التي قالها الشاعر ، ولكن ذلك لا ينقص من قيمة الكتاب الذي ألف عن شاعرنا منذ ما يقرب من ستين عاما .

ولقد قدم الدكتور محمد صبري كتابا عن امرىء القيس جعل عنوانه (الشوامخ) وكان شاعرنا أولهم ، وعرض لموضوعات شعره بصورة لم يقلد فيها أحدا ، ولكن كتابه مع أهميته ينقصه بعض ما كان يجب قوله عن هذا الشاعر .

وعرض الدكتور الطاهر أحمد مكي في كتابه (امرؤ القيس حياته وشعره) لبعض ما عرض له السابقون ، وقدم كتابه في صورة منظمة مرتبة ، واعتنى بشرح الشعر والإكثار منه ،وخالف الأعراف الكتابية في عدم التزامه بذكر المراجع كاملة،وأعطى عناية خاصة لموضوعات الشعر وفنونه ، وقدم صورة واضحة لملامح الأطلال ومظاهر الطبيعة المتحركة والساكنة ، وكشف عن دواعي الأحزان والهموم عند الشاعر ، وجمع بين النقد القديم والنقد الحديث في دراسة الشعر ، وجرد الكتاب من أكثر الأساطير التي تمتلأ بها الكتب التي تحدثت عن امرىء القيس ، وكتابه جدير بالبحث والقراءة .

أما الكتب الأخرى التي تحدثنا عنها في الفصل الأخير ، فلا تجمع بينها هوية واحدة ، فلكل واحد منها منزع خاص ، حيث اختلفت في

مقدار حديثها عن الشاعر ، وفى زمن تأليفها ، وفى طبيعة التأليف نفسه . ولكنها على إجمالها تسهم فى رسم الصورة الواضحة لامرىء القيس .

وإذا كنا قد تحدثنا عن تسعة مؤلفات حديثة بين التفصيل فى خمسة والإجمال فى أربعة أخرى ، فإن ذلك العدد لم يكن هو كل ما تحدث عن هذا الشاعر .

ولقد ذكرت أمثلة أخرى للعديد من المراجع التى تناولت حياته وشعره ، وإن تلك العناية الزائدة من قبل بعض المحدثين لم تكن إلا تعبيرا عن أهمية امرىء القيس كأمير الشعر ، وسبقه للشعراء فى أمور كثيرة استحسنوها منه ، واتبعوه فيها . ولذلك لم ينازعه أحد فى إمارته للشعراء الجاهليين .

الطائف فى شوال ١٤٠٨ هـ (يونيو سنة ١٩٨٨ م) .

أهم المصادر والمراجع

- الآمدى ، (أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى) .

١) الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

- إبراهيم ، (طه أحمد إبراهيم) .

٢) تاريخ النقد الأدبى عند العـــرب (من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع) ، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ م الطبعة الأولى .

- إبراهيم ، (محمد أبو الفضل إبراهيم) .

٣) ديوان امرىء القيس . دار المعارف بمصر ١٩٨٤ م : الطبعة الرابعة .

- ابن الأثير . (ضياء الدين بن الأثير) .

٤) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر . جزءان . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة الحلبى بمصر ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م .

- الأسد ، (دكتور ناصر الدين الأسد) .

٥) مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية . دار المعارف بمصر ١٩٧٨ م الطبعة الخامسة .

- الأصفهانى ، (أبو الفرج على بن الحسين بن محمد بن أحمد) .

٦) كتاب الأغانى : (مصور عن طبعة دار الكتب) .

- أمين ، (أحمد أمين) .

٧) النقد الأدبى (جزءان) . مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٢ م — الطبعة الرابعة .

- أمين ، (دكتور بكرى شيخ أمين) .

٨) المعلقات السبع . دار الإنسان الجديد . بيروت ١٩٧٤م .

• الباقلاني . (أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني) .

٩) إعجاز القرآن . تحقيق السيد أحمد صقر. دار المعارف بمصر ١٩٧٢م الطبعة الثالثة .

• بدوي (دكتور أحمد أحمد بدوي) .

١٠) أسس النقد الأدبي عند العرب . دار نهضة مصر ١٩٧٩م .

• بروكلمان (كارل بروكلمان) .

١١) تاريخ الأدب العربي ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، الجزء الأول . دار المعارف بمصر ١٩٨٣ م الطبعة الخامسة .

• البستاني (بطرس البستاني) .

١٢) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. دار مارون عبود، بيروت ١٩٧٩ م

١٣) كتاب دائرة المعارف . المجلد الرابع . تهران ناصر خسرو .

• البستاني (فؤاد إفرام البستاني) .

١٤) الروائع (امرؤ القيس) منتخبات شعرية ، دار المشرق . بيروت ١٩٨٦م الطبعه الحادية عشرة .

• البطل (دكتور علي البطل) .

١٥) الصورة في الشعر العربي — حتى آخر القرن الثاني الهجري . دار الأندلس ١٩٨٠م الطبعة الأولى.

• بلاشير (دكتور ريجيس بلاشير) .

١٦) تاريخ الأدب العربي . ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني. دار الفكر بدمشق ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م الطبعة الثانية .

• ابن بليهد (ابن بليهد النجدي) .

١٧) صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار (جزءان) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ١٣٩٢هـ — ١٩٧٢م الطبعة الثانية .
• البهيتي (دكتور نجيب البهبيتي) .
١٨) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري . مكتبة الخانجي بمصر .
• البيومي ، (دكتور محمد رجب البيومي) .
١٩) موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي (من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض) .
• التبريزي (أبو زكريا يحيى بن علي محمد التبريزي) .
٢٠) شرح القصائد العشر . تحقيق عبد السلام الحوفي ، دار الكتب العلمية . بيروت ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م الطبعة الأولى .
• الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) .
٢١) البيان والتبيين . تحقيق حسن السندوبي ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦م الطبعة الرابعة .
٢٢) الحيوان . تحقيق محمد عبد السلام هارون مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ، ط ثانية .
• جاد المولى (محمد أحمد جاد المولى) .
٢٣) أيام العرب في الجاهلية . دار الفكر .
• الجبوري (دكتور يحيى الجبوري) .
٢٤) الشعر الجاهلي . خصائصه وفنونه ، دار التربية ببغداد .
• الجرجاني (علي بن عبد العزيز الجرجاني) .
٢٥) الوساطة بين المتنبي وخصومه . تحقيق محمد أبي الفضل وآخر ، مطبعة عيسى الحلبي بالقاهرة .
• الجمحي (محمد بن سلام الجمحي) .

٢٦) طبقات فحول الشعر ، تحقيق محمود محمد شاكر (جزءان) مطبعة المدنى بالقاهرة ١٩٧٤م .

● الجندى (دكتور على الجندى) .

٢٧) تاريخ الأدب الجاهلى ، الجزء الثانى (شعراء كندة) . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩م الطبعة الثالثة .

● الحاوى ، (إيليا الحاوى)

٢٨) فن الوصف وتطوره فى الشعر العربى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت ١٩٨٠ ط ثالثة .

٢٩) فى النقـــد والأدب (الجزء الأول) دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٩م الطبعة الرابعة .

● أبو حديد (محمد فريد أبو حديد) .

٣٠) الملك الضليل . دار المعارف بمصر ١٩٤٤م

● حسين (دكتور طه حسين) .

٣١) فى الأدب الجاهلى ، دار المعارف بمصر ١٩٨١ م — الطبعة الرابعة عشرة .

٣٢) مقدمة كتاب نقد النثر لقدامة بن جعفر ، دار الكتب العلميـــة ، بيروت ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م .

● حسين (السيد محمد الخضر حسين) .

٣٣) نقض كتاب فى الشعر الجاهلى ، المكتبة العلمية بيروت .

● حفنى (دكتور عبد الحليم حفنى) .

٣٤) مطلع القصيدة العربيه ودلالته النفسية ، الهيئة المصرية العامه للكتاب ١٩٨٧ م

● الحموى (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى) .

٣٥) معجم البلدان . دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م .

• الحوفى (دكتور أحمد الحوفى) .

٣٦) الغزل فى العصر الجاهلى . دار القلم بيروت .

٣٧) المرأة فى الشعر الجاهلى . دار الفكر العربى الطبعة الثانية .

• الخفاجى (ابن سنان عبد الله بن محمد) .

٣٨) سر الفصاحة . دار الكتب العلميـــة . بيروت ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م . الطبعة الأولى .

• خفاجى (دكتور محمد عبد المنعم خفاجى) .

٣٩) الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى . دار الطباعة المحمدية ١٣٩٨هـ — ١٩٤٩ م الطبعة الأولى .

• خلف الله (دكتور محمد أحمد خلف الله) .

٤٠) صاحب الأغانى ، مكتبه الأنجلو المصرية ١٩٦٢م الطبعة الثانية .

• خليف (دكتور يوسف خليف) .

٤١) دراسات فى الشعر الجاهلى ، مكتبه غريب ١٩٨١م .

٤٢) العصر الجاهلى (الجزء الأول) إشراف طبع عام ١٩٨٣م ، الهيئة المصرية العامه للكتاب .

• الدقس (دكتور كامل سلامة الدقس) .

٤٣) وصف الخيل فى الشعر الجاهلى ، دار الكتب الثقافية ، الكويت ١٣٩٠هـ — ١٩٧٥ م .

• أبو ديب (كمال أبو ديب) .

٤٤) مجلة فصول العدد الثانى بالمجلد الرابع (يناير ، فبراير ، مارس ١٩٨٤م) (معلقه أمرىء القيس) «الرؤية الشبقية» .

● الرافعي (مصطفى صادق الرافعي).

٤٥) تاريخ آداب العرب . دار الكتاب العربي بيروت (ثلاثة أجزاء) ١٣٩٤م — ١٩٧٤ م .

٤٦) تحت راية القرآن ، دار الكتاب العربي بيروت ، تصحيح محمد سعيد العريان ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م . الطبعة السابعة .

● ابن رشيق (أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني) .

٤٧) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . دار الجيل بيروت ١٩٧٢م الطبعة الرابعة .

● رومية (وهب رومية) .

٤٨) الرحلة في القصيدة الجاهلية ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٠هـ — ١٩٧٩ م الطبعة الثانية .

● الزبيدي (أبو بكر محمد بن حسن الإشبيلي الزبيدي) .

٤٩) طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٨٤م الطبعة الثانية .

● الزركلي (خير الدين الزركلي) .

٥٠) الأعلام ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٤ م — الجزء الثاني ، الطبعة السادسة .

● الزوزني (حسين بن أحمد بن حسين الزوزني) .

٥١) شرح المعلقات العشر ، مكتبة الحياة . بيرت ١٩٧٩م .

● زيدان (جرجي زيدان) .

٥٢) تاريخ آداب اللغة العربية (الجزء الأول) . تعليق الدكتور شوقي ضيف ١٩٥٧م دار الهلال .

• الزيات (أحمد حسن الزيات) .
٥٣) تاريخ الأدب العربي . الطبعة الخامسة والعشرون .
• زيان (بهى الدين زيان) .
٥٤) الشعر الجـــاهلى ، تطوره وخصائصه الفنية . دار المعارف بمصر ١٩٨٢ م
• السقا (مصطفى السقا) .
٥٥) مختار الشعر الجاهلى ، دار العلم للجميع ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م الجزء الأول . الطبعة الثانية .
• سلطان (دكتور منير سلطان) .
٥٦) المرزبانى والموشح .
• سلوم (دكتور داود سلوم) وآخر .
٥٧) شخصيات كتاب الأغانى ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ، بغداد ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م
• سمك (محمد صالح سمك) .
٥٨) أمير الشعر فى العصر القديم ، دار نهضة مصر ١٩٧٤ م .
• السندوبى ، (حسن السندوبى) .
٥٩) شرح ديوان امرىء القيس ، المكتبة الثقافية ، بيروت ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م الطبعة السابعة .
• أبو سويلم ، (دكتور أنور عليان أبو سويلم) .
٦٠) الإبل فى الشعر الجاهلى دراسة فى ضوء الميثولوجيا والنقد الحديث (جزءان) ، دار العلوم بالرياض ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م الطبعة الأولى .

● السيرافى ، (أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى) .
٦١) أخبار النحويين البصريين تحقيق محمد إبراهيم البنا ، دار الاعتصام ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م الطبعة الأولى .
● الشرقاوى ، (دكتور عفت الشرقاوى) .
٦٢) دروس ونصوص فى قضايا الأدب الجاهلى ، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٩م .
● الشكعة ، (دكتور مصطفى الشكعة) .
٦٣) منهج التأليف عند علماء العرب (قسم الأدب) دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٢ م الطبعة الرابعة .
● شلبى ، (دكتور سعد إسماعيل شلبى) .
٦٤) الأصول الفنية للشعر الجاهلى . مكتبة غريب ١٩٧٧م الطبعة الثانية .
● الشنتمرى ، (يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمرى) .
٦٥) أشعار الشعراء الستة الجاهليين . دار الآفاق بيروت ١٩٧٩ م الطبعة الأولى .
● الشنقيطى . (أحمد بن الأمين الشنقيطى) .
٦٦) شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها . دار القلم بيروت .
● الشهرستانى (محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستانى) .
٦٧) الملل والنحل (هامش على كتاب الفصل فى الملل والنحل لابن حزم) الجزء الثانى المطبعة الأدبية بمصر ١٣٢٠هـ .
● الشورى (دكتور مصطفى الشورى) .
٦٨) الشعر الجاهلى . تفسير أسطورى . دار المعارف بمصر ١٩٨٦ م الطبعة الأولى .

• شيخو . (لويس شيخو) .

٦٩) شعراء النصرانية مكتبة الآداب ومطبعتها فى مصر (ستة أجزاء) ١٩٨٢ م .

• شيخ موسى . (دكتور محمد خير شيخ موسى) .

٧٠) فصول فى النقد العربى وقضاياه . دار الثقافة بالدار البيضاء ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م الطبعة الأولى .

• صبرى . (دكتور محمد صبرى السربونى) .

٧١) الشوامخ (امرؤ القيس) مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤م .

• صفدى . (مطاع صفدى) وآخر .

٧٢) موسوعة الشعر العربى (المجلد الأول) شركة خياط بيروت١٩٧٤م

• ضيف . (دكتور شوقى ضيف) .

٧٣) البلاغة تطور وتاريخ . دار المعارف بمصر ١٩٧٧م الطبعة الرابعة .

٧٤) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) دار المعارف بمصر ١٩٧٦م الطبعة التاسعة .

٧٥) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى . دار المعارف بمصر ١٩٧٦ م الطبعة التاسعة .

• ابن طباطبا . (أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد) .

٧٦) كتاب عيار الشعر تحقيق الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع . دار العلوم بالرياض ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

• طبانة . (دكتور بدوى طبانة) .

٧٧) دراسات فى نقد الأدب العربى من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث مطبعة الأنجلو المصرية ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م الطبعة السابعة .

• الطاوى . (أحمد حسين الطاوى) .

٧٨) صبرى السربونى . سيرة تاريخية وصورة حياة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م .

• عباس . (دكتور إحسان عباس) .

٧٩) تاريخ النقد الأدبي عند العرب . مطبعة دار الأمانة بيروت ١٣٩١هـ ١٩٧١ م الطبعة الأولى .

• العباس . (عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباس) .

٨٠) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . عالم الكتب بيروت .

• ابن عبد ربه . (أحمد بن محمد بن عبد ربه) .

٨١) العقد الفريد (ثمانية أجزاء) تحقيق محمد سعيد العريان . دار الفكر

• عبد الرحمن . (دكتور نصرت عبد الرحمن) .

٨٢) الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى . مكتبة الأقصى . عمان ١٤٠٣ هـ ١٩٨٢م الطبعة الثانية .

• العبد الله . (دكتور كامل العبد الله) .

٨٣) شعراء من الماضى . مدخل إلى الواقعية فى الشعر العربى . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت ١٩٦٢م .

• عبد الله . (دكتور محمد حسن عبد الله) .

٨٤) مقدمة فى النقد الأدبى . طبعة دار البحوث العلمية بالكويت ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م الطبعة الأولى .

• عتيق . (دكتور عبد العزيز عتيق) .

٨٥) تاريخ النقد الأدبى عند العرب . دار النهضة العربية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م الطبعة الرابعة .

٨٦) علم البيان ، دار النهضة العربية ١٩٧٤م .
٨٧) في النقد الأدبي . دار النهضة العربية ١٩٧٢م الطبعة الثانية .
• العسكرى (أبو هلال الحسن بن عبد الله) .
٨٨) كتاب الصناعتين . دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م الطبعة الثانية .
• العشماوى . (دكتور محمد زكى العشماوى) .
٨٩) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث . دار النهضة العربية ١٩٧٩م
• عطوان . (دكتور حسين عطوان) .
٩٠) مقدمة القصيدة العربية فى الشعر الجاهلى . دار المعارف بمصر ١٩٧٠ م .
• على . (دكتور جواد على) .
٩١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام . (الجزء الثالث) . دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٠م الطبعة الثالثة .
• النصراوى . (محمد أحمد النصراوى) .
٩٢) النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى . دار الحكمة ١٩٧٠م .
• الفاخورى . (حنا الفاخورى) .
٩٣) الحكم والأمثال . دار المعارف بمصر ١٩٦٩م الطبعة الثانية .
• فروخ . (دكتور عمر فروخ) .
٩٤) تاريخ الأدب العربى . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٨٤م الطبعة الخامسة .
• فيصل . (دكتور شكرى فيصل) .
٩٥) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام . دار العلم للملايين ١٩٨٢م الطبعة السادسة .

• ابن قتيبة . (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة) .

٩٦) أدب الكاتب . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م الطبعة الرابعة . نشر المكتبة التجارية بمصر .

٩٧) الشعر والشعراء (جزءان) تحقيق أحمد محمد شاكر ١٩٧٧م الطبعة الثالثة .

• القرشي . (أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي) .

٩٨) جمهرة أشعار العرب . تحقيق على البجاوي . دار نهضة مصر . الطبعة الأولى .

• القيسي . (دكتور نوري القيسي) .

٩٩) الطبيعة في الشعر الجاهلي . مكتبة النهضة العربية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م الطبعة الثانية .

• ابن الكلبي . (هشام بن محمد الكلبي) .

١٠٠) أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها . تحقيق أحمد زكي دار الكتب المصرية ١٩٤٦ م .

• محمد . (دكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد) .

١٠١) الشعر الجاهلي . قضايا الفنية والموضوعية . مكتبة الشباب ١٣٩٩هـ ١٩٧٩ م .

• المرزباني . (أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني) .

١٠٢) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء . تحقيق محب الدين الخطيب . المطبعة السلفية بمصر ١٣٨٥ هـ الطبعة الثانية .

• مكي . (دكتور الطاهر أحمد مكي) .

١٠٣) امرؤ القيس حياته وشعره . دار المعارف بمصر ١٩٨٥ م الطبعة الخامسة .

● ناصف . (دكتور مصطفى ناصف) .

١٠٤) قراءة ثانية لشعرنا القديم . دار الأندلس ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م
الطبعة الثانية .

● نوفل . (دكتور سيد نوفل) .

١٠٥) شعر الطبيعة فى الأدب العربى . دار المعارف بمصر ١٩٧٨ م
الطبعة الثانية .

● الهمدانى . (ابن الحائك الحسن بن أحمد بن يعقوب)

١٠٦) صفة جزيرة العرب . تحقيق محمد بن على الأكوع الحوالى .
إشراف حمد الجاسر . دار اليمامة بالرياض ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب
٧٦٧٢ / ١٩٨٩ م